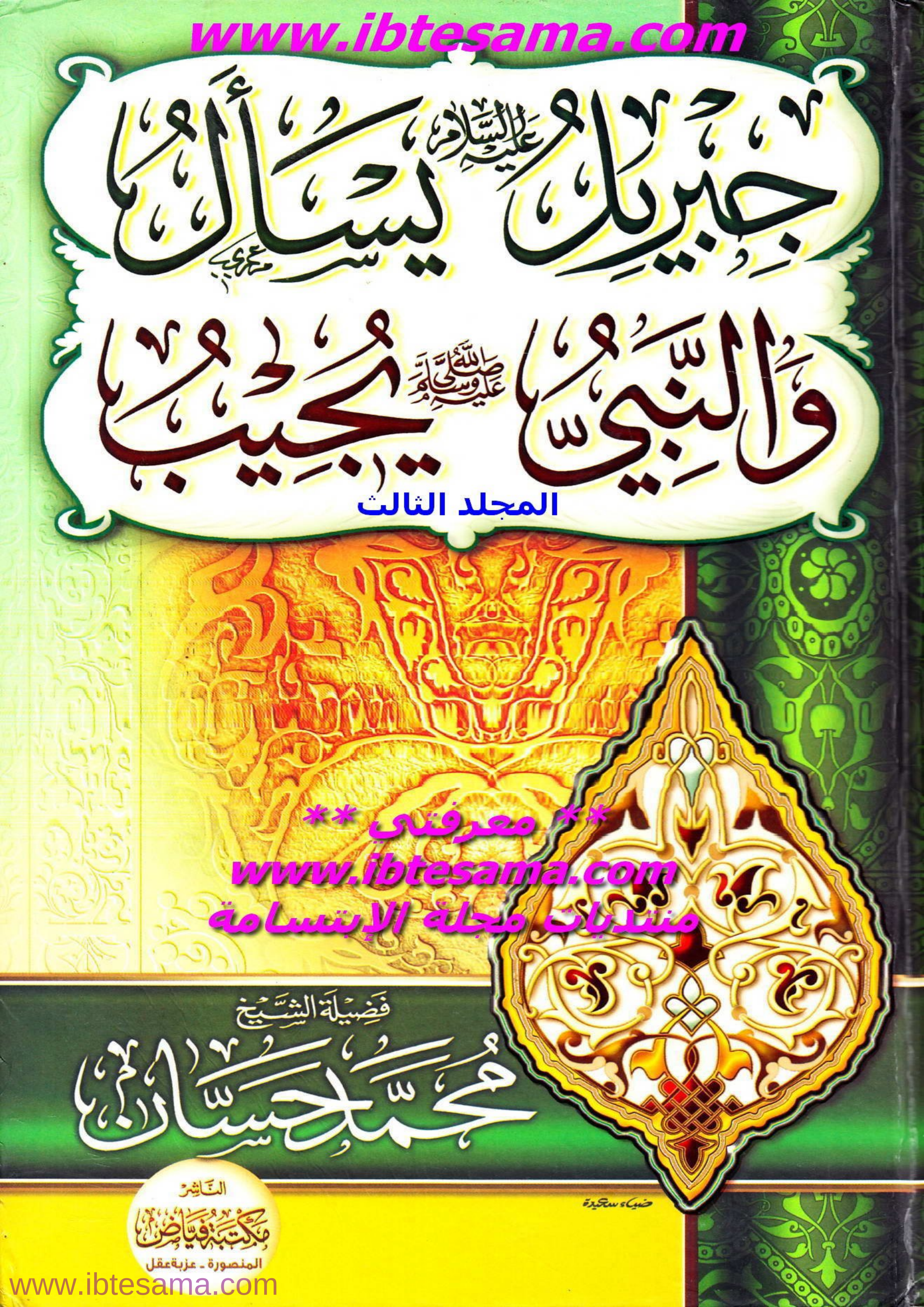


www.ibtesama.com
جبريل عليه السلام يسأل
والنبي صلى الله عليه وسلم يجيب
المجلد الثالث
** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة
فضيلة الشيخ
محمد حسان
ضياء سعيدة
الناشر
مكتبة فياض
المنصورة - عزبة عقل
www.ibtesama.com

جبريل عليه السلام يسأل
والنبي ﷺ يجيب

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠٠٩/٨٦٠٣

مكتبة
فياض للتجارة والتوزيع

المنصورة: شارع عبد الهادي - عزبة عقل

ت: ٢٢٦٧٣٩٨ / ٠٥٠

جبريل عليه السلام يسأل
والنبي صلى الله عليه وسلم يجيب

تأليف
فضيلة الشيخ
محمد بن حسان

المجلد الثالث

مكتبة
فياض للتجارة والتوزيع



رابعًا

الإيمان بالرسل

الركن الرابع من أركان الإيمان
الإيمان بالرسل

وسوف ينتظم الحديثُ في هذا الركنِ المهمِّ من أركان الإيمان في عدة مباحث::

المبحث الأول : تعريفُ النبيِّ .

النبيُّ لغةً [(١)] : مشتق من النبأ وهو الخبر ؛ قال تعالى :﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ:١، ٢] .

والنَّبِيُّ : المُخْبِرُ عن الله تعالى : وترك الهمز هو المختار ، والجمع أنبياءُ ونُبَآءُ وأنْبَاءٌ والنبيون ، والاسمُ : النبوءَةُ . ويُجمع أيضًا على نبيِّنَ وأنبياء .

وإنما سُمِّيَ النَّبِيُّ نبيًّا أو نبيئًا ؛ لأنه مُخْبِرٌ ، ومُخْبَرٌ ، أو مُنبَأٌ ، ومُنَبِّيءٌ ، فهو يُنَبَأُ عن الله ﷻ ؛ قال تعالى :﴿ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم:٣] .

وهو يُخبِرُ ويُنَبِّئُ قومَه ،أو هو مُخْبَرٌ عن الله ﷻ ، ثم هو يُخْبر قومَه ؛ قال تعالى :﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر:٤٩]، وقال تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحجر:٥١] .

وقيل بأن النبوة لفظ مشتق من النَّبْوةِ ، وهو المكان المرتفع من الأرض أو ما ارتفع وعلا من الأرض ،واشتقت من هذا المعنى ؛ لأن

---

(١) « لسان العرب » (٦/ ٤٣١٥) ، و « القاموس المحيط » (١/ ١٢١) ، و « بصائر ذوي التمييز » (٥/ ١٤) ، و « الصحاح » للجوهري (٦/ ٢٥٠٠) .

النَّبيَّ المنبأ ذو رفعة عظيمة ،ومكانة عالية في الدنيا والآخرة ؛ فالأنبياء هم أشرف خلق الله .

ولله درُّ ابن القيم رحمه الله إذ يقولُ في أول كتابه الممتع « زاد المعاد »[1] عند قوله ﷻ : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾[القصص:٦٨]

« فلقد خلق الله الخلق ،واصطفى من الخلق الأنبياء ،واصطفى من الأنبياء الرسل ؛ ثم اصطفى من الرسل أُولي العزم الخمسة نوحًا ، وإبراهيمَ ، وموسىَ ، وعيسى ، ومحمدًا ــ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ــ واصطفى من أُولي العزم الخمسة : الحبيبين الخليلين: إبراهيم ومحمدًا ﷺ؛ واصطفى محمدًا ﷺ وشَرَّفَه على جميع خلقه ﷺ » .

فالأنبياءُ هم أصحاب الرفعة العظيمة ، والمكانة العالية في الدنيا والآخرة ، وهم أشرف خلق الله ؛ فهم الأعلام التي يهتدي إليها وبها الناس ، وكان من عادة العرب أن يأتوا على مكان مرتفع من الأرض ويشعلوا عليه نارًا ليرى هذه النار كل ضارب في الصحراء على بعد ؛ فيهتدي إلى مكان النار ، فيجد القِرَى ؛ الضيافة والكرام وكذلك الأنبياء ؛ فهم الأعلام التي يهتدي بها الناس ، فتصلح دنياهم وآخرتهم ؛ هذا هو المعنى اللغوي لكلمة النَّبيِّ .

والنبوة شرعًا : هي إعلام الله تعالى من اجتبى من الناس لرفعته ، والإعلاء من شأنه ، بإنبائه بالوحي الذي أراده له أو له ولغيره .

---

(١) « زاد المعاد » (١/ ٤٤، ٤٥) بتصرف .

المبحث الثاني : معنى الرَّسُول .

الإِرْسَالُ فِي اللُّغَةِ : هو التوجيه ؛ أُرْسِلُ رسولًا إلى فلان من الناس ، أي: أوجه رسولاً إلى فلان من الناس ؛ في مهمةٍ ما ؛ فهذا في اللغة يسمَّى رسولاً ؛ كما في قول الله تعالى ــ حكاية عن بلقيس ملكة سبأ : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل:٣٥] .

والمرسلون في الآية ليسوا هم الأنبياء ، وإنما هم الرسل الذين سيعودون بالرسالة التي حُمِّلُوا بها من قِبَل هذه الملكة .

إذًا الرسول هو الموجه أو المبعوث لأداء مهمة من المهمات ،وقد يريدون بالرسول ذلك الشخص الذي يُتابع الأخبار لمن بعثه ؛ فهذا يسمَّى أيضًا في اللغة رسولاً ؛كما في قول العرب :جاءت الإبل رَسْلاً ؛ أي : متتابعة ؛ وكما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ [المؤمنون:٤٤] ، أي : متتابعين .

وهم مبعوثون برسالةٍ معينة من الله ﷻ أُمروا بتبليغها إلى الناس ؛ فالفرق بين رسول والرسول هو : أن الرسول المعرَّف بالألف واللام هو المكلَّف بوحي من الله ﷻ وأُمرَ أن يبلغ هذا الوحيَ إلى قومه ،أما رسولٌ فهو الذي كُلِّفَ بأداء مهمة معينة بين الناس ؛ فهذا في اللغة أيضًا رسول [1] .

المبحث الثالث : الفرق بين النبيّ والرَّسُول :

هناك من أهل العلم ــ وهم كثرة ــ من قال : بأنه لا فرق بين الرسول والنَّبيِّ ، وهذا قولٌ غير صحيح .

---

(١) انظر في هذا المبحث : « الرسل والرسالات » للأشقر .

فالنبيُّ : هو الذي بعثه الله ـ تعالى ـ بشريعة ، وأَمَرَهُ ـ تعالى ـ بتبليغها لأتباعه .

وأكثر أهل العلم على أن الشريعة التي أُمر بتبليغها شريعة من قبله ؛ كما قال شيخ الإسلام [(١)].

والرَّسُول : هو الذي بعثه الله تبارك وتعالى بشريعة يدعو جميع الناس في وقته إليها ، سواء المخالفين أو الموافقين . سواء كانت شريعة جديدة أو كانت شريعة من قبله ؛ فإن يوسف كان رسولاً ،وكان على ملة إبراهيم ،وداود وسليمان كانا رسولين ،وكانا على شريعة التوراة [(٢)].

وثَمَّ آراء أُخر لا تستند إلى حجة قوية ،والأقرب للصواب ما ذكرناه [(٣)].

والشائع عند العلماء أن الرسول أعمُّ من النبيِّ ؛ فالرسول هو من أُوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه ، والنبيُّ هو من أُوحي إليه ،ولم يُؤمر بالبلاغ ،وعلى ذلك فكلُّ رسول نبي ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً [(٤)].

وهذا القول ليس دقيقًا !! .

فهل يُوحي الله لنبيٍّ من الأنبياء شرعًا ليُكْتَم هذا الوحي في صدر هذا النَّبِيِّ وحده دون أن يبلغه لقومه ؟ !

فما قيمة الوحي إذًا ؟! فهذا القول غير دقيق للأسباب الآتية :

---

(١) « النبوات » لابن تيمية (٢٥٥، ٢٥٦) .

(٢) انظر : المصدر السابق .

(٣) ومن أراد الاستزادة ؛ فليراجع أقوال المفسرين عند آية سورة الحج رقم (٥٢).

(٤) « شرح العقيدة الطحاوية » (١٦٧) و « لوامع الأنوار البهية » للسفاريني (١/ ٤٩) .

أولاً : لقد بيَّن الله ﷻ أنه أرسل الأنبياء كما أرسل الرسل ؛ فقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ [الحج:٥٢] ؛ ففرَّق بين النَّبيِّ والرسول ؛ ومحال أن تأتي كلمةٌ في القرآن بغير هدف أو وظيفة أو فائدة ؛ فهو كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ والله ﷻ يفرِّق هنا بينهما ، وإن كان الفرق بينهما هو التبليغ ؛ فالإرسال يقتضي من النَّبيِّ البلاغ .

ثانيًا : ترك البلاغ الذي أوحاه الله لنبيٍّ كتمان لوحي الله ، وما أرسل الله ﷻ لنبيٍّ بوحي ليكتمه عن الناس ؛ وإلا فما الغاية من إرسال هذا النَّبيِّ ،وما كان الله ﷻ لينزل وحيه ليُكْتم في صدر رجل واحد ؛حتى ولو كان نبيًّا من أنبياء الله ، ثم يموت هذا النَّبيُّ ،ويموت هذا العِلْم ، وهذا الوحي الذي أوحاه الله ﷻ إليه !

ثالثًا : إن النَّبيَّ ﷺ أخبرنا أن جميع الأنبياء أرسلوا إلى أقوامهم فَبلَّغُوا أقوامهم ، فمِنْ هؤلاء الأقوام مَنْ آمن بهؤلاء الأنبياء ، ومنهم من لم يؤمن ؛ بل ومن الأنبياء مَنْ لم يؤمن به إلا الرجلُ والرجلان .

لما رواه البخاريُّ ومسلمٌ من حديث ابن عباس ﵄ أنه ﷺ قَالَ : «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلاَنِ ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ »[1] .

وهذا من أعظم الأدلة على أن جميع الأنبياء بلغوا ما أُوحيَ إليهم ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الطب ، باب من لم يرق (٥٧٥٢) ، وانظر أطرافه (٣٤١٠) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٢٢٠) .

فكان النَّبيُّ يُبعث إلى قومه فيؤمن به عددٌ كبيرٌ من القوم ، وكان النَّبيُّ يُبعث إلى قومه فيؤمن معه الرَّجل والرَّجُلان .

وفي « صحيح البخاري »[١] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ ، فَيَقُولُ الله تَعَالَى : هَلْ بَلَّغْتَ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، أَيْ : رَبِّ ؛ فَيَقُولُ لأُمَّتِهِ : هَلْ بَلَّغَكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : لاَ مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ ؛ فَيَقُولُ لِنُوحٍ : مَنْ يَشْهَدُ لَكَ ؟ فَيَقُولُ : مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣] .

فدلَّ هذا الحديث الصحيح على أن الأنبياء مأمورون بالبلاغ ، وأنهم يتفاوتون بلا نزاع في مدى استجابة أقوامهم إليهم ؛ فهذا نبيُّ الله نوح عليه السلام ظلَّ يدعو ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وينص القرآن على أنه ما آمن معه إلا قليل ؛ لكن انظر إلى عُمرِ النَّبيِّ ﷺ الدَّعوي ؛ بل انظر إلى عمره الكُلِّي ؛ لقد تُوفي المصطفى ﷺ في الثالثة والستين من عمره ؛ لكن انظر إلى البركة في عمره ﷺ ؛ لقد آمن به ملايين كثيرة من الأمة ؛ بل وما من أحدٍ يؤمن بالله ﷻ إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها إلا وسيأتي يوم القيامة في ميزان المصطفى ﷺ . نسأل الله أن يجزي عنا نبيَّنا محمدًا ﷺ خير ما جَزَى نبيًّا عن أمته ، وأن يجزي عنا جميع الأنبياء والرسل خير ما جَزَى الصالحين المصلحين .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ [هود:٢٥] (٣٣٣٩) ، وانظر أطرافه هناك .

فهؤلاء هم كواكب البشر ، ونجوم الدنيا ؛ هؤلاء هم مصابيح الدجى ، وأئمة الهدى ؛ فالأنبياء صفوةُ خَلْقِ الله ، والرُّسل هم صفوةُ الأنبياء .

ومن التعريفات الدقيقة ما قاله الإمامُ الألوسي [1] : « الرسول هو الذي أَوْحَى الله إليه بشرعٍ جديدٍ . والنَّبيُّ هو المبعوث لتقرير شرع النَّبيِّ الذي بُعِثَ قبله » .

لأن الشرعَ يختلف في جزئياته من نبيٍّ لآخر ؛حسب حالة الأقوام الذين بُعث فيهم هذا النَّبيُّ ، فلُبُّ القضية التي بُعث لأجلها نبيُّ الله لوط ﷺ بعد التوحيد هي أنه بُعث ليعالج هذا المرض العضال ،وهذه الكبيرة ، ألا وهي : أن يأتي الرجالُ الرجالَ شهوة من دون النساء !

وأرجو ألَّا يُسمَّى هذا العمل لواطًا ،وهذه من النفائس التي وقف عندها بعض أهل العلم من المحققين ؛ حتى لا نسيء إلى نبيِّ الله لوط .

والنَّبيُّ ﷺ ما سَمَّي هذا الفعل لواطًا قط ، وإنما هو: « عمل قوم لوط » ، وإن كنت سترى هذا الاسم مدوَّنًا في كتب الفقه ، أو في باب من أبوابها!!

ومن الأدلة الجميلة أيضًا أن قومًا كبني إسرائيل بعث الله فيهم عددًا كبيرًا جدًّا من الأنبياء ؛ كما في البخاريِّ ومسلم [2] من حديث أبي هُرَيْرَةَ

---

(١) « تفسير الألوسي » (١٧/ ١٥٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٥٥) ، ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء ، الأول فالأول (١٨٤٢) .

ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ ؛ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ ، وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي » .

وأنبياء بني إسرائيل كلهم مبعوثون بالتوراة التي بعث الله بها موسى عليه السلام وكانوا مأمورين بالتبليغ ؛ قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٤٦] .

فداود ، وسليمان ، وزكريا ، ويحيى ـ عليهم السلام جميعًا ـ بُعثوا بشريعة موسى عليه السلام ،وكانوا يسوسون ويحكمون بني إسرائيل بشريعة موسى عليه السلام .

المبحث الرابع: الإيمان بالأنبياء والرسل أصلٌ وركنٌ من أركان الإيمان .

كما في الحديث الذي نحن بصدده ؛ ألا وهو حديث جبريل عليه السلام حين سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عن الإِيمَانِ ؟ فَقَالَ : « أَنْ تُؤْمِنَ بِالله ، وَمَلاَئِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ».

بل قال تعالى : ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٦] .

فالإيمان بجميع الأنبياء والرسل ركنٌ من أركان الإيمان .

فلو آمن أحدٌ بنبيِّ الله محمد ﷺ وكفر بنبيِّ الله عيسى ﷺ فقد كَفَرَ وأشرك ، وإيمانه بنبيِّ الله محمد ﷺ لا يُقبل عند الله ﷻ ؛ بل إنه محكوم عليه بالكفر لكفره بنبيِّ الله عيسى ﷺ ، ومن ثَمَّ فمن آمن بنبيِّ الله عيسى وكفر بنبيِّ الله محمد ﷺ ؛ فهو مشركٌ كافرٌ كُفرًا يخرجه عن الملة كلِّها ؛ لأنه من كَفَرَ بنبيٍّ واحدٍ فقد كَفَرَ بجميع الأنبياء والمرسلين ، وهذا من عظمة دين محمد ﷺ ؛ فلا يصحُّ لك إيمانٌ حتى تؤمن بمحمد ﷺ ، وبعيسى رسول الله ؛ لأنه يجب عليك أن تؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين ؛ بل إنه لا فرق في أصل الإيمان ـ ليس في التفضيل ـ بين نبيٍّ وآخر، وإلا فإن التفضيل في الأصل ثابت . ولكن إذا فرَّقت بينهم في أصل الإيمان فلا يصح إيمانك بالله ﷻ: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾[البقرة:٢٨٥] .

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[النساء:١٣٦] ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾[النساء: ١٥٠، ١٥١] .

وقال الإمام القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى [١] : « نَصَّ سبحانه على أن التفريق بين الله ورسله كفر ؛ وإنما كان كفرًا ؛ لأن الله فرض على الناس أن يعبدوه بما شرعه على ألسنة الرسل ؛ فإذا جحد الناس الرسل ردُّوا عليهم

(١) في « تفسيره » (لسورة النساء : ١٥٠) .

شرائعهم ولم يقبلوها منهم ؛ فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أمروا بالتزامها ، فكان كجحد الصانع سبحانه ، وجحد الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة ، والعبودية ، وكذلك التفريق بين رسله في الإيمان بهم كفر » ا. هـ .

إذًا الكفر بنبيٍّ واحدٍ أو رسولٍ واحدٍ من الأنبياء أو الرسل جميعًا كفر بجميع الأنبياء .

وتدبَّر معي هذه الأدلة التي أوصل لها الآن :

لما بعث الله نوحًا عليه السلام إلى قومه فآمن به مَنْ آمن ،وكذَّب به مَنْ كذَّبَ ، وكَفَرَ به مَنْ كَفَرَ ، فهذا الذي كَفَرَ بنبي الله نوح ﷺ ، هل رأى نبيًّا غير نبيِّ الله نوح عليه السلام ؟ وهل بَعث الله له نبيًّا آخر غير نوح عليه السلام ؟.

والجواب : لا ، ومع ذلك قال الله ﷻ في هؤلاء القوم الذين كذَّبوا نبيَّ الله نوحًا : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء:١٠٥] .

فمع أنهم لم يكذِّبوا إلا نوحًا عليه السلام ، لكن جعل الله تكذيبهم لنبيٍّ واحدٍ من أنبيائهم تكذيبًا لجميع الأنبياء .

قال الله تعالى في قوم عاد : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء:١٢٣] ، مع أنهم لم يكذِّبوا إلا هودًا عليه السلام .

وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء:١٤١] ، مع أنهم لم يكذِّبوا إلا صالحًا عليه السلام ، وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء:١٦٠] ، مع أنهم لم يكذِّبوا إلا لوطًا عليه السلام .

فهكذا يبين الله ـ تبارك وتعالى ـ أن مَنْ كذَّب نبيًّا أو كَفَرَ بنبيٍّ واحد ؛ فكأنما كَفَرَ بجميع الأنبياء والرسل ؛ أي : من حيث أصل الإيمان بهم جميعًا ؛ فقال تعالى : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾

[البقرة:١٣٦]

ثم بيَّنَ أن مَنْ كان على هذا المعتقد فقد اهتدى ،وقد وُفِّقَ إلى السبيلِ السويِّ والصراط المستقيم ؛ فقد قال تعالى بعدها : ﴿ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ ﴾ [البقرة:١٣٧] .

والذي يخالف هذا السبيل فقد ضَلَّ وغَوَى .

وقال سبحانه بعدها : ﴿ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [البقرة:١٣٧] .

وقد مَدَحَ الله رسولَ هذه الأمة والمؤمنين الذين اتَّبعوه ،والذين صاروا على دَربه في إيمانهم بجميع إخوانهم من الأنبياء والمرسلين ، وبعدم تفريقهم بين النبيين والمرسلين ؛ فقال سبحانه : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة:٢٨٥] .

وذمَّ الله أهل الكتاب لإيمانهم ببعض الرسل ،وكُفْرِهِم بالبعض الآخر ؛

فقال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

[البقرة:٨٩ـ ٩١]

فاليهود لا يؤمنون بعيسى ــ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ــ ويقولون بأنه ولد زنا ! ويقولون فيه قولاً منكرًا ــ عليهم لعائن الله المتوالية ــ وكذلك لا يؤمن اليهود بمحمد ﷺ،وكذلك النَّصارى لا يؤمنون بمحمد ﷺ،ويقولون في الله ﷻ قولًا شنيعًا منكرًا ؛ تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا .

أما نحن الموحدين ؛ فنؤمن بجميع الأنبياء والرسل ،ما علمنا منهم ، وما لم نعلم .

﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُم .. ﴾؛ فنسأل الله أن يجعلنا منهم في جنَّات النعيم ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

*****

إقامة الحجة على الناس بإرسال الرسل

يبين الله أنه ما من أمة على وجهِ هذه الأرض قد خلت إلا وقد بَعَثَ الله فيها من الأنبياء والرسل ما بعث ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر:٢٤] ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء:١٥] .

إذ لابد من إقامة الحجة على الخلق .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٢، ١٧٣] .

يقول الله تعالى : ﴿ مِنْ بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ ولم يقل : « مِن آدم » ؛ لأن ذلك كان قبل خلق الخلق على وجه البسيطة ، وقال : ﴿ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ ، ولم يقل : « من ظهره » ، وقال : ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ولم يقل : « ذريته » .

فلقد أخذ الله الميثاق على الخلق ، وأقروا له بالوحدانية ،ومع ذلك فرحمة منه ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ بخلْقِهِ أرسل الأنبياءَ والرسل ليذكِّروهم بهذا الميثاق الأول ؛ فلقد وعد الله سبحانه ـ وهو العدل اللطيف الخبير ـ ألا يعذِّب أمةً من الأمم ما خلا فيها نذير ،وهنا وقف أهل العلم أمام ما يسمَّى بأهل الفترة ،وهم قومٌ لم يبلغهم شيء عن دين الله ﷻ ، ولم يُرْسَل

فيهم رسول أو نبيٌّ ، وهؤلاء - الراجح فيهم من آراء عديدة للعلماء : أن أمرهم لله ﷻ إن شاء عاقبهم ، وإن شاء عفا عنهم [(١)] .

والله سبحانه وتعالى لو عذَّب أهل سماواته وأرضه لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[الأنبياء:٢٣] .

فالكلُّ عبيده في مُلْكِهِ ،والمالك يتصرف في مُلْكِهِ كيف يشاء ؛ فالله سبحانه وتعالى مالك الملك ، وملك الملوك ﷻ ، ومع ذلك فالله ﷻ لا يعذِّب خَلْقَه حتى يقيم عليهم الحجة عن طريق الأنبياء والرسل .

قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[فاطر:٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[الإسراء:١٥] .

فلقد شاء الله ، واقتضت حكمته أن يرسل في كلِّ أمة نذيرًا ،ولم يرسل رسولا إلى البشرية كافة إلا رسول الله ﷺ .

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء:١٠٧] .

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما [(٢)] : « مَنْ آمَنَ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، كُتب له الرحمة

---

(١) وقد ورد في شأنهم حديث رواه أحمد (٤/ ٢٤) ، والطبراني في « الكبير » (٨٤١) (١/ ٢٨٧) ، وابن حبان في « صحيحه » (٧٣٥٧) ، والبيهقي في « الاعتقاد » (١٦٩) ،والبزار في « مسنده » (٢١٧٤) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٩٠٠) ، وصحَّحه الألباني في « الصحيحة » (١٤٣٤) ، و « صحيح الجامع » (٨٨١) وانظر أقوال العلماء عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[الإسراء:١٥] ، وانظر : « دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب » للشنقيطي رحمه الله .

(٢) أخرجه الطبريُّ في « تفسيره » (لسورة الأنبياء / ١٠٧) ،وانظر : « زاد المسير » (٥/ ٣٩٨) ، و« تفسير ابن كثير» (٩/ ٤٦٠، ٤٦١) ط أولاد الشيخ .

في الدنيا والآخرة ،ومَنْ لم يؤمن بالله ورسولِهِ عُوفي مما أصاب الأُمَم من الخَسْف والقَذْف » .

فكان رسول الله ﷺ رحمةً للبرِّ والفاجر ،والمؤمن والكافر ،مَنْ آمن به كتبَ له الرحمة في الدنيا والآخرة ، وَمَنْ كَفَرَ به أُمِّن من عذاب الدنيا ، وأُجِّل عذابه للآخرة ؛ يقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال:٣٣] .

فرسالةُ النبيِّ ﷺ ليست جزئية ،ولا عنصرية ، ولا وطنية ، ولا محلية ؛ بل رسالة النبيِّ ﷺ رسالة عالمية للبشرية كلِّها . وللناس كافة ، أبيضهم وأحمرهم ، ومؤمنهم وكافرهم ،وبارهم وفاجرهم .

فلم يرسل الله رسولاً للبشرية كافة إلا المصطفى ﷺ .

أمَّا عددُ الأنبياء والرسل ؛ فكما في الحديث الذي رواه أحمد [(١)] ، وصحَّح إسناده شيخنا الألباني في « مشكاة المصابيح » . قال ﷺ في جوابه على أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ : يَا رَسُولَ الله كَمْ عدد الأنبياء ؟ فَقَالَ الرسولُ ﷺ : « مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا » فقال أبو ذر : كَمْ عَددُ الرسلِ ؟ فَقَالَ ﷺ :« الرُّسُلُ مِنْهُمْ ثَلاثُمِائَةٍ وَثَلاثَةَ عَشَرَ : جَمٌّ غَفِيرٌ » .

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٨ ، ١٧٩) ، و ابن حبان في « صحيحه » (٣٦١) ، وأبونعيم في «الحلية» (١/ ١٦٦ ، ١٦٨) ، والحاكم (٢/ ٥٩٧) من طرقٍ عن أبي ذر مرفوعًا ، وصححه لغيره العلامة الألباني في « مشكاة المصابيح » (٥٧٣٧) (٣/ ٢٤٦).
وورد عن أبي أمامة بإسنادٍ حسنٍ عند الحاكم (٢/ ٢٦٢) ،وقال : «صحيح على شرط مسلم» ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (١/ ٥١٧) بذكرِ عددِ الرسل فقط . وانظر : « الصحيحة » (٦/ ١/ ٣٦٢) .

وهذا الحديث من الأحاديث الدالة على وجود فارق بين النبيِّ والرسول .

هؤلاء الكرام من الأنبياء والرسل هم صفوة الخلق في البشرية من لدن آدم إلى آخر رجل ستقوم عليه القيامة ؛ قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص:٦٨] ، وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج:٧٥] .

هؤلاء الصفوة منهم مَنْ قَصَّ الله ﷻ علينا خبره ،ومنهم من لم يقص علينا خبَره ؛ قال تعالى : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء:١٦٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر:٧٨] .

وهؤلاء هم الصفوة المختارة بالرسالة والنبوة .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص:٤٧] ، وقال سبحانه عنهم : ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ﴾ [مريم:٥٨] ، وقال جلَّ وَعَلاَ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ [الأنعام:٨٩] .

وكان إرسالهم رحمةً للعباد ،ورأفةً بهم ،وشفقةً عليهم .

قال تعالى : ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الدخان:٥،٦] .

وقال الله سبحانه ـ مبينًا كثرة عدد الأنبياء والرسل : ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[الزخرف:٦] ، وقال سبحانه : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[فاطر:٢٤] .

إذًا فهناك من الرسل من لم يذكر الله اسمه في القرآن ، وهناك من الأنبياء من ذَكَرَ لنا النَّبيُّ ﷺ من شأنه خبرًا ؛ فالله سبحانه وتعالى لم يذكر في قرآنه إلا خمسة وعشرين رسولاً ونبيًّا فقط ؛ كل الأسماء التي وردت في القرآن من ١٢٤٠٠٠ نبيٍّ ، ومنهم ٣١٣ رسول لم يذكر منهم إلا ٢٥ رسولاً ، وهم : آدم ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وإسماعيل ،وإدريس ، وذو الكفل ، وأيوب ، وإلياس ، وإسحاق ، ويعقوب ، ويوسف ، وداود ، وسليمان ، وهارون ، وزكريا ، ويحيى ، واليسع ، ويونس ، ولوط ، وآخرهم وخاتمهم نبينا محمد ـ صلى الله عليهم جميعًا وسلم تسليمًا كثيرًا ـ فهؤلاء الذين ذكروا بأسمائهم في القرآن الكريم .

ومن هؤلاء الأنبياء من أشار الله إليهم في القرآن إشارة مجملة دون التفصيل ، ويجب أن نؤمن بجميع الرسل على سبيل الإجمال ،ونؤمن بهم على سبيل التفصيل الذي بيَّنه القرآن وبينته السنة ،ومن هؤلاء الأنبياء : الأسباط [1] أخوة يوسف عليه السلام أشير إليهم في القرآن على أنهم

---

(١) هناك خلاف بين أهل العلم في نبوة الأسباط ، انظر : «تفسير ابن كثير رحمه الله» عند قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾[يوسف:٧] ، وكذلك القرطبي رحمه الله في «تفسيره».

من الأنبياء ، مع أن القرآن لم يشر بالتفصيل إلا إلى يوسف عليه السلام ونحن نؤمن بالأسباط على سبيل الإجمال ،مع أن الله تعالى لم يسمِّ منهم إلا يوسف عليه السلام ؛ قال تعالى آمرًا النَّبيَّ والذين آمنوا معه ؛ فقال : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ ﴾ [البقرة:١٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَـٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:١٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٤٦] .

فهذا نبيٌّ ذكره القرآن لم نعرف اسمه .

وأيضًا هناك من الأنبياء من لم يذكر القرآن عنه شيئًا ،وإنما ذكرت لنا سنة النَّبيِّ ﷺ عنه شيئًا ؛ فهذا مبحثٌ مهم .

أسأل الله ﷻ أن يفهمنا ، وأن يعلمنا ، وأن يرزقنا اتباع هؤلاء الصفوة من خلقِ الله ، وأن يجمعنا بهم في جنات النعيم .

فمن الأنبياء الذين لم يذكرهم القرآن ، وعَرَّف لنا النَّبيُّ ﷺ في سنته بعضًا منهم ؛ من هؤلاء : النَّبيُّ يوشع بن نون عليه السلام .

رَوَى البخاريُّ ومسلمٌ[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبيَّ ﷺ قال : « غزَا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فرض الخمس ، باب قول النبي ﷺ : « أحلت لكم الغنائم » (٣١٢٤) ، وانظر طرفه هناك ، ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة (١٧٤٧) .

نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ : لاَ يَتْبَعْنِي رَجُلٌ قَدْ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا ، وَلاَ أَحَدٌ قَدْ بَنَى بُنْيَانًا وَلَمَّا يَرْفَعْ سُقُفَهَا ، وَلاَ آخَرُ قَدِ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ مُنْتَظِرٌ وِلاَدَهَا (*)، قَالَ : فَغَزَا فَأَدْنَى

(*) كل هذا تصفية للنفس من مشاغل الدنيا ومتعلقاتها ، فلو خرج رجل وهو يترك عروسًا جميلة ، ولم يبن بها ، سيخرج وهو منشغل . فهذه طبيعة البشر ؛ فلا يدعي أحد الملائكية فلست ملكًا ولا نبيًّا ؛ بل نحن بشر ، لنا مشاعر وأحاسيس وطبائع وانفعالات وغرائز تتحكم فينا ، شئنا أم أبينا ، فالرجل له ميل غريزي للمرأة ، لا تظن أن أحدًا من الناس يدعي أنه أعلى من هذا المستوى الغريزي ، فنحن نكذِّبُ من يدَّعي ذلك ؛ لأنه لا يوجد على سطح الأرض كلها من هو أورع من رسول الله ﷺ، وهو الذي قال : « وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي ، فَلَيْسَ مِنِّي » (*) .
فالميل للمرأة فطري غريزي ؛ لأن الله خلق المرأة من الرجل ، فخلق حواء من آدم ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم:٢١] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾[النساء:١] . فلو خرج رجل للجهاد وقد عقد على امرأة جميلة حسناء ولم يبن بها خرج وهو منشغل ، لن يخرج بنفسية المجاهد الذي يبذل نفسه في سبيل الله تعالى .
والرجل الذي بنى بيتًا لأولاده أو لأهله ، ولم يرفع سقفه ، والذي اشترى غنمًا ، وفي هذا إشارة إلى التجارة وإلى الدنيا وإلى الأموال ،وهذا الحديث إشارة إلى تصفية القلب قبل الخروج للجهاد ، فلا يمكن أبدًا لرجل أن يجاهد في سبيل الله ﷻ بماله ونفسه إلا أن يجاهد نفسه ابتداءً. قال رسول الله ﷺ : « الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ » (**) . كيف يبخل إنسان بالمال ثم يبذل نفسه في سبيل الله تعالى ؟كيف يعجز مسلم أن يصلي الفجر لله أو أن يقيم الليل ثم يريد بعد ذلك أن يبذل نفسه لله في الجهاد ؟!! .
لا بد أن تتربى نفسه ابتداءً على طاعة الله وأوامره ليصبح أمر النفس بالجهاد ميسورًا ،ليس معنى ذلك إذا داهم العدو أرضًا من أرض المسلمين أن يعزف أهل هذه المحلة عن دفع هذا العدو الصائل بحجة أنهم لم يزالوا بعدُ تتربى نفوسهم أو قلوبهم على طاعة الله ﷻ .
لا بد من هذا التوضيح ؛ لأن البعض يعتقد أننا بذلك نعطل الجهاد ،ولكن هناك جهاد الدفع وجهاد الطلب ،وجهاد الطلب يحتاج إلى إعداد نفس .
أما جهاد الدفع ؛ فواجب على المسلمين جميعًا في حالة ما إذا داهم العدو الصائل أرض المسلمين .

(*) جزءٌ من حديث في البخاري (٥٠٦٣) ،ومسلم (١٤٠١) .
(**) أخرجه الترمذي كتاب فضائل الجهاد ، باب ما جاء في فضل من مات مرابطًا (١٦٢١) وقال: «حديث فضالة حديث حسن صحيح» ، وأحمد (٦/ ٢٠ــ٢٢) ، وابن حبان في «صحيحه» (٤٦٢٤ ، ٤٧٠٦ ، ٤٨٦٢) ، والحاكم (١/ ٥٤) ، وقال : «على شرط مسلم» ووافقه الذهبي ، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٥٤٩) ، و«صحيح الجامع» (٦٦٧٩) .

لِلْقَرْيَةِ حِينَ صَلاَةِ الْعَصْرِ ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ : أَنْتِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ ، اللَّهُمَّ ! احْبِسْهَا عَلَيَّ شَيْئًا، فَحُبِسَتْ عَلَيْهِ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ » .

هذه معجزة لنبيٍّ من الأنبياء ، وهو يوشع بن نون ؛كما في الحديث الذي رواه أحمد[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ عَلَى بَشَرٍ إِلاَّ لِيُوشَعَ لَيَالِيَ سَارَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ » .

ومنهم من لم يذكر اسمه في السنة ؛ كالنبيِّ الذي قرصته نملة .

روى البخاريُّ ومسلم[2] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يَقُولُ : « قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ » .

وكذلك من هؤلاء : النبيُّ الذي يخفف العقوبة على قومه بعد ما دعا عليهم .

رَوَى أحمد والترمذيُّ وابن حبان وغيرهم[3] عن صهيب الرومي رضي الله عنه

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٥) ، والطحاوي في « مشكل الآثار » (٢/ ١٠) (١٠٦٩، ١٠٧٠) ، والخطيب في « التاريخ » (٧/ ٣٤، ٣٥) ، قال الحافظ في « الفتح »(٦/ ٢٥٥) : « رجال إسناده محتج بهم في الصحيح » ، وقال ابن كثير في « البداية والنهاية » : « هو على شرط البخاري » .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب (١٥٣) ، حديث رقم (٣٠١٩) ،وانظر طرفه هناك ،ومسلم ،كتاب السلام ، باب النهي عن قتل النمل (٢٢٤١) .

(٣) أخرجه أحمد ،واللفظ له (٦/ ١٦) ،(٤/ ٣٣٣) ،والترمذي ،كتاب تفسير القرآن ، باب تابع ٧٦(٣٣٤٠) ،والدارمي ـ مختصرًا على الدعاء ـ (٢٤٤١) ،وابن حبان (١٩٧٥) ، والنسائي في «الكبرى» (١٠٤٥٠) ،وابن أبي شيبة في « مصنفه » (١٠/ ٣١٩) ،والبيهقي في «الكبرى»

قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا صَلَّى هَمَسَ شَيْئاً لاَ أَفْهَمُهُ، وَلاَ يُخْبِرُنَا بِهِ، قَالَ: « أَفَطِنْتُمْ لِي؟ »، قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: « إِنِّي ذَكَرْتُ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ أُعْطِيَ جُنُودًا مِنْ قَوْمِهِ؛ فَقَالَ مَنْ يُكَافِئُ هَؤُلاَءِ؟ أَوْ مَنْ يَقُومُ لِهَؤُلاَءِ؟ أَوْ غَيْرَهَا مِنَ الْكَلاَمِ، فَأُوحِيَ إِلَيْهِ أَنِ اخْتَرْ لِقَوْمِكَ إِحْدَى ثَلاَثٍ: إِمَّا أَنْ نُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، أَوِ الْجُوعَ، أَوِ الْمَوْتَ، فَاسْتَشَارَ قَوْمَهُ فِي ذَلِكَ » فَقَالُوا: أَنْتَ نَبِيُّ الله فَكُلُّ ذَلِكَ إِلَيْكَ، وَخِرْ لَنَا؛ فَقَامَ إِلَى الصَّلاَةِ (وَكَانُوا إِذَا فَزِعُوا فَزِعُوا إِلَى الصَّلاَةِ) فَصَلَّى مَا شَاءَ الله، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: « أَيْ رَبِّ أَمَّا عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِهِمْ فَلاَ، أَوِ الْجُوعُ فَلاَ، وَلَكِنِ الْمَوْتُ، فَسُلِّطَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتُ، فَمَاتَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفاً، فَهَمْسِي الَّذِي تَرَوْنَ أَنِّي أَقُولُ: اللَّهُمَّ بِكَ أُقَاتِلُ، وَبِكَ أُصَاوِلُ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِالله ».

وكذلك: ملكان من الملائكة يشبهان نبين من الأنبياء:

روى أحمد [(١)] من حديث سَفِينَةَ مَوْلَى رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: « أَلاَ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ حَذَّرَ الدَّجَّالَ أُمَّتَهُ، هُوَ أَعْوَرُ عَيْنُهُ الْيُسْرَى، بِعَيْنِهِ الْيُمْنَى ظُفْرَةٌ غَلِيظَةٌ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ، يَخْرُجُ مَعَهُ وَادِيَانِ، أَحَدُهُمَا: جَنَّةٌ، وَالآخَرُ: نَارٌ، فَنَارُهُ جَنَّةٌ، وَجَنَّتُهُ نَارٌ،

= (٩/ ١٥٣)، وقال الشيخ شعيب في « تخريج المسند »: « إسناده صحيح على شرط مسلم ». وصحّحه الشيخ الألباني في « صحيح سنن الترمذي ».

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢١)، وابن أبي شيبة (١٧/ ٣١٧)، والطبراني في « المعجم الكبير » (٦٤٤٥)، والطيالسي (١١٠٦)، وابن عدي في « الكامل » (٢/ ٤٤٠)، وابن عساكر (٢/ ٢٢٩) بسند حسن، وقال الهيثمي في « المجمع » (٧/ ٢٩١): « رواه أحمد والطبراني، واللفظ له، ورجاله ثقات، وفي بعضهم كلام لا يضر »، وقال الألباني في « قصة المسيح الدجال » (٧٤): « وإسناده حسن في الشواهد »، وقال ابن كثير في « النهاية » (١/ ١٢٤): « إسناده لا بأس به ».

مَعَهُ مَلَكَانِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ ، يُشْبِهَانِ نَبِيَّيْنِ مِنَ الأَنْبِيَاءِ لَوْ شِئْتُ سَمَّيْتُهُمَا بِأَسْمَائِهِمَا ، وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمَا ، وَاحِدٌ مِنْهُمَا عَنْ يَمِينِهِ ، وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ ، وَذَلِكَ فِتْنَةٌ ... » الحديث.

وكذلك روى مسلم [١] من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قَالَ : « كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ ؛ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ ».

وفي رواية لأحمد من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه : « كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ فَمَنْ وَافَقَ عِلْمَهُ فَهُوَ عِلْمُهُ ».

وكذلك في « الصَّحِيحَيْنِ » [٢] عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسولِ الله ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا ضَرَبَهُ قَوْمُهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ ، وَيَقُولُ : « ربِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي ، فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ».

وهناك رجال صالحون مختلف في نبوتهم .

من هؤلاء :ذو القرنين ، وقصته مشهورة في سورة الكهف ،وبعد بحثٍ طويلٍ أقولُ :لا ينبغي لأحدٍ يحترم البحث والعقل أن يجزم بنبوة ذي القرنين .

فقد روى أبو داود والحاكم [٣] عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أن النَّبيَّ ﷺ قَالَ :

---

(١) أخرجه مسلم ،كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (٥٣٧) ، وأحمد (٢/ ٣٩٤) ، قال الحاكم ؛ كما في «سؤالات السجزي» (٨٦) : «هذا النبي هو إدريس ﷺ» .

(٢) أخرجه البخاريُّ ،كتاب أحاديث الأنبياء ،باب ٥٤ (٢٤٧٧) وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب غزوة أحد (١٧٩٢) ، وقد قيل : إنه نبي الله نوح ؛ انظر « الفتح» (٦/ ٦٠١) وما بعدها .

(٣) أخرجه أبو داود ،كتاب السنة ، باب في التخيير بين الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ (٤٦٧٤) ، والحاكم (١/ ٣٦) ،وقال : « صحيح على شرط الشيخين ولا أعلم له علة ولم =

« مَا أَدْرِي أَتُبَّعٌ أَنبِيًّا كَانَ أَمْ لاَ ؟ وَمَا أَدْرِي ذَا الْقَرْنَيْنِ أَنبِيًّا كَانَ أَمْ لاَ ؟ » .

فإذا كان النَّبيُّ ﷺ قد توقف في نبوة ذي القرنين ، فهل يأتي أحد بعد النَّبيِّ ﷺ ليجزم بنبوة ذي القرنين ؟! مستحيل ؛ فهذه الأمور أمور غيبية لا يجوز على الإطلاق أن نقول برأيٍ فيها من عندنا ، أو بعقولنا ، إنما العمدة في مثل هذه الأمور : الدليل من القرآن والسنة .

ومن هؤلاء : الخضر عليه السلام ، صاحب نبيِّ الله موسى عليه السلام ، وقصته معروفة في سورة الكهف أيضًا .

والراجح ـ والله تعالى أعلم ـ أن الخضر نبيٌّ ، والمسألة مختلفٌ فيها [(١)] بين أهل العلم ، كما قال الراجز :

واختلف في خضر أهل العقول   قيل نبي أو ولي أو رسول

لكن الراجح أنه نبيٌّ ،والأدلة على ذلك ما يلي :

أولاً : قال تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا

= يخرجاه » ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٨/ ٣٢٩) وصحَّحه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (٢٢١٧) ، و « صحيح الجامع » (٥٥٢٤) .

(١) انظر : « أضواء البيان » للشنقيطي (٢/ ٤١٧، ٤١٨) وما بعدها ، وابن كثير والقرطبي عند قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف:٦٥] ، وقوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ [الكهف:٨٢] ، وانظر أقوال المفسرين في ذلك .
قال ابن تيمية في « مجموع الفتاوى » : (٤/ ٣٩٧) : « أكثر العلماء على أنه ليس بنبي ، وهو اختيار أبي عليٍّ بن أبي موسى وغيره من العلماء .والقول الثاني : أنه نبي ، واختاره أبو الفرج بن الجوزي وغيره » ا. هـ .وانظر «الفتاوى» (٤/ ٣٣٨) .
قلت: ورجح القرطبي في «التفسير» (لسورة الكهف :٧٧، ٨٢) أنه نبيٌّ ، ورجح الشنقيطي كذلك أنه نبيٌّ ، كما في «أضواء البيان » (الكهف :٦٥).
والعجيب أن القرطبي نقل عن الجمهور أنه نبيٌّ ؛ خلافًا لما حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية . انظر: «تفسير القرطبي » (الكهف:٦٥) .

وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾[الكهف:٦٥] .

والراجح أن الرحمة في هذه الآية هي رحمة النبوة ، وأن هذا العلم الذي آتاه الله ﷻ للخضر عليه السلام هو : ما يوحي الله به لنبيٍّ من أنبيائه .

ثانيًا : قول موسى عليه السلام كما حكاه القرآن الكريم : ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾[الكهف:٦٦ـ ٧٠] .

فلو كان الخضر عليه السلام غير نبيٍّ لم يكن معصومًا ، إذ إن العصمة للأنبياء ، والعصمة ليست للأولياء ولا للصالحين بحال ؛ بل العصمة للأنبياء ، وما كان لنبي الله موسى عليه السلام ، وهو الكريم الكليم أن يذعن لهذا العبد الذي يفعل أشياء قد تخالف الشريعة التي جاء بها نبيُّ الله موسى عليه السلام ما لم يكن يعلم بأن هذا الرجل معصوم من الزلل والخطأ لنبوته من الله تعالى .

ثالثًا : أن الخضر عليه السلام عندما أقدم على قتل الغلام ما كان هذا إلا بوحي من الملك العلام ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ كما قال الخضر عليه السلام بعد ذلك في هذا كله ؛ قال تعالى : ﴿.. رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾[الكهف:٨٢] .

أي : ما فعلت هذا كلَّه من تلقاء نفسي ، بل بأمر من الله ﷻ [1].

أما ما يذكر من أن الخضر عليه السلام ما زال حيًّا ؛ فهذا كلامٌ غير

---

(١) «البداية والنهاية» (١/ ٣٢٨) بتصرف .

صحيح،وقد ضعَّف هذا الكلام وأنكره أئمة المحدثين ؛ كالبخاري وابن دحية ، وابن كثير ، وابن حجر العسقلاني .

وأقوى ما يُرد به على هؤلاء القائلين بحياته إلى الآن ! أنه لم يصح في ذلك حديث عن الصادق المصدوق ﷺ [(١)] ، ولو كان حيًا لَفُرض عليه أن يأتي للنبيِّ ﷺ في حياته ، وأن يبايعه وينصره ؛ لقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٨١] .

واستدل على موته بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٤] .

وبما رواه مسلم [(٢)] عن عمر ﷺ أنه ﷺ قال : « اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ ».

وبما رواه البخاريُّ ومسلم [(٣)] من حديث عبد الله بن عمر ﷺ قال : صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ صَلاَةَ الْعِشَاءِ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ

---

(١) قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١/ ٣٣٤) : « والحكايات هي عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم ،وكل الأحاديث المرفوعة ضعيفة جدًا لا يقوم بمثلها حجة في الدين ، والحكايات لا يخلو أكثرها عن ضعف في الإسناد » .

(٢) أخرجه مسلم ،كتاب الجهاد ، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (١٧٦٣) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العلم ، باب السمر في العلم (١١٦) ، وانظر طرفه هناك ،ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب قوله ﷺ : « لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة» (٢٥٣٧) .

فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّ رَأْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا لاَ يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَحَدٌ».

وفي لفظٍ لمسلم من حديث جابر رضي الله عنه أنه ﷺ قال:[1] : «مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ الْيَوْمَ، تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ وَهْيَ حَيَّةٌ يَوْمَئِذٍ».

فبفرض أن الخضر كان موجودًا في هذا الوقت الذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ هذا، فبعد مائة سنة يكون قد مات، هذا مع فرض بقائه إلى الوقت الذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ هذا الكلام الصادق.

فالصحيح الذي ندين لله عز وجل به أن الخضر عليه السلام كان نبيًّا من الأنبياء، وما فعل هذه الأمور إلا بوحي من الله عز وجل، وما ذهب إليه نبيُّ الله موسى عليه السلام في هذه الرحلة إلا لأنه نبيٌّ معصوم مُوْحى إليه من الله عز وجل.

وقد علَّمه الله علمًا ما علمه الله نبيه موسى عليه السلام، وأن الخضر عليه السلام مات؛ لأنه لو كان حيًّا لَلَزِمَهُ أن يأتي نبيَّ الله محمدًا ﷺ ليبايعه.

وأخيرًا أقول: يجب أن نؤمن بجميع الأنبياء والرسل على وجه الإجمال والتفصيل، ولا نثبت النبوة لأحدٍ ما لم يسمه القرآن، وما لم يسمه النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلا تثبت لأحدٍ من الخلق إلا بدليلٍ من القرآن والسنة الصحيحة الثابتة.

*****

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣٨) وفيه عن أبي سعيد الخدري برقم: (٢٥٣٩)، ولمزيد من الأدلة يراجع: «فتح الباري» (٦/ ٤٣٤) وما بعدها، وانظر كلام المفسرين في آية سورة الكهف، و«مجموع الفتاوى» (٤/ ٣٣٧).

المبحث الخامس : هل أصبحت البشرية اليوم قادرة على أن تعيش وحدها بعيداً عن منهج الأنبياء والمرسلين ؟

سؤالٌ خطيرٌ يقفز إلى الأذهان في عصر الذَّرة الذي قُدِّمَ فيه العقلُ على النقل ،وقُدِّم فيه العلمُ على الوحي ؛ بل قد سمعنا بآذاننا من يقول من أبناء هذه الأمة : إننا نعيش الآن عصر المعجزات ، ثم قال : لا أعني به أنه عصر المعجزات للأنبياء ،وإنما هو عصر معجزات العلماء !!

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بأن المعجزات للأنبياء ،وأن الكرامة للأولياء ؛ فالمعجزة لا تكون إلَّا لنبيٍّ ، والكرامة لا تكون إلا لولي ؛ فنحن لا ننكر أبدًا كرامة العقل ،ولا مكانة العقل ؛ بل إنَّ نورَ الوحي لا يطمس نورَ العقل ؛ بل يُزكِّيه ويباركه ويقوِّيه .

ومن أجمل ما قاله الإمام ابن القيم ﷺ في كتابه المدهش « الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة »[1]: « إن المعارضة بين العقل والنقل ونصوص الوحي لا تتأتى على قواعد المسلمين المؤمنين بالنبوة حقًّا ، ولا على أصول أحد من أهل الملل المصدقين بحقيقة النبوة ،وليست هذه المعارضة من الإيمان بالنبوة في شيء ... » .

وقال : « واعتقاد المعارضة بين العقل والوحي أصلٌ واحدٌ هو منشأ ضلال بني آدم »[2].

فالمعارضة بين العقل والنقل هي أصلُ كلِّ فسادٍ في العالم ، وهي ضدُّ

---

(١) « الصواعق المرسلة » (٣/ ٩٥٥) ط العاصمة .

(٢) « الصواعق المرسلة » (٤/ ١٢٢٠) .

دعوة الرسل من كل وجه ، فإنهم دَعَوْا إلى تقديم الوحي على الآراء والعقول ،وصار خصومُ الأنبياءِ والمرسلين في ضد ذلك ، فأتباع الرسل قدَّموا الوحي على الرأي والعقل ، وأتباع إبليس أو نائب من نوابه قدَّموا العقل على النقل .

وقال الشهرستانيُّ في كتابه القيم « المِلَل والنِّحَل » [1] : « اعلم بأن أول شبهة وقعت في الخليقة هي شبهة إبليس ، ومصدرها استبداده بالرأي في مقابلة النص الصريح ،واختياره الهوى في معارضة الأمر ، واستكباره بالمادة التي خلق منها وهي النار على مادة آدم وهي الطين ؛ قال تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ فقابل هذا النص الصريح بالرأي الفاسد ؛ فقال : ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[الأعراف:١٢] .

إذًا الشبهة التي تثار الآن في أن البشرية بلغت مرحلة النضج والعقل ، وأصبحت البشرية في غير حاجة إلى الوحي ، وإلى منهج الرسل ؛ لأن في الوحي حجْرًا على العقل البشري الذي فجَّر الذرة ،وغاص في أعماق البحار ،وانطلق بعيدًا في أجواء الفضاء ، وحوَّل العالم كلَّه إلى قريةٍ صغيرةٍ عن طريق هذه التقنية المذهلة في عالم الاتصالات والمواصلات ، يزعمون بهذا التقدم المادي الذي أبدعه العقل أنهم أصبحوا في غنى عن الوحي ،وعن منهج الأنبياء والمرسلين ، نفخ هذا التقدم العلمي ،وأجَّج

(١) « الملل والنحل » (١ / ١٥) .

شياطين البشر هذا الكبر ، وهذا الغرور ، ونحن لا ننكر أن الإنسان في هذا العصر قد يبلغ شأنًا بعيدًا في الجانب العلمي ، لكننا نعلم يقينًا أن الحياة لا تتوقف عند هذا الجانب المادي فحسب ، فالحياة كلها ليست مادة ،ولا يمكن لطائر جبار أن يحلق في أجواء الفضاء بجناحٍ واحدٍ ، ولو نجح في ذلك لفترةٍ ولو طالت ، فإنه حتمًا سيسقط لينكسر جناحُه الآخر ؛ فالحياة روح ومادة ، ولا يُصْلِحُ الروح إلا منهج خالق الروح .

قال تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء:٨٥] .

وإذا أردت أن تتعرف على قيمة العقل .. إذا ما تعدى طوره ، وأساء الأدب ، ولم يعرف قدره ، وعارض النقل الصحيح ، وإذا أردت أن تتعرف على حقارة العقل في الجانب الذي لا بد فيه من الأنبياء والمرسلين ، فانظر الآن إلى العقل الأمريكي مثلًا ؛ الذي وصل إلى ما وصل إليه في الجانب العلمي ،والجانب المادي .. انظر إليه في الجانب الآخر الذي لا بد فيه من وحي الأنبياء ، ستراه يدافع عن الشذوذ الجنسيِّ ،ويدافع عن العنصرية اللونية ، ويدافع عن زواج الرجل بالرجل ،ويدافع عن زواج المرأة بالمرأة ، وأحداث لوس أنجلوس ليست منا ببعيد !

ـ وهذا هو العقل الروسيُّ ، شعاره أنه يؤمن بثلاثة ويكفر بثلاثة ، يؤمن بماركس ولينين وستالين ،ويكفر بالله والدين والملكية الخاصة .

وهذا هو العقل الهنديُّ ، يدافع عن عبادة البقر إلى يومنا هذا !

فإذا انفك العقلُ عن نور الوحي أصبح لا قيمة له ، لأن للعقل دوره ، وللعقل حدوده إن تعدَّاها زلَّ وهلك وضاع ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم .

يقول ابن القيم رحمه الله[1] :

لا يستقلُّ العقل دون هداية … بالوحي تأصيلاً ولا تفصيلا
كالطَّرْف دون النور ليس بمدرك … حتى يراه بكرة وأصيلا
وإذا الظلام تلاطمت أمواجه … وطمعت بالإبصار كنت محيلا
فإذا النبوة لم ينلك ضياؤها … فالعقل لا يهديك قط سبيلا
نور النبوة مثل نور الشمس … للعين البصيرة فاتخذه دليلا
طرق الهدى مسدودة إلَّا على … مَنْ أمَّ هذا الوحي والتنزيلا
فإذا عدلت عن الطريق تعمدًا … فاعلم بأنك ما أردت وصولا
يا طالبًا درك الهدى بالعقل … دون النقل لن تلقى لذاك دليلا

ومن أجمل ما قيل :

علمُ العليم وعقلُ العاقل اختلفا … من ذا الذي فيهما قد أحرز الشرفا
فالعلمُ قال أنا أحرزت غايتَه … والعقلُ قال أنا الرحمنُ بي عرُفا
فأفصح العلمُ إفصاحًا وقال له … بأيِّنا الله في قرآنه اتصفا
فأيقن العقل أن العلم سيدهُ … فَقَبَّل العقلُ رأسَ العلم وانصرفا

---

(١) « الصواعق المرسلة » (٣ / ٩٧٩) .

فما ضاعت البشرية وزلت وانتكست إلا يوم أن انحرفت عن نهج الأنبياء والمرسلين ، وعن نهج خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ، واتهمت الوحي بالجمود والرجعية ،واتهمت الشريعة بالقصور والتخلف والتأخر !!

ولا حول ولا قوة إلا بالله .

يقول ابن القيم رحمه الله[1] : « لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ، ولا في الآخرة ، إلا على أيدي الرسل ،ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم ، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم ، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم ،وما جاءوا به ، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأخلاقهم توزن الأخلاق والأعمال ،وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال ، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه ،والعين إلى نورها ، والروح إلى حياتها ، فأي ضرورة وحاجة فرضت ؛ فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير ،وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك ؛ وصار كالحوت إذا فارق الماء ، ووضع في المقلاة ، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال ؛ بل أعظم ،ولكن لا يحسُّ بهذا إلا قلب حيٌّ ، وما لجرح بميت إيلام .

وإذا كانت سعادة العبد في الدَّارَيْن معلقة بهدي النبيِّ ﷺ ، فيجب على كل من نصح نفسه ، وأحب نجاتها وسعادتها ، أن يعرف من هديه

---

(١) « زاد المعاد » (١/ ٣١) ط الفكر .

وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به ، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه ﷺ، والناس في هذا بين مستقلٍّ ، ومستكثر ، ومحروم ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

وها هو ابن تيمية رحمه الله [1] يبين حاجة البشرية للرسل ولمنهج الرسل والأنبياء ؛ فيقول : « الرسالة ضرورية للعباد ، لا بد لهم منها ،وحاجتهم إلى الرسالة فوق حاجتهم إلى كل شيء ، والرسالة روح العالم ونوره وحياته ، فأيُّ صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور ؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة ،وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ، ويناله من حياتها ونورها وروحها .

فهو في ظلمة ،وهو مِن الأموات ؛ قال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾[الأنعام:١٢٢] .

فهذا وصف المؤمن ،كان ميتًا في ظلمة الجهل ، فأحياه الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ بروح الرسالة ونور الإيمان ، وجعل له نورًا يمشي به في الناس ،وأما الكافر فميت القلب في الظلمات ، فالله سمى رسالته روحًا ، والروح إذا عدم فقدت الحياة ؛ قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾[الشورى:٥٢] .

---

(١) « مجموع الفتاوى » (٩/ ٩٣ـ ٩٦) .

فذكر هنا أصلين ؛ وهما الروح والنور ؛ فالروح الحياة ،والنور النور ، إن الله يضرب الأمثال للوحي الذي أنزله حياة للقلوب ، ونورًا لها بالماء الذي ينزله من السماء لتحيا به الأرض ،وبالنار التي لا يحصل النور إلا بها ؛ قال تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ [الرعد:١٧] .

شبَّه الله العلم بالماء المنزل من السماء ؛ لأن بالعلم تحيا القلوب ،كما أن بالماء تحيا الأبدان ،وشبَّه القلوب بالأودية ؛ لأن القلوب هي محل العلم ؛ كما أن الأودية هي محل الماء ، فقلبٌ يسع علمًا كثيرًا ، وواد يسع ماءً كثيرًا . وقلب يسع علمًا قليلاً ، وواد يسع ماءً قليلًا .

وأخبر الله ﷻ أنه يعلو على السيل من الزبد بسبب مخالطة الماء ، ويذهب هذا الزبد جفاءً ، أي : يرمي به ،ويزول ويخفى ، أما ما ينفع الناس فهو الذي يمكث في الأرض ويستقر ، وكذلك القلوب تخالطها الشهوات والشبهات ثم تذهب جفاءً ، ويستقر في القلوب الإيمان والقرآن الذي ينفع صاحبه والناس .

وقال : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد:١٧] .

فهذا المثل الآخر وهو الناري ؛ فالأول : للحياة ،والثاني : للضياء ، وهما المثلان المذكوران في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ

ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة:١٧ ـ ١٩] .

ثم يبين بعد ذلك وصف المؤمن والكافر : فأما الكافر ففي ظلمات الكفر والشرك غير حي ، وإن كانت حياته حياة بهيمية ، فهو عادم الحياة الروحانية العلوية التي لا يمكن أبدًا أن تكون إلا بالإيمان ، وبها يحصل للعبد السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة ؛ فإن الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم ،وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم ، وبعثوا جميعًا بالدعوة إلى الله ،وتعريف الطريق الموصِّل إليه وبيان حالهم بعد الوصول إليه ؛ قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[النحل:٩٧] ». ا.هـ .

فلا يمكن بعد ذلك للعقل البشري مهما وصل أن يستغني عن الوحي ، وعن شريعة الله ، وعن منهج الأنبياء والمرسلين ؛ فهناك من الأمور ما لا تُدرك أبدًا إلا عن طريق الرسل ؛ فمحال أن يتصور العقل الجنة والنار وغيرها من هذه الأمور الغيبية إلا عن طريق الوحي .

ومع ذلك يزعم الناس في عالم اليوم أنه يمكنهم الاستغناء عن الرسل والرسالات بالعقول التي وهبهم الله إياها ؛ ولذلك نراهم يسنُّون

القوانين ، ويحلُّون ويحرِّمون ،ويخطِّطون ويوجِّهون ، ومستندهم في ذلك كلِّه أنَّ العقول تستحسن ذلك أو تقبِّحه ؛ وترضى به أو ترفضه ،وهؤلاء لهم سلف قالوا مثل مقالتهم هذه ؛ فالبراهمة ـ وهم طائفة من المجوس ـ زعموا أن إرسال الرسل عبث ، لا يليق بالحكيم ، لإغناء العقل عن الرسل ؛ لأن ما جاءت به الرسل إن كان موافقًا للعقل حسنًا عنده فهو يفعله ،وإن لم يأت به ، وإن كان مخالفًا قبيحًا ، فإن احتاج إليه فعله وإلا تركه[١] .

ولا يجوز في مجال الحجاج والنزاع أن يبادر المسلم إلى إنكار قدرة العقل على إدراك الحَسَن والقبيح ؛ فإن الله قد فَطَرَ عباده على الفرق بين الحسن والقبيح ،وركَّب في عقولهم إدراك ذلك ، والتمييز بين النوعين ، كما فطرهم على الفرق بين النافع والضار ، والملائم لهم والمنافر ، وركَّب في حواسهم إدراك ذلك ، والتمييز بين أنواعه .

والفطرة الأولى : (وهي فطرته العباد على الفرق بين الحسن والقبيح) هي خاصة الإنسان التي تميَّز بها عن غيره من الحيوانات .

وأما الفطرة الثانية : (وهي فطرته للعباد على الفرق بين النافع والضار ..) فمشتركة بين أصناف الحيوان[٢] .

والذي ينبغي أن ينازع فيه أمور :

«الأول : أن هناك أمورًا هي مصلحة للإنسان لا يستطيع الإنسان إدراكها بمجرد عقله ؛ لأنها غير داخلة في مجال العقل ودائرته ، فمن أين

---

(١) « لوامع الأنوار البهية » (٢/ ٢٥٦) .

(٢) « مفتاح دار السعادة » (٢/ ١١٦) .

للعقل معرفة الله ـ تعالى ـ بأسمائه وصفاته ؟

ومن أين له معرفة تفاصيل محبته ،ورضاه ،وسخطه ، وكراهيته ؟

ومن أين له معرفة تفاصيل ثوابه وعقابه ، وما أعد لأوليائه ، وما أعد لأعدائه ، ومقادير الثواب والعقاب ، وكيفيتهما ، ودرجاتهما ؟

ومن أين له معرفة الغيب الذي لم يظهر الله عليه أحدًا من خَلْقِهِ ؛ إلا من ارتضاه من رسله ، إلى غير ذلك مما جاءت به الرسل ، وبلَّغَته عن الله ، وليس في العقل طريق إلى معرفته ؟ » [1].

الثاني :أن الذي يدرك العقل حسنه أو قبحه يدركه على سبيل الإجمال ، ولا يستطيع أن يدرك تفاصيل ما جاء به الشرع ، وإن أدرك التفاصيل فهو إدراك لبعض الجزئيات وليس إدراكًا كليًّا شاملًا ، « فالعقل يدرك حسن العدل ، وأما كون هذا الفعل المعَيَّن عدلًا أو ظلمًا ، فهذا مما يعجز العقل عن إدراكه في كل فعل وعقد » [2].

الثالث :أن العقول قد تحار في الفعل الواحد ؛ فقد يكون الفعل مشتملاً على مصلحة ومفسدة ،ولا تعلم العقول مفسدته أرجح أم مصلحته ،فيتوقف العقل في ذلك ، فتأتي الشرائع ببيان ذلك ، وتأمر براجح المصلحة ،وتنهى عن راجح المفسدة ، وكذلك الفعل يكون مصلحة لشخص مفسدة لغيره ،والعقل لا يدرك ذلك ، وتأتي الشرائع ببيانه ، فتأمر به من هو مصلحة له ، وتنهى عنه من حيث هو مفسدة في

---

(١)« مفتاح دار السعادة » (٢/ ١١٧) .

(٢)« مفتاح دار السعادة » (٢/ ١١٧) .

حقه ،وكذلك الفعل يكون مفسدة في الظاهر ،وفي ضمنه مصلحة عظيمة لا يهتدي إليها العقل ، فتجيء الشرائع ببيان ما في ضمنه من المصلحة ،والمفسدة الراجحة »[(١)] .

وفي هذا يقول ابن تيمية : « الأنبياء جاءوا بما تعجز العقول عن معرفته ،ولم يجيئوا بما تعلم العقول بطلانه ، فهم يخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول »[(٢)] .

الرابع : ما يتوصل إليه العقل وإن كان صحيحًا ، فإنه ليس إلا فرضيات ، قد تجرفها الآراء المتناقضة والمذاهب الملحدة .

ولو استطاعت البقاء ، فإنها ــ في غيبة الوحي ــ ستكون تخمينات شتى ، يلتبس فيها الحق بالباطل[(٣)] .

مؤهلات النبوة :

الذي ينبغي أن يعلم هنا أن النبوة لا تأتي عن طريق الكسب والاجتهاد أبدًا ، فلو انقطع المرء إلى العبادة كلية ،وتخلى عن سائر الحظوظ النفسية ،وعن كل الرغبات والشهوات ،وسائر متع الحياة ولذائذها لم يؤهله ذلك لأن يكون نبيًّا أو رسولًا بحال من الأحوال .

إن النبوة هبة خاصة ، يختص بها الله واهبها الذي أَهَّلَهُ لها من عباده المؤمنين ، بيد أن الله يهيئ لها بإعدادٍ خاصٍّ عبدًا من عباده ، فيحفظه من

---

(١) « مفتاح دار السعادة » (٢/ ١١٧) .

(٢) « مجموع الفتاوى » (٢/ ٣١٢) .

(٣) نقلاً عن « الرسل والرسالات » للأشقر (٣٥ ـ ٣٧) .

التلوث النفسي ،والضلال العقلي ،والفساد الخلقي ، والانحراف الفطري ،ويُضفي عليه الكمالات النفسية والعقلية والخُلُقية ،ما يؤهله به لمقام النبوة الشريف .

ومن المؤاهلات للنبوة وتلقي الوحي الإلهي :

أولاً : المثالية : ونعني بالمثالية ذلك الكمال البشري الذي يحوزه المرء المرشَّح لمقام النبوة ،والذي لا يسمو إليه سواه من سائر الناس .

ثانيًا : شرف النسب : إن عامل الوراثة ينتقل ـ حسب سُنَّة الله الإلهية ـ من الأصل الوالد إلى الفرع المولود ، ومن هنا كان الأنبياء يبعثون في أشرف أقوامهم ، والمراد من الشرف بالمعنى العام ، الترفع عن الدنايا الخلقية ، والتنزه عما يُخِلُّ بالمروءات ، ويهبط بالقيم البشرية ، من كل سلوكٍ شائنٍ منحرفٍ ، تكرهه الطباع البشرية السليمة ، وتشمئز منه النفوس الكريمة .

ثالثًا : عامل الزمن : إن المراد من عامل الزمن هو وجود مقتضيات في الزمن المعين ،تحتم بعثة نبيٍّ ، وإرسال رسول وتقتضيه ، ومن ذلك وجود فراغ روحي تسبب عنه فساد اجتماعي كبير ، أو فساد عام في الأرض تتطلع معه النفوس إلى مُصْلِح يصلح الله به البلاد والعباد ، وذلك لما غرز الله تعالى في الفطر البشرية من الشعور بالرحمة الإلهية ، وقربها كلَّما عمَّ الشر وعَظُمَ الفساد ، شعور كشعور العطشان بالحاجة إلى الماء وتطلعه إليه [1].

---

(١) « عقيدة المؤمن » (ص ٢٥٩ ـ ٢٦١) بتصرف .

والناظر في هذه المؤهلات يراها وضحت في كل الأنبياء والرسل ، لكنها كانت أكثر وضوحًا وأسطع ضياءً في النبيِّ ﷺ ، إذ اكتملت فيه بما لم تكتمل في نبيٍّ غيره أو رسول سواه ـ صلوات ربي وسلامه عليه ـ كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

صفات الأنبياء :

إن للمؤهَّلين لحمل رسالة الخالق إلى الخلق صفات كمال لا تفقد في أحدهم أبدًا ، إذ هي واجبة لكلِّ من يحمل رسالة الله تعالى إلى عباده .

ومن تلك الصفات :

أولاً : الصدق : صدق النية والإرادة ، صدق القول والعمل ، بحيث يستحيل أن يتصف المؤهل للنبوة بضد الصدق ، وهو الكذب والنفاق ، أو الإهمال واللامبالاة ، والمتبع لسِيَر الأنبياء يعرف هذه الحقيقة ويؤمن بها .

ثانيًا : الأمانة :الأمانة في كل شيء ، في القول والعمل ، في الحكم والقضاء ، في الحديث والنقل ، في الرواية والتبليغ ، في السر والعلن معًا ، إذ يستحيل أن يتَّصِفُوا بضدِّها وهي الخيانة بحالٍ من الأحوال ، فلا خيانة فيهم أبدًا ،ولو في أقل الأشياء وأتفهها ، ومتى وُجِد شيءٌ من الخيانة ، فلا نبوة ، ولا أهلية لها أبدًا .

ثالثًا : التبليغ : والمراد منه أن يبلغ الرسول كل ما أمر بتبليغه ، فلا يخفي منه شيئًا ،ولا يكتمه بحال ، فلا تحمله رغبة ولا رهبة على أن يكتم بعضًا مما أوحي إليه ، وأمر بإبلاغه إلى الناس ،والكتمان للوحي الإلهي يتعذر على المرسلين ، ويستحيل في حقهم ولا يتأتى لهم ؛ لأن الله تعالى

أهَّلهم للبلاغ عنه ما أراده لعبادِه من الهدى والخير ،فمتى وجد الكتمان بطلت النبوة ، وانتفت الرسالة .

رابعًا : **الفطنة** : إن الفطنة ليستْ الفهم والذكاء فحسب ؛بل هي مع ذلك ، رقة الشعور ، وصفاء الذهن ، ورهافة الحس ، وصدقه ،وسرعة البداهة [(١)] على حدِّ قول حسان بن ثابت في النبيِّ ﷺ :

لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ كَانَتْ بَدِيهَتُهُ تَأْتِيكَ بِالخَبَرِ

إن الفطنة من المؤهلات لتلقي الوحي ،والأمانة عليه ، وكذا التبليغ به ، والصدق فيه ، فالغباء ،وبلادة الحس ،وبطء الإدراك تتنافى مع مقام النبوة ، وشرف التلقي عن الله تعالى ، كما يستحيل في حقهم الكذب والخيانة والكتمان .

هذا ، وإن هذه الصفات التي توفَّرت في الأنبياء والمرسلين ، قد بلغت أوجها وكمالها في النبيِّ محمد ﷺ [(٢)] .

*****

---

(١) « عقيدة المؤمن » (٢٦٢، ٢٦٣) بتصرف .

قلت : والبيت كذلك نسب لعبد الله بن رواحة ؛ كما في «الجواب الصحيح» (٦/ ٥١١).

(٢) « حقيقة الإيمان » (٢/ ٩٥ـ ٩٨) .

وظائف الرسل

ما هي وظيفة الرسل ؟

الوظيفة الأولى : البلاغ .

إننا لا نريد بهذا الدرس مجرد درس نظريٍّ نقدمه لمجرد الثقافة الذهنية الباردة ، وإنما نبين وظائف الرسل لنخرج بهذا الدرس المهم ، ألا وهو : لا يكون الرجل من أتباع الرسول ﷺ حقًّا إلا إذا سار على دربه ، وحمل لواء دعوته .

قال الإمام ابن القيم في تعليقه على قول الله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف:١٠٨] : « فلا يكون الرجل من أتباع النبيِّ حقًّا حتى يدعو إلى ما دعا إليه النبيُّ ﷺ على بصيرة »[١].

وفي «صحيح مسلم»[٢] من حديث عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ؓ قَالَ : قَالَ رسُولُ الله ﷺ : « مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ الله فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ ، يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ ، يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ، وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ » .

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٧٨، ١٥٤) ط الكتب ، ورسالة ابن القيم (٢١) مكتبة الملك فهد ، و«جلاء الأفهام» (٤١٥ ط العروبة) ، و«المدارج» (٢/ ٤٨٢) بتصرف .

(٢) تقدم . وقد رواه مسلم ، كتاب الإيمان (٥٠) .

فلن تكون من حواري وأنصار وأتباع رسولِ الله ﷺ إلا إذا سرت على طريقه وحملت لواء دعوته ﷺ .

إذًا الحديث عن وظائف الرسل حديثٌ للدعاة ، بل حديثٌ لأفراد الأمة رجالاً ونساءً بعد ذلك .

فوظيفة الرسل الأولى : البلاغ .

قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب:٣٩] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة:٦٧] .

فإن لم تبلغ فما أدَّيت حق الله ﷻ .

والوظيفة الأولى لأتباع الأنبياء والرسل ـ ألا وهم العلماء والدعاة ـ هي البلاغ ؛ فما عليهم إلا أن يبلِّغوا الناس أمر الله ، وأمر رسول الله ﷺ على بصيرة ، ويتركوا أمر هداية الناس إلى من بيده القلوب سبحانه وتعالى .

إذ لو مَلَكَ أمرَ الهدايةِ أحدٌ لهدى النَّبيُّ ﷺ أقرب الناس له وهو عمه أبو طالب[١] ، بل حتى على فراش الموتِ لم يستطع النبيّ ﷺ هدايته ؛ لأن الهداية نوعان :

هداية دلالة ،وهداية توفيق .

أما أنا وأنت فوظيفتنا هي هداية الدلالة ؛ وهي أنْ ندل الناس على طريق الله وطريق رسول الله ﷺ ؛ أما هداية التوفيق فبيد الله سبحانه وحده .

---

(١) تقدم الحديث بذلك من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في « الصحيحين » .

قال الله تعالى لنبيه في شأن عمّه : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣] ، ونزل عليه قول الله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦] ، ونزل عليه قول الله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾

[البقرة:٢٧٢]

فوظيفتك هي : البلاغ ، أما أمر الهداية ليس من شغلك أنت ؛ فقد أرسل الله أنبياءً ورسلًا ، ومع ذلك فمنهم من لم يؤمن بدعوته أحدٌ من أفراد أمته ؛ كما قال ﷺ : « ... والنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ »[(١)] .

إذًا وظيفة الأنبياء والرسل والعلماء ـ الذين هم ورثة الرسل ـ هي البلاغ، ولكن هذا البلاغ يحتاج إلى أساسيات ،وإلى ضوابط ،وإلى شروط ، فليس كلُّ أحد يجيد البلاغ ،وليس كلُّ أحد يستطيع هذه الوظيفة ، بل إن البلاغ يحتاج إلى مقتضيات ، ومن أعظم هذه المقتضيات ما حددته دَعَواتٌ كريماتٌ طيِّباتٌ لكليم الله موسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ لما انتدب الله موسى لهذه المهمة الضخمة وهي مهمة الرسالة ، ولمهمة الدعوة ، ولمن ؟ لأكفرِ أهل الأرض ،ولأظلمِ أهل الأرض ، ولأطغَى أهل الأرض !! لفرعون ـ عليه لعنة الله ـ فطلب نبيُّ الله موسى من الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ أن يرزقه مقومات البلاغ ، ومقومات الدعوة ، وأن يرزقه هذه الوظيفة ؛ فماذا قال : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾

---

(١) تقدم الحديث بذلك .

قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾[طه:٢٤-٣٥] .

فلم يوجد على وجه الأرض من يوم أن خَلَقَ الله الدنيا إلى يوم أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها أخٌ نفع أخاه بمثل ما نفع موسى هارون عليهما السلام ، إذ إنَّ الله قد استجاب دعوة موسى عليه السلام فجعل هارون نبيًّا .

فأول مقوِّم هو شَرْح الصدر بالبلاغ وبالدعوة ؛ فهذا يحول كلَّ مشاق التكليف إلى متعة ، وسعادة ، وراحة ؛ لذا سأل نبيُّ الله موسى أول مقوِّم من مقوِّمات البلاغ ؛ فقال : ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴾ ولا يعرف حلاوة شَرْح الصدر إلا من ذاق طعمها ، وهي من النعم التي امتن الله بها على نبينا المصطفى ﷺ ؛ فقال : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[الشرح:١] .

المقوِّم الثاني : ﴿ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾ .

فالإنسان ضعيف جاهل قاصر إن لم ييسر الله له أمره ، فلن يستطيع أحدٌ أن يقدم ، أو أن يؤخر أي شيء إلا بإذنه سبحانه ؛ فالأمر ابتداءً وانتهاءً يرجع إلى تيسير الملك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثالثًا : من المقومات ؛ الفصاحة والبلاغة والبيان والتوضيح ؛ فقال نبيُّ الله موسى عليه السلام : ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾[طه:٢٧، ٢٨] .

فلا بُدَّ من البلاغة والفصاحة ؛ ولذلك في آية أخرى طلب نبيُّ الله

موسى من الله أن يرسل معه هارون ؛ لأنه أفصح منه لسانًا ، فنبيُّ الله هارون صاحب لسان فصيح ،ومن مناقب نبيِّ الله هارون : هدوء الأعصاب والحلم والرفق .

يُلحظ ذلك في سورة طه وفي غيرها من الآيات .

إذًا المقوم الثالث من مقومات البلاغ : فصاحة اللسان ، وهذا فضلُ الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ـ نسأل الله ألا يحرمنا وإياكم من فضله .

المقوم الرابع من هذه المقومات : العون على أمر البلاغ .

إما بأخٍ ـ كنبيِّ الله هارون مع أخيه موسى ـ يعين أخاه ، وإما بإخوة مسلمين موحدين يؤمنون بالله ، ليُعينوه بعد ذلك على دين الله ، وعلى تبليغ رسالة الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ كما في حديث ابن مسعود السابق .

وهذا البلاغ يحتاج إلى يقين ؛ قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب:٣٩] .

فمن مقومات البلاغ : اليقين ؛ ليبلِّغَ دينَ الله ﷻ ، ولا يخشى أحدًا إلا الله .

نسأل الله أن يرزقنا الصدق ، وأن يملأ قلوبنا يقينًا بمنه وكرمه .

ويحتاج البلاغ إلى حكمة ورحمة ولين ؛ قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥] .

وقال سبحانه لنبيِّ الله موسى وهارون : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[طه:٤٣،٤٤] .

ويحتاج البلاغ كذلك إلى بيان بالقول والفعل ؛ فقد بَيَّنَ النبيُّ ﷺ أمر الدين بقوله .. افعلوا كذا ، ولا تفعلوا كذا ، أمرٌ ونهيٌ ، ثم بَيَّنَ النبيُّ ﷺ بفعله ؛كما في قوله : « صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي » [1].

وقال ﷺ في الحج : « خُذُوا عَنِّى مَنَاسِكَكُمْ » [2].

إذًا البلاغ ؛ بلاغ بالقول ، وبلاغ بالعمل .

ولا ينبغي أن يتقدم للبلاغ وللدعوة عن الله وعن رسوله إلاَّ من كان قدوة في هذا الأمر .

فهذه مقومات يجب أن تتوفر فيمن حَمَلَ لواء الدعوة ، وسار على دربِ الأنبياءِ والمرسلين ، وعندما يتولَّى النَّاس ويعرضون ، فما على الأنبياء والمرسلين إلا البلاغ .

قال تعالى : ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[آل عمران:٢٠] .

فما على الرسول إلا البلاغ وأمرُ هداية الخلق إلى الخالق وحده ـ جَلَّ وَعَلاَ .

(١، ٢) سبق تخريجهما .

الوظيفة الثانية : الدعوة إلى الله .

والدعوةُ إلى الله أشرف وظيفةٍ على وجهِ الأرضِ ؛لأنها وظيفة الأنبياء والمرسلين ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[فصلت:٣٣] .

وصنفان من الناسِ إن صَلُحَا صلح الناس ، وإن فسدَا فسد الناس : العلماء والأمراء ، فالعالم إن صلح يُصْلح أمة ، وإن فسد يُفسد أمة ؛ ولله درُّ القائل : « زَلَّةُ العَالِمِ زَلَّةُ العَالَمِ »[١].

والأمير إن صلح صلحت الأمة ، وإن فسد فسدت الأمة ؛ ولذا قال عثمان بن عفان ﷺ : « إنَّ الله لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَالا يزَعُ بِالقُرْآنِ »[٢].

لذا ، أخبر النبيُّ ﷺ أن من السبعة الذين يظلهم الله في ظلّه يوم القيامة : «إمامٌ عادلٌ» ، فبدأ به ﷺ .

فالدعوة إلى الله وظيفة الأنبياء والمرسلين ؛ قال الله ﷻ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[فصلت:٣٣] .

واعلم أن التوحيد هو أول دعوة المرسلين ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى

---

(١) انظر : « البداية والنهاية » (٢/ ٩١) ط المعارف ، و« المستقصي في أمثال العرب » للزمخشري (٢/ ١١٠) ، و« تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤٦٠) ، وانظر : «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر على ألسنة الناس » للعجلوني (٧٨) (١/ ٤٢) .

(٢) انظر : « الدر المنثور » (٥/ ٣٢٩) وعزاه للخطيب عن عمر ﷺ، وكذا عزاه الهندي في «كنز العمال» (٥/ ٧٥١) ، وهو في «تاريخ بغداد» للخطيب (٤/ ١٠٧) عن عمر ﷺ، وفي «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١١/ ٤١٦) ، و« البداية والنهاية » (٢/ ١٠) عن عثمان ﷺ.

ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل:٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف:٤٥] ، وقال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى:١٣] .

ولقد امتن الله ﷻ على العلماء في أمة النبيِّ ﷺ فجعلهم ورثة للنبيِّ ﷺ ، يحملون هذا المنهج ،ويتحركون لدين الله ، تراهم يحملون دعوة النبيِّ ﷺ ؛ ولذا تدبر قول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ [الجن:٢٢، ٢٣] .

فهذه القولة الرهيبة التي تملأ القلب بجدية هذا الأمر ــ أمر الرسالة والدعوة ــ، فالرسول يُؤمر من الله أن يعلن هذه الحقيقة الكبرى ،أنه لن يجيره من الله أحد ،ولن يجد من دونه ملتحدًا ،أي : حماية إلا أن يبلغ دين الله ورسالته ؛ فلابد إذًا من الدعوة والبلاغ .

ولقد دلَّت النصوص من الكتابِ والسنةِ على أن الدعوة إلى الله ﷻ فَرْضُ عينٍ على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ ،كلٌّ بحسب استطاعته كما صرَّح بذلك علماؤنا الآن ؛ لأننا نعيش زمانًا انتشر فيه الكفر والإلحاد والزندقة ،

وانصرف فيه الناس عن دين الله ، فَوَجَبَ على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ أن يتحرك لدعوة الله إما بالبلاغ ، وإما بالشريط ،وإما بالكتب ،وإما بدعوة الآخرين لحضور المحاضرات ، ولقد أمرنا النبيُّ ﷺ بذلك ، وحمَّلنا هذه الأمانة الثقيلة ؛ كما في الحديث الذي رواه البخاريُّ (١) من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: « بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ».

بل قد دعا النبيُّ ﷺ لكلِّ من بَلَّغَ عنه بدقة، وصدق ، وأمانة ،بنضرة الوجه (٢)؛ فاللهم نَضِّر وجوهنا برحمتك يا أرحم الراحمين .

فالدعوة إلى الله واجبة ، بل فرض عينٍ على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ ،كلٌّ بحسب قدرته واستطاعته .

وقد قال ﷺ: « مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ » (٣).

وفي « صحيح مسلم » (٤)من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه أنه ﷺ قَالَ : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا ».

فها هو الصِّدِّيق رضي الله عنه ينطق بالشهادتين ثم يتحرك ليدعو غيره إلى هذا النور الذي ملأ قلبه وكيانه ، فما كان الصِّدِّيق كزهرة صناعية لا تحمل من عالم الزهور إلا اسمها ، بل كان الزهرة الأولى التي ـ هي من خَلْقِ الله ـ لا تحبس عن الناس أريجها وجمالها وعطرها ، هل تعلم أن الصِّدِّيق بهذه

(١، ٢، ٣، ٤) تقدم .

الكلمات استطاع أن يرجع إلى المصطفى ﷺ في اليوم الثاني بخمسةٍ من العشرة المبشَّرين بالجنة ، لقد رجع بعثمان بن عفان ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ـ رَضِيَ الله عَنْهُم جميعًا ـ عاد بهم الصِّدِّيق رضي الله عنه وهم يشهدون أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله بين يدي المصطفى ﷺ ؛ فهؤلاء جميعًا في ميزان أبي بكر الصِّدِّيق يوم القيامة ؛ كما تأتي الأمة كلُّها في ميزان المصطفى ﷺ .

فالدعوة إلى الله أشرف وظيفة ،وأشرف عمل ؛ فينبغي على كلِّ مسلم ومسلمة ألا يضيع هذا الفضل وهذا الخير .

أسأل الله ألا يحرمنا وإياكم شرف الدعوة إليه ،وكرامة البلاغ عنه ، ودلالة الخلق عليه بحق ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

الوظيفة الثالثة : التبشير والإنذار .

فدعوةُ الرُّسُلِ جميعًا ترتكز على هذين الأمرين الكبيرين ، وترتبط الدعوة إلى الله بهما ارتباطًا وثيقًا ؛ قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٦٣ـ ١٦٥] .

فإن من أهم وظائف الرسل أنهم يبشرون من آمن بالله ﷻ بالفوز والنجاة والسعادة في الدنيا ، وينذرون من أعرض عن منهج الله ورسله بالعذاب والهلاك في الدنيا والآخرة .

تدبَّر معي قول الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[النحل:٩٧] .

هذه بشارةٌ على لسان رسولِ الله ﷺ لمن آمن بالله ﷻ بوحيٍّ أوحاه الله إليه ، وبشَّرت الرسل من آمن بالله ﷻ بالعزِّ والتمكين والاستخلاف في الأرضِ ؛ كما قال سبحانه : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾[النور:٥٥] .

انظر إلى منهج البشارة والإنذار .

والآيات في ذلك كثيرة جدًّا .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[طه:١٢٤-١٢٧] .

فمنهج المرسلين التبشير والإنذار ؛ لماذا ؟لأن التبشير والإنذار على النحو الذي جاءت به الرسل هو مفتاح النفس البشرية ؛ فالنفس البشرية تحب

الترغيب ،وتخشى الترهيب ، هذه فطرة جبلية وضعها الله ﷻ في كل نفس ؛ فالنفس البشرية تسعد بالترغيب ،وتستبشر به ، وترهب الترهيب والإنذار والتخويف والوعيد ؛ فهذا المنهج هو مفتاح النفس البشرية الإنسانية ؛ فالنفس الإنسانية مجبولة على طلب الخير لذاتها ، والخوف والفرار من الشر ؛ فإذا بشَّرت الرسلُ النفوس بالخير العظيم الذي ينتظرها في الدنيا ؛ بل والخير العظيم الذي ينتظرها في الآخرة أقبلت النفوس بجبلتها إن كانت النفوس سليمة طيبة لم تلوثها الشهوات والنزوات والفتن على هذا الخير ؛ فانقادت لله ولرسله ـ صلوات الله عليهم جميعًا ، والنفس إذا كانت طيبة كريمة فَحُذِّرت وأُنذرت مِمَّا ينتظرها في الدنيا من هلاك وشقاء وضنك ،وكذلك في الآخرة من عذاب الله أعرضت عن ما يقربها من هذا ،ولجأت إلى منهج الله وامتثلت وانقادت لمنهج رسل الله ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ وحينما يقرأ الرسولُ وحي الله ﷻ ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ [الواقعة:٢٧ـ ٤٠] .

نسأل الله أن نكون من هذه الثلة الكريمة .

انظر إلى هذا التبشير ، ثم انظر إلى هذا الإنذار من بعده : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا

بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ [الواقعة:٤١ـ ٥٥] .

انظر إلى هذا المنهج الفريد .. منهج التبشير للنفس بالسعادة والنعيم في الدنيا والآخرة ،ومنهج الإنذار والتخويف والترهيب للنفس في الدنيا والآخرة ؛ فالنفس الطيبة تستبشر بهذا ، وترهبُ ذاك ؛ فمنهج التبشير والإنذار منهج الرسل ؛ ولذلك أحذر من يتهمون بعض الدعاة بأنهم لا يُجيدون إلا الترغيب والترهيب ! وأنهم لا يتكلمون في أحداث الواقع ! ولو قرأتَ القرآن كلَّه من أوله إلى آخره لعرفتَ أن منهج التبشير والإنذار هو منهج كلِّ الأنبياء والمرسلين ؛ فلا ينبغي لأحدٍ أن ينتقص من قدر داعية من الدعاة لاتباعه منهج الأنبياء والرسل الذي يردُّ الناس إلى رب العالمين ؛ فإن من يتكلَّم في واقع الأمة والأحداث المتلاحقة بالأمة ،ومن يتكلَّم عن الترغيب والترهيب ،كلٌّ منهم يُكمِّل الآخر ، فكلُّهم على ثغر من ثغور الدين ،وكلٌّ واحدٍ من هؤلاء تحتاج الأمة جهده ، وتحتاج الأمة منهجه ،وتحتاج الأمة دعوته ؛ فلا ينبغي أن ننتقص أحدًا ، ما دام يبذر بذرًا صحيحًا في أرض الدعوة .

ففي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلم[1] من حديث المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ : قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلاً مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ عَنْهُ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ ؛ فَقَالَ : « أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ ؟ فَوَالله ، لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ ، وَالله أَغْيَرُ مِنِّي ، مِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ الله حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلاَ شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ الله ، وَلاَ شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ الله ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ الله الْمُرْسَلِينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، وَلاَ شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِنَ الله ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللهُ الْجَنَّةَ » .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأنعام:٤٨، ٤٩] ، وقال تعالى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة:٢١٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الصافات:٧١ـ ٧٣] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الحدود ، باب من رأى مع امرأته رجلاً فقتله (٦٨٤٦) ، وانظره في كتاب التوحيد (٧٤١٦) ، ومسلم ، كتاب اللعان (١٤٩٩) .

وفي « صحيح مسلم »[(١)] عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ » .

وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم[(٢)] عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمهُ ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ ، فَالنَّجَاءَ ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ ، فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ ، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ ».

فمنهج التبشير والإنذار واضح بيِّن ؛ فمن أطاع النبيَّ ﷺ ، واستمعَ إلى أوامره ونواهيه وحدوده نجا وسعد في الدنيا والآخرة ، ومن عصى النبيَّ ﷺ ، ولم يستمع إلى أوامره ، واستهان بنواهيه وحدوده ، يهلك في الدنيا والآخرة .

وفي الحديث الذي رواه البخاري[(٣)] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قَالَ : « جَاءَتْ مَلاَئِكَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (١٨٤٤) .
(٢) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الرقاق ، باب الانتهاء عن المعاصي (٦٤٨٢) ، وانظره في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٣) ، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب شفقته ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم (٢٢٨٣) .
(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٧٢٨١) .

الْعَيْنَ نَائِمَةٌ ، وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ ، فَقَالُوا : إِنَّ لِصَاحِبِكُمْ هَذَا مَثَلاً فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلاً ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهُ نَائِمٌ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ ، وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ ، فَقَالُوا مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً وَبَعَثَ دَاعِيًا ؛ فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ الْمَأْدُبَةِ ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ ، وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْمَأْدُبَةِ ، فَقَالُوا : أَوِّلُوهَا لَهُ يَفْقَهْهَا ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهُ نَائِمٌ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ ، وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ ، فَقَالُوا : الدَّارُ الْجَنَّةُ ، وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ عَصَى اللهَ ، وَمُحَمَّدٌ فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ » .

ومنهج البشارة والنذارة في الحديث بيِّنٌ جليٌّ ، فمن أطاع الحبيب النبي ﷺ دخل الدار ، يعني : الجنة ، وأكل من المأدبة ، أي : استمتع بنعيم الجنة الذي لا يخطر على قلب بشر ، ومن عصى محمدًا ﷺ خسر في الدنيا والآخرة ، فلن يدخل الجنة ، ولن ينعم بنعيمها !

الوظيفة الرابعة : إصلاحُ وتزكية النفوس .

إصلاحُ النفوسِ وتزكيتُها من أعظمِ الغايات التي أرسل الله من أجلها الأنبياءَ والمرسلين . بل وما شرع الله العبادات إلا لتزكية النفوس وإصلاحها مع أنها حقٌّ لله على عباده .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:١٨٣] ، وقال تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ ﴾[الحج:٣٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:١٧٩] .

والنفس البشرية ضعيفة وقابلة للوقوع في النجاسات المعنوية ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة:٢٨] .

فالمراد بالنجاسة هنا كما قال أكثرُ أهل العلم : النجاسة المعنوية[1] .

والنفسُ البشرية قابلة أيضًا أن تتمرغ في الشهوات ؛ قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم:٥٩] .

والنفس البشرية قابلة لأن تتلوث بكثير من صفات الحيوان ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩] .

والنفسُ الإنسانية كذلك قد تنازع الله ﷻ في بعض صفاته ؛ فقد يتكبر الإنسان ! والكبرياء صفةٌ لخالق الإنسان .

فالنفسُ تحتاجُ إلى تزكية وتطهير وإصلاحٍ مستمرٍّ لتخليصها من الشرك ، ومن سوء الأخلاق ، وتنقيتها وتهذيبها .

ونقطةُ البدايةِ لإصلاح النفس وتزكيتها : التوحيد ؛ فهو أول وسيلةٍ لإصلاحِ النفوس ، وأول لبنة في أساس التزكية ، وأول خطوة على طريق الإصلاحِ والصلاح ؛ فمحال أن تجد نفسًا زكية لم تعرف توحيد الله ﷯ ، ولم تخلص وتحقق التوحيد لله تبارك وتعالى ؛ لذا ما من نبيٍّ بُعث أراد أن يزكي نفوس أمته إلا ودعاهم أول ما دعا إلى التوحيد ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣٤) ط المكتبة القيمة .

وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل:٣٦]، فإذا ارتبطت النفس بالله، وامتلأ القلب بالإيمان بالله، واليقين في الله، والعبودية والاستقامة على منهجه، زكت وسمت، وطهرت وسعدت في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾[طه:١٢٣، ١٢٤].

لذلك كان التوحيد هو البداية، وهو النهاية على طريق التزكية. ثم الصلاة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، والصلاةُ وسيلة لتزكية النفس، وإصلاحها وتطهيرها.

ففي «الصحيحين»[(١)] من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟» قَالُوا: لاَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: «فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا».

فالإنسان ضعيف بنفسه، فقد يسقط في حفرة معصية، أو في بئرٍ من آبار الذنوب؛ فإذا ما طهَّر نفسه وعاد إلى علام الغيوب، ووقف بين يديه، ووضع أنفه وجبينه على الأرض متذللاً لمولاه، واعترف لربه بفقره وضعفه وعجزه قَبِلَهُ الله تبارك وتعالى وطهَّره.

ثم الصيام الذي يورث التقوى؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾

---

(١) سبق تخريجه.

[البقرة:١٨٣] . نعم .. ما فُرِضَ الصِّيام للجوع والعطش والتعذيب ؛ وإنما للتهذيب ، كذلك الزكاة تطهيرٌ للنفس من البخل والشح ، ثم هي إشاعة لروح الحب والتعاون والإيثار بين أفراد المجتمع ؛ فإن رأى الفقراءُ الأغنياء ينفقون ويؤدون حقوق الله ﷻ ارتفعت الدعوات من هؤلاء الفقراء إلى رب الأرض والسماء أن يزيد الأغنياء غنًى ، فالغنيُّ المنفق المزكِّي يطهِّر نفسه ؛ قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:١٠٣] .

فالزكاةُ طهارةٌ للمال ، وطهارةٌ لصاحبِ المال من أمراض البخل والشح والطمع والجشع ، وتطهير كذلك للفقير من أمراض الحقد والحسد .. إلى آخر ذلك من الأمراض التي قد يُصاب بها كثيرٌ من الناس وهم لا يشعرون !!

والحجُّ وسيلة من وسائل تزكية النفس وتطهيرها كذلك ؛ قال تعالى :
﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾
[البقرة:١٩٧]

والذكر تزكية للنفس ،وطمأنينة للقلب ، وتجديد للإيمان ؛ قال تعالى :
﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨] .

ومن وسائل تزكية النفس : « التواضع » ؛ فإن التواضع ينفي عن النفس الكبر والغرور ، فلا يتواضع إلا كبير ،ولا يتكبر إلا الفارغُ الصغير ؛ خذ لذلك مثلاً : انظر إلى حقل القمح ، سترى سنابل القمح قد انقسمت إلى قسمين : ستجدُ سُنْبُلَةً قد انحنت في تواضعٍ وانكسار ،

وأخرى في السماء في شموخ واستعلاء . ما عليك إلا أن تقترب من هذه وتلك سترى السنبلة التي انحنت بتواضع هي السنبلةُ المليئة بحبات القمح ، أما التي رفعت رأسها في شموخ واستعلاء فستراها فارغة ؛ فلا يضع رأسه في الأرض تواضعًا وانكسارًا إلا المليء بالعلم ،والفضل ، والخلق ،ولا ترى رأسًا قد ارتفعت في شموخ وكبرياء إلا وكنْ على يقين بأنها رأس فارغة تافهة لا تحمل علمًا ،ولا تعرف فضله ؛ فكذلك التواضع .

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من المتواضعين الصادقين .

فمنهجُ الأنبياءِ والمرسلين هو تزكية النفس وإصلاحها بوحي الله ﷻ وإخراجُ الناسِ من الظلمات إلى النور ، إذ لا نور إلا نور الوحي ، وحَمَلَ مصابيح هذا النور على هذا الدَّرْب الرسلُ والأنبياءُ ، ثم العلماء والدعاة ؛ قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:٥] .

وبدون هذا النور تعمى القلوب ولا تزكوا النفوس ؛ قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦] .

وفي آيةٍ كريمة يُبيِّنُ اللهُ ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وظيفةَ الأنبياء والمرسلين في صورةٍ مُجملة ؛ فيقول سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ

يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢] .

فمحمدٌ ﷺ يتلو عليهم القرآن الكريم ، ويزكي نفوسهم ، ويعلمهم الكتاب (أي : القرآن) ،والحكمة (أي : السنة) ـ باتفاق جماهير المفسرين .

هذه وظيفة النبيِّ ﷺ ، ووظيفة المرسلين من قبله .

وروى أحمد والحاكم [(١)] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ ﷺ قَالَ : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاَقِ ».

نسأل الله ﷻ أن يطهر نفوسنا ، وأن يزكيها ، وأن يصلح قلوبنا ، إنه على كل شيء قدير .

الوظيفة الخامسة : إقامة الحجة على الناس .

وهذا من عظيم رحمة الله وفضله وعدله أن أرسل الرسل ؛ كما في الحديث الذي رواه مسلم [(٢)] عن ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّهُ ﷺ قَالَ : « لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ ﷻ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ ، وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ ».

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٨) ،والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣) ،والحاكم (٢/ ٦١٣) وقال : « صحيح على شرط مسلم » ووافقه الذهبي ، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٩٢) ، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٤٥) ،و«صحيح الجامع» (٢٣٤٩) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب التوبة ، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش (٢٧٦٠) .

وفي رواية في الصحيحين ـ وقد تقدمت ـ أنه ﷺ قال: « وَلاَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ الله ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ الله الْمُرْسَلِينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ »[1].

فمن عظيم رحمة الله وعظيم عدله أنه لا يعذب أحدًا ما لم تبلغه الحجة ؛ فلابد من إقامة الحجة ، ولو عذب الله أهلَ سماواته وأرضه لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم ، فهو المالك والملك ، والبشرُ عبيدُه في ملكه ، والمالك يتصرف في ملكه كيف يشاء : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣]، ومع ذلك فقد أرسل الأنبياءَ والرسل ليقيموا الحُجَّةَ على خلقِ الله لماذا ؟ لأن الله حينما خلق الخلق جميعًا في عالم الذر ،أخذ الميثاق عليهم جميعًا أن يعبدوه ، وألا يشركوا به شيئًا ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[الأعراف:١٧٢، ١٧٣] .

فلما خُلقوا اجتالتهم الشياطين فأنستهم هذا الميثاقَ الأول ، فمن عدل الله ورحمته أرسل الرسلَ والأنبياء ، ليذكروهم مرةً ثانيةً بهذا الميثاقِ الأول ؛ قال تعالى : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[النساء:١٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ

(١) البخاريُّ (٧٤١٦) ، ومسلم (١٤٩٩) .

وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء:٤١، ٤٢].

فالله ﷻ يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة ،ويأتي بكل رسول أرسل لأمته وقومه ، ليقيم به الحجة عليهم أنه قد أرسل إليهم هذا الرسول وهذا النبيَّ ، فذكَّرهم وحذَّرهم ، ولكنهم عاندوه وأعرضوا عنه .

روى البخاري[1] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : هَلْ بَلَّغْتَ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيُقَالُ لأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ ، فَيَقُولُ : مَنْ يَشْهَدُ لَكَ ؟ فَيَقُولُ : مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » . فذلك قول الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣] .

وقد قال تعالى : ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك:٨ـ ١١] .

نسأل الله أن يحرِّم وجوهنا على النار .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب التفسير ، باب ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣] (٤٤٨٧) ، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٤٩) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية [(١)] ـ طيَّب الله ثراه ـ في « مجموع الفتاوى » :

« دلَّ الكتاب والسنة على أن الله لا يعذِّب أحدًا إلا بعد إبلاغ الرسالة ؛ فمن لم تبلغه جملة لم يعذِّبه جملة ، ومن بَلَغَتْه جملة دون بعض التفصيل لم يعذِّبه إلا على إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[النساء:١٦٥] .

وكما في قوله تعالى : ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ﴾[الأنعام:١٣٠] ؛ وكما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[الإسراء:١٥] ؛ وكما في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[فاطر:٣٧] ؛ وكما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[الزمر:٧١] ؛ وكما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴾ [القصص:٥٩] ؛ وكما في قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴾[الملك:٨، ٩] ؛ وكما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ

(١) « مجموع الفتاوى » (١٢/ ٤٩٣ـ ٤٩٦) بتصرف.

ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه:١٣٤] ؛ وكما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص:٤٧] .

ونحو هذا في القرآن في مواضع متعددة ؛ فمن كان قد آمن بالله ورسوله ، ولم يعلم بعض ما جاء به الرسول فلم يؤمن به تفصيلاً ؛ إمَّا لأنه لم يسمعه أو سمعه من الطريق التي لا يجب التصديق بها ، أو اعتقد معنى آخر لنوع من التأويل الذي يعذر به ، فهذا قد جعل فيه من الإيمان بالله وبرسوله ما يوجب أن يثيبه الله عليه ، وما لم يؤمن به فلم تقم عليه به الحجة التي يكفر مخالفها ، وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن من بَلَغَتْهُ رسالة النبيِّ ﷺ فلم يؤمن بها فهو كافر لا يقبل منه الاعتذار بالاجتهاد ، هذا هو الذي بَلَغَتْهُ رسالة النبيِّ ﷺ ، وفي ذلك الحديث الذي رواه مسلم[1] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ ﷺ قَالَ : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ » .

الوظيفة السادسة : سياسة الأمة .

فالرسل لم يرسلوا بمنهج مستقل عن حياة الناس وشئونهم ، فسياسةُ أمور الناس من الدين ، فما بُعث نبيٌّ بعقيدة تشذ عن سياسة أمور العالمين ، هذا محال ؛ فالإسلام عقيدة تنبثق منها شريعة تنظم هذه

---

(١) سبق تخريجه .

الشريعةُ كلَّ شئون الحياة ، ولا يقبل الله من قوم شريعتهم إلا إذا صحَّت عقيدتهم ؛ فالشريعة تشملُ كلَّ أمور الحياة ، ولا تشذ عن العقيدة ؛ بل هي أصلاً مشتقة من العقيدة ؛ فلم يأت نبيٌّ ولا رسول بعقيدة مجردة تعلِّم الناس العقيدة في المساجد وفقط !

فالله ﷻ قد عاب على اليهود فعلهم هذا ؛ فقال تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ﴾[البقرة:٨٥] .

فالله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ أمر الأُمَّة في القرآن فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣] . وأمرها في نفس السورة بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾[البقرة:١٧٨] .

وهو القائِلُ سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[المائدة:٦] .

وهو الذي قال في نفس السورة : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[المائدة:٤٤] .

فالدين كلٌّ لا يتجزأ ، هذا المنهج لسياسة أمور الناس في المعاملات والسياسة والاقتصاد والتجارة والأكل والشرب واللبس ، في كل ذرات الحياة ؛ فلا ينبغي أن نكون داخل المسجد بمنهج ،وخارجه بمنهج آخر ، قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور:٥١، ٥٢] .

وقال في أهل النفاق : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء:٦٠، ٦١]

فسياسة الأمة في كل أمورها من وظائف المرسلين .

فالنبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ أُمِرَ بقوله تعالى : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة:٤٩] ، وقال تعالى : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص:٢٦] ،

وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[النساء:٨٠]، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[آل عمران:٣١] .

إذًا شعار المسلم في المسجد ، والوظيفة ، في بيته وفي الشارع ، في وسيلة المواصلات : سمعنا وأطعنا لله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ ولرسوله ﷺ.

فلا ترى المسلم بوجهين : بوجه في بيت الله ، وبوجه آخر ينفصل تمامًا عن هذا الوجه في غير بيت الله ﷻ!!

هذا انفصام نكد ؛ فسياسة الأمة بالأحكام الربانية والنبوية من أعظم وظائف الأنبياء والمرسلين ؛ فلقد أقام النبيُّ ﷺللإسلام دولة من فتات متناثر ؛ فإذا هي بناء شامخ لا يطاوله بناء . دولة تتوافر لها كل مقومات الدولة التي يضع أصولها الآن علماء الاجتماع ، فالله لم ينزل منهجًا مجردًا عن حياة الناس ؛ كلاً ؛ بل أنزل الله المنهج ليسوس الأنبياءُ به الناس ليسْعَدُوا بمنهج الله في دنياهم وأخراهم ؛ قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[الملك:١٤] .

فالإنسان إن تجرأ ، ونسي نفسه ، وراح ليؤصل ويشرِّع لبني جنسه !! فتشريعه محكوم بصفاته وسماته ، فهو يتسم بالجهل ويتسم بالقصور ، ومحدودية العمر ؛ فإن عاش الإنسان في زمان لا يعيش في غيره ،وإن رأى الإنسان مكانًا لا يرى غيره ،وإن شرَّع لقوم يَعيشُ بينهم ؛ فإن هذا التشريع قد لا يصلح لغيرهم من بني جنسهم ، ومن أعظمِ الأدلةِ على

ذلك أن تشريعًا يُوضع لسنوات ثم يأتي بعد ذلك من ينتقد هذا التشريع ويضيف إليه ويحذف منه ، ليعلم الجميع أن منهج الله وحده الذي يعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون ، والذي يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير ، هو المنهج الذي يصلح ويسعد البشر في الدنيا والآخرة لو كانوا يعقلون .

قال تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:١٢٣، ١٢٤] .

ثم اعلم أن الأنبياء منهم النبيُّ الملك والعبد الرسول .

فالنبيُّ الملك يفعل ما فرض الله عليه ، ويترك ما حرم الله عليه ، ويتصرف في الولاية والمال بما يحبه ويختار من غير إثم عليه .

مثل نبي الله داود وسليمان عليهما السلام ؛ قال تعالى في شأن سليمان عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص:٣٥-٣٩] .

أي : اعط من شئت ، واحرم من شئت ، لا حساب عليك .

أما العبد الرسول : فلا يعطي أحدًا إلا بأمر الله ، ولا يعطي من يشاء ، ويحرم من يشاء ؛ بل يعطي من أمره ربه بإعطائه ، ويولِّي من أمره الله بتوليته ؛ فأعماله كلها عبادات لله تعالى ؛ كنبينا محمد ﷺ .

فلقد روى البخاريُّ [١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قَالَ : « مَا أُعْطِيكُمْ وَلاَ أَمْنَعُكُمْ ، إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ » .

والعبد الرسول أفضل من النبيِّ الملك [٢] .

ولكلِّ نبيٍّ بطانتان :

روى البخاريُّ [٣] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ ، وَلاَ اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلاَّ كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ : بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ ، فَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ تَعَالَى » .

ولكل نبيٍّ أنصار وحواريون :

قال تعالى حاكيًا عن نبيِّ الله عيسى عليه السلام : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٥٢] .

وفي « الصحيحين » [٤] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ » .

وروى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب فرض الخمس ، باب قول الله تعالى : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال:٤١] ، يعني للرسول قَسْم ذلك (٣١١٧) .

(٢) « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » (٤٥ـ ٤٧) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الأحكام ، باب بطانة الإمام وأهل مشورته (٧١٩٨) .

(٤) أخرجه البخاريُّ كتاب الجهاد والسير ، باب فضل الطليعة ((٢٨٤٦) ، ومسلم ،كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل طلحة والزبير رضي الله عنهما (٢٤١٥) .

الله فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ .. »[1] .

ولكل نبيٍّ أتباع .

روى البخاريُّ[2] عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ﷺ قَالَ : « قَالَتِ الأَنْصَارُ : يَا رَسُولَ الله، لِكُلِّ نَبِيٍّ أَتْبَاعٌ ، وَإِنَّا قَدِ اتَّبَعْنَاكَ ، فَادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَ أَتْبَاعَنَا مِنَّا ، فَدَعَا بِهِ » .

وقد سبق حديث : «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلاَنِ ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ ... الحديث » .

* وأتباع الرسل أهل استكانة لا أهل استكبار :

كما في قصة هرقل ملك الروم الطويلة .

ففي « الصحيحين »[3] من حديث ابن عباس ﷺ وفيه : أن هرقل سأل أبا سفيان جملة أسئلة عن رسول الله ﷺ وخبره ؛ ومنها قوله : « فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ ؟ قُلْتُ : بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ » ثُمَّ قَالَ فِي إجَابته : « وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ » .

*****

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاريُّ ،كتاب مناقب الأنصار ، باب أتباع الأنصار (٣٧٨٧، ٣٧٨٨) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الوحي، باب (٦) ، حديث (٧) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب كتاب النبيِّ ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (١٧٧٣) .

عصمة الأنبياء والمرسلين

وهذا مبحثٌ من أهم المباحث في أركان الإيمان ؛ لأن المستشرقين وضعاف النفوس قد اصطادوا في الماء العكر ، ووقفوا عند بعض الآيات فقلبوا معانيها تمامًا ،وشكَّكُوا في عصمة الأنبياء والمرسلين ، فنودُّ الآن أن نتعرف على صفة العصمة كصفة للأنبياء والمرسلين ، قد ميَّزهم الله ﷻ بها على كلِّ البشر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

فما معنى العصمة ؟

العصمة في اللغة ؛ كما قال ابن منظور في « لسان العرب »[1] : هي المنع .

وعصمة الله عبده أن يعصمه مما يوبقه ، عَصَمَهُ يَعْصِمُهُ عَصْمًا .

وقال الزجاج في قول الله ﷻ حكاية عن ولد نبيِّ الله نوح : ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ [هود:٤٣] ، أي : يمنعني ويحول بيني وبين الغرق .

وقول الله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف:٣٢] .

أي : فامتنع عنها ، يقول القائل : اعتصمت بالله ــ جَلَّ وَعَلاَ ــ أي : امتنعت برحمته وفضله ولطفه عن معصيته .

وكذلك قال الإمام القرطبيُّ : سُميت عصمة ؛ لأنها تمنع من ارتكاب

---

(١) «لسان العرب» (١٢/ ٤٠٣) ، و«القاموس المحيط» (١/ ١٤٦٩) ، و«تاج العروس» (١/ ٧٨١٩) ، و«مختار الصحاح» (١/ ٤٦٧) ، و«النهاية في غريب الحديث والأثر» (٣/ ٤٨٩) .

المعاصي [١].

أما في الشرع : فهي فضلٌ من الله ﷻ يحمل النبيَّ أو الرسولَ على فعلِ الخيرِ ويزجره عن الشر ، مع بقاء الاختيار تحقيقًا للابتلاء .

فالعصمة إذًا حفظ الله لأنبيائه ورسله من الوقوع في الذنوب والمعاصي والمنكرات والمحرمات : ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الجمعة:٤] .

ولذلك ينبغي أن نعلم أنه ما أطاع الله الطائعون إلا بفضله وحلمه وكرمه .

يقول تعالى : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[الحجرات:١٧] .

إذًا من وفَّقه الله للإيمان ، وأعانه على تكاليفه ، وسدَّده للاستمرار والثبات على ذلك ، فليعلم بأن ذلك محض فضل الله ﷻ عليه ، والله سبحانه وتعالى لا يظلم أحدًا : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت:٤٦] .

والسؤال الآن : ما الحكمة في أن الله ﷻ قد عصم الأنبياء والمرسلين من الوقوع في المعاصي والذنوب ؟

والجواب الواضح : أن الله تبارك وتعالى بعث الأنبياء والمرسلين ليكونوا النموذج الكامل في دنيا البشر ، ليكون النبيُّ قدوة لقومه ، ويكون هذا الرسول أسوة لأمته ، فمحال أن يقع هذا النبيُّ أو هذا الرسول في معصية من المعاصي أو في كبيرة ، وهو في الوقت نفسه يدعو

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ١٥٠) .

قومه للابتعاد عنها !! هذا من التناقض الذي لا يمكن أن يقع بحال .

فعلى مستوى الدعاة أو الأئمة أو الخطباء لو أن الناس سمعوا داعيًا أو إمامًا يأمر الناسَ مثلًا بعدم التدخين ، ويفرد خطبة كاملة أو محاضرة كاملة ليبيِّن حرمةَ التدخين ،ويُدلل على هذا بالأدلة من القرآن والسُّنَّة ، ومن أقوال أهل الطب والعلماء في العصر الحالي ، ثم بعد هذه الخطبة يخرج فيقف على أعتاب المسجد ، فيُخرج علبة الدخان من جيبه ويدخن سيجارة ! لك أن تتصور ما الذي سيحكم به كلُّ من سمع الخطبة ؟ أنا أعتقد أنه إن لم يُضرب ، فسوف يُهان ، وسوف يخرج النَّاسُ يضربون كفًّا بكفٍّ على سفاهة هذا السفيه ، الذي ذكَّر بشيءٍ أنكره بسلوكه في التو واللحظة .

ولذلك أقول : إنه من ابتلي من الدعاة أو الخطباء أو الطلاب أو أي أحدٍ من الناس بشيءٍ ، ليس معنى هذا ألا يحذر الناس من هذا الشيء ، بل يُحذرهم ويُذكرهم ، وإن ابتلي هو فليستتر ، وليستعن بالله ، وليتضرع لله أن يطهره من هذا الذنب ، وهذا البلاء ، وهذا أمرٌ مهمٌّ ؛ فلو أن شابًّا من الشباب ابتلي مثلاً بالتدخين أو بالعادة السرية ؛ فهل معنى هذا أنه يحلُّ له أن يُبيح هذه العادة أو الفعلة لزملائه ؟ هل معنى هذا أنه يحلُّ له إذا سأله أحد من زملائه عن حكمها أن يقول له : نعم ، هذا حلال ، وإنها جائزة ؟!! لا .

فهذا مدخل مهمٌّ ،ولطيفة لابد من التنبُّه لها ؛ فلو أن الله أرسل نبيًّا يأتي على دين قومه بالهدم من الألف إلى الياء ، يبين ما عليه بطلان قومه

من معتقد ، ويبين فساد ما عليه القوم من أخلاق ، ويبين انحراف ما عليه القوم من سلوك ، ثم يأتي هذا النبيُّ ، فيقع فيما يحذر الناس منه ، لن يسمع إليه أحدٌ ،ولن يؤمن به أحد ،ولذلك إذا خالف القولُ العملَ بُذرت بذورُ النفاق في القلب ، إما أن تنموا وتتفرع وتصبح أشجارًا ضخمة يصعب بعد ذلك أن تجتث من جذورها ،وإما أن تموت بذور النفاق في القلب إذا سقيت بماء الإخلاص وتوبعت بعد هذا الري بمتابعة سيد الناس ﷺ .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾[الصف:٢، ٣] .

ولذلك في « الصحيحين » [(١)] من حديث أسامة بن زيد ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: « يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى ، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ ، فَيَقُولُونَ : يَا فُلاَنُ ، أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : بَلَى ، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ ».

هذا الذي يأمر وهو يخادع الناس ، فإن خلا بمحارم الله انتهكها ، شتان شتان بين هذا وبين رجل إن ذل لنفسه ، أو لهواه ، أو للشيطان ، أو للدنيا في معصية وَجِلَ قلبه ،وبكت عينه ؛ استحياءً من الله ، وعاد إلى

---

(١)أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٧) ، ومسلم ، كتاب الزهد ، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله ، وينهى عن المنكر ويفعله (٢٩٨٩) .

الله ، وسأل الله التوبة والمغفرة ، فالأول يخادع الله ورسوله والمؤمنين ، فهذا عند موته يغلب عليه ما تعلَّق قلبُه به في الحياة الدنيا ،لكن رجل يتوب ويعصي ، ثم يتوب ويعصي ، ثم يتوب ويعصي ، ثم يتوب ، وفي كلِّ مرة تحرقِ دموعُ الندم قلبَه ،وتطهرُ دموعُ التوبة ثيابَه ، وتغسلُ دموعُ الأوبة بدنَه ، هذا ــ وإن استمر على هذا ــ يرجى أن يُختم له بحُسن الخاتمة .

إذًا النبيُّ أو الرسول الذي يُبْعَثُ معصومٌ من الخطايا والذنوب ؛ لأن الله قد بعثه نموذجًا كاملاً لبني الإنسان ، وقدوةً طيبة ،وأسوةً حسنة ، يقتدي الناس به ، فمن المحال أنٍ تكون القدوة والأسوة على غير ما جاءت به ، وعلى غير ما تأمر الناس به . فهذه هي الحكمة من عصمة الأنبياء .

السؤال الثاني : هل عصمة الأنبياء تكون قبل البعثة أم بعد البعثة ؟

الجواب : أن هذه العصمة تكون قبل البعثة وبعد البعثة ؛ فمن المحال أن يبعث الله ﷻ رسولاً أو نبيًّا يدعو الناس إلى التوحيد ، وهو قبل البعثة كان على الشرك !! فهذا مستحيل ! والأدلة على ذلك من الشرع والعقل كثيرة :

أولاً : عصمة الأنبياء من الشرك قبل البعثة ؛ فالأنبياء فطرهم الله على التوحيد ابتداءً وانتهاءً ؛ فإن العقول السليمة والفطرة القويمة تأبى كل الإباء أن تنقاد لداعٍ يدعو الناس إلى التوحيد ، وهم يعرفونه ، ويعرفون حق المعرفة أنه كان معهم في صباه على غير التوحيد .

ومن المعلوم أن الكفار قد رموا الأنبياء جميعًا بالسحر والجنون والكذب

والكهانة ، لكننا لا نجد قومًا من الكفار رموا نبيَّهم بالشرك أبدًا ، ولو كانوا يعلمون أن النبيَّ الذي بُعث فيهم كان على الشرك لكانت هذه هي القاصمة ! أو لكانت هذه التهمة بمثابة القشة التي ستقصم ظهر البعير ، ولكننا ما رأينا قومًا رموا نبيَّهم بالشرك ، ومن الأدلة القرآنية الرقيقة على ذلك قول الله ﷻ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧، ٨] .

هذا الميثاق الذي أخذه الله على أنبيائه ورسله ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ هو أن يبلغوا رسالة الله ، ودين الله إلى أقوامهم ـ هذا الميثاق يقول الله تعالى فيه: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ﴾ أي : أخذنا في الماضي .

يقول مجاهد ـ وهو إمام عَلَمٌ من أئمة التفسير[1]: ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ قال : يعني : المبلِّغين المؤدين من الرسل » فهذا الميثاق الذي أخذه الله على جميع الأنبياء والمرسلين هو أن يبلغوا أقوامهم دين الله ، وكان هذا في عالم الذر ، أي : قبل أن يخلقوا أجسامًا في عالم الدنيا الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٢] .

عهد الله إليهم قبل ظهورهم بتبليغ دينه وتوحيده ؛ فكيف يصدر

(١) أخرجه الطبري في « تفسيره » لسورة (الأحزاب : ٧، ٨) (١٠، ٢٦٢) .

عنهم ما يخالف هذا الميثاق بعد النبوة ، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج:٧٥] .

فلقد خلق الله السموات سبعًا ، واختار منها العليا ، فجعلها قريبة من عرشه ، وخلق الله الأرض واختار منها مكة ، ففضَّلها على جميع الأرض ،وخلق الله الشهور وفضَّل شهر رمضان على جميع الشهور ، وخلق الله الأيام ففضَّل يوم الجمعة على بقية الأيام ، وخلق الله الخلق فاصطفى من الخلق الأنبياء ، واصطفى من الأنبياء الرسل ، واصطفى من الرسل أولى العزم الخمسة ، واصطفى من أولي العزم الخليلين الحبيبين : إبراهيم ، ومحمدًا ـ عليهما الصلاة والسلام[1] .

واستدل أهلُ العلم على عصمة الأنبياء قبل البعثة بقول الله ﷻ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٨١]

فهذا أيضًا ميثاق أخذ على جميع الأنبياء ، إذا بُعث نبيُّ الله محمد ﷺ أن يؤمنوا به وينصروه ، وإن وُجد نبيٌّ في عهده ﷺ وجب على هذا النبيِّ أن يأتي إلى الرسول ﷺ ليؤمن به وليجاهد تحت رايته ولينصره ولينصر دينه ، وهذا من أعظم الأدلة على امتثال الأنبياء لعهد الله ، إذًا لا

(١) «زاد المعاد» (١/ ٤٢ ، ٤٤) .

يجوز للنبيِّ أو لغيره من الأنبياء أن يخالفوه بعد أن أخذ الله عليهم الميثاق .

وروى البخاريُّ ومسلم [1] من حديث أنس ﷺ قال: كان أبو ذرٍّ يحدث أن رسولَ الله ﷺ قال : « فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ ، فَفَرَجَ صَدْرِي ، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي ، ثُمَّ أَطْبَقَهُ » .

وفي رواية [2] : «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً ؛ فَقَالَ : هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ، ثُمَّ لأَمَهُ » .

إذًا محال على النبيِّ ﷺ الذي نُقِّي قلبه ، وزُكِّيَ فؤاده ، وطُهِّر صَدْرُه . واستخرج منه ما للشيطان من حظٍّ ونصيب ، وملأ جبريل ﷺ قلبه حكمة وإيمانًا ؛ فمحال لنبيٍّ كهذا أن يخالف ميثاق الله الذي أخذه عليه ، وكذلك كلُّ نبيٍّ وكلُّ رسولٍ بعثه الله تعالى ،وقد أجمعت الأمة على عصمة الأنبياء والمرسلين من الشرك قبل النبوة وبعد النبوة ، ولكن بكلِّ أسف فقد فُهِمت آيات عديدة بخطأٍ شديدٍ ، فخرج منها المستشرقون وبعض ضعاف النفوس بالطعن في عصمة الأنبياء قبل النبوة .

فتدبَّر معي لنُزيح ونزيل هذه الشبهة ،ونؤكد أن الله تعالى عصم

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الصلاة ، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء ؟ (٣٤٩) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ ومعراجه إلى السموات وفرض الصلوات (١٦٣) .

(٢) المصدر السابق ، وهو في مسلم (١٦٢، ٢٦١) .

الأنبياء من الوقوع في الشرك قبل النبوة وبعد النبوة .

الآية الأولى : قوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم:١٣] ، وأيضًا قول الله تعالى : ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف:٨٨، ٨٩] .

فَهِمَ البعض من هاتين الآيتين أن الأنبياء كانوا على دين أقوامهم قبل البعثة ،وأن شعيبًا عليه السلام كان على دين قومه قبل البعثة ؛ وهذا قولٌ خطأ مقلوبٌ مردودٌ عليهم من عدة وجوه :

الأول : أن الأنبياء قد نشأوا بين أقوامهم ، ولم يظهروا مخالفة لهم قبل بعثتهم ، فظنَّ الكفار لهذا أن الأنبياء كانوا على ملتهم قبل البعثة ؛ فالنبيُّ ﷺ نشأ في مكة، وكان أهلُها يعبدون الأصنام ، فلم ينكر النبيُّ ﷺ عليهم ما كانوا يصنعون إلا بعد بعثته لهم ، لكن النبيَّ ﷺ ترك هذه البيئة الشِّركية ، وذهب بعيدًا في أعلى قمة جبل النور في غار حراء ، ليبحث ويتعبَّد ويتفكَّر في الله عز وجل .

فالنبيُّ ﷺ لم ينكر على قومه ما يفعلوه ، ولكنه لم يكن مشاركًا لهم فيما يفعلوه ؛ بل كان مخالفًا لهم ﷺ بسلوكه ، فبعضُ الناس ظن أن عدمَ إنكارِ النبيِّ ﷺ على قومه قبل البعثة عبادتَهم للأصنام أنه كان موافقًا ومشاركًا لهم على ملتهم ودينهم !! وهذا باطلٌ باطلٌ باطلٌ .

الثاني : أن قول الكفَّار كما حكاه الله تعالى في الآية ؛ قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[إبراهيم:١٣] .

أي : لتعودن إلى ما كنتم عليه قبل ادِّعاء الرسالة من السكوت عن تعييب ديننا وعدم التعرض لآلهتنا بالقدح والسب .

الثالث أن الكفار من الأمم خاطبوا بهذا كلَّ رسول ؛ فهل معنى هذا أنَّ كلَّ رسولٍ كان على الشرك الذي عليه قومُه قبل البعثة ؟! محال .

الرابع :أن العَوْدَ من جانبِ الرسل ليس بمعنى الرجوع إلى الكُفر ، وهذا ما تؤكده اللغة والأحاديث النبوية الشريفة ، فالعود في اللغة يكون بمعنى الصيرورة ، أي: كان على حال ، ثم صار إلى حال آخر .

كما في « صحيح البخاريِّ ومسلم » [(١)] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « فَيَقْبِضُ الله قَبْضَةً مِنَ النَّارِ ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ ، قَدْ عَادُوا حُمَمًا ، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ : نَهْرُ الْحَيَاةِ ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ » .

أي : صاروا فحما أسودَ اللون من شدَّة الاحتراق .

قال الإمام النووي رحمه الله [(٢)]: « ليس بلازمٍ في قوله أن يرجع إلى حالة

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال (٢٢) ،وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٣) .

(٢) مسلم بشرح النووي (٢/ ٣٧) .

كان عليها قبل ذلك ؛ بل معناه صار » .

فمعنى﴿ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ :أي : لتصيرون .

وأيضًا : وقف بعض ضعاف النفوس عند قوله تعالى : ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [العنكبوت:٢٦] .

فقالوا: إن لوطًا عليه السلام قبل بعثة إبراهيم عليه السلام كان على دين قومه على غير الإيمان ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾ ، وهذا خطأ ؛ فالإيمان في الآية هنا بمعنى التصديق ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ [يوسف:١٧] .

أي: ما أنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين ؛ ومن ثَمَّ لما رأى لوط عليه السلام معجزات الخليل إبراهيم عليه السلام آمن به وبنبوته وبرسالته .

وأيضًا : وقف هؤلاء عند قول الله تعالى حكاية عن نبيِّ الله موسى عليه السلام الذي ردَّ على فرعون الذي امتن عليه :﴿ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء:١٨] ؛ فردَّ عليه نبيُّ الله موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الشعراء:٢٠] .

فقالوا : إن هذا نبيٌّ من الأنبياء ، كان على الضلال قبل بعثته ؛ فهذا ينفي ما تقولونه عن عصمة الأنبياء والمرسلين من الشرك أو من الضلال قبل البعثة .

والجواب : لا ؛ فالمعنى هنا أيضًا واضح جدًّا ؛ كما قال أهل التفسير بأن الضلال في الآية بمعنى الخطأ ؛ يقال : فلان ضلَّ الطريق ، أي : أخطأ ولم يسلك الطريق الصحيح ؛ فالمعنى أن نبيَّ الله موسى عليه السلام لما وكز القبطيَّ من أهل مصر وكزه وهو لا يريد قتله ؛ فمن المعلوم أن

الوكز لا يؤدي للموت أو القتل ، لكن شاء الله وقدَّر أن يموت القطبيُّ ، ولكن موسى عليه السلام عندما وكز الرجل وكزه بنية التهديد ونية الزجر ، وكزه وهو ذاهل أن الوكز سيفضي إلى قتله ،والضالُّ عن الشيء : الذاهل عن معرفته ؛ فلو فعل الإنسان شيئًا من غير قصد ، وغير عمد ؛ فمن المعلوم أن هذا يعفو الله عنه .

فلقد قال رسولُ الله ﷺ[(١)]: « رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأُ ، وَالنِّسْيَانُ ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ ».

أيضًا : وقف بعضهم عند قول الله تعالى في حق نبينا المصطفى ﷺ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ ﴾ [الشورى:٥٢] .

فاتهموا نبينا ﷺ أنه كان على غير إيمان قبل البعثة ؛ لقوله : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ ﴾ .

والردُّ : أننا نعلم أن النبيَّ ﷺ قبل البعثة ما كان يدري شيئًا عن القرآن ، ولا يعرف شيئًا عن الكتاب ، ولكن المراد بالإيمان هنا الإيمان مصدر بمعنى المفعول ؛ أي : ما كنت تدري ما يجب عليك أن تؤمن به من الفرائض التي افترضها الله عليك وعلى أمتك في القرآن الذي أنزله ربك عليك .

والإيمان هنا هو الإقرار بالوحدانية لله ﷻ ؛لأنَّ النبيَّ ﷺ قبل البعثة

---

(١) سبق تخريجه .

كان يوحِّد الله ﷻ بدليل تعبده في غار حراء بعيدًا عن آلهة المشركين التي كانوا يعبدونها من دون رب العالمين ؛ فلا يصحُّ أبدًا أن يُفهم بأن النبيَّ كان على غير الإيمان !!

كذلك كانوا يقولون بأن النبيَّ ﷺ كان على غير هدى قبل البعثة بدليل قول الله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى:٧] .

وهذا فهمٌ خاطئٌ للآية الكريمة .. فهمٌ مغلوطٌ ومقلوبٌ ، وإنما ينبغي ألا يُفهم أن النبيَّ ﷺ وقع في الغيِّ والضلال قبل البعثة ،وإنما يُفهم منها ما يلي :

أولاً : ووجدك بين أهل الضلال ؛ فعصمك عن أن تنهج منهجهم وتوافقهم فيه ، وهداك للإيمان .

الثاني : وجدك ضالًّا عن شريعتك التي أوحاها الله إليك التي لا تعرفها قبل الوحي إليك ، فهداك الله إلى شريعته ،ووجدك متحيرًا في أن تجد الطريق التي تُخرج بها قومك من الشرك الغليظ الذي هم عليه إلى الإيمان ، فهداك إلى الطريق المُثلى التي تخرجهم من ظلمات الشرك إلى أنوار الإيمان . وهذا أرق الأقوال .

وأيضًا : أخطأوا في فهم قول الله ﷻ : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف:٣] .

ففهموا من الآية أن النبيَّ ﷺ كان قبل البعثة في غفلة شديدة عن الله ،

وهذا خطأ ، وإنما المراد بالغفلة ، أي : عن أمر يوسف وأبيه وإخوته ، فما علمته إلا مِنَّا ، ومن المعلوم أنه ﷺ ـ كما هو واضح في كلِّ كتب السيرة ـ أنه كان مخالفًا لكلِّ قومه في خلوته ؛ بل من حفظ الله له ما رواه البيهقيُّ ، وابن حبان والحاكم والبزار وغيرهم [1] بسندٍ حسنٍ ، وقال فيه الحافظ ابن حجر رحمه الله : « وهو حديث حسن متصل ، ورجاله ثقات » عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يَقُولُ : « مَا هَمَمْتُ بِقَبِيحٍ مِمَّا يَهِمُّ بِهِ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ إِلاَّ مرَّتَيْنِ مِنَ الدَّهْرِ ، كِلْتَاهُمَا عَصَمَنِي الله منهُما ، قلْتُ ليلةً لفَتَى كَانَ مَعِي مِنْ قُرَيْشٍ بِأَعْلَى مَكَّةَ فِي غَنَمٍ لأَهْلِنَا نَرْعَاهَا : أَبْصِرْ لِي غَنَمِي حتَّى أَسْمَرَ هذِهِ اللَّيْلَة بِمَكَّةَ كَمَا يَسْمَرُ الفِتْيَانُ ، قَالَ : نَعَمْ ، فَخَرَجْتُ ، فَلَمَّا جِئْتُ أَدنَى دَارٍ منْ دُورِ مَكَّةَ سَمِعْتُ غِنَاءً وَصَوْتَ دُفُوفٍ وَمَزَامِير ، قُلْتُ: مَا هَذَا ؟ قَالُوا : فُلانٌ تَزَوَّجَ فُلاَنَةَ لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ تزوَّجَ امْرَأَةً منْ قُرَيْش ، فَلَهَوْتُ بِذَلِكَ الغِنَاء وبِذَلِكَ الصَّوْتِ حتَّى غَلَبَتْنِي عَيْنِي ، فَنِمْتُ ، فَمَا أَيْقَظَنِي إلاَّ مسُّ الشَّمْسِ ، فَرَجَعْتُ ، فَسَمِعْتُ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَقِيلَ لِي مِثْلَ مَا قِيلَ لِي ، فَسَمِعْتُ كَمَا سَمِعْتُ ، حَتَّى غَلَبَتْنِي عَيْنِي ، فَمَا أَيْقَظَنِي إلاَّ مسُّ الشَّمْسِ ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي فَقَالَ لِي : مَا فَعَلْتَ ؟ فَقُلْتُ : مَا فَعَلْتُ شَيئًا ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « فَوالله مَا هَمَمْتُ بَعْدَهُمَا بِسُوءٍ مِمَّا يَعْمَلُهُ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ حتَّى أَكْرَمَنِي الله بِنُبُوَّتِهِ » .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٢٧٢) ، وأبو نعيم في «الدلائل» (١٢٨) ، والحاكم (٤/ ٢٤٥) ، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٣) ، والبخاري في «التاريخ الكبير» معلقًا (١/ ١٣٠) باختصار ، والبزار، كما في «كشف الأستار» (٢٤٠٣) ، وعزاه الحافظ في «المطالب العالية» (٤٣٢٢) لإسحاق بن راهويه في «مسنده» ، وقال الهيثمي في « المجمع » (٨/ ٢٢٦) : « رواه البزار ورجاله ثقات » .

إذًا الأنبياء عُصِموا من الوقوع في الشرك قبل البعثة ، وسوف أتطرق إلى صغائر الذنوب ، ولكن الذي أريد أن أوضحه الآن هو الحكمة من عصمةِ الأنبياء والمرسلين ، وهو: أن الله بعثهم نموذجًا كاملاً لبني الإنسان ، فجعلهم قدوة طيبة وَمَثَلاً أعلى ، ومن المحال أن يبعث قدوة ليأمر الناس بشيءٍ قد وقع فيه ، وفعل خلافه !!

*****

عصمة الأنبياء والرسل من الكذب في التبليغ

لقد عصم الله الأنبياء والرسل في تبليغ الرسالة ،ودعوة الخلق إلى الله ﷻ ؛ فالدين الذي يهتدي به البشر للتي هي أقوم اعتقادًا وعملًا وسلوكًا لا يعرفه الناس إلا عن طريق أنبياء الله ورُسُله ؛ فما عند الله ﷻ من هداية لا يعرفه الإنسان عن طريق العقل المجرد ؛ بل لا بد وحتمًا أن يستعين فيه الإنسان بالوحي . وهذا الوحي لا يُبَلِّغُهُ للناس إلا الأنبياء والمرسلون ؛ فالإنسان لو ذهب ليشرِّع لنفسه ما يسعده في أخراه فسيأتي تشريعه ـ كما ذكرنا ـ متَّسِمًا بالجهل والقصور والنقص والضعف ! فالإنسان محكومٌ بجهله ،ومحكوم بضعفه ، ومحكوم بقلة عمره ؛ فلو عاش في زمانٍ فإنه لا يعيش في غيره ،ولو عاش في مكان لا يعيش في غيره كذلك ؛ فالإنسانُ إن تطاولَ وشرَّع لنفسه ! وتعدَّى طَوْرَهُ وقَدْرَهُ ، حتمًا سيأتي تشريعُه لنفسه متَّهَمًا بالجهل والقصور والضعفِ والعجزِ والفقرِ ؛ لأن هذه السمات هي سماتُ الإنسانِ ذاته ، لذلك لا يمكن أبدًا أن يهتدي الإنسان إلى ما عند الله من هداية في الدنيا وسعادة في الآخرة إلا عن طريق الأنبياء والمرسلين ،ولو كذبوا فيما ينقلوه إلى الناس من دعوة الله ﷻ فنقصوا من أمر الرسالة شيئًا أو زادوا في أمر الرسالة شيئًا ، أو بدَّلوا فيها ، أو غيَّروا ، أو حرَّفُوا ؛ لكانت عقيدة الناس وشرائعهم غير صحيحة ؛ فمحالٌ عقلاً وشرعًا أن يكذب الأنبياء والمرسلون فيما يبلغونه عن ربِّ العزة إلى الناس ؛ لأنهم صادقون مُصدِّقون من الله تعالى .

وهذه سمةٌ وصفةٌ ملازمةٌ لا تنفك عن نبيٍّ أو رسولٍ أبدًا ألا وهي : الصدق ، فأنتم تعلمون أن علماءَ الحديث لا يأخذون بقولِ متَّهمٍ بالكذب ؛ فالكذَّاب لا يُؤخذ بقوله عند علماء الجرحِ والتعديلِ ،وعند علماء الحديث ؛ بل وهذا على مستوى البشر العاديين ،ولو اتُّهم رجلٌ بالكذب ، وأصبح موسومًا بهذه الصفة القبيحة والعياذ بالله ـ مُحالٌ أن يطمئن الناسُ بعد ذلك إلى كلامٍ من كلامه ،حَتَّى ولو كان كلامه هذه المرة صادقًا فيه ، إن شك الناس في كلامه مرة بعد مرة ، فلن يصدقوه البتة بعد ذلك ولو كان صادقًا !!!

وَيُضْرَبُ في ذلك مثلٌ بسيطٌ ؛ لو أن رجلاً خرج على سطح داره يومًا وصرخ في الناس ونادى ، وقال : أدركوني ، أغيثوني أيها الناس ! إن البيت يحترق .. إن البيت يحترق .. فأسرع الناس إليه ، فلمَّا ذهبوا إلى بيته لم يجدوا حريقًا بالبيت ، ولم يجدوا شيئًا من ذلك ، فظلَّ يضحك أنه أثار الناس ، وكان سببًا في أن يدبَّ الذعر والرعب في قلوبهم ، فقدَّر الله ﷻ بعد فترة أن شبت النار في بيته ، وكادت أن تأتي على الأخضر واليابس ، فخرج الرجل فوق سطح الدار ليصرخ ويقول : أغيثوني . أدركوني ، فلن يذهب إليه واحدٌ منهم ، وسيقولون بأن هذا الرجل يخدعنا ، ولن يتبين الناس إلا وقد دمرت النارُ الأخضرَ واليابسَ في بيت هذا الرجل !!! .

هذا مثالٌ توضيحيٌّ يبين أن الناسَ لو جرَّبوا على رجلٍ من أهل العلم ، ومن أهل الدعوة ، ومن أهل البلاغ كذبًا ما صدَّق الناس كلامًا له بعد ذلك ، ولو كان صادقًا ! لذا ؛ فمحالٌ على الأنبياء والمرسلين الذين هم رسل الله وسفراء الله إلى خلْقِهِ وإلى عبادِهِ ليبلِّغوهم دين الله ودعوة الله ،

وليأخذوا بأيدي النَّاس من ظلمات الشركِ إلى أنوارِ التوحيدِ والإيمان .

محالٌ أن يتَّسم نبيٌّ أو رسولٌ من هؤلاء الصفوة بالكذب ، لا قبل البعثة ولا بعد البعثة ، وكلُّنا يعلم أن البرلمان الشركي في مكة بالإجماع قد خلع على النبيِّ ﷺ قبل بعثته لقبَ الصادقِ الأمين ؛ فالأنبياء والمرسلون من صفاتهم وسماتهم اللازمة : الصدق .

وأودُّ أن أسقط هذه الكلمات على واقع العمل الإسلامي ، فأقول : يلزم كذلك لكلِّ مَنْ حَمَلَ دعوة الأنبياء والمرسلين أن يكون متَّسِمًا بالصدق ، وأن يكون مبرَّءًا من الكذب ؛ فالرجل الذي يعتز بنفسه وفحولته وكرامته فضلاً عن أن يكون على دين لا يكذب أبدًا ؛ فالصدق منجاة ، ومحال أن أرى رجلًا شهمًا غيورًا فحلاً يكذب فضلاً عن أن يكون على دين ،وعلى إيمان ،وعلى ورع وتقى ؛ فالمؤمن الصادق لا يقع في الكذب إلا فيما حدَّده الشرع في حالة الحرب ؛ فإن الحرب خدعة ، وفي حالة الإصلاح بين الناس يجوز للمسلم أن يكذب ، والرجل يحدِّث امرأته ،والمرأة تحدِّث زوجها كما دلت الشريعة على ذلك [1] .

أما فيما عدا ذلك ؛ فلا يجوز للرجل المسلم أن يكذب ، فإذا كان هذا مع

---

(١) انظر البخاريَّ ، كتاب الصلح ، باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس (٢٦٩٢) ، وصحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الكذب وبيان المباح منه (٢٦٠٥) .
وحديث أم كلثوم بنت عقبة لفظه : « لَيْسَ الكَذَّابُ الذي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ ،وَيَقُولُ خَيْرًا وَيَنْمِي خَيْرًا » ، قال ابن شهاب : وَلَمْ أَسْمَعْ يرَخَّصُ فِي شَيءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إلاَّ فِي ثَلاثٍ : الحَرْبُ ، والإِصْلاَحُ بينَ النَّاسِ ،وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ ، وَحَدِيثُ المَرْأةِ زَوْجَهَا .
والزيادة الأخيرة مدرجة من كلام الزهري كما بيَّن الإمام مسلم .
وانظر : « الفتح » (٥/ ٣٦٦) .

عوام المسلمين ،أو مع صالح المسلمين لا يجوز عليهم الكذب ؛ فهل يجوز لنبيٍّ مرسلٍ من قبل الله ﷻ أن يقع في مثل هذه المعصية الكبيرة ؟ لا ! قال الله سبحانه ـ يخاطب أصدق الخلقِ محمدًا ﷺ : ﴿ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴾ [الإسراء:٧٤، ٧٥] ، ويقول تعالى : ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴾ [الحاقة:٤٤ـ ٤٦] .

فالله ﷻ يخبر أن نبيَّه ﷺ لو تقوَّلَ في أمر الله ، وشرع الله ، ووحي الله شيئًا بالزيادة أو بالنقصان لقطعنا منه الوتين .

والوتين : هو العِرْق الذي يمتد إلى مناط القلب في العنق ، لو قطع لمات الإنسان من فوره .

فانظر إلى هذا التهديد الرهيب : ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴾ ولذلك ؛ فإن عائشة ـ رضوان الله عليها ـ تقول [1]: « لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ لَكَتَمَ هَذِهِ الآية : ﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ

(١) أخرجه مسلم ،كتاب الإيمان ، باب معنى قول الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴾ [النجم:١٣] ، وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء ؟ (١٧٧) .

وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ [الأحزاب:٣٧] » .

وقالت : « وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رسُولَ الله ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ الله فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى الله الْفِرِيَةَ ؛ والله يَقُولُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة:٦٧] »[1] .

وفي سورة هود مثلاً ، يقول الله تعالى لنبيه محمد ـ عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [هود:١١٢] .

وتدبَّر قولَ الله ـ تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣، ٤] ؛ لأن الله ﷻ قد أوحى إلى نبينا وَحْيَيْنِ : الوحي الأول : هو القرآن ، والوحي الثاني : هو السنة .

قال تعالى لنساء النبيِّ ﷺ : ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب:٣٤] .

أي: من القرآن والسنة ؛ فالحكمة وحيٌ من الله ؛ فالرسول لا يتكلَّم مطلقًا في أمر الدين إلا بوحيٍّ من رب العالمين ؛ لذا لا ينبغي على الإطلاق أن نقلل من شأن السُّنَّة ،أو من مكانتها أبدًا ؛ فإن من آمن بالقرآن وكفر بالسنة فقد كَفَرَ .. فإننا نرى الآن طائفة خبيثة تسمِّي نفسها بالقرآنيين !! هؤلاء القرآنيون الخبثاء المجرمون الذين يدَّعُونَ أنهم يؤمنون بالقرآن فقط ؛ فيقال لهم : لماذا لا تؤمنون بالسُّنَّة ؟

---

(١) المصدر السابق .

يقولون : إن السُّنَّة فيها الضعيف والموضوع ، ولا ينبغي لنا أن نؤمن إلا بما جاء عن الله !! وهذا من جهلهم العجيب ، ألا يعلم هؤلاء أنَّ ما جاء به رسولُ الله هو أيضًا من عند الله ؟ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[الحجرات:١] .

قال ابن عباس : « أي : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة »[1].

وقال القرطبيُّ رحمه الله[2] : « أي : لا تقدَّموا قولًا ولا فعلًا بين يدي الله وقول رسوله وفعله فيما سبيله أن يأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا ، ومن قدَّم قوله أو فعله على الرسول ﷺ فقد قدَّمَهُ على الله تعالى ؛ لأن الرسول ﷺ إنما يأمر عن أمر الله ﷻ » .

وقال الشنقيطيُّ رحمه الله : « ويدخل في الآية دخولاً أوليًا تشريع ما لم يأذن به الله ، فلا حرام إلا ما حرَّمَ الله ورسوله ﷺ ، ولا حلال إلا ما أحلَّه الله ورسوله ﷺ ، ولا دين إلا ما شرع الله ورسوله ﷺ »[3] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[الحشر:٧] .

وفي «سنن أبي داود» بسندٍ صحَّحه شيخنا الألباني من حديث المِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يَكْرِبَ أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ، أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ : عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، فَمَا وَجَدْتُمْ

(١) أخرجه ابن جرير (٣١٦٥٧) ، وابن أبي حاتم (١٨٦٠٤) .

(٢) « الجامع لأحكام القرآن الكريم » (١٦/ ٣٠٠) طبعة الهيئة المصرية للكتاب .

(٣) انظر : « أضواء البيان » (لسورة الحجرات / ١) .

فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ ».

وفي لفظٍ عند الترمذي : « أَلاَ وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا مَا حَرَّمَ اللهُ »[1].

وقد قيَّض الله للسنة علماء ميَّزوا صحيحها من سقيمِها حفظ الله بهم السُّنَّة

إذًا طاعةُ النبيِّ ﷺ طاعةٌ للربِّ العليِّ ؛ لأن كلام النبيِّ ﷺ وحيٌ من عند الله ـ جَلَّ وَعَلاَ .

ومن حكمة الله ، أن الله لم يرسل الأنبياءَ والرسلَ ملائكة ؛ بل أرسلهم بشرًا يتزوَّجون كما يتزوَّج البشر ، ويتناكحون ويتناسلون ويتكاثرون ويمرضون وينسون ؛ بل في غزوة أحد شُجَّ وجهُ النبيِّ ﷺ ، وسال الدم من جسده الطاهر ، وكسرت رباعيته ﷺ ، ليتضح لنا أن الرسل كسائر الخلق في الجانب البشري ، ولكن الله ميزهم في أمر الرسالة بالوحي ، قال تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [الكهف:١١٠] .

هذا هو الجانب البشريُّ ، أما الجانب الآخر ؛ فهو قوله : ﴿ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الكهف:١١٠] .

---

(١) أخرجه أبو داود ،كتاب السنة ، باب لزوم السنة (٤٦٠٤) ،والترمذي ، كتاب العلم ، باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبيِّ ﷺ (٢٦٦٤) ، وقال : « حديث حسن غريب من هذا الوجه » ، وابن ماجه في « المقدمة » ، باب : تعظيم حديث رسول الله ﷺ ، والتغليظ على من عارضه (١٢) ، والدارمي في « المقدمة » (٥٨٦) ، وأحمد (٤/ ١٣٠ ، ١٣١) ، والبيهقي في « السنن » (٧/ ٧٦) (٩/ ٣٣١) ، والحاكم (١/ ١٠٩) ، وصحَّحه وأقرّه الذهبي ، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود ، والترمذي ، وابن ماجه » ، و« صحيح الجامع » (٢٦٤٣) ، و«المشكاة » (١٦٣) .

ففي جانب البلاغ ميَّز الله الأنبياءَ بالوحي .

وفي الجانب البشريِّ يجوزُ عليهم الأمراض والأسقام والجوع والعطش .. وما إلى ذلك من أعراض الدنيا . لكن لا يجوز عليهم على الإطلاق في حال المرض أو في حال الابتلاء أن يغيِّروا شيئًا من الأحكام الشرعية ، أو أن يتركوا بيان ما أمر به رب البرية من الشرائع .

ومن جملة التشكيك والطعن والافتراءات أن أعداء الإسلام قالوا : بأن عبد الله بن سعد بن أبي السرح كَذَبَ على النبيِّ ﷺ يوم أن أسلم فارتد ، وقال [1]: « لقد كنتُ أكتب لمحمد الوحي ، فكنتُ أكتب أشياء لا يمليها عليَّ محمد » ؛ فهذا كَذِبٌ في الوحي ! تكون الآية : إن الله سميع بصير ـ مثلًا ـ فيكتب : إن الله عليم حكيم ، فيقره النبيُّ ﷺ على ذلك ! .

فافترى أهل الافتراء من أعداء الدين بأن هذا دليلٌ على تحريفِ الوحي ، وعلى الكذبِ في أمر الدعوة ، وأمر الرسالة ، واستدلُّوا على ذلك أيضًا بالرجل النصراني الذي أسلم ، وقرأ البقرة وآل عمران ، ثم ارتدَّ ، فذهب إلى قومه من النصارى ، ليقول : إن محمدًا لا يعرفُ إلا ما كنتُ أكتبه له .

---

(١) عزاه السيوطي في « المناهل » (ص/ ٢٢١ ، ٢٢٢) إلى ابن جرير عن عكرمة والسدي ، وانظر : « الشفا » للقاضي عياض (٢/ ١٤٩) ، و « سبل الهدى والرشاد » (١١/ ٣٨٧) . وانظر : « سنن أبي داود » (٤٣٥٨) ، من حديث ابن عباس قال : « كان عبد الله بن سعد بن أبي السرح يكتب لرسول الله ﷺ فأزلَّهُ الشيطان فلحق بالكفار ، فأمر به رسول الله ﷺ أن يُقتل يوم الفتح ، فاستجار له عثمان بن عفان ، فأجاره رسول الله ﷺ » . وحسَّنه الشيخ الألباني .

والحديث في « الصَّحِيحَيْنِ » [1] من حديث أنس بن مالك ﷺ قَالَ : « كَانَ رَجُلٌ نَصْرَانِيًا فَأَسْلَمَ وَقَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ ، فَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَعَادَ نَصْرَانِيًا ، فَكَانَ يَقُولُ : مَا يَدْرِي مُحَمَّدٌ إِلاَّ مَا كَتَبْتُ لَهُ ، فَأَمَاتَهُ الله ، فَدَفَنُوهُ ، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ ؛ فَقَالُوا : هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا فَأَلْقَوْهُ ، فَحَفَرُوا لَهُ فَأَعْمَقُوا ، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ ، فَقَالُوا : هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ ، فَأَلْقَوْهُ خَارِجَ القَبْرِ ، فَحَفَرُوا لَهُ وَأَعْمَقُوا لَهُ فِي الأَرْضِ مَا اسْتَطَاعُوا ، فَأَصْبَحَ قَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ ، فَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ ، فَأَلْقَوْهُ ».

وفي رواية مسلم قال أنس ﷺ : « كَانَ مِنَّا رَجُلٌ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ ، قَدْ قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ ، وَكَانَ يَكْتُبُ لِرَسُولِ الله ﷺ فَانْطَلَقَ هَارِبًا حَتَّى لَحِقَ بِأَهْلِ الْكِتَابِ ، قَالَ : فَرَفَعُوهُ ، قَالُوا : هَذَا قَدْ كَانَ يَكْتُبُ لِمُحَمَّدٍ ، فَأُعْجِبُوا بِهِ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ قَصَمَ الله عُنُقَهُ فِيهِمْ ، فَحَفَرُوا لَهُ فَوَارَوْهُ ، فَأَصْبَحَتِ الأَرْضُ قَدْ نَبَذَتْهُ عَلَى وَجْهِهَا ، ثُمَّ عَادُوا فَحَفَرُوا لَهُ ، فَوَارَوْهُ، فَأَصْبَحَتِ الأَرْضُ قَدْ نَبَذَتْهُ عَلَى وَجْهِهَا ، ثُمَّ عَادُوا فَحَفَرُوا لَهُ ، فَوَارَوْهُ، فَأَصْبَحَتِ الأَرْضُ قَدْ نَبَذَتْهُ عَلَى وَجْهِهَا فَتَرَكُوهُ مَنْبُوذًا » .

هذا عقاب الله لهذا المجرم الخبيث الذي كَذَبَ وافترى على النبيِّ ﷺ، أما عبد الله بن سعد بن أبي السرح أسلم وعاد إلى الدين ؛ كما في سنن أبي

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦١٧) ، ومسلم ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٨١) .

داود والنسائي وغيرهما ـ وصحَّح الحديث بالشواهد شيخنا الألبانيُّ في « السلسلة الصحيحة » من حديث سعد رضي الله عنه قَالَ : وَأَمَّا ابْنُ أَبِي السَّرْحِ ، فَإِنَّهُ اخْتَبَأَ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ، فَلَمَّا دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ جَاءَ بِهِ حَتَّى أَوْقَفَهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللهِ ، بَايِعْ عَبْدَ اللهِ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَنَظَرَ إِلَيْهِ ثَلاثًا ، كُلُّ ذَلِكَ يَأْبَى ، فَبَايَعَهُ بَعْدَ ثَلاثٍ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ ؛ فَقَالَ : « أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يَقُومُ إِلَى هَذَا حَيْثُ رَآنِي كَفَفْتُ يَدِي عَنْ بَيْعَتِهِ فَيَقْتُلُهُ » فَقَالُوا : مَا نَدْرِي يَا رَسُولَ اللهِ مَا فِي نَفْسِكَ ، أَلاَ أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا بِعَيْنِكَ ؟ قَالَ : « إِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الأَعْيُنِ »[1].

والحقُّ أن علماءَ الحديثِ لا يقبلون خبرَ من اتُّهِمَ بالكذبِ والفسقِ ولو كان مسلمًا . فما بالكم بخبرِ رجلٍ ارتدَّ عن الإسلام !!!

فليقل المرتدون ما شاؤوا ؛ فلا قبول لرأيهم البتة لاسيما وهم يقدحون في صدق النبيِّ ﷺ ، فلا يقبل خبر الكافر المرتد ولا كرامة !! .

فلو صحَّ ما قاله عبد الله بن سعد ،وهو مرتد ، ولو صحَّ ما قاله النصراني المرتد الذي عاد إلى قومه لما أقرَّ جبريلُ عليه السلام الرسولَ ﷺ على الخطأ الذي سجَّله عبد الله أو النصراني في الوحي[2].

---

(١) أخرجه أبو داود ،كتاب الجهاد ، باب قتل الأسير ولا يعرض عليه الإسلام (٢٦٨٣) و (٤٣٥٩) ، والنسائي ،كتاب تحريم الدم ، باب الحكم على المرتد (٤٠٧٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٤٥) ،وقال : « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » ، والبيهقي في « السنن » (٧/ ٤٠) ،وأبو يعلى (٧٥٧) ، والطحاوي في « شرح معاني الآثار » (٣/ ٣٣٠) ،وصحَّحه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (١٧٢٣) .

(٢) انظر : « الشفا » للقاضي عياض (٢/ ١٤٩، ١٥٠) .

هَبْ أن الكاتبيْن كَتَبَا كلامًا يخالف ما أملاه الرسول ﷺ ؛ فهل يترك جبريلُ ﷺ رسولَ الله ﷺ دون إخبارٍ وإعلامٍ ؟! هَبْ أن الخطأ قد حدث فهل يتركه ؟! وهو الذي كان يعارض النبيَّ ﷺ بالقرآن في كل عام مرة ، ثم عرضه عليه في العام الذي تُوفي فيه المصطفى ﷺ مرتين [1] ، هَبْ أن الخطأ قد وقع ! فهل يترك جبريل هذا دون أن يخبر النبيَّ ﷺ به ، فهذا يخالف ما وعد الله ﷻ به حين قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩] .

فنحن لا نقبل خبرًا لمسلمٍ كاذبٍ فاسقٍ ، ولا نقبل خبر المرتد أبدًا في صدقِ النبيِّ ﷺ ، وفي أمر الرسالة والدعوة ، ولو صحَّ ما شنع به النصرانيُّ وعبد الله لانتهز مشركو العرب والنصارى هذه الفرصة ، وشنَّعوا على الرسول ﷺ وعلى دعوته ، وصدق بلاغه ،وصدق رسالته ، ولكن هذا لم يُعلم على الإطلاق لا في خبرٍ صحيحٍ ، ولا في خبرٍ ضعيفٍ ، دلَّ هذا على أنه لم يقع تحريف في أمر الرسالة والدعوة البتة من المعصوم ﷺ .

ومن الشُّبَهِ الخطيرةِ التي أثارها أعداء الإسلام أنَّ الرسول ﷺ سُحِرَ ، وكان يخيَّل إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعله .

قالوا : فإن كان الرسول ﷺ قد وقع في ذلك ، فما المانع أن يقع له في أمر الرسالة كما وقع له في أمر السحر ؟!

والجواب : أن هذا باطل ، وافتراء ، وضلال ، وبهتان ؛ فرسول الله

---

(١) تقدم الحديث بذلك .

ﷺ قد عصمه الله في أمر البلاغ والرسالة والدعوة عصمةً تامةً كاملة ؛ ولكن هل ثبت بالفعل أن النبيَّ ﷺ قد سُحِرَ ؟

والجواب : نعم ، ثبت هذا في الحديث الصحيحِ ، ولا ينبغي أن يُردَّ صحيحُ المنقولِ بسقيمِ العقولِ ، فمتى كان العقل حاكمًا على الشرع ؟! مع أن نورَ الوحي لا يطمسُ نورَ العقل ؛ بل يباركه ويزكيه ويقوِّيه شريطة ألا يتعدى العقل حَدَّهُ ، وأن يعرف العقل قَدْرَهُ ، وأن يذعن العقلُ مع صحيح النقل ؛ بل مع الكون كلِّه لله رب العالمين ـ جَلَّ وَعَلاَ .

ولو كان الدينُ بالعقلِ لضاع الدين ! تصور معي أن الأخبار لا تُقْبل إلا إذا حكمت عليها العقول ، فصاحبُ هذا العقل يرى الخبر معقولاً ، وآخر لا يراه معقولاً ،وآخر يراه بَيْنَ وبَيْنَ !! وبهذه الطريقة يضيع دين الله ـ جَلَّ وَعَلاَ !!!

وإنما وضع أئمتنا وشيوخنا وعلماؤنا قواعد ثابتة وأصولًا راسخة للحكم من خلالها على الصحيح من السقيم .

فلا ينبغي أن تُرد مثل هذه القواعد ،وأن يُنَصَّبَ العقلُ حاكمًا على الشرع ، ولله درُّ عليٍّ بن أبي طالب الذي يقول : « لَوْ كَانَ الدِّينُ بِالرَّأْيِ لَكَانَ المَسْحُ عَلَى بَاطِنِ الخُفِّ أَوْلَى مِنَ المَسْحِ عَلَى أَعْلاَهُ » [(١)].

فالرسول ﷺ قد سُحِرَ ـ والحديث في أعلى درجات الصحة ـ فلقد

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الطهارة ، باب كيف المسح (١٦٢ ـ ١٦٤) ، والبيهقي (١/ ٢٩٢) ، والدارمي (٧١٥) ، وأحمد (١/ ٩٥، ١٤٨) ، وعبد الله بن أحمد في « زوائد المسند » (١/ ١١٤، ١٢٤) ، والدارقطني (١/ ٧٥) ، وصحَّحه الحافظ ابن حجر في « التلخيص الحبير » (١/ ١٦٠) ، والألباني في « المشكاة » (٥٢٥) .

رواه البخاريُّ ومسلم[(١)] وغيرهما من أصحاب السنن ، ولكن لنفهم العَرَضَ الذي ترتَّب على النبيِّ ﷺ من أثر هذا السحر .

فعن عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ : « سُحِرَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ صَنَعَ شَيْئًا وَلَمْ يَصْنَعْهُ » .

وهذا أمرٌ خاصٌّ بأمورِ الدنيا ، وليس بأمور الرسالة والبلاغ والدعوة ، والدليل على هذا : الرواية الأخرى التي تقول : « سُحِرَ رَسُول الله ﷺ حَتَّى كَانَ يَرَى أَنَّهُ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلاَ يَأْتِيهِنَّ »[(٢)] .

أي : يتخيل أنه يأتي نساءه ــ رضوان الله عليهن ــ وهو لم يفعل هذا .

قال القاضي عياض[(٣)] : إنَّ السحر إنما سُلِّطَ على ظاهر بدن النبيِّ ﷺ ، وجوارحه ، لا على قلبه واعتقاده وعقله ، وإنما أثَّر في بصره ، وفي حبسه عن وطء نسائه ،وعن أشياء من طعامه وشرابه .

روى البيهقي[(٤)] بسندٍ ضعيفٍ ، عن ابن عباس ﵄ قال : « مَرِضَ رَسُولُ الله ﷺ ، وَحُبِسَ عَنِ النِّسَاءِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ » لا يشتهي شيئًا كسائر المرضى .

الخلاصة : أن السحر يجوز أن يؤثر في الأنبياء ــ عليهم الصلاة

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الجزية والموادعة ، باب هل يعفى عن الذمي إذا سحر (٣١٧٥) ـ وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ،كتاب السلام ، باب السحر (٢١٨٩) .
(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الطب ، باب هل يستخرج السحر (٥٧٦٥) .
(٣) « الشفا » للقاضي عياض (٢/ ١٩٤) وما بعدها بتصرف في المعنى .
(٤) أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (٦/ ٢٤٨) ، وعزاه السيوطي في « المناهل » (٢٣٢) إلى البيهقي قال: بسندٍ ضعيفٍ فيه محمد بن السائب الكلبي متَّهَمٌ بالكذب .

والسلام ـ في غير أمور الوحي والرسالة ؛ لأنه حينئذٍ يصير عَرَضًا من سائر الأعراض البشرية التي تعتري البدن من جوع وحمًّى ، ومرضٍ وعطش .

ومن حكمةِ الله تعالى أن يبتلي الأنبياء بمثل هذا حتى لا يعتقد الناس فيهم شيئًا من الألوهية ، ليعلم الناس أن الرَّبَّ رَبٌّ ،وأن العبدَ عبدٌ ، وليعلم الناسُ أن النبيَّ ﷺ ، لو كان يملك لنفسه ضرًّا أو نفعًا لفعل .

قال سبحانه : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [آل عمران:٢٦] .

فالنبيُّ ﷺ نفسه قد مَرِضَ ، وأُصيب بالحمَّى ، وشُجَّ وجْهُه ، وكُسرت رباعيته ، وتعرَّض للجوع الشَّديد ؛ بل إنه ربط الحجر على بطنه من شدَّة الجوع ؛ بل إن الرسول ﷺ أكل ورق الشجر في مدة الحصار ، ليعلم الناسُ أن الرَّبَّ ربٌّ ، والعبدَ عبدٌ ، وأنه لا يضر أحدٌ أو ينفع إلا بأمر مَنْ هو على كل شيء قدير .

يقول سبحانه : ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الأنعام:١٧] ، وقال سبحانه : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٠٢] .

إنَّ الموحد العابد الذي امتلأ قلبه بالطمأنينة والعبودية ، يعلم يقينًا أنه لو اجتمع سحرة الأرض ليضروه لن يضروه إلا بإذن الله .

فعلِّق قلبَك بالله ؛ فقلبُ مَنْ تخشاه بيد من تعصاه !!!

فالنبي ﷺ سُحِرَ ، والسِّحر عَرَضٌ من أعراضِ البدن .. نعم ! إنما هو أمر يعتري البدن ، لا يختلف عن مرض النبيِّ ﷺ بالحمَّى ، ولا يختلف عن إصابته ﷺ يوم أحد ، ولا عن إصابته بالجوع الشديد ؛ فالحديث ثابتٌ في أصحِّ الكتب بعد كتاب الله ﷻ ؛ وذلك نصه بتمامه :

رَوَى البخاريُّ عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ : سَحَرَ رَسُولَ الله ﷺ رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ - يُقَالُ لَهُ : لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ - حَتَّى كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ عِنْدِي ، لَكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا ، ثُمَّ قَالَ : « يَا عَائِشَةُ ، أَشَعَرْتِ أَنَّ الله أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ؟ أَتَانِي رَجُلَانِ ، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي ، وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : مَا وَجَعُ الرَّجُلِ ؟ فَقَالَ : مَطْبُوبٌ ، قَالَ : مَنْ طَبَّهُ ؟ قَالَ : لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ ، قَالَ : فِي أَيِّ شَيْءٍ ؟ قَالَ : فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ ، وَجُفِّ طَلْعِ نَخْلَةٍ ذَكَرٍ ، قَالَ : وَأَيْنَ هُوَ ؟ قَالَ : فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ » ،

فَأَتَاهَا رَسُولُ الله ﷺ فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَجَاءَ فَقَالَ : « يَا عَائِشَةُ ، كَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ ، أَوْ كَأَنَّ رُؤُوسَ نَخْلِهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، أَفَلاَ اسْتَخْرَجْتَهُ ؟ قَالَ ﷺ : « قَدْ عَافَانِي الله ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ فِيهِ شَرًّا ، فَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ »[1] .

فالرسول ﷺ بالنسبة لأمر الدعوة والبلاغ والوحي معصومٌ من الخطأ ، والتغيير ، والتحريف ، والتبديل ؛ أما بالنسبة لأمور الدنيا ؛ فهو كسائر البشر يتأثر بالسحر والحمى والنسيان ، ويتأثر بالجوع والعطش ، والحرِّ والبرد .

ومن المعلوم أن موسى عليه السلام خُيِّلَ إليه أن الحبال التي ألقاها سحرة فرعون تسعى ، وقد تحولت إلى حيات ، وهي في الواقعِ والحقيقةِ لم تتحول إلى حيات ، ولكن السحر الذي سَحَرَه سحرةُ فرعون كان من سحر التخييل الذي أثَّر على عيون الرائين والناظرين ؛ كما في قول رب العالمين : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه:٦٦] .

وكما في قوله تعالى : ﴿ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف:١١٦] .

ولذلك لما ألقى موسى عليه السلام عصاه فتحولت إلى حيَّة ، فكان أول من خر ساجدًا لله هؤلاء السحرة ؛ لأنهم يعرفون الحقيقة وأن هذا لا يحدث

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الطب ، باب السحر ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾ [البقرة:١٠٢] ، الآيات (٥٧٦٣) .

من ساحر ، وإنما لا يكون إلا من نبيٍّ قد أتى بمعجزة من عند الله ، فكان السحرة أول من آمن بنبي الله موسى ونبي الله هارون عليهما السلام[1] .

(١) وأحبُّ أن أقف هنا وقفة ؛ لأني أعلم أن هناك تساؤلات واستفسارات كثيرة تدور الآن في أذهان جُلّ الناس ، فما معنى السحر ؟ وما حقيقته ؟ وكيفية العلاج منه ؟ والكلام هنا بعيد عن الموضوع الأساسي ، ولكنه ضروريٌّ ، يحتاج إليه فئام من الناس في وقتنا هذا ؛ إذ هو موضوعٌ عمت البلوى.
السحر في اللغة [*] : كل شيء خفي سببه يسمى سحرًا .
قال أبو عبيد : أصل السحر ، صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره .
قال تعالى : ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٩] ، أي : فأنّى تصرفون . هذا الصرف للشيء عن حقيقته قد يكون للعين وهو الأخذة ، وقد يكون للقلب ، أي : يتحول القلب من الحب إلى الكُرْه أو العكس ،وقد يكون الصرف كذلك بالكلام الحلال الطيب ؛ كما في « صحيح البخاري »[1] ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » فهذا سحر في البيان حلال طيب .
والسحر اصطلاحًا : يقول الإمام الجصاص[2] : السحر في عرف الشرع مختصٌّ لكل أمر خفي سببه ، ويتخيل على غير حقيقته .
ومن العلماء من قال بأن السحر لا حقيقة له ،وإنما هو تخييل ، ومنهم من قال بأن السحر كله حقيقة لا تخييل فيه ؛ يقول ابن قدامة في كتاب « المغني »[3] : « السحر هو عقد ورقى وكلام يتكلم به أو يكتبه أو يعمل شيئًا يؤثر في بدن المسحور أو في قلبه أو في عقله من غير مباشرة له ، وللسحر حقيقة ؛ فمنه ما يقتل ،وما يمرض ، وما يأخذ الرجل عن امرأته فيمنعه وطأها ،ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه » .
وقال الإمام القرطبي رحمه الله[4] : «ومذهب أهل السنة والجماعة أن السحر له حقيقة وثابت ، وقد اتفق على هذا أهل الحل والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع ، ولا عبرة لمن خالف ذلك مع اتفاقهم » .
وقال الإمام النووي[5] : قال بعض أصحابنا من الشافعية بأن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو تخيل =

(*) انظر : « لسان العرب » (٤/ ٣٤٨) ، و« القاموس المحيط » (١/ ٥١٨) ، و« تاج العروس » (١/ ٢٩٢٩) ، و « المصباح المنير » (١/ ٢٦٨) ، و « النهاية في غريب الأثر » (٢/ 875)، و« مختار الصحاح» (١/ ٣٢٦) .
(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب النكاح ، باب الخطبة (٥١٤٦) وانظر طرفه هناك .
(٢) «أحكام القرآن » للجصاص (١/ ٥١) .
(٣) «المغني » (١٠/ ١٠٤) .
(٤) « الجامع لأحكام القرآن » (٢/ ٤٠، ٤١) .
(٥) انظر: «المجموع» (١٩/ ٢٤٠) بتصرف .

- لكن الصحيح أن السحر له حقيقة ،وبه قطع جمهور العلماء ، وعليه عامة العلماء ، ويدل عليه الكتاب والسنة النبوية الصحيحة المشهورة ، والحق أن كلَّ من قال : بأن كل السحر حقيقة ، وكله حق قد جانب الصواب ،وأنَّ من قال بأن السحر كله تخيل ولا حقَّ ولا حقيقةَ فيه قد جانب الصواب ؛ فالحق أن السحر منه ما هو حقيقي ومنه ما هو تخييل ، ولا يصل الساحر إلى حد السحر الحقيقي إلا إذا كفر بالله ﷻ وأطاع الشيطان ،وكلما ازداد طاعة وعبودية للشيطان ازداد سحرًا ، والعياذ بالله .

وبكل أسف : كثير من الناس يضيع العلاج فإذا وقع البلاء فإنه يذهب ليبحث عن الدواء ،وقد يذهب ليبحث عن الدواء ليخرج الماء من النار ، فيذهب إلى الكنائس أو إلى الدجالين والمشعوذين ،ومن دخل هذه الدائرة لا يخرج منها إلا إذا شاء الله ، ونحن نسمع الآن مصائب ؛ فهذه فتاة ذهبت لأحد الدجالين فقال لها : إنك مسحورة ، وبأن سحرك سفلي ولا علاج لكِ إلا أن أكتب لكِ في أعلى الفرج ، على البطن بالزعفران ، فسألت الفتاة ! فقلت لها : لا . وأخرى تقول : إنها ذهبت إلى أحد هؤلاء المجرمين ، فطلب منها أن تنام على بطنها ، ليدلك لها ظهرها العاري بزيت حبة البركة !! لا بارك الله فيه وفي أمثاله ؛ فبكل أسف نحن نفرط في الدواء حتى يقع البلاء ، ثم نذهب لنستخرج الماء من النار ، وهذا محال أن تستخرج من النار ماءً عذبًا زلالاً ؛ والله ﷻ قد دلَّنا على الدواء ، والنبيُّ ﷺ قد دلَّنا على الداء والدواء .

فلا ينبغي أن نلجأ إلى المضللين الكاذبين الدجالين المشعوذين .

وهؤلاء لو كانوا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا ،ولو كانوا يملكون أن يقلبوا حقائق الأشياء لكانوا من أغنى الناس ، لماذا لم يحولوا الحصى بين أيديهم إلى ذهب ؟ وأنت تذهب لتبحث عن السعادة عندهم ، وهم من أحقر وأفقر وأذلِّ الناس ؛ فالحق أن تتمسك بالدواء قبل أن يقع البلاء .

وأن يكون قلبك معلقًا برب الأرض والسماء ، وأن تكون على يقين بأن الجنَّ والسحر لا يؤذي إلا بإذن الله ، وأعظم حرز تتحصن به من هذا الشر أن تكون عبدًا لله ؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[الحجر:٤٢] .

فهل حقَّقتَ العبودية لله ؟ هل امتلأ قلبك بعبودية الله ، وباليقين ، وبالثقة في الله ؟! والمسألة لا تحتاج إلى كلام نظري ؛ بل تحتاج إلى اجتهادٍ على القلب ،كيف تملأ قلبك ثقةً ويقينًا بالله ، ثم تمرن هذا القلب بإخلائه من آنٍ لآخر من حبِّ الشهوات ، والشبهات ، وملئِه بالإيمان .

الحرز الثاني :كثرة الذكر لله ﷻ؛ فإن النبيَّ ﷺ قال : « مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ ، وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ »[1].

===============

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الدعوات ، باب فضل ذكر الله ﷻ (٦٤٠٧) ،ومسلم بلفظ آخر كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب استحباب صلاة النافلة في بيته (٧٧٩) بلفظ:«مثل البيت الذي..» .

وفي الحديث الطويل للحارث الأشعري رضي الله عنه [١] وفيه أن النبي ﷺ قال : «قَالَ يَحْيى بْنِ زَكَرِيَّا لِبَنِي إِسْرَائِيل: وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا الله ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لاَ يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلاَّ بِذِكْرِ الله ».
فالذاكر لله دائمًا مع الله ؛ قال تعالى في الحديث القدسي [٢] : « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي » ومن كان في معية الله ، فلا يخاف .

الحرز الثالث : قراءة سورة البقرة ، فهذه الحروز مهمة حتى لا يقع البلاء ؛ قال الرسول ﷺ كما في « صحيح مسلم » : « لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ » [٣] .
ويقول ﷺ : « اقْرَؤُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ ، وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ » [٤] . يعني : السَّحَرَةُ.
فلو جلس الزوج وزوجه لقراءة سورة البقرة لامتلأ البيت رحمة ـ بإذن الله ـ فإن لم يكن هناك من يقرؤها فعلى الأقل عن طريق شريط الكاسيت تقرأ كل يوم ليعلو صوت الرحمن ، ونطرد الشياطين من البيوت .

الحرز الرابع : قراءة آية الكرسي ، فمن قرأها عند نومه لا يزال عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح [٥] .

---

(١) أخرجه الترمذي ،كتاب الأمثال ، باب ما جاء في مَثَلِ الصَّلاَةِ وَالصِّيام والصدقة (٢٨٦٣، ٢٨٦٤) ،وقال : « حديث حسن صحيح غريب » ، وأحمد في « المسند » (٤/ ١٣٠) ،وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح الترمذي » (٢٢٩٨) ، و« صحيح الجامع » (١٧٢٤) ،و«المشكاة» (٣٦٩٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ،كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران:٣٠] ، (٧٤٠٥) ،وانظر طرفه هناك ،ومسلم ،كتاب التوبة ، باب في الحض على التوبة والفرح بها (٢٦٧٥) .

(٣) أخرجه مسلم ،كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب استحباب صلاة النافلة في بيته (٧٨٠) .

(٤) أخرجه مسلم ،كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٤) .

(٥) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الوكالة ، باب إذا وكَّل رجلاً فترك الوكيل شيئًا فأجازه الموكل فهو جائز وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز (٢٣١١) تعليقًا ، وذكره في كتاب بدء الوحي ، باب صفة إبليس وجنوده (٣٢٧٥) ، وكتاب فضائل القرآن ، باب فضل سورة البقرة (٥٠١٠) .

فما قولكم إذًا في قولِ أصحاب الشُبه الذين يقولون : إنكم لو قلتم بأن النبيَّ ﷺ قد سُحِرَ ، فأنتم توافقون قول المشركين الذين قالوا : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الفرقان:٨] .

▪ **الحرز الخامس** : قراءة الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة ؛ ففي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم [١] عن أبي مسعود رضي الله عنه قال النبيُّ ﷺ : « **مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ** » أي : من كل شر وسوء .

الحرز السادس : قراءة المعوذات ، وهي : « **الإخلاص ـ الفلق ـ الناس** » .

وهذا موجود في كتب الأذكار مثل كتاب «الأذكار» للنووي ، و«الوابل الصيب» لابن القيم ، و«الكلم الطيب» لشيخ الإسلام .

الحرز السابع : رواه البخاريُّ [٢] من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قال النبيُّ ﷺ : « **مَنْ تَصَبَّحَ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعَ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً لَمْ يَضُرُّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ سُمٌّ وَلاَ سِحْرٌ** » .

وفي رواية : « **تمر العالية** » أي : المدينة .

فماذا يفعل من ابتلي بالسحر فعلاً ؟

يقول الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله : « **يأخذ سبع ورقات من السدر الأخضر** » ، ولماذا السدر الأخضر ؟

قال الحافظ ابن حجر : « لأن ورق السدر تهابه الشياطين ، وهو من نبات الجنة ، والسدر معروفٌ لنا باسم النبق » .

يأخذ السبع ورقات ويدقها بحجر ويضعها في إناء ، ويصب عليه من الماء ما يكفيه للغسل ، ويقرأ في هذا الإناء آية الكرسي ـ وقل يا أيها الكافرون ـ والإخلاص ـ والفلق ـ والناس ، وأود أن أقول لكل من ابتلي وظهرت عليه الأعراض يحرص على أن يكون عبدًا لله عز وجل ، كيف يشفى وهو لا يصلي ، ولا يقرأ القرآن ، وهو مضيع لذكر الله ؟ كيف تبرأ المرأة ، وهي لا تصلي ومتبرجة ومبارزة لله بالمعصية ؟ فعلى المرأة أن تلتزم الحجاب ، وتلتزم بالصلاة ، وتحرص على أذكار الصباح والمساء ،ولا حاجة أن تذهب إلى رجل أو لغيره ، إن عالجها زوجها فلا حرج ، وإن عالجت نفسها فهو الأولى والأكمل ؛ فعلى المرأة أن تلتزم بأمر الله ، وتحافظ على الرقية الشرعية ،وأن تصبر على هذا البلاء ، وتتضرع إلى الله أن يدفع عنها هذا البلاء ،هذا هو الذي أدين لله به لعلاج مثل هذا المرض العضال ، الذي ابتلي به كثير من الناس لبعد الناس عن الله عز وجل ، وأسأل الله أن يرزقنا الإيمان والتوحيد ، وأن يشفي مرضانا ومرضى المسلمين ؛ إنه على كل شيء قدير .

=================

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب فضائل القرآن ، باب فضل سورة البقرة (٥٠٠٨، ٥٠٠٩) ، ومسلم ،كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة (٨٠٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأطعمة ، باب العجوة (٥٤٤٥) وانظر أطرافه هناك .

فما ردُّكُم على هذه الشبهة ؟ فمن المعلوم لكلِّ أحد قرأ القرآن وتفسيره ، أن المشركين يقصدون بأنكم تتبعون رجلاً يقول كلامًا كالسحر ، يفرق بين الأخ وأخيه ، والابن وأبيه ، والقرآن الكريم دلَّ على هذا ؛ فهذا الوليد بن المغيرة [١] لما ذهب إلى النبيِّ ﷺ وسمع منه القرآن ماذا قال ؟ شهد للقرآن ؛ فقال : والله إن له لطلاوة ، وإن عليه لحلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وأسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى ، فقالوا : صبأ والله الوليد ؛ فماذا تقول ؟ قال : دعوني أفكر وأقدر ، وأقلب الأمر على جوانبه ، ثم عاد إليهم بعد ذلك ؛ فقال : قولوا جميعًا على لسان رجل واحد : إن الذي يقوله محمد ما هو إلا سحر يفرق بين الأخ وأخيه ، والابن وأبيه ... إلخ .. هذا هو معنى قولهم : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الفرقان:٨] . أي : يفرِّق بكلامه بين الناس .

وأما سحر النبيِّ ﷺ ، فكان ليُعْلِمَ الله الناسَ أن العبد عبدٌ ، وأن الربَّ ربٌّ ، وأنه ينبغي ألا يُرفع النبيُّ ﷺ إلى مرتبة الألوهية ، وليعلمنا الله كيفية علاج السحر ، كما نزل به جبريلُ على النبيِّ ﷺ وعلَّمه ذلك .

فالأنبياء ـ كما عَلِمْنَا ـ معرَّضون للسِّحر كعَرَضٍ ، ولكنه لا شأن له بأمر الدعوة والرسالة والوحي .

وأختم هذا العنصر من عناصر العصمة ، بالتأكيد على أن الأنبياء معصومون كذلك من الكذب في غير أمور الدعوة ؛ لأن الناس لو

---

(١) سبق تخريجه .

جربوا على نبيٍّ كذبًا في أمر من أمور الدنيا ؛ فلن يصدِّقوه في أمور الرسالة والوحي والدعوة ، وهذا مجمع عليه من كلِّ المسلمين ؛ فإن الله قد عصم الأنبياء والمرسلين من الكذب في أمر البلاغ والدعوة والرسالة ؛ بل إنه عصمهم من الكذب في أمور الناس وتعاملاتهم .

فصدْقُ الرسولِ مع الناس دليلٌ على صدقه فيما يخبر به عن ربِّ الناس ، وهذا ما فطن إليه هرقل ـ كما في « صحيح البخاريِّ » من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ـ عندما أرسل إلى أبي سفيان بن حرب ليسأله عن النبيِّ ﷺ ؛ فقال له : « هل كنتم تتهمون محمدًا بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقال أبو سفيان : لا ؛ فقال هرقل : إنه لم يَكُنْ لِيَذَرَ الكذِبَ على الناس ، ويكذب على الله »[1] . نعم ، محالٌ أن يتركَ الكذب على الخلق ، ثم يكذب على الخالق ! .

فاستدل بصدقِهِ مع الناسِ على صدقِ دعوتهِ ورسالتهِ ؛ فالأنبياء والمرسلون معصومون من الكذب في التعامل مع الناس ، وأيضًا في أمر الرسالة والوحي .

*****

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي ، (٧) ،من حديث عبد الله بن عباس ،وانظر أطرافه هناك .

تتمة في باب العصمة

١ـ الإجماع على عصمة الأنبياء والرسل من الوقوع في الكبائر .

وهناك خلاف حول وقوعهم في صغائر الذنوب .

٢ـ عصمة الأنبياء والرسل من الابتلاء بالمصائب والأمراض المنفرة التي تنفر الناس عنهم وعن دعوتهم إلى الله ﷻ .

فالذنوب تنقسم عند جمهور أهل السنة إلى قسمين : كبائر ، وصغائر .

وهذا خلافًا للمرجئة ـ الذين ذهبوا إلى أن كلَّ الذنوب صغائر ما دام العبد على الإسلام ! فما دام الرجل قد شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فلا كبيرة بعد ذلك البتة مع ذلك العقد .

ومذهب الخوارج أن كلَّ الذنوب كبائر وهم يُكَفِّرون بالكبيرة .

أما مذهب أهل السنة والجماعة ؛ فهو مذهب وسط بين مذهب المرجئة والخوارج ؛ كما أنَّ أمة الإسلام بين كل الأمم أمة وسط .

والسؤال : ما حدُّ الكبيرة [1] ؟ وما حدُّ الصغيرة ؟

والجواب : اختلف العلماء في ذلك اختلافًا كبيرًا جدًّا ؛ فقد اختلفوا في ضبط الكبيرة .

---

(١) انظر : « الكبائر » للذهبي (٧) ، و« إحياء علوم الدين » (٤/ ١٧) وما بعدها ، و« تفسير القرطبي » (٥/ ١٣٧) ، و« الطبري » (٩٢١٢) وما قبلها وبعدها ، و« فتح الباري » (١٠/ ٤٠٩) وما بعدها ، و« الزواجر عن اقتراف الكبائر » لابن حجر الهيتمي (١/ ١٤ـ ١٩) .

ومن أجمل ما قيل في هذا الباب ما قاله الذهبي رحمه الله[(١)] وغيره : « الكبيرة هي كلُّ ذنبٍ ختمه الله بالنار أو بالغضب أو بالعذاب أو باللعنة » .

فإن كل آية ختمها الله عز وجل أو كل ذنب ختم الله عاقبته بالغضب أو باللعنة أو بالعذاب أو بالنار ؛ فإن هذا الذنب يعدُّ من الكبائر ، وأكبر هذه الكبائر هو الشرك ؛ قال تعالى عن لقمان : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان:١٣] .

وعقوق الوالدين ، وقتل النفس التي حَرَّمَ الله إلا بالحقِّ ، والزنا ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، والتولِّي يوم الزحف ؛ فهذه من الكبائر التي حدَّدَها النبيُّ ﷺ في حديثه الصحيح ، وأيضًا شهادة الزور، وأكل الربا ، والسحر ، واليمين الغموس ، والنميمة ، والغيبة ، وغير ذلك مما عُدَّ في الكبائر . وكلُّ ما خرج من حدِّ الكبيرة وضابِطها فهو صغيرة .

وقد تعطى الصغيرة حكم الكبيرة إذا أصر العبد عليها واستحلَّها وفرح بها ، وافتخر بها وبصدورها ؛ كما يقول أهل العلم .

والصغائر كالكبائر في توقف العفو عنها على مشيئة الله تعالى .

قال تعالى : ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ ﴾ [النساء:٣١]

أي : من الصغائر ؛ فلقد علَّق الله عز وجل العفو عن الصغائر على مشيئته سبحانه وتعالى ، وكذلك العفو عن الكبائر متعلق بمشيئة الله تعالى . فالله

---

(١) « الكبائر » للذهبي (٧) بتصرف .وانظر : « منار السبيل » (٢/ ٣٣٤) ، و « مدارج السالكين » (١/ ٣٢٧) .

سبحانه وتعالى إن شاء عذَّب وإن شاء غفر ، ولو عذَّب الله أهل سماواته وأرضه لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم ؛ ولكنه سبحانه وتعالى عدلٌ لطيفٌ حكيمٌ خبيرٌ؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء:١٥]، وقال سبحانه : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦] ، وقال : ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق:٢٩] ، وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء:٤٠] .

وقال في الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن أبي ذر ﷺ أنه ﷺ قَالَ : « قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا عِبَادِي ، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ، فَلاَ تَظَالَمُوا »[1] .

فالله سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرة .

إذًا الذنوب تنقسم عند أهل السنة إلى قسمين : كبائر ، وصغائر .

ولا خلاف بين أهل العلم من المتقدمين والمتأخرين على أن الأنبياء والمرسلين معصومون من الوقوع في الكبيرة .

ولو سألني سائل عن قتل موسى عليه السلام هذا الرجلَ من بني إسرائيل أليس هذا كبيرةً أم لا ؟

والجواب :

أولًا : أن موسى عليه السلام قد فعل هذه الكبيرة ، وهذا ثابت في القرآن والسنة ، قبل البعثة والنبوة .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧) .

ثانيًا : أنه فعل هذا من باب الخطأ ؛ فإنه ما تقدم ليقتل الرجل . فمن المعلوم أن الوكز لا يقتل .ولكن قدَّر الله ﷻ بوكزةٍ من موسى عليه السلام أن يموت هذا الرجل ؛ فهذا من باب الخطأ الذي يغفر الله لصاحبه إذا تاب وعاد وأناب .

إذًا لا خلاف في أن الأنبياء والمرسلين معصومون من الوقوع في الكبائر بعد بعثتهم وبعد نبوتهم .

ولكن هل يقع نبيٌّ أو رسولٌ في صغائر الذنوب ؟

والجواب : أن جماهير أهل السنة على ذلك ، وذهب أكثر علماء الإسلام بأن الأنبياء والرسل ليسوا معصومين من الصغائر .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في « مجموع الفتاوى » [1] : « القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر ، هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف ، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام ؛ كما ذكر أبو الحسن الآمدي : أن هذا قول أكثر الأشعرية ، وهو أيضًا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء ؛ بل لم ينُقل عن السلف والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول » .

وقد استدل جمهور أهل السنة على ذلك بآيات كثيرة منها :

قول الله ﷻ في حق أول الأنبياء - نبيِّ الله آدم عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا

(١) « مجموع الفتاوى » (٤/ ٣١٩) .

عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه:١١٦ـ ١٢١] .

فالمعنى واضحٌ ، والآية صريحةٌ ، ولا تحتاج إلى تأويل ، بدعوى أن الأنبياء لا ينبغي أن يقعوا في صغائر الذنوب ! . فقد عصمهم الله من الوقوع في كبائر الذنوب ؛ لكن لا حرج أن يقع نبيٌّ في صغيرةٍ من الصغائر من باب السهو والخطأ ، لا من باب العمد ؛ ليبين لنا الله ﷻ أن العبدَ عبدٌ ، وأن الربَّ ربٌّ ، وأنه لا يرتقي نبيٌّ ولا رسول إلى مرتبة الألوهية التي تنال العصمة التامة الكاملة ؛ فالكمال المطلق لله وحده .

والذي حاز الكمال البشري هو المصطفى ﷺ .

فهناك كمال لله الحق سبحانه وتعالى : كمال في الذات والصفات والأفعال ، أما الكمال من ناحية البشر فهو كمال نسبيٌّ ، وليس كمالاً مطلقًا تامًّا ، والذي حاز الكمال البشريَّ النبيَّ المصطفى ﷺ ـ كما ذكرت ـ ومع ذلك فقد عوتب من الله سبحانه وتعالى ؛ فالله سبحانه وتعالى يقول في الآية المتقدمة صراحة : ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه:١٢١] .

فقد صرَّحت الآية بعصيان آدم عليه السلام .

وكذلك أول رسول بعد نبيِّ الله آدم ، وهو نبيُّ الله نوح عليه السلام قال

تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [هود:٤٥] .

فهنا يسأل نبيُّ الله نوح ربه سبحانه وتعالى أن ينجي له ولده . فكان جواب الله ﷻ : ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود:٤٦] .

فماذا كان حال نوح ﷺ ؟

استغفر نوح ربه وأناب ؛ فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود:٤٧] .

فالآيات واضحةٌ وصريحةٌ في أن نبيَّ الله نوحًا قد وقع في ذنب ، فعاتبه الله تبارك وتعالى عليه ، ولا شك أن الذنوب تتفاوت بالنسبة للنبيِّ ولمن هو دون الأنبياء .

فالأنبياء معصومون من الكبائر ، لكن الصغائر قد يقع فيها النبيُّ ، لبشريته وليبين الله أن مقام الألوهية له وحده لا شريك له ، وأن الأنبياء مهما كانوا فهم بشر ، لكنهم خير خلق الله كلِّهم .

وهنا نبيُّ الله موسى لما قتل الرجل قال : ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص:١٥] ؛ لذا ؛ قال بعدها ـ وهو يتوب وينيب إلى الله سبحانه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [القصص:١٦] .

وداود ﷺ يقول الله تبارك وتعالى في حقِّه : ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ

فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[ص:٢٤، ٢٥] .

وهذا نبيُّ الله محمد ﷺ أفضل الخلق وأعظم الخلق الذين حققوا مرتبة العبودية لله ؛ ومع ذلك وقع النبيُّ ﷺ فيما عوتب فيه من الله ﷻ ؛ فقد حَرَّمَ على نفسه ما أحلَّه الله له .. حَرَّمَ على نفسه العسل [(١)] ـ أو مارية القبطية ـ فنزل القرآن : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التحريم:١] .

وأيضًا عوتب في عبد الله بن أم مكتوم ﷺ [(٢)] ذلكم الرجل الأعمى صاحب القلب الرقيق الذي جاء إلى النبيِّ ﷺ ليتعلم منه الدين ، فأعرض عنه النبيُّ ﷺ وكلَّف نفسه بما لا يطاق ـ ذهب لصناديد الكفر والشرك ـ فالنبيُّ ﷺ ما أعرض عنه متجاهلاً لأمر الدعوة ! لا ؛ ولكنه عليه الصلاة والسلام اختار المهمة الأصعب ؛ فذهب لأهل الشرك لعل الله يشرح صدرهم للإسلام والإيمان ؛ ومع ذلك عوتب النبيُّ ﷺ بقول

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير وغيره في سبب نزول الآية .

(٢) كما في « سنن الترمذي » (٣٣٣١) ، والحاكم في « المستدرك » (٣٨٩٦) ، وابن حبان (٥٣٥) ، والواحدي في « أسباب النزول » (٩٠٤) عن عائشة . قال الترمذي : « هذا حديث حسن غريب » . وروى بعضهم هذا الحديث عن هشام بن عروة عن أبيه قال : « أنزل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابن أم مكتوم ، ولم يذكر فيه عن عائشة » .
وصوَّب الذهبي في « التلخيص » المرسل ،وقال : « وهو الصواب » ا. هـ .
قلت : والمرسل أخرجه مالك في « الموطأ » (٤٧٦) ، والطبري في « تفسيره » (١٢/ ٤٤٣) ، ولكن للحديث شواهد عن أنس وابن عباس وغيرهما ؛ كما في « تفسير ابن كثير » ؛ لذا صحَّحه العلامة الألباني بمجموع هذه الشواهد في « صحيح الترمذي » (٢٦٥١) .

الله ﷻ : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ [عبس:١-١١].

وأيضًا ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف:٢٣، ٢٤].

إذًا فالآيات والأمثلة التي نردُّ بها على بعض الباحثين ممن يستعظمون أن تنسب الصغائر إلى الأنبياء والمرسلين كثيرة ؛ فهم يستهولون الأمر ، ويزعمون أن القول بوقوع الصغائر من الأنبياء والمرسلين يُعَدُّ طعنًا في رسالتهم ونبوتهم ! ويتمحلون تمحلاً ظاهرًا جدًا في تأويل النصوص ؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية (١) ، وكان الأحرى بهؤلاء أن يفهموا الأمر على حقيقته ، وأن يقدسوا نصوص الكتاب والسنة ، وأن يستمدوا العقيدة في هذا الأمر وكلِّ أمرٍ من القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ ، وبذلك نُحكِّم القرآن والسنة في كل أمر ، وهذا هو الذي أُمرنا به ، أما هذا التأويل والتحريف بعد تصريح الكتاب بوقوع ذلك منهم ، فإنه تحكيمٌ للهوى ، ونعوذ بالله من ذلك .

وقد انتشرت هذه التأويلات عند الكتَّاب المحْدثين ، وهي تأويلات فاسدةٌ جدًا من جنس تأويلات الجهمية والباطنية ، بدعوى أنهم يتورعون

(١) كما في « مجموع الفتاوى » (١٠/ ٣١٣).

عن أن ينسبوا مثل هذا إلى الأنبياء والرسل ؛ وهذا تورُّعٌ محولٌ باردٌ ؛لأن التورع الذي يخالف صريح القرآن والسنة لا ينبغي أن يقبل ، ويجب أن يرد .

وهم يثيرون شبهتين [1] في مثل هذا الموطن :

الأولى : يقولون بأن الله قد أمر باتباع الرسل ؛ فقال سبحانه : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١] .

وهذا الاتباع يستلزم أن تكون كلُّ الأفعال على طاعة ، لأنه لو جاز أن يقع من الرسول معصيةٌ لله تعالى ، لحصل تناقضٌ في واقع الحال . وهذا القول صحيحٌ جدًّا ، لكن لو بقيت المعصية خافية غير ظاهرة بحيث لا يتبين أتباعُ الرسل المعصيةَ من الطاعة ، وإنما لا تخفي معصية الرسول أو النبيِّ إن زلَّ في الصغائر ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يعاقبه على هذه الصغيرة في الحال ، ويهرع هذا النبيُّ أو الرسول بالتوبة إلى الكبير المتعال ؛ حينئذٍ يُلْفِتُ الله الأنظار لعلو مكانة هذا النبيِّ بعد توبته إلى الله ﷻ وأكرم منه قبل أن يتوب ، فتحسم قضية الوقوع في الصغيرة بعتاب الله سبحانه وتعالى للنبيِّ ، ثم بإسراعِ النبيِّ بالتوبة إلى الله العليِّ .

الثانية : يقولون : إن الذنوب ولو كانت من الصغائر تنافي الكمال وتكون نقصًا ! وهذا غيرُ صحيحٍ ؛ لأن التوبة تغفر الحوبة وتطهرها ، ولا تنافي الكمال ، ولا يوجه إلى صاحب التوبة اللوم ؛ بل إن العبد في كثير من الأحيان يكون بعد توبته من المعصية خيرًا منه قبل الوقوع في

(١) انظر الرد على هاتين الشبهتين في « مجموع الفتاوى » (١٠/ ٢٩٣-٣١٣) ، (١٥/ ١٥٠) .

المعصية ، ذلك لما يكون في قلبه من الندم والخوف والخشية من الله تعالى ، ولما يلزم به نفسه بعد ذلك من الاستغفار والدعاء ، ولما يقوم به من صالح الأعمال ، يرجو بذلك أن تمحو الصالحات السيئات ؛ وقد قال بعض السلف [1] : « كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة » .

وقال آخر : « لو لم تكن التوبة أحبَّ الأشياء إلى الله لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه » [2] .

فالتوبة تطهر الحوبة ، وقد يكون العبد بعد التوبة أفضل مما كان عليه قبل التوبة ... وابن القيم يلخِّصُ هذا المبحث النفيس في كلماتٍ قليلةٍ عجيبةٍ ؛ فيقول : « رُبَّ طاعة أدخلت صاحبها النار ، ورب معصية أدخلت صاحبها الجنة » . كيف ذلك ؟! .

رب طاعة أدخلت صاحبها النار بِكبرِه وعُجْبِه بنفسه ودلِّه على الله بعد الطاعة ، وقوله لنفسه : لقد فعلت الطاعة التي توجب على الله أن يدخلني الجنة بها ! ، فتهلكه طاعته ؛ لأنه لو ظلَّ أبد الدهر يعبد الله سبحانه وتعالى ما وفَّت عبادته وطاعته نعمةً واحدةً من نعم الله عليه ؛ قال النبيُّ ﷺ : « لاَ يُدْخِلُ أَحَدًا مِنكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ ، وَلاَ يُجِيرُهُ مِنَ النَّارِ ، وَلاَ أَنَا ، إِلاَّ بِرَحْمَةٍ مِنَ الله » [3] .

---

(١) « الفتاوى » لشيخ الإسلام (١٠/ ٤٥ ، ٢٩٤) .

(٢) « الرسل والرسالات » للأشقر (١٠٩ ـ ١١٠) بتصرف .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى (٢٨١٧) من حديث جابر رضي الله عنه والحديث في « الصحيحين » (البخاري ٦٤٦٣) و (مسلم ٢٨١٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وهذا هو المصطفى ﷺ، ولا شك أنه لا وجه للمقارنة بين طاعةِ مخلوقٍ على وجه الأرض وبين طاعةِ رسول الله ﷺ . فإن درجة عبادة رسول الله ﷺ هي أعلى درجات العبودية ؛ يقول : « وَلاَ أَنَا » فما قولك إذًا في قوله سبحانه : ﴿ تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الأعراف:٤٣] .

وهذا النَّبي ﷺ يقول : « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ » .

فهل هناك تناقض بين الآية والحديث ؟

والجواب : لا تناقض البتة [١]؛ فالباء في قوله تعالى : ﴿ تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تُسَمَّى باء السببية .

والباء في قوله : « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ » هي باء العِوَضْ .

أي : لو عمل أحدكم الدهر كلَّه ، فلن يكون عملُه في الآخرة عوضًا له عن الجنة ؛ فموضعُ السوط في الجنة بسجودِ أحدكم الدهرَ كلَّه ، لا يرفع رأسه من الأرض لله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ ولا يفي !!

فيجب أن يكون قلبك معلقًا برحمة الله سبحانه وتعالى وبفضله .

إذًا القول بأن الذنوب ولو كانت من الصغائر تنافي الكمال وتكون نقصًا ؛ قولٌ غير صحيح .

فقد يكون التائبُ أفضلَ مما كان عليه قبل التوبة فتورثه المعصية الندم ، والخوف ، والاستغفار ، والإنابة ، والتفويض ، والتضرع ، والحرص على العمل الصالح ، والخوف من المعصية .

(١)انظر : « شرح مسلم للنووي » (٩/ ١٧٧)، و«فتح الباري » (١١/ ٣٤٤) .

فتراه دائمًا وَجِلاً خائفًا مضطربًا قلقًا من أن يزل في المعصية التي زلَّ فيها قبل التوبة والإنابة إلى الله ، فقد ثبت في الصحاح أن الله يفرح بتوبة العبد .

وصفة الفرح وصفة الغضب من صفات الله لا ينبغي لمسلم أن يعطلها أو أن يشبهها ؛ بل نؤمن بالأسماء والصفات دون تحريف لألفاظها ولمعانيها ، ومن غير تعطيل أو تكييف أو تمثيل ، فالله أثبت لنفسه الفرح ، فنحن نثبت له الفرح لكن بلا تشبيه ؛ لأنه لا ينبغي لأحدٍ من الناس أن يشبه الخالق في صفةٍ من صفاته بصفات المخلوقين ؛ قال تعالى : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] .

لقد قال رسولُ الله ﷺ : « للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاَةٍ ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَأَيِسَ مِنْهَا ، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا ، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ ! أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ »[1] .

فالله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ أشد فرحًا بتوبة العبد من فَرْحةِ هذا الرجل بعودة راحلته إليه . وإن شئتَ قلتَ : بعودةِ أسبابِ الحياةِ إلى هذا الرجل. والتوبة إن لم تكن تجبر النقص الذي وقع فيه العبد ما فرح الله بها . فالله لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، وإنما يريد منا العبودية له تبارك وتعالى .

فأمْرُ الله لك بالطاعة إنما هو لك أنت ، ونهيُ الله لك عن المعصية لصالحك أنت . ليس معنى ذلك أن تتملصَ من أوامر الله أو من نواهي الله

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب الدعوات ، باب التوبة (٦٣٠٩) ، ومسلم في كتاب التوبة ، باب الحض على التوبة والفرح بها (٢٧٤٧) من حديث أنس رضي الله عنه .

أومن حدود الله بدعوى أن الله لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية !! .

وقد ثبت في « سنن الترمذي » و « مسند أحمد » وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قَالَ رَسُولُ ﷺ : « احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ »[(١)].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله[(٢)] : « احفظ الله باجتناب نهيه ، وامتثال أمره ، والوقوف عند حدوده » .

إذًا فالتوبة أحبُّ الأشياء إلى الله ، وإن لم تكن كذلك لما ابتلى الله بالذنب أكرم الخلق لديه ؛ فالتوبة تطهر العبد ، وتطرح العبودية في قلبه .

ومن هنا نفهم كلام ابن القيم ؛ حيث يقول[(٣)] : « التوبة هي أهم قواعد الدين ، والدين كلُّه مبنيٌّ على التوبة » ؛ فمقام الإسلام ، ومقام الإيمان ، ومقام الإحسان كلُّ هذه المقامات تندرج في مسمَّى التوبة ؛ لأن التوبة بالجملة هي الأوبة والعودة من كلِّ ما يغضب الله إلى كلِّ ما يحبه الله ؛ فأصل التوبة في اللغة الرجوع ؛ تاب وثاب وآب بمعنى عاد ورجع ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢] .

بل وبين الله سبحانه وتعالى مثوبة التائبين ؛ فقال في صفات عباد الرحمن : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٧٠] .

فالأنبياء لا يُقرون على الذنب ، أي : إن زلَّ نبيٌّ في صغيرة لا يقره الله

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣) ،وأبو يعلى (٢٥٥٦) ،والترمذي ،كتاب صفة القيامة والورع باب (٥٩) (٢٥١٦) ، وقال الترمذي : « حديث حسن صحيح » ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٧٩٥٧) ، و « المشكاة » (٥٣٠٢) .

(٢) « جامع العلوم والحكم » لابن رجب (٢٤٨) بتصرف في المعنى .

(٣) « مدارج السالكين » (٣٠٥ـ٣٠٧) بتصرف .

على هذا الذنب الصغير، ويأمره الله ﷻ ويعاتبه، فيهرع إلى التوبة؛ فالله عصمهم من أن يداوموا على الوقوع في الصغائر؛ بل كانوا يهرعون إلى الله بالتوبة والأوبة والندم.

وبهذا نكون قد أصَّلْنَا منهج أهل السُّنَّة والجماعة في أن الأنبياء عصمهم الله من الكبائر دون الصغائر. وهذه تعدُّ من أعظم رحمات الله لنا ـ لمن كان دون الأنبياء ـ فمَنْ حفظه الله من الوقوع في كبائر الذنوب، وإن زلَّت قدمه في صغيرة من الصغائر، فجذب ثيابه من أشواك هذه الذنوب، وطهَّر ثيابه بدموع التوبة والأوبة والندم؛ فهذا نرجو له خاتمة الخير، ومكانة العلو، والرفعة في الآخرة. يقول الله تعالى في حق هؤلاء الذين يسيرون على هذا الدرب المنير الوضيء ... في حق ذلك الرجل الذي جاء يومًا إلى النَّبيِّ ﷺ؛ فقال له: «إني أكون في بيتي فأذكرك، فلا أطيق حتى آتي لأنظر إليك! ولم يجد النَّبيُّ ﷺ جوابًا لهذا المحبِّ الصَّادق؛ حتى نزل قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء:٦٩] [١].

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١/ ٤٧٧)، وفي «الصغير» (٢٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٢٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (٣٣٨)، ورواه الضياء المقدسي كما ذكره ابن كثير في «التفسير» (٤/ ١٥١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٣٢٤)، ونقل تحسينه عنه، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٠): «رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عمران العابدي وهو ثقة».

وقال ابن حجر في «العجاب في بيان الأسباب» (٢/ ٩١٤): «رجاله موثقون» وقال السيوطي في «لباب النقول» (٦٤): «أخرجه الطبري وابن مردويه بسند لا بأس به»، وقال ابن القيم في «الحادي» (١٧٩): «لا أعلم بإسناد هذا الحديث بأسًا».

عصمة الأنبياء والمرسلين من المصائب والعيوب والأمراض المنفرة

إنك تسمع حتى الآن من يتهم نبيَّ الله أيوب بأنه ابتلي بمرضٍ في لحمه ، وانتشر الدودُ في جسده ، وكانت إذا وقعت دودةٌ على الأرض من جسده أخذها ووضعها على الجسد مرة أخرى [1] !! إلى آخر هذا الهراء ، وهذا الكلام السيئ الذي لا يليق بآحاد الناس فضلًا عن أن ينسب إلى صفوة الخلق من الرسل والأنبياء .

لقد عصم الله الأنبياء والمرسلين من العيوب المنفرة التي تصد الناس عنهم ؛ لأن ذلك يخالف الغاية التي من أجلها بعثوا ؛ فما بُعث النَّبيُّ إلا لدعوة الناس ، وأن يكون بينهم ليراهم ، ويرى الناسُ أخلاقه وفضله وحاله ؛ فيتبع الناس هذا النَّبيَّ الذي جسَّد المنهج الذي جاء به من عند الله إلى واقعٍ عملي .

إن السبب الحقيقي وراء انجذاب قلوب أصحاب النَّبيِّ ﷺ أنهم رأوا فيه القدوة الطيبة ، والمثل الأعلى على أرض الواقع ؛ فإن أعظم وسيلة للتربية هي التربية بالقدوة؛ قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]

---

(١) وقد جاء ذلك في بعض الآثار ؛كما في « الحلية » لأبي نعيم (٦/ ١٩٥) ومن طريقه ابن عساكر في « تاريخه » (١٠/ ٦٤) عن الحسن قال : « إن كانت الدودة تقع من جسد أيوب عليه السلام ، فيأخذها فيعيدها إلى مكانها ويقول : كلي من رزق الله ﷻ » ، وفي « الزهد » لأحمد (٤١) عن الحسن نحوه . وكله غير ثابت ؛ فهو من الإسرائيليات التي تطفح بالبهتان والافتراء على هؤلاء الرسل والأنبياء ، ولا قوة إلَّا بالله .

فقد كان الرسول ﷺ إذا أمرهم بالصلاة، يقوم هو حتى تتورم قدماه[(١)]، وكان إذا أمرهم بالإنفاق ينفق، حتى يأتيه سائل فيسأله فيعطيه النَّبيُّ ﷺ غنمًا بين جبلين، ويسوق الرجل الأغنام بين يديه، ويذهب إلى قومه؛ فيقول: «أيْ قَوْمِ! أَسْلِمُوا فَوَالله إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ»[(٢)] ويأمرهم النَّبي ﷺ باللين والرفق والحلم والتواضع، بعد أن يجسد لهم هذه المعاني بأسلوبٍ واقعيٍّ عمليٍّ في دنيا الناس والواقع؛ ففي الحديث الذي رواه ابن سعد والحاكم وابن ماجة بسنَدٍ صحيحٍ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن أعرابيًّا دخل على رسول الله ﷺ فهابه وارتعد؛ فيلتفت إليه رسولُ الله ﷺ ويقول له: «هَوِّنْ عَلَيْكَ أَخِي، إِنِّي لَسْتُ بِمَلَكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ بِمَكَّةَ»[(٣)].

وهكذا نقول: إن أعظم وسيلة للتربية هي التربية بالقدوة. والنَّبيُّ والرسول قدوةٌ في قومه؛ فهل من الحكمة أن يُبتلى هذا النَّبيُّ وهذا الرسول بعيبٍ في بدنه؟ أو بمرضٍ منفِّرٍ للناس لينفضَّ الناسُ عنه وعن دعوته؟! إن هذا يخالف الغاية والحكمة التي من أجلها بعث الله الأنبياءَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ الليل (١١٣٠)، وانظر أطرافه هناك، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب (ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا فقال: لا) وكثرة عطائه (٢٣١٢) (٥٨) عن أنس.

(٣) أخرجه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب القديد (٣٣١٢)، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٣)، والحاكم (٣/ ٤٧، ٤٨)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي، وقال البوصيري في «الزوائد»: «هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات»، وصحَّحه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٨٧٦) والقديد هو: اللحم المملح المجفف عن طريق أشعة الشمس.

والمرسلين . والجنون مرضٌ عُصِمَ الأنبياء والمرسلون منه .

وأنتم تعلمون أن اتهام أقوام الرسل لرسلهم بالجنون إنما هو من باب الكذب والافتراء ؛ كما قال الله سبحانه عن قوم نوح : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾[القمر:٩] .

فهذا اتهام باطل !! فهم يتهمون النَّبيَّ الذي جاء بشرعٍ يخالف ما كانوا عليه من عادات بالجنون !وهكذا الحال غالبًا ؛ فإذا رأيت أهل الباطل يشيرون إليك ، ويهمزون ، ويغمزون ، ويسخرون ، فاحمد الله أن الله قد شهد لك من قَبْلُ بأنك على الإيمان !!!

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾[المطففين:٢٩-٣٢] .

ولقد اتهم المشركون - في مكة - رسولَ الله ﷺ بالجنون : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾[الحجر:٦] .

وردَّ الله لنبيه وعن نبيه ؛ فقال : ﴿ نٓ ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾[القلم:١، ٢] .

فقد عصم الله أنبياءه ورسله من الجنون ، ومن أي أمراضٍ عصبية بلُغَةِ عصرنا ، ومن الإصابة بأي أمراضٍ جلدية ؛ كالبرص والجذام إلى غير ذلك . ونبيُّ الله أيوب ﷺ أصيب بالضرِّ ؛ كما في الحديث الذي رواه ابن

حبان وأبو يعلى والحاكم [1] عن أنسٍ رضي الله عنه أن النَّبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ أيوبَ نَبيَّ الله ﷺ لَبِثَ فِي بَلائِهِ ثَمانِ عَشرةَ سنة، فَرَفَضَهُ القريبُ والبَعيدُ إلا رَجُلَيْنِ مِنْ إخوانِهِ كَانَا مِنْ أخصِّ إخْوانِهِ، كَانَا يَغْدُوانِ إِلَيهِ ويَرُوحانِ؛ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لصاحبه: تَعْلَمَ، والله لَقَدْ أَذْنَبَ أيوبُ ذنبًا ما أَذْنَبهُ أحدٌ مِنَ العالمين، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: منذُ ثمانِ عَشْرَةَ سنةً لَمْ يَرْحَمْهُ الله، فيكشِفَ ما بِهِ، فَلَمَّا رَاحَ إليهِ لَمْ يَصْبرِ الرَّجلُ حَتَّى ذَكَرَ ذلكَ له، فَقَالَ أيوبُ: لاَ أَدْرِي مَا تَقُولُ غَيْرَ أنَّ الله يَعْلَمُ أَنِّي كنتُ أَمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ الله، فأرجِعُ إلى بيتِي فأُكَفِّرُ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةَ أَنْ يُذْكَرَ الله إلاَ فِي حَقٍّ. قَالَ: وَكَانَ يَخْرُجُ إِلَى حَاجَتِهِ، فإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ أَمْسَكَتِ امرأتَهُ بيدِهِ، فَلَمَّا كَانَ ذاتَ يَوْمٍ، أَبطَأَ عليها، فَأَوْحَى الله إلى أيوبَ فِي مَكَانِهِ: ارْكُضْ برِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ، فاسْتَبْطَأَتْهُ فَبَلَغَتْهُ، فَأَقْبَلَ عليها قَدْ أَذْهَبَ الله ما به مِنَ البَلاءِ، فَهُوَ أَحْسَنُ مَا كَانَ، فَلَمَّا رأَتْهُ، قالت: أَيْ بَارَكَ الله فيكَ، هَل رَأَيتَ نبيَّ الله هذا المُبْتَلَى، والله على ذلك ما رأيتُ أَحَدًا كَانَ أشبَهَ بِهِ منكَ إذْ كَانَ صَحِيحًا، قَالَ: فَإِنِّي أنا هو، وَكَانَ له أَنْدَران: أَندرُ القَمْحِ، وأَنْدَرُ الشَّعيرِ، فَبَعَثَ الله سَحَابَتِينِ، فَلَمَّا كَانَت إحدَاهُمَا عَلَى أَنْدَرِ القَمْحِ، أَفْرَغَتْ فيهِ الذَّهَبَ حَتَى فَاضَتْ،

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢٨٩٨)، وأبو يعلى (٣٦٠٥)، والحاكم (٢/ ٥٨١، ٥٨٢)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» وافقه الذهبي، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٧٤، ٣٧٥)، وصحَّحه الضياء المقدسي في «المختارة» (٢/ ٢٢٠، ٢٢١)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٧).

وَأَفْرَغَتِ الأُخْرَى عَلَى أَنْدَرِ الشَّعِيرِ الوَرِقَ حَتَّى فَاضَتْ » .

ولم يفصِّل الله في آية أخرى ولا نبيُّنا محمد ﷺ نوعية هذا الضر [1]؛ قال تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾ [الأنبياء:٨٣] .

انظر إلى هذا الأدب مع الله ، يقول أيوب : ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ ولكن ما نوعية هذا الضر ؟ الله أعلم ؛ لكنه يتضح لنا أن الضرَّ الذي وقع بنبيٍّ الله أيوب أصاب بدنه وماله وأهله ، وأنتم ترون الآن في عصرنا من الأمراض ما يقعد صاحبه في الفراش عامًا أو يزيد .وليس بالضرورة أن كل قعيد في الفراش يصل مرضه إلى الحد الذي ينفر الناس منه . فالضرُّ الذي ابتلي به نبيُّ الله أيوب ضرٌّ أصاب بدنه وماله وأهله ، ومع ذلك يقول : ﴿ مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٣] .

فماذا كانت النتيجة ؟ قال تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾ [الأنبياء:٨٤] .

والفاء هنا للترتيب والتعقيب ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ

---

(١) وقد قال ابن العربي (كما في تفسير القرطبي « ص: آية ٤١ ») : « ولم يصح عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين : الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾ [الأنبياء:٨٣] ، والثانية : في « ص » ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص:٤١] .
وأما النبيُّ ﷺ فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله : « بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ إِذْ خَرَّ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ .. » الحديث .
وإذا لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه ، فمن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره أم على لسان سمعه ؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات ، فأعرِض عن سطورها بصرك ، واصمم عن سماعها أذنيك ، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالا ، ولا تزيد فؤادك إلا خبالا » انتهى المراد . وقد ثبت لأيوب حديث آخر ، وهو الذي مرَّ آنفًا .

وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾[الأنبياء:٨٤] .

وفي آيات أخرى : ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾

[ص:٤٢]

لقد حوَّل الله مستشفاه تحت قدمه ؛ فلم يسافر إلى شرق أو إلى غرب !

وللعلماء في قوله : ﴿ ٱرْكُضْ ﴾قولان :

الأول :هو الجري .

والثاني :اضرب الأرض . والثاني هو الصواب ؛ لأنه رجلٌ مريضٌ ، لا يستطيع أن يجري وأن يركض ، وإنما الأولى : اركض برجلك ، أي : اضرب الأرض برجلك من تحتك . وفجَّر الله له عينًا من الماء ، وأَمَرَه أن يغتسل من هذا الماء وأن يشرب منه .

فما العلةُ منْ وراء هذا الغُسل والشَّراب ؟ لقد أمره الله بالغُسل ليطهر هذا البدن كلَّه من الظاهر ، وبالشراب ليطهر به البدن من الداخل ؛ فشفاه الله ﷻ ومنَّ عليه بأهله ومثلهم معهم .

وروى البخاريُّ [١] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتَثِي فِي ثَوْبِهِ ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ : يَا أَيُّوبُ ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى ؟ قَالَ : بَلَى ، وَعِزَّتِكَ وَلَكِنْ لاَ غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الغسل ، باب من اغتسل عريانًا وحده في الخلوة (٢٧٩) ، وانظر طرفه هناك .

والسؤال الأخير : ما هي الحكمةُ من ابتلاء الله لأنبيائه ورسله ؟

لماذا .. وَهُمْ أهلُ طاعةٍ وأهلُ خيرٍ وانقياد ؟ فلماذا كان البلاء ؟

والجواب : لأمرين :

الأمر الأول : أن الله تبارك وتعالى يبتلي الأنبياء في أموالهم وأبدانهم وأعراضهم وأجسامهم بالإيذاء أو بالأمراض أو باعتداء أعداء الله عليهم ... أو غير ذلك ؛ ليرفع الله ﷻ منزلتهم ، وليقربهم منه سبحانه وتعالى .

فالابتلاء : إما أن يكون للتمحيص ، وإما أن يكون للتطهير ؛ وإما أن يكون لرفع درجة ؛ فقد يكون للتمحيص ؛ كما في قوله : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:٢، ٣] .

والدرجة الثانية : للتطهير ؛ قال ﷺ : « حَتَّى الشَّوْكَةَ يُشَاكُهَا إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ »[١] .

الدرجة الثالثة : لرفع الدرجة وليزداد العبد قربًا من الله ؛ فإن الأنبياء وهم أحبُّ الخلقِ إلى الله ، ومع ذلك يقول النَّبيُّ ﷺ لَـمَّا سُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاَءً ؟ قَالَ : « الأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ؛ فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلاَبَةٌ ، زِيدَ فِي بَلاَئِهِ ، وَإِنْ كَانَ

(١) أخرجه البخاريُّ ، (٥٦٤٠) ، ومسلم (٢٥٧٢) من حديث عائشة ﵂، ورواه البخاري (٥٦٤١، ٥٦٤٢) ، ومسلم (٢٥٧٣) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة ﵄.

فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ، خُفِّفَ عَنْهُ ، وَمَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ »[1].

ومن هنا نفهم جيدًا حديثَ رسول الله ﷺ : « عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ »[2].

الأمر الثاني : ليكونوا قدوةً للناس في تحمُّل الشدائد والمصائب والعذاب والبلاء . فإذا رأى الناسُ أن النَّبيَّ هو أول من يتعرض للإيذاء ، وقفوا خلف دعوته ونصروه ، ولكنهم لو رأوا أن العذاب والإيذاء لا يقع إلا على أتباعه وهو مُبَرَّأ ، وفي أمن وأمان من هذا العذاب والإيذاء والبلاء لقالوا : لو كان مثلنا وذاق ما تذوقناه من عذابٍ وألمٍ واضطهادٍ لهجر هذه الدعوة التي يدعو إليها !!

ولكن النَّبيَّ يُبتلى أمام أعين أتباعه ، ليزدادوا ثقة وتحملاً للأذى . وأنهم ليسوا عند الله أفضل من أنبيائه ورسله ؛ فالمصطفى ﷺ في مكة يوضع الترابُ على رأسه ، وَيُخْنق خنقًا شديدًا ، حتى كادت أنفاسُه أن تخرج ، ويُطْرد من بيته ؛ فلما أمر أصحابه بالهجرة امتثلوا لأمره ، أما إذا كان في بيته مُعَافًى آمنًا ، ثم يقول : هاجروا ؛ فإنه لا يستمع إليه أحد !!

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٧٢-١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨٥) ، وعبد بن حميد (١٤٦) ، والدارمي (٢٧٨٣) ، والحاكم (١/ ٤١) ، والطيالسي (٢١٥) ، وابن أبي شيبة (٣/ ٢٣٣) ، والترمذي ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٨) ، وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء (٤٠٢٣) ، وابن حبان (٢٣٢١ ، ٢٩٠٠) ، والبغوي (١٤٣٤) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح الترمذي وابن ماجه » .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد ، باب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه .

إذًا فليتحمل المسلمون ما يصيبهم من شدةٍ وأذى وابتلاء ، فالله يبتلي أنبياءه ورسله ؛ ليكونوا في هذا الباب وفي كل باب القدوة والمثل الأعلى .

فإذا ما اشتدت المحنة والبلايا بالمؤمن ، واعتصر قلبه من الألم تذكَّر ابتلاء الله لأنبيائه ورسله فيصبر ، ويقول : أين أنا مِنْ محمد بن عبد الله ﷺ ؟ .

فلو تخلَّى كلُّ مسلمٍ عن دعوته ، وعن هذا الدرب المنير ، مع كلِّ مُنْعَطَفٍ ، وكلِّ محنة وفتنة ، ما بقي أحدٌ على هذا الدرب ؛ لأن هذا الدرب درب محن وفتن وابتلاءات ؛ بل إن من سلك طريق الأنبياء وطريق الدعوة ورأى أن الطريق ممهَّد بالورد ، ومفروش بالزهور والرياحين ، فليعلم يقينًا أنه قد ضل الطريق ، وسلك طريقًا غير طريق محمد بن عبد الله ﷺ ؛ فطريقُ الأنبياءِ طريقُ ابتلاء ، فلابد حينئذٍ من الصبر ، فإذا تزوج الصبر باليقين ولدت بينهما الإمامة في الدين .

قال ربُّ العالمين : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤] .

*****

لماذا جعل الله الأنبياء والمرسلين من البشر ، وبماذا خصهم وفضلهم على سائر البشر ؟

لقد جعل الله سبحانه الأنبياء والرسل من البشر لحكمٍ كثيرة ، لَمَّا جَهِلَها أعداءُ الرسل اعترضوا على هذا الاصطفاء ؛ فأعداء الرسل استعظموا أن يكون النَّبي والرسول بشرًا كسائر البشر ؛ يأكل ويشرب ، ويمشي في الأسواق ، وكان هذا الاعتراض المبنيُّ على الجهل سببًا خطيرًا من أسباب صدِّ الناس عن الإيمان بالله وأنبيائه ورسله ؛ كما قال الله ﷻ : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[الإسراء:٩٤] .

فالاعتراض على أن يكون النَّبيُّ والرسول بشرًا كان من أسباب الصدِّ عن الإيمان بالله ورسله ، وهذا من باب الجهل بحقيقة الإنسان المصطفى والمجتبى مِنْ قِبَلِ الله ـ جَلَّ وَعَلاَ .

ثم قال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾[الإسراء:٩٥] .

إذًا أعداء الرسل يعتبرون إرسال الله ﷻ لأنبيائه ورسله من جنس البشر أمرًا قبيحًا ، ويعدُّونه خسرانًا مبينًا ؛ كما قال تعالى ـ حكاية عن هؤلاء : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾[المؤمنون:٣٤] .

وكما قال تعالى عن هؤلاء أيضًا : ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾[القمر:٢٤] .

فأعداء الرسل يعترضون على أن تكون الرسالة والنبوة لبشر عاديٍّ ، فصدُّوا بذلك عن الإيمان بالله ورسله .

وعندما نتأمل نصوص القرآن نستطيع أن نرد على هذه الشبهة من عدة وجوه[1] :

أولاً : أن الله سبحانه وتعالى أرسل الأنبياء والرسل بشرًا لا من جنس الملائكة من باب الابتلاء والاختبار للمرسلين وللمرسل إليهم ؛ كما قال سبحانه وتعالى في الحديث القدسي الذي رواه مسلم[2] عن رسول الله ﷺ عن ربِّ العزة أنه خاطب نبيه ﷺ ؛ فقال : « إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ » ؛ فالله سبحانه وتعالى سيسأل المرسلين يوم القيامة ، وسيسأل الأمم الذين أُرسل إليهم هؤلاء الأنبياء والمرسلون ؛ فهذه حكمة .

ثانيًا : أن الله ﷻ أراد أن يبين إكرامه لجنس من البشر اصطفاهم واجتباهم ممن سبقت لهم منه الحسنى ؛ كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ﴾ [مريم:٥٨] .

ولا شك أن هذا من أعظم الحِكَم التي أرسل من أجلها الأنبياء والرسل بشرًا .

ثالثًا : لكي يحس هذا النبيُّ البشري الذي هو من جنس من يدعوهم

---

(١) انظر: « الرسل والرسالات » (ص٧١) للدكتور الأشقر .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ .

بأحاسيسهم ، ويشعر بمشاعرهم ، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم وحاجاتهم ، ومن ثمَّ يعطفُ على ضعفهم ونقصهم ؛ فهو من جنسهم ؛ ولذا كان من اليسير أن يرتاد بهم الطريق إلى الله سبحانه وتعالى بوحي من الله ، وبعون من الله ﷻ ؛ فيحوِّل منهج الله الذي جاء به في دنيا الناس إلى واقعٍ عمليٍ ملموسٍ ، فيرى الناس المنهج الربانيَّ الذي جاء به هذا النَّبيُّ ، يتحول في دنياهم إلى واقع ، فيرون القدوة حيَّةً ، فإن من أعظم الوسائل للتربية ؛ التربية بالقدوة ، فحينما يبعث الله نبيًّا ، أو رسولاً بمنهجٍ تشريعي ، فيقوم هذا النَّبيُّ بأمر الناس ونهيهم ، ويبين لهم حدود الله ، ويمتثل هو ابتداءً بهذه الأوامر والنواهي والحدود ، ويحوِّل هذا المنهج الربانيَّ في حياته وفي دنيا الناس إلى واقع عملي ، فيرى الناس القدوة حية وعملية ، فيمتثل الناس هذا المنهج ، وإلا لو كان الآمر بهذا المنهج الربانيِّ ملكًا ـ من غير جنس البشر ـ ما ائتمر الناس بأمر الله ، وما انتهى الناس بنهي الله ، وما وقف الناس عند حدود الله بدعوى أن هذا المَلَك الرسول لو كان من جنسهم لعجز عن الإتيان بمثل هذه الأوامر التي يأمر بها ، وبمثل هذه النواهي التي ينهى عنها ، وبمثل هذه الحدود التي يبين للناس أنها حدود الله ﷻ ؛ فلو كان النَّبيُّ من غير جنس البشر لشقَّ على الناس أن يمتثلوا المنهج ، ولكن لما كان النبيُّ من جنس البشر أمرهم فأتمر هو ابتداءً ، ونهاهم فانتهى هو ابتداءً ، وحدَّ لهم فوقف هو ابتداءًا عند حد الله ، فلما رأى الناس صدق المنهج في قدوة واقعية عملية على أرض الواقع من هذا النَّبيِّ المرسل من قِبَلِ الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وَثِقَ

الناس في المنهج ، وعلموا علم اليقين أن هذا المنهج ما أُنْزِل إلا ليُطَبَّق في دنيا الناس ؛ إذ لو كان هذا المنهج نظريًّا لمجرد الثقافة الذهنية الباردة الباهتة ما أمر هذا النَّبيُّ المرسل من عند الله ﷻ الناس بتحويل هذا المنهج بأركانه وبنوده إلى واقع عملي ، وإلى منهج حياة في دنيا الناس .. فيأتي نبيٌّ من الأنبياء فيأمر قومه بعدم الغش في الميزان فيمتثل هو ابتداءً بهذا الأمر .. وهكذا ؛ تعلَّقت القلوب بالأنبياء والمرسلين ، وما تطلَّعت القلوب إلى مناهجهم الربانية ، إلَّا لأنهم رأو هذا المنهج الربانيَّ يحوله هذا النَّبيُّ ابتداءً في حياة الناس ودنياهم إلى واقع عملي يتألق سموًّا ، وروعة ، وعظمة ، وجلالا ؛ فهذه من أعظم الحكم ، والله أعلم .

رابعًا : لو كان الله ﷻ أرسل الرسل من جنس الملائكة ، لشقَّ ذلك على الناس وهم لا يشعرون ؛ فالكفار طلبوا أن يكون الرسول والنَّبيُّ من جنس الملائكة ، ولكنهم جهلوا أن التعامل مع الملائكة أمر شاق جدًّا وفي غاية الصعوبة والمشقة ؛ فهم يجهلون حقيقة التعامل مع الملائكة ؛ فالرسول ﷺ هو أفضل الخلق عند الله ، وهو على جانب عظيم من القوة النفسية ، والبدنية ؛ فقد حاز الكمال الإنسانيَّ في كلِّ جوانبه ؛ فهو رسولٌ يتلقى الوحي من السماء ليربط الأرض بالسماء بأعظم رباط ، وأشرف صلة ، وهو رجلُ سياسة ، والسياسة من الدين ؛ فجميعُ الأنبياء ساسوا الأمم ، وساسوا أقوامهم ، فالنَّبيُّ ﷺ رسول ، وفي نفس الوقت رجل سياسة ، أقام للإسلام دولةً وسط صحراء تموجُ بالكفر موجًا ؛ فإذا هي بناءٌ شامخٌ لا يطاوله بناء ، وهو رجلُ حرب

يضع الخطط ، ويقود الجيوش ؛ بل ويقف في المقدمة فإذا فرَّ الأبطال في ساحة الوغى ، وميدان البطولة والشرف ؛ حينها تصمُتُ الألسنة الطويلة ، وتخطب السيوف والرماح على منابر الرقاب يقف النَّبيُّ ﷺ لينادي على القوم بأعلى صوته في ساحة الميدان ؛ ليقول : « **أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِب ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ** »[1] .

وهو رجل إنسانيٌّ من طراز فريد ، كأنه ما خُلِق إلا ليواسي المكروبين ، والمجروحين ، والمحزونين ، وإلا ليمسح الدموع من على وجوه البائسين والمحرومين .. تأخذ الأمَةُ بيده لتكلِّمه فيمشي معها ، ولا ينصرف عنها ، حتى تنصرف الأمة عن رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ ربُّ أسرةٍ كبيرة تتكوَّن مِن تسع زوجات ، ومع ذلك يقوم ﷺ على هذه الأسرة ليعطيها من النفقات .. من نفقات الوقت ، ومن نفقات الشعور ، ومن نفقات التربية ، ومن نفقات التوجيه والنصح ، فضلاً عن النفقات المادية ، يقوم النَّبيُّ ﷺ بهذا الدور على أعلى نسق شهدته الأرض ، وعرفه التاريخ ، وهو بعْدَ كُلِّ ذلك رجلُ دعوةٍ تأخذ الدعوةُ وقته ، وفكره ، وقلبه ، وعرقه ، ودمه .

يعطي النَّبيُّ ﷺ كل هذه الأدوار ، وكأنه ما خُلِقَ إلا لكلِّ دورٍ على حِدَةٍ ، يعطي كل هذه الأدوار حقَّها من الكمال الإنساني والاتزان ما لا يستطيع بليغٌ على وجه الأرض أن يجسِّده ، ولله درُّ القائل .

فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهم

---

(١) وهو في « صحيح مسلم » ،كتاب الجهاد ، باب في غزوة حنين (١٧٧٦)عن البراء .

انظر إلى حال رسول الله ﷺ الذي حاز الكمال الإنساني في أرقى صُوَرِه ، وفي جميع جوانبه ونواحيه . انظر إليه حينما كان يتنزل عليه الملك ـ جبريل عليه السلام ـ بالوحي من قِبَلِ الله تعالى ، لنقف على رحمة الله ، وعلى عظيم حكمة الله في أنه سبحانه لم يرسل الأنبياء والرسل من الملائكة ؛ بل أرسلهم من البشر ؛ فالرسول ﷺ كان إذا نزل عليه جبريل بالوحي في اليوم الشديد البرودة لا يتركه جبريل إلا وجبينه ﷺ يتفصَّدُ عرقًا لثقلِ الوحي [(١)].

بل لقد ثبت أن النَّبيَّ ﷺ لما رأى جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية ، فزع ، وارتعد قلبه ، واضطربت جوارحه ، ودخل إلى خديجة رضي الله عنها ؛ ليقول : « زَمِّلُونِي ، زَمِّلُونِي » [(٢)] .

فرؤية الملك على حقيقته رعبٌ وفزعٌ لم يتحملها رسول الله ﷺ الذي مَنَّ الله عليه بالقوة النفسية ، والإيمانية ، والبدنية ؛ فلقد رآه يجلس على كرسي بين السماء والأرض قد سدَّ الأفق ، فخَلْقُ الله لجبريل خَلْقٌ عظيم ؛ فهذا رسولُ الله ﷺ لم يتحمل أن يتعامل مع الملك على صورته الحقيقية ؛ بل كان الملك يأتيه في صُوَرٍ مختلفة .. يأتيه في صورة رجل ، يأتيه على هيئة صلصلة الجرس .. يأتيه في المنام ، وكان من أشد هذه المراحل

---

(١) سبق الكلام عليه في الإيمان بالملائكة ،وهو في « الصحيحين » (البخاري رقم ٢، ومسلم رقم ٢٣٣٣) ولفظه : « قالت عائشة رضي الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحيُ في اليوم الشديد البرد ، فَيَفْصِم عنه ،وإن جبينه ليتفصَّد عَرَقًا » ، واللفظ للبخاري .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، ومسلم كتاب الإيمان ، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦٠) في جزء من حديث عائشة .

والمراتب على النَّبيِّ ﷺ حينما يتنزل عليه الوحي كصلصلة الجرس ، فيثقل ذلك على النبيِّ ﷺ حتى قال أحدُ الصحابة [(١)] : أَنْزَلَ الله على رسُوله ﷺ وفخِذُهُ على فخِذِي ، فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تُرَضَّ فَخِذِي . يعني: كانت فخذُ النَّبيِّ ﷺ عليَّ لما نزل الوحيُ ، فثقُلَ ذلك عليَّ حتى ظننت أن فخذي ستقطع من الثقل ! فالتعامل مع الملائكة ليس بالأمر البسيط ولا بالهين ؛ لذلك من رحمة الله ﷻ أن جعل الأنبياء والرسل الذين يتعاملون مع الناس ، ويدعون الناس إلى الله ، ويأخذون الناس إلى الخير ، جعلهم الله من جنس البشر ؛ ليسهل على الناس أن يتعاملوا مع هؤلاء الصفوة المختارة من أنبياء الله ورسله ؛ لذا ردَّ الله على المجرمين المشركين الذين أرادوا أن يكون النَّبيُّ رسولًا من الملائكة ؛ قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان:٢٢] ، وذلك أن المجرمين من المشركين لا يرون الملائكة إلا عند الموت أوحين نزول العذاب ؛ فلو قُدِّرَ أنهم رأوا الملائكة لكان ذلك اليوم يوم هلاكهم ـ والعياذ بالله ـ فكان إرسال الرسل من البشر ضروريًّا ؛ كي يتمكن البشر من مخاطبة الأنبياء ، ومن مخاطبة الرسل ، ومن التفقه عليهم ، ومن الفهم عنهم ؛ قال الله ﷻ : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء:٩٤، ٩٥] .

---

(١) وهو زيد بن ثابت ؛ كما في « صحيح البخاري » ، كتاب الجهاد والسير (٢٨٣٢) ، وانظر : كتاب الصلاة ، باب ما يذكر في الفخذ ، باب رقم (١٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام:٩] .

حتى لو قدَّر الله أن ينزل ملكًا لجعله في هيئة رجل ، وفي صورة إنسان ؛ ليسهل على الناس التعامل معه . وليتمكَّنوا من الانتفاع منه ، وإلا لالتبس الأمر عليهم .

فإذًا لما كان الرسل والأنبياء من البشر كان من اللازم أن يتصفوا بالصفات التي لا تنفكُّ عنها البشرية ، ولا ينفك عنها البشر ؛ فهُم يحتاجون إلى الطعام وإلى الشراب ، وإلى ما يترتب على الطعام والشراب ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٧، ٨] .

بل لابد لكلِّ جسدٍ أن يأكل الطعام ، وأن يموت ، وأن يمرض .

ومن ذلك ؛ أنهم جميعًا وُلِدوا كما وُلِدَ البشر ، مع خلافٍ لابد من ذكره في إشارةٍ عابرةٍ في نبيِّ الله عيسى ﷺ ، وهذا من كمال قدرة الله ؛ فلقد خلق الله الخلق ، وخلق صنفًا من الخلق من أبٍ دون أم ، وهي حواء عليها السلام ، وخَلَقَ الله ﷻ صنفًا من أمٍّ دون أب ، وهو عيسى ﷺ ، وخلق ﷻ صنفًا من غير أب ومن غير أم ، وهو آدم ﷺ وخلق ﷻ صنفًا من أمٍّ وأبٍ وهم سائر البشر ؛ ليعلم الخلق أن الله على كل شيءٍ قدير .

وقد رُوِيَ [١] أن رجلًا صالحًا من قرابتها يخدم معها في بيت المقدس

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في « تفسيره » (لسورة مريم :٢٢) .

يُقال له : يوسف النجار ، سأل مريم عليها السلام حينما رأى بوادر الحمل تظهر على بطنها (١).

أنكر ذلك من أمرها ، لكنه يعلم نزاهتها وبراءتها ، ودينها وعبادتها ، لكن أمرها جعل يجوس في فكره ، لا يستطيع صرفه عن نفسه ، فحمل نفسه على أن عرَّض لها في القول بكلامٍ بديعٍ ؛ فقال : يا مريم ، أجيبيني واصْدُقيني ، ولا تعجلي عليَّ . قالت ، وما هو يا يوسف ؟ قال : يا مريم ، هل يكون زرع بغير بذر ؟ وهل يكون نبات بغير غيث أو مطر ؟ وهل يكون ولد بغير أب أو أم ؟

فقالت مريم : نعم يا يوسف ـ وفهمت ما أشار إليه ـ قال : كيف ذلك ؟ قالت : يا يوسف ! أنسيت أن الله خلق الزرع يوم خلقه بغير بذر ، وخلق النبات يوم خلقه من غيرْ غيث أو مطر ، وخلق آدم يوم خلقه من غير أب ومن غير أم ؟ فقال يوسف : أعلمُ أن الله على كل شيء قدير .

فالأنبياء ولدوا كما يولد البشر ، وعيسى عليه السلام وُلِدَ كما يولد البشر من أم ، لكن على التفصيل الذي نعلمه ؛ ليعلم الناس أن الله على كلِّ شيء قدير !!

قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ

(١) وهذا هو الراجح عند جمهور المفسرين ؛ كما قال الحافظ ابن كثير في « التفسير » : أن مريم حملت بعيسى عليه السلام حملاً عاديًا في تسعة أشهر كشأن النساء ، وإن كان من أهل العلم من ذكر أن مريم حملت بعيسى ووضعته في ساعةٍ واحدةٍ ، ونحن لا نستكثر ذلك على قدرة الملك ؛ فإن الله يقول للشيء كن فيكون ؛ لكننا نقرر ما أصَّله جمهور المفسِّرين من أن مريم حملت حملاً عاديًا ؛ إذ لا دليل من كلام الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى بأن مريم حملت ،ووضعت في ساعة واحدة !!

قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:٥٩] .

ويصيب الأنبياء والرسل ما يصيب البشر من أعراض ؛ فهم ينامون ، ويقومون ، ويصحُّون ، ويمرضون ، ويتزوَّجون ، وينسون ، ويغضبون ، ويأتي عليهم ما يأتي على كلِّ البشر من الموت ؛ كما قال الله ﷻ حكاية عن الخليل إبراهيم ﷺ: ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء:٧٩ـ ٨١] .

ويقول الله تعالى مخاطبًا نبينا ﷺ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٤] .

ويتعرض الأنبياء للابتلاء كما يتعرض البشر ؛ فقد يتعرض نبيٌّ للسجن !! نبيٌّ مؤيدٌ من السماء يُسْجن ؟! نعم ؛ كما سُجن يوسف ﷺ فلبث في السجن بضع سنين ؛ فهذا نبيٌّ من الأنبياء يسجن ؛ كما أخبر الله بقوله : ﴿ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف:٤٢] .

ومن الأنبياء من يطرد من بلده ؛ فلقد خرج لوط من بلده ، وخرج إبراهيم من بلده ، وخرج المصطفى ﷺ من بلده .. طُردوا ، وهاجروا ، وتركوا الأهل والأوطان ، من أجل العقيدة ، ومن أجل الدين .

وكل مصيبة في أمر الدنيا هينة ما لم تكن في أمر الدين .

فالأنبياء يتعرضون للبلاء ، ويتعرضون لكلِّ ما يتعرض له سائر البشر ، ومقتضى كونهم بشرًا ـ بلا نزاع ـ أنهم ليسوا آلهة .

فالنَّبيُّ ليس إلهًا ، ولا ينبغي أن نصرف لنبيٍّ - مهما كان - خصلةً من خصال الألوهية أو صفة من صفات الرب ﷻ ، فلا ينبغي أن يقال مثلاً في حق النَّبيِّ ﷺ كما يقول أحدهم : « ليس لمحمدٍ من محمد شيء ؛ فمحمد في جميع شئونه وصفاته كشئون وصفات الله !!» ؛ فهل هذا حبٌّ للنبيِّ ﷺ ؛ أم هذا قدح في توحيد الرب العليِّ ؟! .

فلا ينبغي أن نصرف للنبيِّ صفة من صفات الألوهية ، ومن باب أولى ، لا ينبغي أن نصرف للوليِّ صفةً من صفات الألوهية أو صفة من صفات النبوة ؛ فلا ينبغي أن يُسئل الوليُّ من دون الله ، ولا ينبغي أن يُستغاث بالولي من دون الله ، ولا ينبغي أن يُذبح للوليِّ من دون الله ، فضلاً عن أن يكون هذا للنبيِّ ؛ لأن الربَّ ربٌّ ، والعبدَ عبدٌ .

فمقتضى كون الأنبياء والرسل من البشر أنهم ليسوا بآلهة ، وليس فيهم من صفات الألوهية شيء ، ولذلك فإن الرسل يتبرءون من الحول والطَّوْل ، ويعتصمون بالله الواحد الأحد ، ولا يدَّعون أبدًا شيئًا من صفات الله سبحانه وتعالى .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ

﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة:١١٦ـ١١٨] .

وخاطب الله ﷻ نبيه ﷺ بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠] .

وإذا كان البشر يتفاوتون فيما بينهم في الكمال الخَلْقي والخُلُقي ، فهذا جميل وهذا دميم . وهذا حليم ، وهذا غضوب ؛ فإن الأنبياء والرسل قد حقَّقوا أعلى الكمال البشري في الجانب الخَلْقي والخُلُقي ؛ لأنهم صفوة الله في الخلق ؛ لذا فقد اصطفاهم الله بالرسالة ؛ قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٤] .

ولقد اختَصَّ الله الأنبياء والرسل على سائر البشر بخصالٍ وأمورٍ تفرَّدوا بها ؛ ومن ذلك :

أولاً : الوحي : قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠] .

فهي صفةٌ زائدةٌ على صفات البشر .

هذا الوحيُ إما أن يكون تكليمًا من الله لهذا النَّبيِّ ، وإما أن يكون بالاتصال ببعض الملائكة ، وإما أن يكون بإعلام الله للنبيِّ بعض الأمور في الماضي أو في المستقبل ؛ ومن ذلك : الإسراء والمعراج ، وكرؤية النَّبي الملائكة ، والجنة والنار .

فهذه أمور ملازمة للوحي ؛ فهذا ليس ببشر عاديٍّ كسائر البشر ؛ بل هو بشر مصطفىً ومجتبيٍّ ، اصطفاه الله من دون البشر .

ثانيًا : العصمة : وقد تحدَّثنا عنها قبل ذلك بالتفصيل .

ثالثًا : الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ؛ كما قال ﷺ : « إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ تَنَامُ أَعْيُنُنَا وَلاَ تَنَامُ قُلُوبُنَا »[(١)] .

وفي صحيح البخاري[(٢)] عن أنسٍ رضي الله عنه في حديث الإسراء وفيه : « .. وَالنَّبِيُّ ﷺ نَائِمَةٌ عَيْنَاهُ ، وَلاَ يَنَامُ قَلْبُهُ ، وَكَذَلِكَ الأَنْبِيَاءُ تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ ، وَلاَ تَنَامُ قُلُوبُهُمْ » .

وقد مضى حديث جابر رضي الله عنه الذي رواه البخاريُّ وفيه : « إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ »[(٣)] .

رابعًا : أن الله عز وجل يخيرهم قبل الموت:

ففي البخاريِّ ومسلم[(٤)] عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسولَ الله ﷺ يقول : « إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ ، حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، ثُمَّ يُحَيَّا أَوْ يُخَيَّرَ ».

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٧١) ، وصحَّحه الشيخ العلامة الألباني في «الصحيحة» (١٧٠٥) ، و «صحيح الجامع » (٢٢٨٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ،كتاب المناقب ، باب كان النبي ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه (٣٥٧٠) ،وانظر أطرافه هناك .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) أخرجه البخاريُّ ،كتاب المغازي ، باب مرض النبيِّ ﷺ ووفاته (٤٤٣٧) ،وانظر أطرافه في (٤٤٣٥) ،ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل عائشة ــ رضي الله تعالى عنها ــ (٢٤٤٤) .

وفي رواية قالت : « مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرَضُ إِلاَّ خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ».

وكذلك قوله ﷺ : « إِنَّ الله خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَ الله فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ الله »[1].

خامسًا : لا يقبر نبيٌّ إلا في المكان الذي مات فيه .

رَوَى أحمد والترمذيُّ[2] بسندٍ صحيح ؛ كما قال شيخنا الألبانيُّ أنَّه ﷺ قَالَ : « مَا قَبَضَ الله نَبِيًّا إِلاَّ فِي المَوْضِعِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُدْفَنَ فِيهِ ».

والنَّبيُّ ﷺ دُفن في حُجْرَةِ عائشة في الموطن الذي مات فيه بعد اختلافهم في موطن دفنه ﷺ ؛ فلما أخبروا بهذا الحديث دفنوه في موضع موته ﷺ ؛ وهو المكان الذي أحب أن يدفن فيه .

سادسًا : أن الأرض لا تأكل أجسادهم .

وهذا من إكرام الله ﷻ للأنبياء والمرسلين ؛كما في الحديث الذي رواه أبو داود والنسائيُّ من حديث أوس بن أوس ﷺ أنه ﷺ قال : « إِنَّ الله ﷻ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ »[3].

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الصلاة ، باب الخوخة والممر في المسجد (٤٦٦) ،وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ (٢٣٨٢) عن أبي سعيد الخدري ﷺ .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الجنائز ، باب (٣٣) (١٠١٨) ، وأحمد (١/ ٧) ، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ٢٦١) ، وابن سعد في «الطبقات» (٦/ ١٧٧) ، وصحَّحه الألباني في «أحكام الجنائز» (١٣٧) ، و«صحيح سنن الترمذي» ، و«صحيح الجامع» (٥٦٤٩) عن أبي بكر ﷺ .

(٣) أخرجه أبو داود ،كتاب الصلاة ، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (١٠٤٧) ، (١٥٣١) ، والنسائي، كتاب السهو ، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة (١٣٧٣) ، وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب في فضل يوم الجمعة ، (١٠٨٥ ، ١٦٣٦) ، وأحمد (٤/ ٨) ، وابن أبي شيبة (٢/ ٥١٦) ،وابن خزيمة (١٧٣٣ ، ١٧٣٤) ، وابن حبان (٩١٠) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (١٥٢٧) ، و« المشكاة » (١٣٦١) ، و« الترغيب » (٦٩٨) من حديث أوس بن أوس ﷺ .

سابعًا : أن الأنبياء والمرسلين أحياء في قبورهم يُصَلُّون .

وجنس حياة الأنبياء في القبور ليس من جنس حياتنا في الدنيا ، فكيفية هذه الحياة لا يعلمها إلا من هيأهم لذلك ؛ وهو الله سبحانه وتعالى .

يقول رسول الله ﷺ : « **الأَنْبِيَاءُ ـ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمْ ـ أَحْيَاءٌ فِي قُبُورِهِمِ يُصَلُّونَ** »[(١)].

وقال ﷺ : « **مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عِنْدَ الْكَثِيبِ الأَحْمَرِ ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ** »[(٢)].

ثامنًا : الأنبياء لا يُوَرِّثُون .وميراثهم العِلْم .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر:٣٢] .

وقد سبق قوله ﷺ : « **وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا ، وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ** »[(٣)].

وقال ﷺ : « **لاَ نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ** »[(٤)].

*****

---

(١) أخرجه البزَّار في « مسنده » (٢٣٣٩، ٢٣٤٠) ، وتمام في « الفوائد » (١٤٣٢) ،وابن عدى في « الكامل » (٢/ ٣٢٧) ، والبيهقي في « حياة الأنبياء » (ص٣) ، وأبو يعلى (٦/ ١٤٧) ،وأبو نعيم في « أخبار أصبهان » (٢/ ٨٣) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (٦٢٢) ، و« صحيح الجامع » (٢٧٩٠) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل ، باب من فضائل موسى ﷺ (٢٣٧٥) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فرض الخُمس (٣٠٩٣) ،وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب قول النبيِّ ﷺ : « لا نورث ما تركنا فهو صدقة » (١٧٥٨، ١٧٥٩) وما بعده .

أهم العلامات والدلائل التي أيد الله بها رُسُله

فالأنبياء الذين ابتعثهم الله إلى عباده يقولون جميعًا : نحن مرسلون من عند الله ، وعليكم أيها الناس أن تصدِّقونا فيما نخبركم به ، وعليكم أن تمتثلوا الأوامر التي نأمركم بها ، وعليكم أن تجتنبوا كل النواهي التي ننهاكم عنها ؛ لأننا لا نأمر ولا ننهى من عند أنفسنا ، وإنما نأمر بأمر الله ، وننهى بنهي الله ؛ قال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[الحجرات:١] .

إذًا مَنْ أطاع النَّبيَّ فقد أطاع الله ، ومن عصى النَّبيَّ فقد عصى الله ؛ أي : من أطاع أيَّ نبيٍّ أرسله الله لقومه ، فقد أطاع الله الذي أرسله ، ومن عصى نبيًّا أرسله الله لقومه ؛ فقد عصى الله .

فطاعة الأنبياء طاعةٌ لرب الأرض والسماء ، ومعصية الأنبياء معصية لرب الأرض والسماء . .

وإذا كان الأمر كذلك ؛ فلابد إذًا أن يقيم الله تعالى الدلائل والحجج والبراهين والبينات والعلامات التي تبين صدق هؤلاء الرسل في أنهم مبعوثون من قِبَلِ الله تعالى ، هذه الدلائل والبراهين والحجج هي المعجزات والآيات التي أيَّد الله تبارك وتعالى رسله بها .

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾[الحديد:٢٥] .

أي : بالعلامات والآيات والدلائل التي تبين صدق الرسل .

والآية في لغة العرب : العلامة الدالة على الشيء .

ولكن المراد بالآية في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ : هو ما يجريه الحق تبارك وتعالى على أيدي رسله وأنبيائه من أمور خارقة للسنن والقوانين والعادة .

فالمعجزة هي : شيء خارق للنواميس ، أو خارق للعادة ؛ كتحويل العصا مثلاً إلى ثعبان ، أو كسلب خاصية الإحراق من النار ؛ فهذه خوارق ومعجزات وعلامات ، فتكون هذه الآية الخارقة للسنة الكونية المعتادة دليلاً غيرَ قابلٍ للنقض والإبطال ، يدلُّ على صدق النَّبيِّ والرسول الذي أرسل بهذه الآية والمعجزة من قِبَلِ الله تبارك وتعالى .

وأمثلة الآيات والمعجزات التي أيَّد الله بها أنبياءه ورسله أكثر من أن تعد ، وأكثر من أن تحصى ؛ منها على وجه الإجمال :

أولاً : معجزة نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام التي أيَّده الله بها ليبين للناسِ ، وليقِيمَ الحجَّة على الناس على صدقه ونبوته ورسالته ، وهي أنَّ الله تبارك وتعالى قد حَرَّمَ على النار أن تحرقه ؛ فقد تحدى إبراهيمُ عليه السلام قومه وبَيَّنَ لهم أن هذه الآلهة التي يعبدونها من دون الله لا تضرُّ ولا تنفع ، ولا تسمع ولا تبصر ، ولا تغني عن نفسها شيئًا ، وأقام الحجة العقلية عليهم بعدما حطَّم الأصنام ، وعلَّق الفأس في رأسِ كبير هذه الأصنام ، فلماذا انتفضوا انتفاضة شعبية ـ كما يقولون ـ لهذه الآلهة المكذوبة المدَّعاة ، وقالوا : ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ

لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[الأنبياء:٥٩ـ ٦٤] .

فسبحان الله ! لو تدبَّروا هذا البرهان لوحَّدُوا الرحيم الرحمن وحده لا شريك له ، ولكنه الكبر والعناد !! قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[الصافات:٣٥ـ ٣٧] .

فهم يقرُّون بأنهم ظالمون لأنفسهم ، فهذه لا تسمع ولا تنطق ؛ كما قالوا: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾[الأنبياء:٦٥] .

وأنا أكاد أجزم بأن أهل الباطل يعرفون الحق وأهله ، وأن أهل الشرك ما شكُّوا لحظة في صدق محمد بن عبد الله ، بل لقد تجرأ أبو جهل ، وقال للنبيِّ ﷺ : « إنا لا نُكذِّبك ، ولكنَّا نكذِّب ما جِئْتَ به ؛ فنزل قولُ الله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[الأنعام:٣٣] » .

والحديث ـ للأمانة العلمية ـ رُوِيَ موصولًا ومرسلًا ؛ فقد أخرجه الترمذيُّ (١) من طريق معاوية بن هشام عن سفيان عن أبي إسحاق عن ناجية بن كعب عن عليٍّ مرفوعًا .

ثم عقَّب الترمذي برواية عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن أبي

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب التفسير ، باب : « ومن سورة الأنعام » (٣٠٦٤) ، وضعفً إسناده الشيخ الألباني في « المشكاة » (٥٨٣٤) .

إسحاق عن ناجية مرسلاً ، ثم قال الترمذي : « وهذا أصح » .

ولكن الآية تشهد لمعنى هذا الكلام ؛ وكما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:١٤] .

فأهل الباطل يعلمون الحق ، ويعرفون أهل الحق، ولكنه الكبر في القلوب، والجدال بالباطل والعناد ؛ نسأل الله أن يرزقنا الذل إليه وحده لا شريك له ، وأن لا يجعلنا أبدًا ممن تكبر على الحق ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

فهؤلاء المعاندون قالوا لإبراهيم عليه السلام : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ۝ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:٦٥-٦٨] .

عجبًا لآلهة تستحق أو تحتاج النصرة من عُبَّادها !! .

ولله درُّ القائل الذي رأى إلهه الذي عَبَدَهَ يومًا من الأيام بين الحِيَض والدماء والنجاسات والقاذورات ؛ فقال :

رَبٌّ يبـــولُ الثُّعلبـــانُ برأسِـــهِ ... لقد ذَلَّ من بَالَتْ عليه الثعالبُ

فلـو كـان ربًّـا كـان يمنـع نفسـه ... فـلا خـير في رب تَأَتَّـهُ المطالـب

برئتُ منَ الأصْنَام في الأرض كلِّها ... وآمنـتُ بـالله الـذي هـو غالـب

ولله درُّ ابن القيم حينما ردَّ على النصارى بقوله [(١)]:

أَعُبَّـــاد المســـيح لنـــا ســـؤال ... نريـــد جوابـــه ممـــن وعـــاه

(١) « إغاثة اللهفان » (٢/ ٢٩٠ ط المعرفة) .

إذا مـات الإلـه بصنع قـوم أمـاتوه فهـل هـذا إلـه
ويـا عجبًـا لقـبر ضـم ربًّـا وأعجب منه بطن قد حواه
أقـام هنـاك تسعًا مـن شـهور لدى الظلمات من حَيْض غذاه
وشـق الفـرج مولـودًا صـغيرًا ضـعيفًا فاتحًـا للثـدي فـاه
ويأكـل ثـم يشرب ثـم يـأتي بـلازم ذاك فهـل هـذا إلـه
تعـالى الله عـن إفـك النصـارى سَيُسْـأل كلُّهـم عـما افـتراه

فما كان من هؤلاء المجرمين إلا أن يشعلوا نارًا . لا ليحرقوا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام !! بل ليحرقوا الدنيا كلَّها !!

قال بعض أهل التفسير : ارتفع لهبها في كبد السماء ، حتى كانت الطيور التي تمرُّ في السماء من فوقها تسقط في النار مشوية لارتفاع لهب النار ، فلقد ظلُّوا يجمعون الحطب شهرًا ، وفي رواية : شهرين ؛ بل روي [1] أن المرأة منهم إن مرضت كانت تنذر لله إن شفاها لتَحْمِلَنَّ على رأسها الحطب لتنضج النار التي سيلقى فيها إبراهيم ﷺ !! .

انظر إلى نار الغل والحقد التي اشتعلت في قلوبهم ، فأرادوا أن يأججوا نارًا على وجه الأرض توازي النار التي اشتعلت في القلوب حقدًا وحسدًا لخليل الله إبراهيم ﷺ .

---

(١) عن السدي ؛ كما في « تفسير الطبري » (لسورة الأنبياء / ٦٨) ، وراجع : « تفسير البغوي » (١ / ٣٢٦) ، و « تفسير ابن كثير » (٩ / ٤١٥ - ٤١٨) ط قرطبة .

حتى خافوا أن يلقوا إبراهيم عن قرب، لئلا يحترقوا هم !!فكانوا أول من اخترع المنجنيق [(١)]، فألقوا إبراهيم على بُعْد في النيران، والنَّارُ خلْقٌ لله ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ وما من شيء خَلَقَهُ الله في الكون إلا وهو يوحِّد الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ ويسجد له، ويعرف عظمة الله وجلاله !!!

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[الحج:١٨]، وقال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[الإسراء:٤٤].

أمر الله النار التي وَضَعَ فيها خاصيةُ الإحراق أن تكون بَرْدًا وسلامًا على إبراهيم عليه السلام.

قال بعض أهل التفسير [(٢)]: فلم تحرق النار من إبراهيم إلا القيود التي قيَّدوه بها !!

فانطلق إبراهيم حرًّا طليقًا، وحوَّل الله له النَّار بردًا وسلامًا !

قال تعالى: ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[الأنبياء:٦٩].

---

(١) قال الرازيُّ في «مختار الصحاح» (١١٩): «المنجنيق التي ترمى بها الحجارة، معربة، وهي مؤنثة، وجمعها: مَنْجَنِيقات ومجانيق، وتصغيرها: مُجَيْنِيق»، وانظر: «لسان العرب» (١٠/ ٣٣٨) ط صادر (مادة مجنق).

(٢) كما ورد عن كعب الأحبار؛ عند الطبري (٩/ ٤٢).

قال بعض أهل التفسير : لماذا لم يقل الله : قلنا يا نار كوني بردًا وفقط ؟ فقالوا [١]: لو كانت بردًا فقط لربما آذى بردُها إبراهيمَ عليه السلام ، وإنما قيَّد أن يكون البردُ سلامًا ، فألقي الخليل في النار وهو يقول : ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ ؛ كما في « صحيح البخاري » [٢] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ ، قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقيَ في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قيل له : ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران:١٧٣] .

فهذه معجزة ، وهي خرق للقانون العادي ؛ فقانون النار : الإحراق ، ولكن الله سلبها قانونها بقدرته !

ومن معجزات خليل الله إبراهيم عليه السلام : إحياء الموتى ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة:٢٦٠] .

فبعض الناس يفهمون أن إبراهيم عليه السلام قد شكَّ في قدرة الله ، وحاشا فـ « نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيم » ؛ كما قال النبيُّ ﷺ [٣] : فهو يقول : إذا كنا نحن لا نشك في قدرة الله ؛ فهل يشك قدوة المحققين ، وخليل

---

(١) كما ورد عن ابن عباس وأبي العالية ؛ انظر : « تفسير ابن كثير » (٩/ ٤١٧) ط قرطبة .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٣] ، (٤٥٦٣) .

وبرقم (٤٥٦٤) بلفظ: « كان آخر قول إبراهيم حين ألقي في النار : حسبي الله ونعم الوكيل» .

(٣) كما في « صحيح البخاري » ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله عز وجل : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ ﴾ [الحجر:٥١، ٥٢] (٣٣٧٢) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة (١٥١) .

رب العالمين إبراهيم ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ؟!!

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٦٠] .

ولا داعي لأن نقف مع أنواع هذه الطيور ما دام أن الله لم يذكرها في قرآنه ؛ فلو علم الله أن فيها فائدة لذكرها لنا ، فهذا علمٌ لا ينفع ، وجهلٌ لا يضر [١].

فأخذ إبراهيم عليه السلام أربعة من الطيور ، وعلَّم الطيور ، وذبح أربعة أكوام من اللحم والريش والعظم ، ووضع على كلِّ جبل من الجبال كومًا ، قال له ربه : ﴿ ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ فوقف إبراهيم ، ونادى على الطيور المذبوحة الممزقة المبعثرة ، فأحيا الله كلَّ طير ، وجاء كل طير على حِدَته﴿ سَعْيًا ﴾ إلى إبراهيم ، ولم يقل : (طيرانًا) حتى يتيقن أن هذا هو الطائر الذي وضعه بيده ، إذ لو قال (طيرانًا) لربما التبس عليه ، هل هذا الطائر هو الذي ذبحته يده أم هو طير من السماء ؟!!

بل وذكر [٢] أن إبراهيم وضع رءوس الطيور في يده ، فأحيا الله الطير بغير رأسه ، وجاء الطائر يمشي إلى إبراهيم ، وكلما قدَّم رأسًا لطائر التئمت

---

(١) قال ابن كثير في « التفسير » (٢/ ٤٥٥) : « اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هي ، وإن كان لا طائل تحت تعيينها ؛ إذ لو كان في ذلك مهم لنصَّ عليه القرآن » .

(٢) كما ورد عن ابن عباس ؛ كما في « تفسير ابن كثير » (٢/ ٤٥٦) .

إذا كانت رأسه ، فإذا قدَّم رأسًا لطائر ليست رأسه يأباه ولا يقبلها ، فلما رأى ذلك ، قال الله ﷻ : ﴿ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٦٠] .

أي : عزيز لا يغلبه شيء ، ولا يمتنع منه شيء ، وما شاء كان بلا مانع ؛ لأنه العظيم القاهر لكل شيء ، حكيم في أقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره[(١)] .

فهذه من الدلائل ، والآيات ، والعلامات ، والمعجزات التي أيّد الله بها نبيه وخليله إبراهيم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام .

ثانيًا : آية نبي الله صالح عليه السلام .

يقول الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى[(٢)] : « وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يومًا في ناديهم ، فجاءهم رسول الله صالح ﷺ ، فدعاهم إلى الله ، وذكَّرَهُم وحذَّرهم ووعظهم وأمرهم ، فقالوا له : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ـ وأشاروا إلى الصخرة هناك ـ ناقة من صفاتها كيت وكيت ، وذكروا أوصافًا سموها ونعتوها ، وتعنتوا فيها ، وأن تكون عشراء طويلة من صفتها كذا وكذا » ؛ فقال لهم نبيُّ الله صالح : أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدِّقوني بما أرسلتُ به ؟ قالوا : نعم .

فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ، ثم قام إلى مصلاه ، فصلَّى لله ﷻ ما قدر له ، ثم دعى ربَّه ﷻ أن يجيبهم إلى ما طلبوا ، فأمر الله تبارك وتعالى تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه الذي طلبوه ، فلما عاينوها كذلك ، رأوا أمرًا عظيمًا ، ومنظرًا هائلاً ، وقدرة

(١) « تفسير ابن كثير » (٢/ ٤٥٦) .
(٢) « البداية والنهاية » لابن كثير (١/ ١٢٦) .

باهرة ، ودليلًا قاطعًا ، وبرهانًا ساطعًا ، فآمن كثير منهم ، واستمر أكثرهم على الكفر » انتهى .

وقد ذكر الله ﷻ استجابته لطلبهم في قوله سبحانه : ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء:١٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء:٥٩] ، وقال الله ﷻ : ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود:٦٤] ، ثم قال تعالى : ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ [الشمس:١٢-١٥] .

ثالثًا : آياتُ نبيِّ الله موسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام .

لقد أعطى الله ﷻ موسى عليه السلام تسع آيات بينات ؛ كما في قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء:١٠١] .

فلقد أيَّد الله نبيه موسى بعلامات ومعجزات ، ولا شك أن أعظم هذه المعجزات هي : العصا ، أعظم آية لنبيِّ الله موسى .

قال تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [طه:١٧-٢٠] .

فهي آيةٌ عجيبةٌ جدًّا ؛ بدليل أن السَّحرة الذين سَحَرُوا أعين الناس في أن عصيهم وحبالهم قد تحوَّلت إلى ثعابين وحَيَّات ، وهي لم تتحوَّل إذ إن السحر وقع على أعين الناس : ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾[الأعراف:١١٦] .

لكنَّ الحبال والعصيَّ في حقيقتها لم تتحول إلى غير ذلك ؛ ولذلك لما رأى السَّحَرَةُ عصا موسى ـ وهم يعلمون السرَّ ـ تحولت بالفعل إلى ثعبان ، كان السحرة هم أولَ مَنْ سَجَدَ لله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وهم أول من آمن بنبيِّ الله موسى وأخيه هارون ؛ لأنهم يعلمون يقينًا أن عصيهم وحبالهم لا يمكن أن تتحول إلى ثعابين ، فلمَّا رأوا بأعينهم الآية علموا أن هذا الأمر ليس من قبيل السحر ، وإنما هو من قبيل المعجزة التي يؤيد الله ﷻ بها أنبياءه ورسله ، ولذلك قال تعالى : ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾[طه:٦٥ـ ٧٠] .

فمنذُ لحظات قليلة جدًّا كان السحرةُ يقولون على لسان واحدٍ : ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[الشعراء:٤٤] .

فحوَّل الله قلوبهم ؛ فأصبحوا أولياء الله المتقين في زمانهم الموحدين

الصادقين في أوانهم ؛ فهم أول مَنْ وَحَّدَ الله وآمن بالله بعد هذه الآية الباهرة ؛ فلا ينبغي أن تتعجل على صاحب معصية ؛ بل ادعُ الله ﷻ له وذَكِّرْهُ : ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[فصلت:٣٤، ٣٥] .

فأعظم آية أيَّد الله بها نبيه موسى هي : العصا .

وكذلك من هذه الآيات : اليد ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ [طه:٢٢، ٢٣] ؛ فكان نبيُّ الله موسى يُدخل يدهِ في جيبه ، أي : في درع قميصه ، ثم ينزع يدهِ فتخرج اليد من الجيب ـ من الدرع ـ فإذا هي تتلألأ كتلألأ القمر بياضًا .

كذلك :«السنين» آية من آيات نبي الله موسى ؛ والمراد بالسنين ، هو : ما أصاب بني إسرائيل من الجدب والقحط والشدة والجوع ، بعدما دعا عليهم نبيُّ الله موسى ؛ فقال : ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[يونس:٨٨] .

وكذلك من الآيات : نقص الثمرات ، وهذه طبيعةٌ حتميةٌ لنقص الأمطار ، ولذهاب مياه النيل ؛ فهذه آيةٌ رابعةٌ ابتلى الله بها بني إسرائيل .

وكذلك : الطوفان ، استجاب الله لنبيه موسى ؛ فأغرق الله بيوتهم ومزارعهم .

وكذلك: القُمَّل ، فكان بنو إسرائيل لا ينامون من هذه الحشرة

الصغيرة التي ابتلى الله ﷻ بني إسرائيل بها ، فسبحان الله !!: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾[المدثر:٣١] .

وكذلك: الضفادع التي نغَّص الله عليهم بها عيشهم لكثرتها ، فيصنع الرجل أو المرأة الطعام ، فما أن تكشف غطاء الآنية إلا وتجد الآنية قد امتلأت بالضفادع بكثرةٍ مفزعة !! .

وكذلك: الدم ؛ فلقد حوَّل الله شرابهم إلى دم .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾[الأعراف:١٣٠-١٣٣] .

وكذلك: ضَرْبُ البحر بعصاه ؛ فلما ضرب موسى البحر بعصاه انفلق ، فكان كلُّ فلق كالطود العظيم ؛ أي : كالجبل ، وجعل الله بين الجبلين من المياه طريقًا ممهدًا يابسًا ، فالله على كلِّ شيء قدير ، حتى مرَّ نبيُّ الله موسى ومن آمن معه ، وما أن دخل فرعون بجنده إلى النهر مرة أخرى إلا وأمر الله موسى أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه مرَّة ثانية ، فعاد الماء إلى قانونه .. إلى قانون الاستطراق ؛ فهذه معجزة ، فمستحيلٌ أن ينشق البحر نصفين ، ويظل ثابتًا على انشقاقه وانقسامه .

ولكنَّ الله حبس هذا القانون عن الماء لنبيه موسى عليه السلام أما فرعون ـ حينما خرج في تتبع موسى ـ ما أن رأى البحر قد انشق نصفين التفت إلى جنوده من خلفه ، وقال : انظروا ؛ لقد أمرت البحر أن ينشق ! يريد أهل الباطل من كلِّ موقف أن يجنوا ثمرة الموقف لصالحهم بالباطل ! وأن يَحْرِمُوا أهل الحق من ثمرةِ حقِّهم ؛ ولذلك لما رأى نبيُّ الله موسى فرعون وجنده قد أوشكوا أن يصلوا إليه ، أراد موسى دون أمر من الله أن يضرب البحر مرة أخرى ؛ فأمره الله ﷻ، وقال له : ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾[الدخان:٢٤] .أي : اتركه ساكنًا على حالته ، ولا تفعل شيئًا إلا بأمرٍ .. دعِ التدبير لله سبحانه ، فترك البحر على حالته ؛ فلما وصل فرعونَ إلى منتصف البحر ، ودخل الجيش كله من أوله إلى آخره إلى داخل البحر ، أمر الله ﷻ موسى بعدما وصل إلى الشاطئ الآخر ، أن يضرب البحر بعصاه مرة أخرى ؛ فعاد البحر إلى قانونه الأول إلى قانون الاستطراق ، فأهلك الله ﷻ فرعون وجنده ، وفي هذه اللحظات قال فرعون : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[يونس:٩٠] ، وقال تعالى : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾[يونس:٩٢] .

كذلك من آيات نبيِّ الله موسى : أنه ضرب الحجر بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا . سبحان الله ! حجارة صماء يضربها نبيُّ الله موسى ، فتتحول إلى اثنتي عشرة عينًا ، بعدد قبائل بني إسرائيل ليشربوا ، ولكنهم عاندوا وكذَّبوا بآيات الله .

وكذلك: إنزال المن والسلوى .. وثمَّ آيات كثيرة أيَّد الله بها نبيَّ الله موسى عليه السلام

رابعًا : آيةُ نبيِّ الله عيسى ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام .

فمن معجزاته ما قاله الله ﷻ في سورة المائدة: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾ [المائدة:١١٠] .

ومن آيته أيضًا المائدة ، قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة:١١٢ـ١١٥] .

فنزلت المائدة من السماء ؛ لتكون دليلاً حسِّيًا على بعثة الله لنبيِّ الله عيسى ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام .

خامسًا : وأخيرًا ، معجزات نبينا محمد ﷺ .

إن أعظم وأجلَّ معجزة قد أيَّد الله بها نبيه المصطفى ﷺ هي القرآن ؛ فالقرآن معجزةُ النبيِّ الخالدة ، التي لا تنتهي بانتهاء الأزمنة إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها ؛ فلقد تحدَّى الله ﷻ بهذه المعجزة الخالدة العرب في أرض الجزيرة ، الذين كانوا أرباب بلاغة وبيان ، تحدَّاهم بأن يأتوا بقرآن مثله ، فعجزوا !! فتحدَّاهم أن يأتوا بعشرِ سُوَرٍ ، فعجزوا !! فتحدَّاهم أن يأتوا بسورة واحدةٍ ، فعجزوا !!

قال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة:٢٣، ٢٤] .

فمعجزة النبيِّ الخالدة التي لا تنتهي أبدًا هي : القرآن الكريم ، ولا تقف معجزات النبيِّ ﷺ عند هذه المعجزات العظيمة ؛ كلا ! بل لقد أيد الله نبيه بنمطٍ فريدٍ من المعجزات ؛ منها :

الإسراء والمعراج[1] ؛ قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء:١] .

فالإسراء والمعراج معجزةٌ فريدةٌ بكل المقاييس ؛ فكلُّ معجزةٍ قد تكون في المقام الأول لصالح الدعوة ، ولكنني ألمح في معجزة الإسراء أنها في المقام الأول لصالح صاحب الدعوة ؛ فالمعراج كان بعد رحلة الطائف التي عانى فيها النبيُّ ﷺ عناءًا شديدًا ، وكأن الله ﷻ أراد أن يقول لنبيه ﷺ ، إن كان أهل الأرض قد رفضوك وطردوك ؛ فإن ربَّ السماء والأرض يناديك ويدعوك .

فلما عاد النبيُّ ﷺ ـ من الطائف ـ طريدًا شريدًا ؛ دعاه الله ﷻ إلى لقائه في السماوات العلى .

(١) انظر : « صحيح البخاري » ، كتاب الصلاة ، باب كيف فرضت الصلاة (٣٤٩) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (١٦٢ـ ١٦٤) .

فمعجزة الإسراء تتمثل في أن المسافة تقتطع من مكة إلى فلسطين .

أسأل الله أن يطهِّر مسجدها ، وأن يطهِّر أرضها من دنس وشرك اليهود المجرمين .

فالمسافة يقطعها الراحل الراكب في شهور ، وتضرب إليها أكباد الإبل شهرًا ذهابًا وشهرًا إيابًا ، ومحمد ﷺ تطوى له الأرض طيًّا ، فيقطع هذه المسافة في جزءٍ من الليل مع المعراج أيضًا ، إنها معجزة بكلِّ المقاييس !!

ولو تعقل الناسُ ما سألوا النبيَّ ﷺ عن هذا الإعجاز في هذه الرحلة ، وإنما كان من المنطقي أن يسألوا : مَنْ هذا الذي أسرى بالنبيِّ ؛ فالله تعالى يقول : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾[الإسراء:١] .

ولو أن رجلاً حمل طفلاً صغيرًا ، وارتقى به عمارة تصل إلى الطابق العاشر مثلاً ، وصعد إلى سطحها لن يسأل عاقلٌ هذا الطفلَ على كتف أبيه ، ويقول هذا العاقل للطفل : ما شاء الله ! كيف صعدت أيها الطفلُ إلى هذا الطابق العاشر من أطباق العمارة ؟! لن يسأل هذا السؤال عاقلٌ مطلقًا ؟ لأن الطفل ما صعد بنفسه ، ولكن صَعَدَ به أبوه .ولله المثل الأعلى ؛ فلا ينبغي أن يُسأل النبيُّ ﷺ كيف أسرى ، وإنما لابد أن نفطن إلى أن الذي أَسْرَى بنبيه هو الله ـ جَلَّ وَعَلاَ .

وإذا كانت القدرة تتناسب تناسبًا عكسيًّا مع الزمن ؛ فكلَّما زادت القدرةُ قَلَّ الزمن ؛ فإذا علمنا أن الذي أسرى بنبيه هو الله ؛ إذًا فلا زمن !! لأنه

يقول للشيء : كن فيكون ـ سبحانه وتعالى .

فالإسراء معجزة للنبيِّ ﷺ ، وكذلك المعراج ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾[النجم:١٢ـ١٨] .

لقد رأى نبينا ﷺ في هذه الرحلة الجنة ، ورأى النار ، ورأى جبريل ، ورأى الأنبياء ، ورأى سدرة المنتهى ، وما خلقها الله ﷻ عليه بصورةٍ ما استطاع النبيُّ أن ينعتها من حُسْنِهَا وَجَمَالِهَا ، وهو البليغ الذي آتاه الله جوامع الكلم بأبي هو وأمّي ﷺ .

ومن ذلك : انشقاق القمر [١] : وهي من المعجزات التي سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يفعلها لهم ، قالوا : لو كنت نبيَّ الله حقًّا ؛ فمُرْ هذا القمر أن ينشق نصفين ؛ فسأل النبيُّ ﷺ ربه ، فشق القمر نصفين .

قال تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[القمر: ١، ٢] .

ومن ذلك : تكثير الطعام : وهذه من بركات المصطفى ﷺ ، ومن معجزاته ؛ فقد ثبت في « الصَّحِيحَيْنِ » [٢] من حديث أنس رضي الله عنه قال :

---

(١) سبق الحديث بذلك عند مسألة (كيف يزيد الإيمان في القلب ؟) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٧٨) ، ومسلم ، كتاب الأشربة ، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك (٢٠٤٠) .

قَالَ : أَبُو طَلْحَةَ لأُمِّ سُلَيْمٍ ـ رضوان الله عليه وعليها ـ لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ضَعِيفًا أَعْرِفُ فِيهِ الْجُوعَ ، فَهَلْ عِنْدَكِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، فَأَخْرَجَتْ أَقْرَاصًا مِنْ شَعِيرٍ ، ثُمَّ أَخْرَجَتْ خِمَارًا لَهَا فَلَفَّتِ الْخُبْزَ بِبَعْضِهِ ، ثُمَّ دَسَّتْهُ تَحْتَ يَدِي وَلاَثَتْنِي بِبَعْضِهِ[١] ، ثُمَّ أَرْسَلَتْنِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، قَالَ : فَذَهَبْتُ بِهِ فَوَجَدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ ، وَمَعَهُ النَّاسُ ، فَقُمْتُ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ : « آرْسَلَكَ أَبُو طَلْحَةَ ؟» فَقُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : «بِطَعَامٍ ؟» قُلْتُ : نَعَمْ ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمَنْ مَعَهُ : « قُومُوا » فَانطَلَقَ وَانطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، حَتَّى جِئْتُ أَبَا طَلْحَةَ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ : يَا أُمَّ سُلَيْمٍ ، قَدْ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّاسِ ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَا نُطْعِمُهُمْ ، فَقَالَتِ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

فَانطَلَقَ أَبُو طَلْحَةَ حَتَّى لَقِيَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو طَلْحَةَ مَعَهُ ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « هَلُمِّي يَا أُمَّ سُلَيْمٍ مَا عِنْدَكِ » فَأَتَتْ بِذَلِكَ الْخُبْزِ ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَفُتَّ ، وَعَصَرَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ عُكَّةً فَأَدَمَتْهُ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيهِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ ، ثُمَّ قَالَ : « ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ » ، فَأَذِنَ لَهُمْ ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ، ثُمَّ خَرَجُوا ، ثُمَّ قَالَ : « ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ » فَأَذِنَ لَهُمْ فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ، ثُمَّ خَرَجُوا .. ثُمَّ قَالَ : « ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ » فَأَكَلَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ حَتَّى شَبِعُوا ، وَالْقَوْمُ سَبْعُونَ أَوْ ثَمَانُونَ رَجُلاً.

---

(١) أي : لفتني به ، يقال : لاث العمامة على رأسه ، أي : عصبها ، والمراد : أنها لفت بعضه على رأسه وبعضه على إبطه (« الفتح » ٦/ ٦٨١) .

وأحاديث تكثير الطعام كثيرة جدًّا لطلحة وجابر ولغيرهما من أصحاب النبيِّ ﷺ[1].

حتى قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[2]: كُنَّا نَعُدُّ الآيَاتِ بَرَكَةً، وَأَنْتُمْ تَعُدُّونَهَا تَخْوِيفًا، كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فَقَلَّ المَاءُ؛ فَقَالَ: « اطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ » فَجَاؤُوا بِإِنَاءٍ فِيهِ مَاءٌ قَلِيلٌ، فَأَدْخَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ فِي الإِنَاءِ، ثُمَّ قَالَ: « حَيَّ عَلَى الطَّهُورِ المُبَارَكِ، وَالْبَرَكَةُ مِنَ الله »، فَلَقَدْ رَأَيْتُ المَاءَ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ النَّبِيِّ ﷺ؛ وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ، وَهُوَ يُؤْكَلُ. فهذه من المعجزات المتكررة للنبيِّ ﷺ.

ومنها: كف الأعداء عنه، وكإجابة دعوته ﷺ، وكإبراء المرضى؛ فلقد داوى النبيُّ ﷺ من كسرت رجله، وداوى النبيُّ ﷺ من مرضت عينه.

فكلُّ هذا من المعجزات الثابتة للنبيِّ ﷺ؛ وكإخبار النبيِّ ﷺ بالمغيبات في كثير من الأمور الغيبية.

فأخبر رسول الله ﷺ عن أمور غيبية كثيرة، وسنذكر منها إن شاء الله تعالى الكثير في الحديث عن علامات الساعة الصغرى[3]؛ فهو لا ينطق عن الهوى ﷺ.

وكذلك من معجزاته: حَنِينُ الجذع[4].

---

(١) وراجع في ذلك: « سبل الهدى والرشاد » (٩/ ٤٦٥) وما بعدها.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٧٩).

(٣) ستأتي، وانظر المجلد (٩، ١٠) من « سبل الهدى والرشاد ».

(٤) سبق الحديث بذلك.

وكذلك من معجزاته : انقياد الشجر ، وتسليم الحجر .

ففي « صحيح مسلم »[1] ، من حديث جابر بن سمرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ ، إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ ».

معجزات كثيرة جدًّا هي من الخوارق للعادات التي يؤيد الله بها أنبياءه ورسله ، ليعلم الناس صدقهم ، وليقيم الله تبارك وتعالى بهذه المعجزات ، والآيات ، والخوارق ، والعلامات الحجة القاطعة على الناس ليؤمنوا ؛ فمن أنكر وعارض وكفر ؛ فقد عرَّض نفسه للعذاب الأليم ، وأعظم معجزة للنبيِّ ﷺ هي القرآن الكريم[2] .

أسأل الله تبارك وتعالى أن يردنا إلى القرآن ردًّا جميلًا ، وأن يتقبل منا جميعًا صالح الأعمال .

*****

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (٢٢٧٧) من حديث جابر بن سمرة ﷺ .

(٢) راجع هذا المبحث بتصرف في كتاب « الرسل والأنبياء » للدكتور الأشقر ـ حفظه الله ـ (١١٩ـ١٥٣ ط النفائس) .

من حقوق الأنبياء والمرسلين [(١)]

اعلم ـ أخي الحبيب ـ أن للأنبياء حقوقًا يجب أن تعرف، ومنها :

١ـ وجوب الاستجابة المطلقة لهم :

قال تعالى : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٦]، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:٦٤]، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [الحشر:٧]، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال:٢٤].

وغير ذلك من الآيات الكثيرة .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ قَالَ : يَوْمُ الْخَمِيسِ وَمَا يَوْمُ الْخَمِيسِ، ثُمَّ بَكَى حَتَّى خَضَبَ دَمْعُهُ الْحَصْبَاءَ فَقَالَ : اشْتَدَّ بِرَسُولِ الله ﷺ وَجَعُهُ يَوْمَ الْخَمِيسِ ؛ فَقَالَ : « ائْتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا » فَتَنَازَعُوا ، وَلاَ يَنْبَغِي عِنْدَ نَبِيٍّ تَنَازُعٌ ؛ فَقَالُوا : هَجَرَ رَسُولُ الله ﷺ ، قَالَ : « دَعُونِي ، فَالَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ مِمَّا تَدْعُونِي إِلَيْهِ » وَأَوْصَى عِنْدَ مَوْتِهِ

---

(١) راجع : « من أحاديث الأنبياء » لعبد الغني المقدسي (مقدمة ص ٧٥ ـ ٩١) ط دار ابن رجب .

بِثَلاثٍ: « أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَأَجِيزُوا الْوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ » وَنَسِيتُ الثَّالِثَةَ[1] .

وفي « صحيح مسلم »[2] عن أبي هريرة ﷺ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ ﷺ : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة:٢٨٤] ، قَالَ : فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ فَأَتَوْا رَسُولَ الله ﷺ ، ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ ، فَقَالُوا : أَيْ رَسُولَ الله ! كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ ، الصَّلاَةُ ، وَالصِّيَامُ ، وَالْجِهَادُ ، وَالصَّدَقَةُ ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلاَ نُطِيقُهَا ؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ؟ بَلْ قُولُوا : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[البقرة:٢٨٥] ...» الحديث .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : خَطَبَنَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، قَدْ فَرَضَ الله عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا ؟ » . فَقَالَ رَجُلٌ : أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ الله ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلاَثًا ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ ، ثُمَّ قَالَ : ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ ، وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الجهاد والسير ، باب هل يستشفع إلى أهل الذمة ؟ ومعاملتهم ، (٣٠٥٣ ، ٣١٦٨ ، ٤٤٣١) ، ومسلم ، كتاب الوصية ، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه (١٦٣٧) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق (١٢٥) .

مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ »[(١)].

٢ـ تحريمُ الغلو والإطراء في حقِّ الرُسلِ والأنبياء .

إعلم أن الأدب والتوقير والتعظيم والمحبة والاتباع لهؤلاء الصفوة المختارة إنما يتأتى في امتثال أوامرهم ، واجتناب زواجرهم ، وما نهوا عنه ، وإن من جملة الأمور التي نهوا عنها : « الغلو والإطراء » ، وقد جاء في الشريعة الغرَّاء النهي عن ذلك .

قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران:٧٩، ٨٠] .

وفي « صحيح البخاريِّ »[(٢)] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ ﷺ قَالَ : « لاَ تُطْرُونِي كَمَا أُطْرِيَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولِهِ » .

قال الذهبيُّ[(٣)] ـ رحمه الله تعالى ـ في ترجمة « عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي روَّاد » : « فالغلو والإطراء منهيٌّ عنه ، والأدب والتوقير واجب ، فإذا اشتبه الإطراء بالتوقير توقف العالم وتورع ، وسأل من هو أعلى منه ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٧٢٨٨) مقتصرا على الجزء الأخير منه ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب فرض الحج مرة في العمر (١٣٣٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحدود ، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت (٦٨٣٠) (٣٤٤٥) .

(٣) « ميزان الاعتدال » (٢/ ٦٥٠) .

حتى يتبين له الحق فيقول به ، وإلا فالسكوت واسع له ، ويكفيه التوقير المنصوص عليه في أحاديث لا تحصى ، وكذا يكفيه مجانبة الغلو الذي ارتكبه النصارى في عيسى ، ما رضوا له بالنبوة ، حتى رفعوه إلى الإلهية وإلى الوالدية ، وانتهكوا رتبة الربوبية الصمدية ، فضلُّوا وخسروا ؛ فإن إطراء رسول الله ﷺ يؤدي إلى إساءة الأدب على الرب ؛ نسأل الله أن يعصمنا بالتقوى ، وأن يحفظ علينا حبنا للنبيِّ ﷺ كما يرضى» .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله [1] : «وإذا تكلَّمنا فيما يستحق الله تبارك وتعالى من التوحيد ، بيَّنا أن الأنبياء وغيرهم من المخلوقين لا يستحقون ما يستحق الله تبارك وتعالى من خصائص ؛ فلا يشرك بهم ، ولا يتوكَّل عليهم ، ولا يستغاث بهم كما يستغاث بالله ، ولا يقسم على الله بهم ، ولا يتوسل بذواتهم ، وإنما يتوسل بالإيمان بهم ، وبمحبتهم وطاعتهم وموالاتهم وتعزيرهم ، وتوقيرهم ، ومعاداة من عاداهم ، وطاعتهم فيما أمروا به ، وتصديقهم فيما أخبروا ، وتحليل ما حلَّلُوا ، وتحريم ما حرَّموه» .

٣ـ النهي عن اتخاذ قبورهم مساجد .

لقد بيَّن النبيُّ ﷺ خطر اتخاذ القبور مساجد ، وما على من فعل ذلك من الوعيد الشديد ، وإليك بعضًا من هذه النصوص النبوية الواردة في ذلك :

فعن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم [2] قَالاَ : لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ

---

(١) «التوسل والوسيلة» (٢٤٠) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٥٣، ٣٤٥٤) وانظر (٤٣٥) ، ومسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن بناء المسجد على =

يَطْرَحُ خَمِيصَةً عَلَى وَجْهِهِ ، فَإِذَا اغْتَمَّ كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ ؛ فَقَالَ ـ وَهُوَ كَذَلِكَ : « لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ » يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا.

قال الحافظ رحمه الله: « وكأنه ﷺ علم أنه مرتحل من ذلك المرض فخاف أن يعظم قبره ، كما فعل من مضى ، فلعن اليهود والنصارى إشارة إلى ذم من يفعل فعلهم ».

وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ـ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ ـ وَهُوَ يَقُولُ : « إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً ، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً ، أَلاَ وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ ، أَلاَ فَلاَ تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ »[(١)].

قال النوويُّ رحمه الله : قال العلماء : « إنما نهى النبيُّ ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجدًا ، خوفًا من المبالغة في تعظيمه ، والافتتان به ، فربما أدَّى ذلك إلى الكفر ، كما جرى لكثير من الأمم الخالية ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ ، اتَّخَذُوا

= القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد (٥٣١) .

(١) أخرجه مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن بناء المسجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد (٥٣٢) .

قُبُورَ أَنبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ »[١] .

وقد قال ﷺ : « اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ »[٢] .

٤ـ عدم تمثيل شخصيات الأنبياء فإنه محرم شرعًا .

إن الأنبياء والرسل أعز وأكرم من أن يمثلهم إنسان أو يتمثل بهم .

وقد سئلت دار الإفتاء المصرية سؤالاً نصُّه : هل يجوز شرعًا تشخيص نبيٍّ من الأنبياء أو زوجه أو ولده أو والدته ؟

فأجاب فضيلة الشيخ جاد الحق علي جاد الحق رحمه الله بقوله : تعقيبًا على ما نشر بجريدة الأهرام يوم الجمعة ٢٠ رمضان ١٤٠٠هـ في خصوص المسلسل التليفزيوني : « محمد رسول الله ﷺ » : إن القصص القرآني على تنوعه ليس مجرد بيان مُعْجِزٍ في أسلوبه وصياغته ، وإنما هو مضمون موضوعي مقيد بغرض ديني يهدف إلى إبانته وتحقيقه وإقراره ، فالقصة تتكرر في غير موضع وتصاغ في عبارات متغايرة .

وفي كل مرة تدعو دعوة مباشرة لشيء ، وفي ذات الوقت لا تنفك عن إعجاز القرآن ، ومع هذا وذاك تبتعد عن الخيال ، وكيف يحتويها أو يحوطها خيال ، والقرآن كلمة الله ، ومن بين قصص القرآن كانت

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الصلاة ، باب (٥٥) ، حديث رقم (٤٣٧) ، ومسلم ، نفس الكتاب والباب السابق (٥٣٠) .

(٢) أخرجه أحمد (٧٣٥٢)، وابن سعد في « الطبقات » (٢/ ٢٤١، ٢٤٢) ، وأبو يعلى في « مسنده » (١/ ٣١٢) ، ومالك في « الموطأ » كتاب قصر الصلاة في السفر (٨٥) ، والحميدي (١٠٢٥) ، وأبو نعيم (٦/ ٢٨٣) ، (٧/ ٣١٧) ، وصحَّح إسناده الشيخ الألباني في « تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد » (١٨) .

قصص الأنبياء عليهم السلام ، جاءت تصحيحًا لمفاهيم خاطئة امتلأت بها كتب الديانات السابقة المحرَّفة ، كما جاءت مبينة لما كان لهم من شرائع درست ينبذ أهلها إياها ، وتحدث القرآن الكريم عن أنبياء الله ورسله باعتبارهم المصطفين الأخيار من بني الإنسان ، ومع هذا فهم يمشون في الأسواق ، ويأكلون الطعام ، ويجري عليهم الموت ، اختارهم الله لما علمه فيهم سلفًا من نقاء وفضل ؛ فهم أفضل بشر على الإطلاق ، وإن تفاوتوا في الفضل فيما بينهم ؛ قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾

[الإسراء:٥٥]

وهم بهذه المنزلة أعزُّ من أن يمثلهم أو يتمثل بهم إنسان ، أو حتى شيطان ، فقد عصمهم الله واعتصموا به ، فلم يزالوا لأن لهم عصمة تصونهم وتقودهم بعيدًا عن الخطايا الكبار والصغار قبل الرسالة وبعدها .

يدلنا على هذه الحصانة ـ كما نسميها في تعبيراتنا العصرية ـ الحديث الشريف الذي رواه أنس رضي الله عنه[١] أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَمَثَّلُ بِي » .

وفي رواية أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَسَيَرَانِي فِي الْيَقَظَةِ ، أَوْ لَكَأَنَّمَا رَآنِي فِي الْيَقَظَةِ ، لاَ يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي »[٢] . متفق على صحته .

وهذا واضح الدلالة في أن الشيطان لا يظهر في صورة النبيِّ ﷺ عيانًا

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٩٩٦) .

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٩٩٣) ، ومسلم (٢٢٦٦) ، وهذا لفظه .

أو منامًا صونًا من الله لرسله وعصمة لسيرتهم، بعد أن عصم ذواتهم ونفوسهم .

وإذا كانِ هذا الحديث الشريف يقودنا إلى أن الله قد عصم خاتم الرسل ﷺ من أن يتقمص صورته شيطان ؛ فإن فقه هذا المعنى أنه يحرم على أي إنسان أن يتقمص شخصيته ويقوم بدوره .

وإذا كان هذا هو الحكم والفقه في جانب الرسول الخاتم ؛ فإنه أيضًا الحكم بالنسبة لمن سبق من الرسل ؛ لأن القرآن الكريم جعلهم في مرتبةٍ واحدةٍ من حيث التكريم والعصمة ، فإذا امتنعوا بعصمة من الله أن يتمثلهم الشيطان امتدت هذه العصمة إلى بني الإنسان ؛فلا يجوز لهم أن يمثلوا شخصيات الرسل ؛ إذ لا يوجد الإنسان الذي ابيضت صفحته ، وطهرت سريرته ، ونقَّاه الله من الخطايا والدنايا كما عصم أنبياءه ورسله ؛ قال الله سبحانه : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٨٥] ، وإذا كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ؛ كما قال القرآن : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ [يوسف:١١١] .

فإن القصة لا تستفاد منها العبرة آخذة بالنفوس إلا إذا كانت من الإنسان الذي اصطفاه الله واختاره لإبلاغ الرسالة وإنقاذ أمته ، وكيف تتأتى الاستفادة من تمثيل إنسان لشخص نبيٍّ ، ومن قِبلِ مثل شخص عربيد مقامر سكير رفيق حانات ، وأخ للدعارة والدعارات ، ومن بعد

يمثل كل أولئك أو كثير منهم ؟

إنه جميلٌ جدًّا أن نتجه إلى القصص الديني نعرضه بطرق العصر ولغته ومواده ، ونقرِّبه إلى أذهان أولادنا بدلاً من القصص المستورد الذي يحرض على التحلل والانحلال .

نعم ، إن هذا أمر محمود ، لكن لابد فيه من الالتزام بآداب الإسلام ونصوص القرآن ، ولنصور الوقائع كما حكاها القرآن واقعًا لا خيال فيه ، ولنحجب شخص النبيِّ الذي نعرض قصصه مع قومه ، فلا يتمثله أحد ، وإنما نسمع صوت من يردد إبلاغه الرسالة ومحاجته لقومه ، وإبانته لمعجزته كما أوردها القرآن الكريم .

وإذا كان هذا أمرًا لازمًا بمقتضى فقه ذلك الحديث الشريف ؛ فإن ما بدا في مسلسل (محمد رسول الله ﷺ) من إظهار شخص المتحدث باسم رسول الله موسى عليه السلام وقت النطق بما يردده من أقوال هذا النبيِّ ، هذا الذي حدث يكون منافيًا لالتزامنا نحن المسلمين نحو الأنبياء من التكريم والتوقير والارتفاع عن الغض من مكانتهم التي صانها الله .

كما أن النبيَّ هارون وأم موسى وأخته وزوجه يأخذون هذا الحكم ، فلا يجوز أن يتقمص أشخاصهم أحد من الممثلين ؛ بل نسمع الأقوال المنسوبة إليهم نطقًا ، لأن الله سبحانه كرم أمَّ موسى بقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٧] .

وأيًّا ما كان معنى هذا الوحي وطريقه ، فهو وحي من الله إلى من اصطفاها أمًّا لنبيه ترتفع به عن مستوى الغير فلا تتمثلها امرأة ـ مع الاحترام لأشخاص من قاموا بهذا التمثيل ـ وهذه أخته وهذه زوجه ، لكلٍّ منهما مكانتها وموضعها الذي رفعها الله إليه في قرآنه ، ثم هذا النبي هارون شريك موسى في الرسالة ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝ هَٰرُونَ أَخِى ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾[طه:٢٩ـ ٣٢] .

إن فقه كل ذلك يجعل لأولئك مكانًا عليًّا بالتبع لهذا النبيِّ إن لم يكن لذواتهم التي كرمها وشرفها بالوحي .

ولعلنا نسترشد في هذا المعنى بقول الرسول ﷺ في حقِّ نفسه ونشأته ونسبه ، « أَنَا خِيَارٌ مِنْ خِيَارٍ »[1] .

وهذا الحكم كما سبق يمتد إلى غيره ممن سبقه من الأنبياء .

ومن أجل ذلك : يجب أن ينقى هذا المسلسل وغيره من المناظر المصوَّرة التي يمثل فيها أصولهم كالأم أو زوجاتهم وأولادهم ؛ بل إن هذا الخطر يمتد إلى الأصحاب الذين عاصروا الرسالة وأسهموا في إبلاغها ؛ لأن القدوة من بعد النبيِّ في هؤلاء الأصحاب ، ومن ثم كان لزامًا صونهم عن التمثيل والتشخيص ، ويكفي أن نسمع أقوالهم مرددة من خلال الأصوات التالية لها .

---

(١) هذا حديث منكر بهذا اللفظ ، وقد أنكره أبو حاتم كما في « العلل » لابنه (٢/ ٣٦٧، ٣٦٨) ، وانظر: «السلسلة الضعيفة» للألباني (حديث ٣٣٨) ، وأيضًا (حديث ١٦٣) ، وقد صحَّ بسياق آخر غير هذا الوجه ، وهو قوله ﷺ « إِنَّ الله اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» أخرجه مسلم حديث (٢٢٧٦) .

وإني لأهيب بالمسئولين عن الإذاعة والتليفزيون أن يبادروا إلى تصحيح ما وقع من تجاوز في هذا المسلسل وغيره ، إن كان ما ألمحت إليه (الأهرام) فيما نشرت صحيحًا .

وأهيب بالمسئولين عن الثقافة في المسارح أن يعيدوا النظر فيما لديهم من قصص مستقاة من القرآن أو السيرة النبوية الشريفة ، وأن يرفعوا منها كل ما كان فيه تشخيص لأحد الأنبياء أو زوجه أو ولده ووالده ووالدته أو أحد من أصحابه .

فإنه إذا كانت المصلحة في تقريب هذه القصص تمثيلاً وتصويرًا للناس إلا أن المفسدة في تجسيد النبيِّ أو أحد هؤلاء الأقربين إليه عظيمة ، والخطر منها أفدح ، ولا شك أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح كما تقضي قواعد الشريعة الغراء .

وأهيب بمن بيدهم الرقابة على هذه المصنفات أن يتابعوا مراحل إعدادها وإخراجها ، وأن يقولوا للناس ما انتهوا إليه من رأي فيها ، فإنهم إن سكتوا عما فيها من تجاوزات كانوا مقرِّين لها وهم في هذا آثمون مخالفين للحديث الشريف : « مَنْ رَأَى مِنكُمْ مُنكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ » [١].

إن شريعة الإسلام هي قانوننا بمقتضى نصوص القرآن والسنة ، وتنظيمًا بمقتضى المادة الثانية من دستورنا . ومن أجل هذا أهيب بالمختصين في مجمع البحوث أن يتخذوا الإجراءات القانونية في حال

---

(١) أخرجه مسلم حديث (٤٩) ، وقد سبق تخريجه .

ثبوت مخالفة النصوص المعتمدة للقصص القرآنية ، أو المستمدة من السيرة النبوية لوقف إذاعتها أو إخراجها تمثيلاً أو تصويرًا.

والله الهادي إلى سواء السبيل ، وهو وليُّ التوفيق»[(١)] .

موت الأنبياء جميعهم وعدم بقاء أحد منهم .

قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٤، ٣٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٨] .

حال الرسل والأنبياء يوم العرض والجزاء .

١ـ كلامُ الربِّ ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء .

كذا بوَّب البخاريُّ ﷬ بهذا الباب في «صحيحه» ، كتاب التوحيد[(٢)] وأورد تحته خمسة أحاديث التي أوردها في كلام الرب مع غير الأنبياء .

قال الحافظ ابن حجر ﷬ : « وإذا ثبت كلامه مع غير الأنبياء ، فوقوعه للأنبياء بطريق الأولى » .

فعن أنسٍ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ شُفِّعْتُ فَقُلْتُ : يَا رَبِّ ، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ خَرْدَلَةٌ فَيَدْخُلُونَ ، ثُمَّ أَقُولُ : أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى شَيْءٍ » فَقَالَ أَنَسٌ : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَصَابِعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

---

(١) مختصر فتاوى دار الإفتاء المصرية (٤٦٢ـ ٤٦٥) جمع وترتيب الشيخ صفوت الشوادفي ﷬ .

(٢) « فتح الباري » (١٣/ ٤٨١) ، و« صحيح البخاري » ،كتاب التوحيد ، باب كلام الله ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٧٥٠٩) ، (٧٥١٠) .

٢ـ كل أمة تتبع نبيها في أرض المحشر .

قال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ [يونس:٤٧] ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ [الإسراء:٧١] ، وقال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قَالَ : « إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جُثًا ، كُلُّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ نَبِيَّهَا ، يَقُولُونَ : يَا فُلَانُ ، اشْفَعْ حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ الله الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ »[1] .

٣ـ سؤال الأنبياء في المحشر عن التبليغ والأقوام عن الإجابة :

قال تعالى : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف:٦] ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة:١٠٩] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ ، فَيَقُولُ الله تَعَالَى : هَلْ بَلَّغْتَ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، أَيْ رَبِّ... » الحديث[2] .

٤ـ شهادة الأنبياء على أممهم .

قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١] ، وقال تعالى : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ [البروج: ٣] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا (٤٧١٨) .

(٢) سبق تخريجه .

٥ـ شعار الرسل على الصراط : اللهمَّ سلِّم سلِّم وأنه لا يتكلَّم غيرهم :

كما في حديث الشفاعة في « الصَّحِيحَيْنِ »[١] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ وفيه أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ فَيَقُولُ : مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ ؛ ثُمَّ قَالَ : وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُهَا ، وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلاَّ الرُّسُلُ ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ : اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ ... الحديث »[٢].

٦ـ شفاعة الأنبياء عليهم السلام .

وهذه الشفاعة تكون في عصاة الموحدين الذين يدخلون النار بذنوبهم ، والأحاديث بها متواترة عن النبيِّ ﷺ، وقد أجمع عليها الصحابة ، وأهل السنة قاطبة ، وبَدَّعُوا من أنكرها ، وصاحوا به من كل جانب ، ونادوا عليه بالضلال ، وهذه بعض النصوص الواردة في ذلك :

فعن أبي سعيدٍ الخدري ﷺ قال ـ وذكر حديث الشفاعة عن النبيِّ ﷺ وفيه : « فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالمَلاَئِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ »[٣].

وعنه أيضًا بسند حسن أنه ﷺ قال : « ثُمَّ يَشْفَعُ الأَنْبِيَاءُ ، فِي كُلِّ مَنْ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧) ، كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[القيامة:٢٢، ٢٣] ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢) .

(٢) قال النوويُّ رحمه الله (٣/ ٢٠ ، ٢١) : « معناه : لشدة الأهوال ، والمراد لا يتكلَّم في حال الإجازة ، وإلا ففي يوم القيامة مواطن يتكلَّم الناس فيها ، وتجادل كل نفس عن نفسها ، ويسأل بعضهم بعضًا ، ويتلاومون ، ويخاصم التابعون المتبوعين ، والله أعلم » .

(٣) أخرجه البخاريُّ ،كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣] (٧٤٣٩) ، ومسلم (١٨٣) .

كَانَ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مُخْلِصاً ، ثُمَّ يَتَحَنَّنُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ عَلَى مَنْ فِيهَا ، فَمَا يَتْرُكُ فِيهَا عَبْداً فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ إِلاَّ أَخْرَجَهُ مِنْهَا »[١].

وعن جابرٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رسولُ الله ﷺ : « إِذَا مُيِّزَ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ ، فَدَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ، قَامَتِ الرُّسُلُ فَشَفَعُوا ، فَيَقُولُ : انْطَلِقُوا ـ أَوِ اذْهَبُوا فَمَنْ عَرَفْتُمْ فَأَخْرِجُوهُ ، فَيُخْرِجُونَهُمْ قَدِ امْتُحِشُوا ، فَيُلْقُونَهُمْ فِي نَهَرٍ ـ أَوْ عَلَى نَهَرٍ ـ يُقَالُ لَهُ الْحَيَاةُ ، قَالَ : فَتَسْقُطُ مَحَاشُّهُمْ عَلَى حَافَةِ النَّهَرِ ، وَيَخْرُجُونَ بِيضاً مِثْلَ الثَّعَارِيرِ ، ثُمَّ يَشْفَعُونَ ... » الحديث[٢].

وهل شَرْعُ من قبلنا من الأنبياء وغيرهم من الصالحين شَرْعٌ لنا أم لا ؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣] : « النزاع في ذلك مشهور ، لكن الذي عليه الأئمة ، وأكثر العلماء أنه شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه ، وهذا إنما هو فيما ثبت أنه شَرْع لمن قبلنا من نقل ثابت عن نبينا ﷺ ، أو بما تواتر عنهم ، لا بما يُروى على الوجه[٤] فإن هذا لا يجوز أن يحتج به في شرع المسلمين أحد من المسلمين » .

قال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾[الأنعام:٩٠] .

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١١، ١٢) ، والحاكم (٤/ ٥٨٥، ٥٨٦) وقال : « صحيح على شرط مسلم » ، وابن خزيمة في « التوحيد » (٣٢٥، ٣٢٦) ، وابن أبي شيبة (١٣/ ١٧٦، ١٧٧) ، وراجع « العلل » لابن أبي حاتم (٢١٦٣) .

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٥، ٣٢٦) بسنٍد حسن ، لولا ما فيه من عنعنة أبي الزبير عن جابر ، لكنه مجبر بالشواهد ، وله شاهد كذلك عند أحمد (٥/ ٤٣) عن أبي بكرة رضي الله عنه .

(٣) « التوسل والوسيلة » (ص١٧٦) .

(٤) أي : من الإسرائيليات .

وأختم بهذا العنصر المهم في باب الإيمان بالرسل ببعض ثمراته .

قال ابن عثيمين ـ رحمة الله تعالى [(١)]: والإيمان بالرسل يتضمن أربعة أمور :

الأول : الإيمان بأن رسالتهم حق من الله تعالى : فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بالجميع ؛ كما قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء:١٠٥]

فجعلهم الله مكذِّبين لجميع الرسل ، مع أنه لم يكن رسول غيره حين كذَّبوه ، وعلى هذا فالنصارى الذين كذَّبوا محمدًا ﷺ ولم يتَّبعُوه هم مكذِّبون للمسيح ابن مريم متَّبعين له أيضًا ؛ لاسيما وأنه قد بشَّرهم بمحمد ﷺ ولا معنى لبشارتهم به إلا أنه رسول إليهم ينقذُهم الله به من الضلالة ، ويهديهم إلى صراط مستقيم .

الثاني : الإيمان بمن عَلِمْنَا اسمه منهم ؛ مثل : محمد ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ونوح ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وهؤلاء ـ الخمسة ـ هم أولو العزم من الرسل ، وقد ذكرهم الله تعالى في موضعين من القرآن في سورة الأحزاب في قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾[الأحزاب:٧] .

وفي سورة الشورى في قوله : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[الشورى:١٣] .

---

(١) «شرح أصول الإيمان » (٣٦ـ٣٨) .

وأما من لم نعلم اسمه منهم ، فنؤمن به إجمالاً ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾[غافر:٧٨] .

الثالث : تصديق ما صحَّ عنهم من أخبارهم .

الرابع : العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم ، وهو خاتمهم محمد ﷺ المرسل إلى جميع الناس ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[النساء:٦٥] .

وللإيمان بالرسل ثمرات جليلة منها :

الأولى : العلم برحمة الله تعالى : وعنايته بعباده حيث أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى صراط الله تعالى ، ويبينوا لهم كيف يعبدون الله ؛ لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك .

الثانية : شكره تعالى : على هذه النعمة الكبرى .

الثالثة : محبة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وتعظيمهم ، والثناء عليهم بما يليق بهم ؛ لأنهم رسل الله تعالى ، ولأنهم قاموا بعبادته ، وتبليغ رسالته ، والنصح لعباده .

وقد كذَّب المعاندون رسلهم زاعمين أن رسل الله تعالى لا يكونون من البشر ! وقد ذكر الله تعالى هذا الزعم وأبطله بقوله : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾

قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء:٩٤، ٩٥].

فأبطل الله تعالى هذا الزعم بأنه لابد أن يكون الرسول بشرًا ؛ لأنه مرسل إلى أهل الأرض ، وهم بشر ، ولو كان أهلُ الأرض ملائكة لنزَّل الله عليهم من السماء ملكًا رسولاً ، ليكون مثلهم ، وهكذا حكى الله تعالى عن المكذِّبين للرسل أنهم قالوا : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [إبراهيم:١٠، ١١] » .

وأكتفي بهذا القدر في الإيمان بالرسل .

والله أسأل أن يثبت الإيمان في قلوبنا حتى نلقاه ، وأن يحشرنا في زمرة النبيين مع إمام المحققين وقدوة المرسلين محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وسلم تسليمًا .

*****



خامساً

الإيمان باليوم الآخر

الركن الخامس من أركان الإيمان
الإيمان باليوم الآخر

والإيمان باليوم الآخر ركنٌ عظيمٌ من أركانِ الإيمان بالله ، لا تصحُّ عقيدة المؤمن إلا به ، وقد سُمِّيَ باليوم الآخر ؛ لأنه آخر أيام الدنيا ؛ أو لأنه آخرُ الأزمنة المحدودة المعلومة ؛ أو لأنه لا لَيْلَ بَعْدَه ؛ فيقالُ لليوم الذي لا آخر له يوم ؛ لأن ليلاً سيعقب نهاره ، أما اليوم الآخر سُمِّيَ بالآخرِ ؛ لأنه لا ليل بعده .

والمراد باليوم الآخر ؛ أمران :

١ـ فناء هذه العوالم كلِّها ، وانتهاء هذه الحياة بكامِلِها .

٢ـ إقبالُ الحياة الآخرة وابتداؤها .

فهو آخرُ يومٍ من أيام هذه الحياة ، أو هو اليوم الأول والأخير من الحياة الثانية ، إذ هو يومٌ واحدٌ لا ثاني له فيها البتة .

والإيمان به هو : التصديقُ الجازمُ بكلِّ ما أخبرنا عنه ربُّنا ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ ونبينا ﷺ فيما يخصُّ هذا اليوم من موت ، وقبر ، وعذاب ، ونعيم ، وبرزخ ، وبعث ، وحشر ، وحساب، وميزان ، وصراط ، وجنة ، ونار ، وأيضًا الإيمان بكلِّ ما يتعلق بهذا اليوم من فتنٍ وملاحمٍ ، وأشراطِ صُغرى وكبرى ؛ كما سأفصِّل إن شاء الله تعالى .

وإن المسلمين الآن في أمسِّ الحاجة إلى هذا الموضوع الخطير ؛ لأننا نعيشُ عصرًا طغت فيه الماديات والشهوات ، وانحرف فيه كثيرٌ من

الناس عن منهج ربِّ الأرض والسموات - جَلَّ وَعَلاَ .

فالحديثُ عن اليوم الآخر حديثٌ في غاية الأهمية خاصة في هذه الأيام ؛ وقد عاهدتُ الله - جَلَّ وَعَلاَ - أن يكون الكلام في الإيمان باليوم الآخر ، جامعًا بين التحقيق والتأصيل العلميِّ والأسلوب الأدبي الوعظي ؛ لأجمع بين حاجة القلب وحاجة العقل ، لاسيما وقد وقفتُ كثيرًا كثيرًا على كمٍّ هائلٍ من الأحاديث الضعيفة والموضوعة في مثل هذا الباب الخطير !!

وأسأل الله ﷻ أن يرزقنا التوفيق والإخلاص في القول والعمل ، وألا يجعل حظَّنا من ديننا قولنا ، وأن يُحَسِّن نياتنا وأعمالنا ، وأن يتقبل منا جميعًا صالح الأعمال .

يقول الإمام البرزنجيُّ - رحمه الله تعالى - في « الإشاعة لأشراط الساعة »[١] : « إن الدنيا لم تخلق للبقاء ، وإنما جُعلت للتزود لدار القرار (قال) : ولذا كان حقًّا على كلِّ عالم أن يُشِيْعَ أشراط الساعة ، ويبثَّ الأحاديث والأخبار الواردة فيها بين الأنام ، وَيَسْرُدَ هذه الأحاديث والأشراط مرة أخرى على العوام ، فعسى أن ينتهي الناسُ عن بعض الذنوب ، وأن تلين منهم القلوب ، وينتهوا عن الغفلة ، ويغتنموا المهلة قبل الوهلة » .

---

(١) وهذا الكتاب على الرغم من قيمته العلمية ، إلا أنني حين وقفتُ عليه ، رأيتُ أن هذا الكتاب يحتاج إلى تحقيقٍ علمي كبيرٍ جدًا ؛ لذا فقد لا أنصح طالبَ العلم المبتدئ بالوقوف معه ومع أمثاله من الكتب التي لا تخلو من خيرٍ كثيرٍ إلا أنها تحتاج إلى تحقيق علميٍّ .

وأستهلُّ الحديث عن اليوم الآخر والإيمان به بالحديث عن حقيقة الدنيا ، والحذر من سوء الخاتمة .

أيها الأحبة الكرام : إن الحياة تمضي مُسْرِعَةً ، وإن معظم أهل الأرض في غفلة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

نعم إننا نرى في كلِّ يوم أقوامًا يأتون ، وأقوامًا عن الدنيا يرحلون ، أرحام تدفع ، وأرض وقبور تبلع ، مَثَلُهم في ذلك كمثل موج البحر المتلاحق ، كلَّما انكسرت على الشطِّ موجة تبعتها أمواجٌ أخرى متلاحقة ، مَثَلُهم في ذلك كَمَثَلِ نهرٍ متدفق تراه دائمًا يجري ، مع أن الماء الذي تراه اللحظة ، يختلف تمامًا عن الماء الذي تراه بعد لحظة ؛ فإن الماء لا يقف ، وإنما هو يتدفق بسرعة ، كذلك الناس في ذلك مثلهم كمثل النبتة التي تُخرج زهرة أو ورقة سرعان ما تسقط أو تذبل لتُخرج بعدها زهرة جديدة أو ورقة أخرى .

وسيأتي اليوم حتمًا الذي ينتهي فيه الوجودُ الإنسانيُّ كلُّه ، وتنطفئ نجومُ الليل ، وتتوقف أمواجُ البحر ، وتجفُّ مياهُ العيون والآبار ، ويقوم الناسُ جميعًا للوقوف بين يدي الله الواحد القهار : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم:٤٨] .

أيها الأحبة الكرام : مغبونٌ ـ وربِّ الكعبة ـ من غفل عن هذه الحقائق ، خاسرٌ ـ والله ـ من جهل هذه الغاية التي من أجْلِهَا خُلِقَ في هذه الدار ، مع أن الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ قد بَيَّنَ لنا هذه الغاية بجلاء ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَمَا

خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦] .

وحذَّرنا الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ من الدنيا التي أَوْجَدَنَا فيها بعدما بَيَّنَ لنا الغاية التي من أجلها خُلِقْنَا ، ولأجلها وُجِدْنا ؛ فقال : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[الحديد:٢٠] .

وزاد النبيُّ المصطفى ﷺ هذا المعنى الجميل وضوحًا ؛ كما في حديثه الصحيح الذي رواه الترمذيُّ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ »(١).

وفي « صحيح مسلم »(٢) من حديث المستورد بن شداد رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « وَالله ! مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أُصْبُعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَا تَرْجِعُ » .

وروى الترمذيُّ وابن ماجه(٣) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنَّه ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ،كتاب الزهد ، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله ﷻ (٢٣٢٠) وقال : « حديث صحيح غريب من هذا الوجه » ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب مثل الدنيا (٤١١٠) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٥٢٩٢) و« الصحيحة » (٩٤٣) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٨) .

(٣) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الزهد ، باب (٤٤) (٢٣٧٧) ، وقال : « حديث حسن صحيح » ،وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب مثل الدنيا (٤١٠٩) ، وابن حبان (٧٢٤٢) ،والبيهقي في « السنن » =

قَالَ : « مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا ، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا ».

وضرب النبيُّ ﷺ أروع الأمثلة للدنيا كي لا يغتر بها أحدٌ .

فروى أحمد وابن حبان والبيهقي[1] عن أبيِّ بن كَعْب رضي الله عنه أنه ﷺ قَالَ : « إِنَّ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ جُعِلَ مَثَلاً لِلدُّنْيَا وَإِنْ قَزَّحَهُ ، وَمَلَّحَهُ ، فَانْظُرُوا إِلَى مَا يَصِيرُ » .

وروى الحاكم[2] عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الدُّنْيَا كُلَّهَا قَلِيْلاً ، وَمَا بَقِي مِنْهَا إِلاَّ القَلِيْلُ مِنَ القَلِيْلِ ، وَمَثَلُ مَا بَقَي مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ كَالثَّغْبِ - يَعْنِي الغَدِيْر - شُرِبَ صَفْوُهُ ، وَبَقِيَ كَدَرُهُ » .

ورحم الله من قال :

قد نادت الدنيا على نفسـها   لو كان في العالم من يسمع
كـم واثـق بـالعمر أفنيتـه   وجـامع بـدت مـا يجمـع

= (٣/ ٣٩١) ،وفي « الشعب » (١٠٤١٥) ،وأحمد (٣٧٠١، ٤١٩٦) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٥٦٦٨) و« الصحيحة » (٤٣٨) ، وروي عن ابن عباس انظر : « الصحيحة » (٤٣٩) .

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٦) ،وابن حبان (٧٠٢) ، والضياء في « المختارة » (١٢٤٥) ، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٢٠٥) ، والطبراني في «الكبير» (٥٣١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٥٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٦٥٢، ١٠٤٧٣) ، وفي « الزهد » (٤١٤) ،وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٢١٩٥) و « الصحيحة » (٣٨٢) .

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٢٠) ، وقال : « صحيح الإسناد» ، ووافقه الذهبي ، والديلمي (١/ ٢/ ٢٢٦) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (١٧٣٧) ، و« الصحيحة » (١٦٢٥) .

فالدنيا ممر ومعبر إلى الآخرة، فتزوَّد فيها بالطاعات والقربات « فالدُّنْيَا سِجْنُ المؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ » [1]؛ كما أخبر ﷺ.

فمن أحبه الله حماه من الدنيا وشهواتها ؛كما قال ﷺ: « إِنَّ الله ﷻ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا، وَهُوَ يُحِبُّهُ، كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ تَخَافُونَهُ عَلَيْهِ » [2].

وكان النبيُّ ﷺ يوصي أصحابه والمؤمنين الصادقين من بعدهم بهذه الوصية الجليلة التي قالها لابن عمر رضي الله عنهما؛ كما في « صحيح البخاري » [3]، وأخذ النبيُّ ﷺ بمنكبيه يومًا، وقال له: « كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ ».

والغريب ـ وإن طالت غربته ـ فإنه يفكر حتمًا في العودة إلى أهله ووطنه وبلده، وعابر السبيل ـ أي: المسافر ـ وإن طال سفره؛ فإنه يفكر حتمًا في العودة.

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: « إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ » [4].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق (٢٩٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٧) عن محمود بن لبيد، والحاكم (٤/ ٣٠٩) عن أبي سعيد رضي الله عنه، وصحّحه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (١٨١٤) و« المشكاة » (٥٢٥٠)، وانظر: الترمذيَّ، كتاب الطب، باب ما جاء في الحمية (٢٠٣٦).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابرُ سبيل » (٦٤١٦).

(٤) أورده البخاريُّ بعد الحديث السابق في « صحيحه ».

وأنا أعلم أن الجميع يحفظ هذا الحديث ، لكن بكلِّ أسف ، لا نفكر في حقائقه ولا في معانيه ، ووالله لو تدبَّرناه ووعيناه ، واحتلَّ مِنَّا مكانةً في القلوب ، لتبدَّل حالُنا ، وتغيَّر أمرنا ، فلو ذهب كلُّ واحدٍ منا إلى فراشه كلَّ ليلة ، وهو يعلم يقينًا صادقًا أنه قد لا يأتي عليه الصباح ، ولو علم أن الموت سيفاجئه ساعة الفجر لن ينام الليل ، وإن نام فلنْ ينام إلا على طاعة ، أو قد تاب إلى الله على أقل حال .

فنحن نسمع الحديث ونقرؤه ، ولكننا نحتاج إلى تدبُّره ، ونحتاج إلى تذوُّقه وتذوق معناه ، ونحتاجُ إلى أن نحوِّل كلماته الجميلة في حياتنا إلى واقع عمليٍّ وإلى منهج حياة .

قال الشاعر :

سبيلك في الدنيا سبيل مسافر ولابد من زادٍ لكلِّ مسافر

ولابد للإنسان من حَمْلِ عُدَّةٍ وَلاَسيما إن خاف صولة قاهرِ

وقال غيره :

وما هذه الأيام إلا مراحل يحث بها داع إلى الموت قاصدُ

وأعجب شيء لو تأملت أنها منازل تطوى والمسافر قاعدُ

وقال آخر :

يا ويح نفسي من نهارٍ يقودها إلى عسكر الموتى وليل يزودها

وقال آخر :

نسير إلى الآجال في كلِّ لحظة وأيامنا تطوى وهن مراحل

ولم أر مثل الموت حقًّا كأنه إذًا ما تخطته الأماني باطلُ

وما أقبح التفريط في زمن الصبا فكيف به والشيب للرأس شاعل

تَرَحَّلْ من الدنيا بزادٍ من التقى فعمرك أيام وهن قلائل

وقال غيره :

مضى أمسك الماضي شهيدًا معدلاً وأعقبه يوم عليك جديد

فإن كنت بالأمس اقترفت إساءة فثن بإحسان وأنت حميد

فيومك إن أعقبته عاد نفعه عليك وماضي الأمس ليس يعود

ولا تُرْجِ فِعْلَ الخير يومًا إلى غد لعل غدًا يأتي وأنت فقيد

وأنشد بعض السلف :

إنا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى يدني من الأجل

فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهدًا فإنما الربح والخسران في العمل [1]

(١) انظر هذه الأبيات في « جامع العلوم والحكم » لابن رجب ، الحديث الأربعون .

ثم يقول ابن عمر ﷺ : « وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ » .

أنت الآن في صحة فاستخدم هذه الصحة في طاعة الله ، فأنت لا تدري ؛ فإن المرض الآن نسمع عن كثيرٍ من أشكاله وألوانه ، أسأل الله أن يشفي مرضى المسلمين .

« وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ » ، وأنتم ترون الآن أن موت الفجأة قد كَثُرَ والموت الآن ـ بل في كل آن ـ لا يترك صغيرًا ولا كبيرًا ، ولا صحيحًا ولا مريضًا ، ولا امرأة ، ولا رجلاً ؛ فإن أقرب غائب ننتظره جميعًا هو الموت !!

ورحم الله من قال :

إن لله عبـــادًا فُطنًـــا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظـروا فيهـا فلـمّا علمـوا أنهـا ليســت لحـيٍّ وطنًـا

جعلوهــا لجُـة واتخــذوا صـالح الأعـمال فيهـا سفنًا

صنّعوا سفنًا للسير في هذا البحر المتلاطم الأمواج من الأعمال الصالحات .

ولابد أن نعلم ـ وهذا من التحقيق العلمي الذي يجب أن يقف عليه كلُّ مسلم ، وكلُّ داعية ، وكلُّ طالب علم بصفةٍ خاصةٍ ـ أن الذَّم الوارد في القرآن والسنة في حق الدنيا لا يرجع إلى زمانها الذي هو الليل والنهار ، ولا إلى مكانها الذي هو الأرض ، ولا يرجع إلى نعمها

وخيراتها التي أودعها الله تبارك وتعالى في هذه الأرض ، فزمان الدنيا الذي هو الليل والنهار ، جعله الله خِلْفَة لمن أراد أن يذَّكَّر أو أراد شُكُوراً ، ومكانُ الدنيا الذي هو الأرض قد جعله الله تبارك وتعالى لبني آدم مهادًا ومسكنًا ، وكذلك نعم الله في أرضه من جبالٍ وأشجارٍ وأنهارٍ وكنوزٍ وأموالٍ وخيراتٍ ، لا يقع عليها الذَّمُّ أبدًا ، وإنما الذم الوارد في حق الدنيا في القرآن والسُّنَّة راجع إلى المعاصي والشرك الذي يُرتكب على ظهر الأرض في حق الله ـ جَلَّ وَعَلاَ .

قال بعض السلف :

إنما الدنيا إلى الجنة والنار طريق والليالي متجر الإنسان والأيام سوق

فالدنيا مزرعةُ الآخرة .

ولله درُّ من قال هذه الكلمات : « الدنيا دار صدق لمن صَدَقَها ، ودار نجاة لمن فهم عنها ، ودار غنًى لمن تزوَّدَ منها ، فهي مهبطُ وحي الله ، ومصلَّى أنبياء الله ، ومتجر أولياء الله ، ربحوا فيها الرحمة ، واكتسبوا فيها الجنة »[1].

وتدبَّروا معي هذا الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا ، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَائِرٌ أَوْ سَبُعٌ أَوْ دَابَّةٌ أَوْ إِنْسَانٌ ، إِلا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ »[2].

---

(١) أخرجه ابنُ أبي الدنيا في « إصلاح المال » (١٠٨) ، و « ذم الدنيا » (١٤٧) من طريق : معاذ قال : سمع عليُّ بن أبي طالب رجلاً يسب الدنيا فقال: « إنها دار صدق لمن صدقها ... » وسنده ـ كما قال ابن رجب في « جامع العلوم » (٣٩٩) : « إسناده فيه نظر » .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحرث والمزارعة ، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾ -

لو غرست غرسًا تبتغي به الأجر من الله ، لو سقيت ماءً تبتغي به وجه الله ، لو ألقيت حبَّة فالتقطتها بهيمةٌ أو التقطها طائرٌ وأنت تبغي وجه الله ؛ فلك الأجر ؛ فالدنيا مزرعة .

لا بد من هذا الفهم ؛ فإن بعض إخواننا من الدعاة وطلاب العلم إذا ما تحدَّثوا عن الدنيا ، ربما أشعروا كثيرًا من الحضور ممن مَنَّ الله عليهم بالأموال أو بالجاه أو بالسلطان ، أنهم وقعوا في حرجٍ شديدٍ ووقعوا في ذنب عظيم ، وفي جرم كبير!! وهذا خطأ ؛ وكان من أصحاب النبيِّ ﷺ من فَتَحَ الله عليه من أبواب الدنيا ما فَتَحَ ، وممن مَنَّ الله عليه بالمال ، والسلطان ، والجاه ، والجواري ، والنساء ، والغلمان ، ومع ذلك لم تكن الدنيا ـ طرفة عين ـ في قلوبهم ، وإنما كانت في أيديهم ، وهذا معنى الزهد الحقيقي .

فإن منَّ اللهُ عليك بالدنيا ، ومع ذلك فانت تتحرى الحلال ، لا تجمع المال إلا من حِلِّهِ ، ولا تنفق المال إلا في حِلِّهِ ، وتستطيع بهذا المال أن تذهب هنا وهناك إلى المعاصي والشهوات واللذات ، ولكنك ممسك على طاعة ربك ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ مقيم على فروض الله وأوامره وحدوده ، مجتنب لنواهي الله .. هذا هو الزهد الحقيق .

فلابد من هذا الفهم الدقيق لحقيقة الدنيا [1] .

= [الواقعة:٦٣-٦٥] برقم (٢٣٢٠) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم كتاب «المساقاة» ، باب فضل الغرس والزرع برقم (١٥٥٣) .

(١) «مجموع الفتاوى» في مواضع عدة (١٠/ ٢١) ، (٢٠/ ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٠) ، ورسالة «الزهد» لشيخ الإسلام (ص ٩) ط مكتبة المنار .

إذا عَلِمْتَ ذلك أيها المسلم ، وإذا عَلِمَتِ ذلك أيتها المسلمة ، فلنكن جميعًا على يقينٍ أن الحياة على ظهر الأرض موقوتة محدودة بأجل ، وستأتي نهايتها حتمًا ، فيموت الصالحون ، ويموت الطالحون ، لا يموت الطالحون ويبقى الصالحون ! ولا يموت الصالحون ، ويبقى الطالحون ! بل الجميع سيموت ، يموت المجاهدون والقاعدون ، يموت المعتزون بالعقيدة ، ويموت المستذلُّون للعبيد ، يموت الشرفاء الذين يأبون الضيم [1] ، ويموت الجبناء الحريصون على الحياة بأي ثمن ، يموت أصحاب الاهتمامات العالية والأهداف الكبيرة ، ويموت التافهون الذين لا يعيشون فقط إلا من أجل المتاع الرخيص ؛ الكلُّ سيموت !! قال تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥] .

إنها الحقيقة التي يسقط عندها جبروت المتجبرين .. إنها الحقيقة التي يسقط عندها عناد المتألهين .. إنها الحقيقة التي تصبغ الحياة البشرية كلها بصبغة الذل والعبودية لقهار السماوات والأرض .. إنها الحقيقة التي تسربل بها طوعًا أو كرهًا العصاةُ والطائعون ؛ بل وشرب كأسها الأنبياء والمرسلون .. إنها الحقيقة التي تعلن على مدى الزمان والمكان في أذن كلِّ

---

(١) الضَّيْمُ: الظُّلْم ، ومنه «لا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ» أي: لا تزاحمون ، أو : لا يظلم بعضكم بعضًا .

سامع ، وعقل كلِّ مفكر أنه لا بقاء إلا للحيِّ الذي لا يموت .. إنها الحقيقة التي أمرنا نبينا ﷺ أن نكثر من ذكرها .

كما في الحديث الصحيح الذي رواه الترمذيُّ والنسائيُّ وابن ماجه [1] وغيرهم من حديث أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال : « أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ » إنه الموت !!

وصَدَق الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ إذ يقول : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق:١٩] .

هل تعلم أن للموت سكرات وكربات إلى الحدِّ الذي عاينت فيه عائشةُ ــ رضوان الله عليها ــ هذه السكرات لحبيب رب الأرض والسماوات ، المصطفى ﷺ ؟!

ففي « صحيح البخاري » من حديث عائشة ﷺ قالت : كَانَتْ بَيْنَ يَدَي رَسُولِ الله ﷺ رَكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ ، فِيهَا مَاءٌ ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ ، فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَهُوَ يَقُولُ : « لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ » [2] .

وفي رواية الترمذي ؛ تقول عائشة ﷺ: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في ذكر الموت (٢٣٠٧) ، وقال : « حسن صحيح غريب » ، والنسائي ، كتاب الجنائز (١٨٢٤) ، وابن ماجة ،كتاب الزهد ، باب ذكر الموت والاستعداد له (٤٢٥٨) ، وابن حبان (٢٥٥٩، ٢٥٦٢) ، والحاكم (٤/ ٣٢١) ، وقال : « صحيح على شرط مسلم » ووافقه الذهبي ، وأحمد (٧٨٦٥) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٥٥٩، ١٠٥٦٠) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « الإرواء » (٦٨٢) ، و « صحيح الجامع » (١٢١٠، ١٢١١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المغازي ، باب مرض النبيِّ ﷺ ووفاته (٤٤٤٩) .

بِالْمَوْتِ ، وَعِنْدَهُ قَدَحٌ فِيهِ مَاءٌ ، وَهُوَ يُدْخِلُ يَدَهُ فِي الْقَدَحِ ، ثُمَّ يَمْسَحُ وَجْهَهُ بِالْمَاءِ ، ثُمَّ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَسَكَرَاتِ الْمَوْتِ »[(١)].

ثم بيَّنت عائشةَ رضي الله عنها شدة الموت على رسول الله ﷺ فقالت ؛ كما في « صحيح البخاري » : « مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَإِنَّهُ لَبَيْنَ حَاقِنَتِي وَذَاقِنَتِي (أي : مات ورأسه على صدرها) ، فَلاَ أَكْرَهُ شِدَّةَ الْمَوْتِ لأَحَدٍ أَبَدًا بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ »[(٢)].

فعائشةُ رضي الله عنها رأت شدة الموت على حبيب الله ﷺ ، وعلى خير خلق الله ، فتذكر أيها المغرور .. أيها المغرور بماله .. أيها المغرور بكرسيه .. أيها المغرور بمنصبه .. أيها المغرور بجاهه .. أيها المغرور بسلطانه .. تذكر أيضًا أيها الساهي .. كيف أنت ، وقد حلَّت بك السكرات ، ونزل بك الأنين والغمرات ، ثم تزداد عليك الكربات إذا حاولت الشياطين ـ والعياذ بالله ـ أن تحول بينك وبين النطق بلا إله إلا الله ؛ فقد ترى عند موتك شيطانًا عند رأسك ، يريد هذا الشيطان أن يحول بينك وبين التوحيد ، ربما يقول لك هذا الشيطان : مُت يهوديًا ، ربما يقول لك هذا الشيطان : مُت نصرانيًا ، ربما يشَوِّش عليك عند موتك ، ويجعل لسانك

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في التشديد عند الموت (٩٧٨) ، وقال : « حديث غريب » ، وابن ماجه ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ (١٦٢٣) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح سنن الترمذي ، وابن ماجه ».

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « المغازي » ، باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١] ، برقم (٤٤٤٦) .

يردد ما تعلق به قلبك في هذه الحياة .

وقد استدل بعض أهل العلم على ذلك بصدر حديثٍ صحيحٍ ، رواه مسلمٌ من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ »[١] .

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية[٢] ـ طيب الله ثراه ـ عن مسألة عرض الأديان على العبد عند الموت (أي : يقول الشيطان للعبد مُت يهوديًّا أو مُت نصرانيًّا) فقال ـ رحمه الله تعالى : « مِنَ الناس مَنْ تُعْرض عليه الأديان قبل موته ، ومنهم من لا تعرض عليه .. وهذا كلُّه من فتنة المحيا والممات التي أمرنا النبيُّ ﷺ أن نستعيذ منها في صلاتنا .

(ثم قال شيخ الإسلام) : الشيطان أحرص ما يكون على إغواء بني آدم عند الموت ، وقد ذكر عبد الله بن الإمام أحمد رحمه الله أنه قال : حضرتُ وفاة أبي ، فكان يغرق ثم يفيق ، ويشير بيده ويقول : لا ، بعد ، لا ، بعد . ولما أفاق في لحظة صحوة بين السكرات والغمرات ، يقول له ولده : يا أبي ماذا تقول ؟ إنك تقول : لا ، بعد . لا ، بعد ؛ فيقول الإمام أحمد : أيْ بُني ! إنَّ الشيطان قائم بحذائي عاض على أنامله ، يقول : يا أحمد ، فُتَّنِي (أي في الدنيا) وأنا أقول : لا بعد .. لا بعد حتى أموت على لا إله إلا الله ![٣] .

فإذا كان العبدُ من المؤمنين الصادقين ، أنزل الله إليه ملائكة التثبيت

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب « الأشربة » باب استحباب لعق الأصابع والقصعة ، وأكل اللقمة الساقطة ، بعد مسح ما يصيبها من أذى ، وكراهة مسح اليد قبل لعقها ، برقم (٢٠٣٣) .

(٢) « مجموع الفتاوى » (٤/ ٢٥٥) بتصرف ، وانظر : « التذكرة » ، للقرطبي (٣٣) وما بعدها .

(٣) أخرج هذه القصة البيهقي في « الشعب » (٨٥٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/ ١٨٣) ، وابن عساكر (٥/ ٣٢٤، ٣٢٥) .

لتثبيته بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٠ـ ٣٢] .

وفي وقت تنزُّل الملائكة على أهل الإيمان والاستقامة ، قولان :

القول الأول : هو أن الملائكة تَنْزِل على أهل الإيمان والاستقامة ، وهم على فراش الموت (وهو القول الذي يعنينا هنا) .

يقو الله ﷻ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧] .

القول الثاني : عند الخروج من القبور ، يوم البعث والنشور .

ويقول الله ﷻ وهو يبين لنا سبحانه أن الموت حقٌّ لا مراء فيه ، ولا شك : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق:١٩] .

والحقُّ أنك تموت والله حيٌّ لا يموت .. والحقُّ أنك ترى عند موتك ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب .. والحقُّ أن يكون قبرُك روضةً من رياض الجنة ، أو حفرة من حُفر النيران : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق:١٩] ، أي هذا هو الذي كنت منه تهرب وتفرُّ وتجري ، وقد جاءك ، فلا محيد ، ولا مناص ، ولا فكاك ، ولا خلاص .. تحيد إلى الطبيب إذا جاءك المرض .. وتحيد إلى الطعام إذا أحسست بالجوع .. وتحيد إلى الشراب

إذا أحسست بالظمأ .. ولكن ثُمَّ ماذا ؟ أيها القويُّ الفتيُّ .. أيها الذكيُّ العبقريُّ .. يا أيها الوزير ، ويا أيها الأمير ، ويا أيها الكبير ، ويا أيها الصغير ، ويا أيها الحقير ، ويا أيها الفقير :

كــل بــاكٍ فســيُبكَى وكــل نــاعٍ فســيُنْعى

وكــل مــذكورٍ سيُنْســى وكــلُّ مــذخُورٍ ســيفنى

لــيس غــيْرُ الله يبقــى مــن عــلا فــالله أعــلى

وصدق ربي إذ يقول : ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ [القيامة:٢٦ـ٢٨] .

قال ابن عباس : « إذا بلغت نفسه من يرقى بها ، قالت الملائكة : مَنْ يصعد بها ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ؟ »(١) .

وقال قتادة والضحاك وغيرهما : ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ أي : « من ذا يرقيه ؟ »(٢) .

من يبذل له الرقية ؟ من يقدِّم له العلاج ؟ من يَحُول بينه وبين الموت ؟! انظر إليه إنه صاحب الأموال والجاه والسلطان ! إنه صاحب الحكم والوزارة .. التف الأطباءُ مِنْ حوله .. وربما نُقل بالطائرات فوْرًا إلى

---

(١) أخرجه الطبري في « التفسير » (لسورة القيامة / ٢٦، ٢٧) ، وعزاه السيوطي في « الدر » لابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » ، وابن أبي حاتم ؛ وهو في « تفسيره » (القيامة / ٢٦، ٢٧) من طريق عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس .

(٢) أخرجه الطبري ؛ كما في المصدر السابق .

أفخم المستشفيات ، والأطباء من حوله .. هذا متخصص في جراحة القلب ، وهذا في جراحة المخ والأعصاب ، وآخر في كذا وكذا ، كلٌّ يبذل له الرقية ، ويقدم له العلاج !!

هم يريدون شيئًا ، وملك الملوك قد قدَّر شيئًا آخر !!!

قال سبحانه : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[الأعراف:٣٤] .

وقال سبحانه : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[النساء:٧٨] .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة:٨] .

عجز الأطباء وحاروا ، والتفوا حوْلَه وداروا ، ولكن انظر إليه ؛ فلقد اصفرَّ وجهه ، وشحب لونه ، وبردت أطرافه ، وتجعَّد جلده ، وبدأ يشعر بزمهرير قارس ، يزحف إلى أنامل يديه وقدميه ، يحاول المسكين جاهدًا أن يحرك شفتيه بكلمةِ التوحيد فيشعر أن الشفتين كالجبل لا يريد أن يتزحزح إلا لمن هوَّن ويسَّرَ له الله النطق بلا إله إلا الله .

فاللهم اجعل آخر كلامنا من الدنيا لا إله إلا الله .. اللهم لا تَفْتِنَّا عند الموت برحمتك يا أرحم الراحمين .

فمِنْ قائلٍ يقول : إن فلانًا قد ثَقُلَ لسانه ؛ بل لا يَعْرف خِلاَّنه ولا جيرانه ، ولا يكلِّم إخوانه ، فكأني أنظر إليه ، وهو يسمع الخطاب ولكنه لا يقدر على الجواب ؛ فإذا وعى ما حوله من أطباء ومن أهل ومن خِلاَّن ، وأصحاب وأحباب ، وهو ينظر إليهم نظرة استعطاف .. نظرة رجاء .. نظرة تمنٍّ .. نظرة أمل .. وقال بلسان الحال ـ وربما بلسان المقال ـ يا أهلي .. ويا إخواني .. ويا أحبابي .. لا تتركوني وحدي ، ولا تفردوني في لَحْدي ، فدُّوني بأموالي ، فدُّوني بأعماركم ! أنا أبوكم الذي بنيتُ لكم القصور ، وعمَّرت لكم الدور ، ونمَّيت لكم التجارة ، وتركت لكم الأموال ؛ فمَنْ منكم يزيد في عمري ساعة أو ساعتين ؟! وهنا يعلو قولُ الحقِّ ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾

[الواقعة:٨٣ـ ٩٦]

سبحانك ! يا مَنْ ذللت بالموت رقاب الجبابرة ، سبحانك ! يا من أنهيت بالموت آمال القياصرة ، فنقلتهم بالموت من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود ، ومن ملاعبة الجواري والنساء

والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التنعُّم في أنواع الطعام والشراب إلى التمرغ في ألوان الوحل والتراب .. سبحانك !

أيها الغافل .. أيها اللاهي .. أيها المسرف بالمعاصي :

دعْ عَنْكَ مَا قَدْ فَاتَ فِي زَمَنِ الصِّبَا ... واذْكُرْ ذُنُوبَكَ وَابكِهَا يَا مُذْنِبُ

لم ينْسَهُ الملَكَانِ حِينَ نَسِيتَهُ ... بل أثبتاه وأنت لاهٍ تلعب

والرُّوح منك وديعة أودعتها ... سَتَرُدُّهَا بالرَّغمِ منْكَ وتُسْلَبُ

وغُرُورُ دُنْيَاكَ التي تَسْعَى لَهَا ... دَارٌ حَقِيقَتُهَا مَتَاعٌ يَذْهَبُ

اللَّيْلُ فَاعْلَمْ والنَّهَارُ كلاَهُمَا ... أَنْفَاسُنَا فِيهِمَا تُعَدُّ وتحْسَبُ

قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم العالم الزاهد[1] : يا أبا حازم لماذا نكره الموت ؟ فقال أبو حازم : لأنكم عمَّرتم دنياكم ، وخرَّبتم أخراكم ؛ فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب !؛ فقال سليمان : صدقت يا أبا حازم ؛ فما لنا عند الله ؟ فقال :اعرض عملك على كتاب الله لترى مالك عنده ؛ فقال سليمان : أين أجد ذلك ؟ فقال أبو حازم : تجد ذلك في قوله تعالى :﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الإنفطار:١٣، ١٤] .

فقال سليمان : فأين رحمة الله ؟ فقال أبو حازم : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف:٥٦] .

(١) أخرجه الخطيب في « تاريخه » (٦/ ٦٩) ، وابن عساكر في « تاريخه » (٢٢/ ٣٠، ٣٩) ، وانظر : « صفوة الصفوة » لابن الجوزي (٢/ ١٥٨) .

فقال سليمان : فكيف القدوم غدًا على الله ؟ فقال أبو حازم : أما العبد المحسن فكالغائب يرجع إلى أهله ، وأما العبد المسيء فكالعبد الآبق يرجع إلى مولاه » .

وفي « الصَّحِيحَيْنِ » من حديث عائشة ﵂ أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله ، أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله ، كَرِهَ الله لِقَاءَهُ »[1].

قالت عائشة ﵂: يَا نَبِيَّ الله ، أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ ؛ فَقَالَ : « لَيْسَ كَذَلِكِ ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ الله وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ ، أَحَبَّ لِقَاءَ الله ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ الله وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ الله ، وَكَرِهَ الله لِقَاءَهُ ».

إن الموت خير واعظ ، ومن لم يتعظ بالموت فلا اتعظ ولا واعظ له ، فكفى بالموت واعظًا .

يقول القرطبي ﵀[2]: « اعلم أن الموت هو الخطب الأفظع ، والأمرُ الأشنع ، والكأس الذي طعمها أكره وأبشع ، وأنه الأهدم للذات ، والأقطع للراحات ، والأجلب للكربات ، فإن أمرًا يقطع أوصالك ، ويفرق أعضاءك، ويهدم أركانك ، لهو الأمر الفظيع ، والخطب الجسيم ، وإن يومه لهو اليوم العظيم » .

وفي الحديث الذي رواه الطبرانيُّ في «الأوسط» ، وأبو نعيم في «الحلية »

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الرقاق » ، باب من أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءه ، برقم (٦٥٠٧) ، ومسلم ،كتاب « الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » ، باب من أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله ، كره الله لقاءه برقم (٢٦٨٤) ، واللفظ له .

(٢) « التذكرة » للقرطبي (٢٥) .

والحاكم في « المستدرك »[(١)] ، وحَسَّنَ إسناده الألباني في « الصحيحة » من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ وعظه جبريل ؛ فقال : « يَا مُحَمَّدُ ، عِشْ مَا شِئْتَ ، فَإِنَّكَ مَيِّتٌ ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ ، فَإِنَّكَ مُفَارِقُه ، واعْمَلْ مَا شِئْتَ ، فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ ، واعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُهُ بِاللَّيْلِ ، وَعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ » .

فتفكَّر يا مغرور في الموت وسكراته ، وصعوبة كأسه ومرارته ، فيا للموت مِنْ وعدٍ ما أصدقه ، ومِنْ حاكمٍ ما أعدله ، فكفى بالموت مُفزعًا للقلوب ، ومُبكيًا للعيون ، ومُفرقًا للجماعات ، وهَادمًا للذات ، وقاطعًا للأمنيات .

وكان يزيد الرقاشي رحمه الله يقول[(٢)] :

« ويحك يا يزيد ، من ذا يصلي عنك بعد الموت ؟ مَنْ ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ مَنْ ذا يترضى عنك ربَّك بعد الموت ؟ فهل تفكرت يا ابن آدم في يوم مصرعك ؟ وانتقالك من موضعك ؟ إذا نقلت من سعةٍ إلى ضيق ، وخانك الصاحب والرفيق ، وهجرك الأخ والصديق ، وأُخِذْت من فراشك وغطائك على غرر ، وغطوك من بعد لين لحافك بتراب ومدر ، فيا جامع المال ، والمجتهد في البنيان ؛ ليس لك من مالك والله إلا الأكفان ، بل هي للخراب والذهاب ، وإن جسمك للتراب

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٢٤، ٣٢٥) وقال : « صحيح الإسناد » ، ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٥٣) ، وله شواهد عن جابر عند الطيالسي (١٧٥٥) ، وعن علي عند أبي نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٠٢) ، وانظر : « السلسلة الصحيحة » للألباني (٢/ ٥٠٥) .

(٢) « التذكرة » للقرطبي (١٣) ، ط الدعوة الإسلامية ؛ بتصرف وتقديم وتأخير . .

والمآب ..ثم قال يزيد: يا أيها الناس ، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي الحياة !! مَن الموتُ طالبه ، والقبر بيته ، والتراب فراشه ، والدود أنيسه ، وهو مع ذلك ينتظر الفزع الأكبر. كيف يكون حاله ؟ » .

وكان أبو الدرداء ﷺ يقول :

« أضحكني ثلاث ، وأبكاني ثلاث : أضحكني مؤمِّلٌ للدنيا ، والموت يطلبه ، وغافل ليس بمغفول عنه ، وضاحك بملء فيه ، وهو لا يدري أأرضى الله أم أسخطه ؟ وأبكاني : فراق الأحبة ، محمد وحزبُه ﷺ ، وأحزنني المطلع عند غمرات الموت ، والوقوف بين يدي الله تبدو السريرة علانية ، ثم لا يدري إلى الجنة أم إلى النار »[1] .

قال القرطبي رحمه الله[2] :

« يا هذا ، أين الذي جمعت من الأموال ، وأعددت للشدائد والأهوال ، لقد أصبحَتْ كفُّك منه عند الموت خالية صفرًا ، وبُدِّلت بعد غناك ذلًّا وفقرًا ، فكيف أصبحَتْ يا رهين الأوزار ؟ ويا مَنْ سُلب من الأهل والديار ! أو ما علمت يا مغرور أنه لابد من الارتحال إلى يوم شديد الأهوال ، فلن ينفعك ثَمَّ قيلٌ ولا قال ؛ بل يُعدُّ عليك بين يدي الملك الدَّيَّان ما بطشتِ اليدان ، ومشتِ القدمان ، ونطق به اللسان ، وعملت الجوارح والأركان ، فإن رحمك الله فإلى الجنان ، وإن كانت الأخرى كانت النيران ، فيا غافلاً عن هذه الأحوال إلى كم الغفلة

---

(١) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (٢٣٥) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٠٧) عن سلمان ﷺ ، وذكره القرطبي في « التذكرة » (٨٠) .

(٢) « التذكرة » (٨٢، ٨٣) بتصرف يسير .

والتوان ، أتحسب أن الأمر صغير ! وتزعم أن الخطب يسير ، وتظن أنه سينفعك حالكَ إذا آن ارتحالك ، أو ينقذك مالك حين توبقك أعمالك ، أو يغني عنك ندمك إذا زلت بك قدمك ، أو يعطف عليك محبوبك ومعشرك إذا ضمك محشرك ، كلا والله ساء ما تتوهم ، ولا بد لك أن تعلم (يومًا من الأيام) ، لا بالكفاف تقنع ، ولا من الحرام تشبع ، ولا للعظات تسمع ، ولا بالوعيد ترتدع ، دأبك أن تنقلب مع الأهواء ، وتخبط خبط عشواء ، يعجبك التكاثر بما لديك ، لا تذكر ما بين يديك ، يا نائمًا في غفلة وفي خبطة يقظان ، إلى كمْ هذه الغفلة والتوان ؟ أتزعم أنك ستترك سدى !؟ وألا تحاسب غدًا !؟ كلا ـ والله لن يدفع عنك الموت مال ولا بنون ، ولا ينفع أهل القبور إلا العمل المبرور ، فطوبى لمن سمع ووعى ، وحقَّق ما ادَّعى ، ونهى النفس عن الهوى ، وعَلِمَ أن الفائز من ارعوى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ [النجم:٣٩، ٤٠] .

فانتبه من هذه الرقدة ، واجعل العمل الصالح لك عُدَّة ، ولا تتمنى منازل الأبرار ، وأنت مقيم على الذنوب والأوزار ، عامل بعمل الفُجار ، بل أكثر من الأعمال الصالحات ، وراقب الله في الخلوات ، رب الأرض والسموات ، ولا يغرنك الأمل ، فتزهد عن العمل » . انتهى .

لا شيء مما ترى تبقى بشاشتُه ... يبقى الإلهُ ويفنى المالُ والولدُ

لم تُغن عن هرمزٍ يومًا خزائِنُه ... والخلدَ قد حاولت عادٌ فما خَلَدوا

ولا سليمان إذ تجري الرياحُ له ... والإنسُ والجنُّ فيما بينها تَرِدُ

أين الملوكُ التي كانت لعزَّتِها ... من كلِّ أوبٍ إليها وافدٌ يفدُ

حوض هنالكَ مورودٌ بلا كذبٍ   لا بـد مـن وردِهِ كـما وَرَدُوا[1]

*****

أيـا مـن يـدَّعي الفَهْـمَ   إلى كَـمْ يـا أخـي الـوَهْمَ

تُتبـعُ الـذنْب بالـذنْبِ   وتُخطـي الخطـأ الجَـمَّ

أمـا بَـانَ لَـكَ العَيْـبُ   أمـا أنـذَرَكَ الشَّـيْبُ

وما في نصحِهِ ريبٌ

أمَـا أسْـمَعَكَ الصَّـوْتُ   أمـا نـادَى بـكَ المَـوْتُ

أمـا تَخْشَـى مـنَ الفَـوْتِ   فَتَحْتَـاط وتَهْـتَم

وتـنفضُّ إلى اللَّهْـوِ   كَـأنَّ المـوت مـا عـم

كـأني بِـكَ تـنحط   إلى اللَّحْـدِ وتـنغط

وقـد أسـلمك الـرهط   إلى أضْـيَقَ مِـنْ سَـم

هنـاك الجسـم ممـدودٌ   ليسـتأكله الـدود

إلى أن ينخـر العُـودُ   ويـمسي العظـم قـد رم

فـزوِّد نفسـك الخـير   ودعْ مـا يعقـب الضـير

وهيـئ مركـبَ السَّـيرِ   وخَـفْ مِـنْ لُجَّـة الـيمِّ

بـذا أوصيـك يـا صـاحُ   وقـد بُحتُـك مـن بـاح

فطـوبى لفتـىً راح   بـآداب محمـدِ يـأتم

---

(١) «الزهد» لهنَّاد (٥٧١)، و«تاريخ دمشق» (٤٤/ ٣١٦، ٣١٨)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٥٧٦)، و«الاستيعاب» لابن عبد البر (١/ ٣٥٨)، و«البداية والنهاية» (٢/ ٢٩٨)، و«التذكرة» (١٢، ١٣).

تزوَّد يا أخي :

تـزود مـن الـدنيا فإنـك لا تـدري إذا جـنَّ ليـلٌ هـل تعـيش إلى الفجـر
فكـم مـن عـروسٍ زيَّنوهـا لزَوْجها وقـد أُخـذت أرواحهُـم ليلـةَ القـدرِ
وكم من صغار يُرْتَجى طُولُ عمرهم وقـد أُدخلـت أرواحُهُـم ظلمـةَ القـبرِ
وكم من سليم ماتَ من غيرِ علةٍ وكم من سقيمٍ عاشَ حينًا من الدهْرِ
وكم من فتى يُمْسي ويُصبحُ لاهيًا وقـد نُسـجَتْ أكفَانُـه وهُـوَ لا يَـدْرِي
وكم من ساكنٍ عندَ الصباحِ بقصرهِ وعنـد المسـا كـان مـن سـاكن القـبرِ
فكـن مخلصًـا واعمـلْ الخـيرَ دائـمًا لعلـكَ تحظَـى بالمثوبـةِ والأجْـرِ
وداوم عَـلى تَقْـوىَ الإلـه فإنهـا أمانٌ من الأهوالِ في موقفِ الحشْرِ

ذَكِّر نَفْسَكَ دَائِمًا وقُلْ لَهَا !!

يـا نفـسُ قـد أزِفَ الرَّحِيـل وأظلـك الخطـبُ الجليـلُ
فتَـأهَّبي يـا نَفْـسُ لا يلعـب بِـكِ الأمَـلُ الطَّويـلُ
فلتنـزلنَّ بمنـزلٍ يَنْسَـى الخليـلَ بـه الخليـلُ
وليرْكَـبنَّ عَلَيْـكِ فِيـهِ مـنَ الثَّـرَى حمْـلٌ ثقيـلُ
قُـرِنَ الفَنَـاءُ بِنَـا جَمِيعًـا فـلا يَبْقَـى العَزِيـزُ ولا الـذَّلِيلُ

أسأل الله تعالى أن يرزقنا قبل الموت توبة ، وعند الموت شهادة ، وبعد الموت جنةً ونعيمًا ورضوانًا .

*****

عذاب القبر ونعيمه

ذكرنا ـ سابقا ـ بأن أقرب غائب ننتظره هو الموت ؛ فإذا مات العبد كما يقول النبيُّ ﷺ ، وحمل الرجال جنازته تنطق الجنازة فيسمعها كلُّ شيء على ظهر الأرض إلا الإنس والجن .

ففي «صحيح البخاري»من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال : «**إِذَا وُضِعَتِ الْجِنَازَةُ ، وَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ : قَدِّمُونِي ، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ : يَا وَيْلَهَا ، أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلاَّ الإِنْسَانَ ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعِقَ**»(١) .

والإيمان بالغيب صفةٌ من صفاتِ المتقين ، وهذه الأمور من الغيب تحتاج إلى إيمان صادقٍ لا تهب عليه ريح الشك أبدًا ، فاليقين هو الإيمان كله ؛ كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه(٢) .

فبمجرد أن يموت العبد ويكفن ، ويحمل الناسُ الجنازة ؛ فإن الجنازة تتكلَّم ؛كما قال الصادق المصدوق ﷺ حتى تصل إلى القبر !!

فتعالوا بنا لنقف مع القبر ، ومع ما يحدث بداخله من أهوال ، ومن نعيم ، وعذاب . أسأل الله عز وجل أن يجعل قبورنا روضة من رياض الجنة ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب حمل الرجال الجنازة دون النساء برقم (١٣١٤) ، وانظر أطرافه هناك .

(٢) علَّقه البخاريُّ في «صحيحه» أول كتاب الإيمان ـ بصيغة الجزم . قال الحافظ في «الفتح»(١ / ٤٨) : « هذا التعليق طرف من أثر وصله الطبراني بسندٍ صحيح ، وبقيته : « والصبر نصف الإيمان » ، وأخرجه أبو نعيم في « الحلية » ، والبيهقي في « الزهد » من حديثه مرفوعًا ،ولا يثبت رفعه » .

ما من شيء ولا منظر بشع إلا والقبر أفظع منه ، أنا أسألك بالله أن تتدبر بقلبك وكيانك هذه الكلمات ، إذا أردت أن تذيب قساوةً في قلبك ، وفي عينك ؛ فما عليك إلا أن تذهب وحدك إلى المقابر ، وأن تقف على القبر لتتعرف على حقيقة هذه الدار ، على حقيقة دار البرزخ لتقف بين اناسٍ إن انصرفت عنهم لن يغتابك أحدٌ منهم ، وإن وقفت بينهم متدبِّرًا متذكِّرًا سرعان ما تعود إلى حياتك الدنيا مرة أخرى بأسلوب جديد لمنهج الحياة ، هذا لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ؛ لذا كان عثمان بن عفان رضي الله عنه - وهو صاحبُ القلب الحيِّ - إذا وقف على القبر بكى حتى تبتل لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار ، فلا تبكي ! فإذا وقفت على القبر بكيت ؟ فقال عثمان رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الآخِرَةِ ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ ».

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلاَّ وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ »[1].

والحديث رواه الترمذيُّ ، وابن ماجه ، والحاكم ، وصحَّحه على شرط الشيخين ، وحسَّنَه الشيخ الألباني رحمه الله .

فالقبر أول منزل من منازل الآخرة ، إن نجوت منه نجَّاك الله عز وجل بعد ذلك من كلِّ مراحل القيامة التي سأفصلُها إن شاء الله .

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الزهد ، باب (٥) ، رقم (٢٣٠٨) ، وقال : «حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث هشام بن يوسف» ، وأخرجه ابن ماجة ، كتاب الزهد ، باب ذكر القبر والبلى برقم (٤٢٦٧) ، وأخرجه الحاكم ، كتاب الجنائز (١/ ٣٧١) ، وقال الذهبي : « رواه هشام بن يوسف عنه » ، قلت : ابن بحير ليس بالعمدة ،ومنهم من يقويه ، وهاني روى عنه جماعة ، ولا ذكر له في الكتب الستة ،وأحمد في « المسند » (٤٥٦) ، وحسنه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (١٦٨٤) ، و « المشكاة » (١٣٢) .

وإن كانت الأخرى ـ والعياذ بالله ـ فما بعده أشق .

نسأل الله تعالى أن يستر علينا وعليكم في الدنيا والآخرة ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

ونركِّز الحديث في القبر في العناصر المحددة التالية :

أولًا : الأدلة على عذاب القبر ونعيمه .

ثانيًا : أسباب عذاب القبر .

ثالثًا : ما السبيل للنجاة من عذاب القبر ؟

لكنني أودُّ أن أقدم بمقدمة في غاية الأهمية ؛ فلقد قرأتُ مقالًا عجيبًا بعنوان : « عذاب القبر مجرد خرافات وخزعبلات لا أساس لها من الصحة » ، والمقال لأستاذ دكتور !! وبكلِّ أسف في جامعة الأزهر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هذا الأستاذ يختلف عن أستاذ السموم الآخر الذي ألَّف كتابه الضخم في نفي عذاب القبر !! وإن غدًا لناظره لقريب .

نسأل الله أن يردَّ إخواننا إلى الحقِّ ردًّا جميلًا ؛ فإن أصحاب القلوب الرحيمة الكبيرة ، قلَّما تستجيشها دوافع القسوة والغلظة والانتقام ، والله نسأل أن نكون من أصحاب هذه القلوب الرحيمة الكبيرة ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

يقول الأستاذ الدكتور معنونًا : « عذاب القبر مجرد خرافات وخزعبلات لا أساس لها من الصحة » ! ثم يقول : « إن جميع الأحاديث الواردة في مسألة عذاب القبر مجرد خرافات ، وأنها تُنْسَب زورًا للنبيِّ ﷺ ، وأن النبيَّ ﷺ لم يتكلم بها مطلقًا » ؛ ثم قال : « لأن عذاب القبر

ونعيمه غيب ، والقرآن يؤكد أن النبيَّ ﷺ لا يعلم الغيب » !

انظر إلى هذا الجهل الفاضح !!

فمعنى هذا أن ننكر كلَّ ما أخبرنا به النبيُّ ﷺ من غيبٍ !! هل رأينا الله ؟ هل رأينا الملائكة ؟ هل رأينا الجنة ؟ هل رأينا النار ؟ لا ؟ لكنْ كلُّ هذا من الغيب الذي يجب على المؤمن أن يؤمن به ، وإلا لفسدت عقيدته ؛ بل إن أول صفة من صفات المتقين هي الإيمان بالغيب ؛ كما قال الربُّ سبحانه : ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾[البقرة:١ـ٣] .

فهل كلُّ غيبٍ أخبرنا به النبيُّ ﷺ ننكره ؛ لأنه غيب بنص القرآن ، والله وحده يعلم الغيب ؟! أقول: اختصَّ الله وحْدَه بعلمِ الغيب ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[الأنعام:٥٩] .

وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ في آية أخرى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾[الجن:٢٦، ٢٧] .

فالله يخبر بما شاء لمن شاء من أنبيائه ورسله .

وكلُّ ما أخبر عنه النبيُّ ﷺ بالحديث الصحيح إنما هو وحيٌ من الله ـ كما سأبين الآن ـ فضلالٌ مبينٌ أنْ ننكر حُجِّيَة السنة ، وأن نتجاهل السنة، وأن نقول : إننا نقف مع القرآن فحسب !

أنا أطالبه بأن يأتي من القرآن بآية واحدة فيها أنَّ الله قد فرض الظهر أربع ركعات مع أنه لن يخالف في أن الظهر أربع ركعات ؛ فمن الذي علَّمنا ذلك ؟ إنه صاحب السُّنَّة ﷺ.

وَفَرَضَ الله علينا الحج ؛ فمن الذي فصَّل لنا الأركان والمناسك ؟ هو المصطفى ﷺ.

والله تعالى أمرنا بالزكاة ؛ فمن الذي حدَّد لنا المقادير ، وبيَّن لنا الأصناف ؟ المصطفى ﷺ.

انتبهوا - أيها الأحبة - فإن جماعة تُسمَّى بالقرآنيين ظهرت في الأيام والسنوات الماضية ، وهم لا يمتُّون إلى القرآن بأدنى صلة ، ويزعمون أنه يجب أن نقف مع القرآن فقط ! وألاَّ نتجاوز القرآن إلى غيره من السنة ! وهذا ضلالٌ مبين ؛ فمن كذَّب بالسُّنَّةِ فقد كذَّب القرآن ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر:٧] ؛ فالله - جَلَّ وَعَلاَ - يقول عن نبيه ﷺ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣، ٤].

وحتى يزول أيُّ إشكالٍ من القلوب ؛ أنقل لك كلام علمائنا في هذا الباب .

يقول ابنُ أبي العز الحنفي رحمه الله[1]: « اعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠٠] ؛ فكلُّ من مات ، وهو مستحقٌّ للعذاب ناله نصيبه من

(١) « العقيدة الطحاوية » (٢٩٠) ، وانظر : « الروح » لابن القيم (٥٨) .

العذاب قُبر أم لم يقبر ، حتى لو أكلته السباع ، أو احترق حتى صار رمادًا ، أو نُسف في الهواء ، أو صُلب ، أو غرق في البحر ، فإنه يصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور » .

وهل تستبعد ذلك على الملك الغفور ؟! والمصيبة الكبرى ـ كما سأبين ـ أننا نحكِّم العقل في كلِّ نقلٍ صحيحٍ ، فإن قَبِلَ العقلُ قَبِلنا النقل ، وهذا ضلالٌ ؛ فمتى كان العقل ميزانًا دقيقًا يحكم على كلِّ ما صحَّ من كلام النبيِّ ﷺ ؟! فما يقبله عقلك قد لا يقبله عقلي قد لا يقبله عقل آخر لفلان ، ومن ثمَّ يصبح دين النبيِّ ﷺ ألعوبة بين العقول .. هذا يُقرُّ شيئًا ، وذاك ينكره ! لكن أهل العلم قد وضعوا قواعد للحكم على الصحيح وغير الصحيح ، نعم .. وضع أئمة الجرح والتعديل من علماء الدين في هذه الأمة القواعد التي يستطيعون من خلالها أن يميزوا الصحيح من غير الصحيح ؛ ليقفوا على صحة الكلام المنسوب إلى النبيِّ ﷺ من ضَعْفِهِ ، أمَّا أن نقدم العقل ليحكم على صحيح النقل ، فإن قبل العقل قَبِلْنا هذا النقل ؛ فهذا ضلال مبين !

يقول ابن أبي العز الحنفي ـ رحمه الله تعالى : « فكلُّ مَنْ كان عليه قسطٌ من العذاب ، ناله هذا القسط قُبِرَ أو لم يقبر » .

والدليل هو : ما رواه البخاريُّ ومسلمٌ[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب أحاديث الأنبياء ، باب (٥٤) ، برقم (٣٤٨١) وانظر طرفه هناك ، ومسلم ، كتاب التوبة ، باب في سعة رحمة الله تعالى ، برقم (٢٧٥٦) ، وروي من حديث أبي سعيد . كما في البخاري (٣٤٧٨) ، ومسلم (٢٧٥٧) ، ومن حديث حذيفة عند البخاري (٣٤٧٩) بألفاظ مختلفة .

أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ ، فَلَمَّا حَضَرَهُ المَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ : إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ، ثُمَّ اطْحَنُونِي ، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا ؛ فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ ، فَأَمَرَ اللهُ الأَرْضَ ، فَقَالَ : اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ ، فَفَعَلَتْ ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ ، فَقَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : يَا رَبِّ ، خَشْيَتُكَ، فَغَفَرَ لَهُ ».

﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم:٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٨ـ ٢٦٠] .

وروى الحاكم وابن أبي حاتم وغيرهما[1] من حديث ابن عباس

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ؛ كما في « تفسير ابن كثير » (لسورة يس/ ٧٨)، والحاكم (٢/ ٤٦٦) من=

ﷺ قال : إن العاص بن وائل أخذ عظمًا من البطحاء ، ففتَّهُ بيده ، ثم قال لرسول الله ﷺ : أيحيي الله هذا بعدما أرم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نَعَمْ ، يُمِيتُكَ الله ، ثُمَّ يُحْيِيكَ ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ » ونزلت الآيات من آخر سورة يس .

فقدرةُ الله لا تحدُّها حدود ، ولا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ؛ فلمَّا أردنا أن نحكِّم القوانين الدنيوية ، قوانين الحس ، وقوانين المادة في عالم الغيب ، في عالمٍ ليس كعالم المادة ، لما أردنا أن نحكم هذه القوانين الحسِّية والمادية عجزنا وحارت عقولنا .

أنا لا أتصور الآن أن مسلمًا ينكر أن النمل يتكلَّم ، وهل ينكر ذلك مسلم ؟ لا ؛ فما الدليل ؟

قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾

[النمل:١٨]

فمعلوم أن النمل يتكلَّم ؛ لكنني أسأل وأقول : هل رأينا عاقلًا جاء يومًا من الأيامِ بمكبر صوتٍ ، ورأى مجموعة من النمل تحمل بعض جزيئات السكر ، وتسير بها هنا وهناك ، وقرَّبه إلى هذه المجموعة من النمل لعلَّه يستمع إلى كلامها وقولها ، هل يفعل ذلك عاقل ؟ لا ! لماذا ؟

= حديث ابن عباس .

قال ابن كثير : « ورواه ابن جرير عن سعيد بن جبير فذكره ، ولم يذكر ابن عباس رضي الله عنه » .

قلت : وهو في « ابن جرير » (١٠/ ٤٦٣) ، وصحَّحه الشيخ مقبل الوادعي في « الصحيح المسند من أسباب النزول » (١٩٧) .

مع أنه يعلم يقينًا أن النمل يتكلَّم ؛ لكنه قطع الطمع في أن يدرك كيفية تحاور النمل ؛ لأنه يعلم أن الله لم يفكَّ رموزَ لغةِ النمل إلا لنبيِّه سليمان ﷺ ، وبالتالي فهو يقطع الطمع ، وهذا من مخلوقات الله ، فهل لا تقطع الطمع في أن تدرك عالم الغيب ، وأن تدرك ذات الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ؟ !

فقطع الطمع عن إدراك كيفية عالم الغيب ، أصلٌ من أصول طمأنينة الإنسان بالإيمان ، لا يتذوق الإنسان طعم الإيمان وحلاوته إلا إذا استقر في قلبه الإيمان بكلِّ غيب أخبر عنه ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وأخبر عنه الصادق رسول الله ﷺ .

يقول ابنُ القيم رحمه الله (١) : « لقد خلق الله الدور ثلاثًا : هي دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار (الجنة والنار) وخلق دار الدنيا ، وجعل الأحكام فيها تسري على الأبدان ، والأرواح تَبَعٌ لها » .

فمثلًا أنت تصوم وتصلي وتحج وتزكي ، فما هو الأصل في ذلك ؟

الأصل في ذلك الجوارح ، والأرواح تبعٌ لها ، فهل حال الروح مع الطاعة يشاكل حال الروح مع المعصية ؟ مستحيل ..!!

فالأرواح تبع لطاعة البدن ، وتبع لمعصية البدن ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:١٢٤] فالشقاء شقاء الروح ، والضنك في الصدر .. في المال .. في البيت .. في الزوجة .. في الأولاد .. سيشعر هذا البدن بالضنك في كلِّ شيء؛ فالروح تشقى بشقاء البدن ، إن أسرف البدنُ في المعاصي لا تشعر الروح

---

(١) «الروح» (٦٣)،وانظر : «شرح العقيدة الطحاوية» (٢١٩، ٢٢٠) ط دار أولي النهى.

بصفاءٍ ولا بسعادةٍ ، وإن أعظم دليلٍ عمليٍّ على ذلك ما نراه الآن في بلاد الغرب من انتشارٍ غريبٍ لعيادات الطب النفسي ، مع أنهم قد أعطَوْا للبدن كلَّ ما يشتهيه ، ولن أبتعد كثيرًا ؛ فأنا إن كنت في طاعة أشعر بشيء من المشاعر ، وإذا كنت على معصية ـ أسأل الله أن يجنبني وإياك المعاصي ـ أشعر بشيء مخالف تمامًا لما كنت أشعر به وأنا في طاعة الله ، وهذا مما لا يحتاج إلى دليلٍ أو برهان ، فما من أحد على وجه الأرض إلا وقد تذوَّق هذا الطعم مرارًا وتكرارًا .

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى : « وجعل الله الأحكام في دار البرزخ ، تسري على الأرواح ، والأبدان تبعٌ لها » .

وسأضرب لك دليلًا عمليًّا على ذلك : سأل زنديق من الزنادقة أبا حنيفة ؛ فقال له : يا أبا حنيفة ، ما هي الروح ؟ فقال أبو حنيفة : هلاَّ جلست إلى جوار رجل يحتضر ؟ قال : نعم . قال : وما الذي رأيت ؟ قال : رأيت الرجل قد مات ، وسكنت جوارحه ، ولم يعد يقوى على الحركة ، قال : ولِمَ ؟ قال : لأن روحه قد فارقت بدنه ؛ فقال أبو حنيفة ـ بذكاءٍ : وكنتَ جالسًا أثناء مفارقة الروح لبدنه ؟ قال : نعم ، قال : فَصِفْ لي الروح إذًا ؟ أهي سائلة كالماء ؟ أم صلبة كالحديد ؟ أم غازية كالدخان ؟! وهو يزعم أنه جلس عندما فارقت الروح البدن ، هنا أقول : إنه لا يعلم كُنه الروح ، ولا حقيقتها إلا خالقها ، وهذا هو سرُّ الإعجاز الذي سيظلُّ يتحدَّى به ربُّنا ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ البشرية كلَّها في عالم الذرة والتكنولوجيا ، وهذه الحضارة المدنية المرعبة ؛ فإنهم إلى الآن

عاجزون عن الوصول إلى كنه الروح ، وإلى حقيقة الروح ؛ بل لقد حاولوا مرارًا وتكرارًا أن يُدْخلوا أجهزة حسَّاسة ودقيقةً جدًّا إلى بعض القبور لينقلوا صورةً حيةً لما يحدثُ داخل القبر ! وظن هؤلاء أن عالم البرزخ الذي لا يعلم حقيقته إلا الله ، كعالمِ المادة الذي يحكِّمون فيه قوانين الحس ، وقوانين المادة ! فما كان من هؤلاء إلا أن يرجعوا وهم يجرُّون أذيال الخيبة ، ولم يقفوا البتة على أي شيءٍ ؛ لأن حياة البرزخ لا يعلمها ملكٌ مقرَّبٌ ، ولا نبيٌّ مرسلٌ ، وستظلُّ البشرية عاجزةً أمام الروح ، قال تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] ، وتدبر معي قول الله تعالى :

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل:٦٦]

وقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الروم:٧] .

لكنهم في جانب الآخرة لا يعلمون شيئًا ؛ إذ لا يستطيع إنسانٌ على وجه الأرض أن يعلم شيئًا من علم الآخرة ، ألا وهو : العلم الغيبيُّ ، إلا بالدليل الصحيح الصريح من القرآن ، والصحيح من السنة ؛ لأن هذا لا يتأتى إلا من خلال الوحي ، ومن قول الله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم:٣-٥] .

إذًا الروح لا يعلم أحد كُنْهَهَا ، ولا طبيعتها ، ومن ثَمَّ سيزول الإشكال إذا علمتَ أن النعيم أو العذاب في عالم البرزخ يسري على الأرواح ، والأبدان تبع ، هل تستكثر ذلك على الله - جَلَّ وَعَلاَ ؟!

يقول ابنُ القيم [(١)]: « وسرُّ المسألة أن سِعَةَ القبر وضيقهُ ، ونُوره ونارهُ ، ليس من جنس المعهود للناس في عالم الدنيا ؛ لأن ما كان من جنس الآخرة ، فقد جعله الله غيبًا ، وأسدل عليه الغطاء ؛ ليكون الإقرار به ، والإيمان به سببا لسعادتهم ، فإذا كُشف الغطاء صار عيانًا ، فانتقلوا من مرحلة علم اليقين إلى مرحلة عين اليقين » .

ولو توقفتَ مع هذه العبارات الدقيقة لزال كلُّ إشكال ؛ فكلُّ ما كان من عالم الآخرة ، فهو غيبٌ أخفاه الله تعالى ليكون الإيمان به سببًا من أسباب السعادة ، وإلا فما الفارق بين المؤمن والكافر .. بين من يصدق ومن يكذب : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[البقرة:١-٣] .

فالتقيُّ هو الذي يؤمن بالغيب ؛ ثم ضرب الإمام ابن القيم مثلًا واقعيًّا عمليًّا رائعًا ؛ فقال [(٢)]: « إنك ترى رجلين نائمين في فراش واحد ، وهذا روحه في النعيم ، ويستيقظ وهو عليه أثر النعيم ، ويقصُّ عليك ما كان فيه من النعيم ، والآخر في نفس الفراش ، روحه في العذاب ، يصرخ ، ويتألم ، ويستيقظ ، وعليه أثر العذاب ، ويقصُّ عليك ما كان فيه من ألم ، وفزع ، ومع هذا فلا يعرف أحدُهما عن الآخر شيئًا مع أنهما في فراشٍ واحدٍ . إذا كان هذا في الدنيا ؛ فإن عالم البرزخ أعجب ! » .

وبهذا يتبين لنا أنه لا ينبغي أن نُحَكِّمَ قانونَ المادةِ في عالمِ الغيبِ ،

(١) «الروح» (٧٢، ٧٣) بتصرف في المعنى .
(٢) «الروح » (٦٣، ٦٤) بتصرف .

وينبغي أن نعرف قدر العقل ومكانته ، وأنا لا أقلل من شأن العقل أبدًا ؛ بل إنَّ نورَ الوحي لا يطمس نور العقل ؛ بل يباركه ، ويزكيه ، ويقويه ؛ شريطة ألا يتعدَّى العقلُ قدرَهُ ، وألا يتجاوز حَدَّه ، وأن يسجُدَ مع الكون لله ربِّ العالمين .

نسأل الله ﷻ أن يرزقنا الإيمان بالغيبِ كما يرضيه ، وأن يجدِّدَ الإيمان في قلوبنا ، وأن يثبِّتنا على الحقِّ حتى نلقاه .

فلا يمكن للعقل أن يصل إلى هذا الجانب من جوانبِ الغيبِ إلا بوحي يوحيه الله إلى أنبيائه ورسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

هذه مقدمةٌ مهمةٌ بين يدي الحديث عن عذاب القبر ونعيمه .

فما هي الأدلة على عذاب القبر ونعيمه ؟

وها أنا ذا أسوق لهؤلاء المنكرين لعذاب القبر بعض الأدلة الصريحة الصحيحة الواضحة ؛ لقد ترجم إمام الدُّنيا البخاريُّ رحمه الله « صحيحه » في بابٍ عَنْوَنَ له في كتاب الجنائز [1] بقوله : (باب ما جاء في عذاب القبر) [2] وساق عدَّة آيات ، ودونك هي :

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام:٩٣] .

ويقول تعالى في حق آل فرعون : ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ

(١) (برقم :٢٣ من صحيح البخاري) .

(٢) (برقم :٨٦) .

۝ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾[غافر:٤٥،٤٦] .

هنا فرَّق الله تعالى بين وقتين من أوقات العذاب :

الوقت الأول : هو أن فرعون وآل فرعون يعرضون على النار غُدُوًّا وعشيًّا (صباحًا ومساءً) . ثم قال : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾[غافر: ٤٦] ، وقال تعالى في قوم نوح : ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾ [نوح:٢٥]

وهذه الآيات باتفاق علماء أئمة أهل السنة والجماعة أصلٌ من أصول أدلة عذاب القبر ، والأدلة النبوية تلقم المعاندين والمنكرين الأحجار ، ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله ورسوله أن ينكر سُنَّة النبيِّ ﷺ؛ لأن الله أنزل على نبيه ﷺ وحيين : **الأول** : هو القرآن ، والثاني : هو السنة .

اقرأ معي وتدبر قوله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ ﴾[الحشر:٧] ، وتدبر معي قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[النساء:١١٣] .

والحكمة باتفاق المفسِّرين هي السنة ، وقال الله ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الجمعة:٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ

مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٣٦] .

آيات كثيرة في هذا المقام .

يقول ابنُ القيم ـ رحمه الله تعالى [١] : « والسنَّة مع القرآن على ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : أن تكون السنَّة موافقة للقرآن من كل وجه ، فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها .

ويقول الله ﷻ : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة:٤٣] ، فتأتي السنَّة لتعضد القرآن من كلِّ وجه ، وهذه يقال لها عند علماء الأصول : هذا من باب تضافر الأدلة .

الوجه الثاني : أن تكون السنة بيانًا لما أريد بالقرآن وتفسيرًا له ؛ كمواقيت الصلاة ، وأركان الصلاة ، وسنن الصلاة ، وأذكار الصلاة .. إلخ .

الوجه الثالث : أن تكون السنة موجبة لحكمٍ سَكَتَ القرآن عن إيجابه ، أو محرمةً لما سكت عن تحريمه » .

فالسنة لا تخرج عن هذه الأوجه الثلاثة ، يقول النبيُّ ﷺ ؛ كما في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد والحاكم وغيرهما [٢] ـ و صحَّحه الألباني ـ من حديث الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكْرِبَ ؓ أَنَّ

---

(١) « إعلام الموقعين » (٢/ ٢٧٠، ٢٧١) ط الإيمان ، بتصرف .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب السنة ، باب لزوم السنة برقم (٤٦٠٤) ، والترمذي ،كتاب العلم ، باب ما نهي أن يقال عند حديث النبيِّ ﷺ برقم (٢٦٦٤) ، وقال : « حسن غريب من هذا الوجه » ، وابن ماجه في « المقدمة » ، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه برقم (١٢) ، والدارمي (٥٨٦) ، وابن حبان (١٢) ، والبيهقي في « السنن » (٧/ ٧٦) (٩/ ٣٣١) ، والحاكم=

النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : «أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ (أي : القرآن) وَمِثْلَهُ مَعَهُ (يعني: السُّنَّة) أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ ، يَقُولُ : عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ ؛ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ» .

وفي رواية الترمذي وابن ماجه قال : « ... وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ الله ﷺ كَمَا حَرَّمَ الله » .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾[الحجرات:١] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « أي : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة » ، أخرجه الطبري في « تفسيره »[1] من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ولم يسمع منه .

وقال القرطبيُّ رحمه الله[2] : « أي : لا تقدِّموا قولًا ولا فعلًا بين يدي الله وقول رسوله وفعله ، فيما سبيله أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا ؛ لأن مَنْ قَدَّمَ قوله أو فعله على قول وفعل رسول الله ﷺ، فإنما قَدَّمَه على الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ؛ لأن رسول الله ﷺ إنما يأمر عن أمر منه تعالى .

وقال الشنقيطيُّ رحمه الله في « أضواء البيان »[3]:

« ويدخل في الآية دخولًا أوَّليًّا تشريع ما لم يأذن به الله وتحريم ما لم

= (١/ ١٠٩) ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، وأحمد (٤/ ١٣٠) ، وصححه الشيخ الألباني في « صحيح السنن » وروي من طريق أبي رافع رضي الله عنه.

(١) « تفسير الطبري » لسورة الحجرات (١١/ ٣٧٧) .

(٢) « تفسير القرطبي » (سورة الحجرات : آية : ١) .

(٣) « أضواء البيان » (٧/ ٦١٤) .

يحرِّمه ؛ فلا حرام إلا ما حرَّمه الله ، ولا حلال إلى ما أحَلَّه الله ، ولا دين إلا ما شرعه الله » . أي: على لسان رسوله ﷺ .

* **وبعد هذه المقدمة فها هي أدلةُ السنة النبوية :**

ففي « الصَّحِيحَيْنِ » من حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أُتِيَ ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾**[إبراهيم:٢٧] »[١].

وفي لفظٍ قالَ : « **نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ** ».

اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة برحمتك يا أرحم الراحمين .

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ من حديث ابن عباس ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ مَرَّ عَلَى قَبْرَيْنِ قَالَ : « **إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ، أَمَّا أَحَدُهُمَا : فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ ، وَأَمَّا الآخَرُ : فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ** »[٢].

فمن أسباب عذاب القبر : النميمة .

والنميمة هي : نقلُ الكلامِ بين الناسِ على سبيل الوقيعة ، وقد يدخل الشيطانُ عليك فيزين لك أنك لا تنقل الكلام إلا من باب النصح ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر برقم (١٣٦٩) ، ومسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه ، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه برقم (٢٨٧١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الوضوء ، باب ما جاء في غسل البول برقم (٢١٨) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الطهارة ، باب الدليل على نجاسة البول ، ووجوب الاستبراء منه برقم (٢٩٢) .

وشتان شتان بين النصيحة والنميمة !! فرسول الله ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ : « إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ » يعني : سبب عذابهما أمر هين بسيط في أعين الناس ، سهل اجتنابه والبعد عنه ، ولكنهما أصرَّا عليه ووقعا فيه ، وهو عند الله كبير ، الأول : كان يسعى بالنميمة ، والثاني : كان لا يستتر من بوْله .

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه أن النَّبِيَّ ﷺ كان يدعو الله فيقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ » [1] .

هل هناك أوضح من هذا الحديث ؟

وفي الحديث الذي رواه مسلمٌ من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ (أي : بستان) عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ ، وَنَحْنُ مَعَهُ إِذْ حَادَتْ بِهِ فَكَادَتْ تُلْقِيهِ ، وَإِذَا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ أَوْ خَمْسَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ ، فَقَالَ : «مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الأَقْبُرِ» فَقَالَ رَجُلٌ : أَنَا ، قَالَ : «مَتَى مَاتُوا؟» ، قَالَ : مَاتُوا فِي الإِشْرَاكِ ، فَقَالَ : « إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا ، فَلَوْلاَ أَنْ لاَ تَدَافَنُوا ، لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ » ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ ، فَقَالَ : « تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ » قَالُوا : نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ ، فَقَالَ : « تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ .. » الحديث [2] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب التعوذ من عذاب القبر برقم (١٣٧٧) ، ومسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٥٨٨) ، ورواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها (٨٣٢) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم (٥٨٩) ، وروي عن أنس رضي الله عنه عند البخاري (٢٨٢٣ ، ٦٣٦٧) ، ومسلم (٢٧٠٦) وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما عند مسلم (٥٩٠) .

(٢) أخرجه مسلم ،كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه برقم (٢٨٦٧) .

فرسولُ الله ﷺ يسمع عذاب القبر ؛ وهذه من خصوصياته ﷺ .

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ من حديث أبي أيوب الأنصاري ﷺ قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ بَعْدَ مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ فَسَمِعَ صَوْتًا ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « يَهُودُ تُعَذَّبُ فِي قُبُورِهَا »[1].

وفي الحديثِ الذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ[2] من حديث عائشة ﷺ قَالَتْ : دَخَلَتْ عَلَيَّ عَجُوزَانِ مِنْ عُجُزِ يَهُودِ المَدِينَةِ فَقَالَتَا : إِنَّ أَهْلَ الْقُبُورِ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ ، قَالَتْ : فَكَذَّبْتُهُمَا ، وَلَمْ أُنْعِمْ أَنْ أُصَدِّقَهُمَا ، فَخَرَجَتَا ، وَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّ عَجُوزَيْنِ مِنْ عُجُزِ يَهُودِ المَدِينَةِ دَخَلَتَا عَلَيَّ فَزَعَمَتَا أَنَّ أَهْلَ القُبُورِ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ ، فَقَالَ « صَدَقَتَا ، إِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَذَابًا تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ كُلُّهَا » قَالَتْ : فَمَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ فِي صَلاَةٍ إِلاَّ تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ[3] من حديث عائشة ﷺ أَنَّ يَهُودِيَّةً دَخَلَتْ عَلَيْهَا ، فَذَكَرَتْ عَذَابَ الْقَبْرِ، فَقَالَتْ لَهَا : (أي اليهودية) أَعَاذَكِ الله مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، فَسَأَلَتْ عَائِشَةُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب التعوذ من عذاب القبر برقم (١٣٧٥) ، ومسلم ، كتاب الجنة ونعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه ، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، برقم (٢٨٦٩) واللفظ له .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الدعوات ، باب التعوذ من عذاب القبر برقم (٦٣٦٦) وانظر طرفه هناك ، ومسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر ، وعذاب جهنم وفتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيح الدجال ، ومن المأثم والمغرم بين التشهد والتسليم برقم (٥٨٦) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب التعوذ من عذاب القبر برقم (١٣٧٢) ، ومسلم ، كتاب المساجد ، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر برقم (٥٨٤) .

عَذَابِ الْقَبْرِ، فَقَالَ: « نَعَمْ، عَذَابُ الْقَبْرِ ».

وفي رواية غندر: « عَذَابُ الْقَبْرِ حَقٌّ ».

تقول عائشة: فما رأيتُ رسولَ الله ﷺ بَعْدُ صَلَّى صَلاَةً إِلاَّ تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.

بل لقد كان النبيُّ ﷺ يُعَلِّمُ أصحابه هذا الدعاء، كما يعلِّمهم السورة من القرآن؛ كما في « صحيح مسلم »[1] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ هَذَا الدُّعَاءَ كَمَا يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ يَقُولُ: « قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ ».

هذا دعاء علَّمه النَّبِيُّ ﷺ للصحابة وللأمة من بَعْدِهِمْ.

وأختم هذه الأدلة بالحديثِ العمدة في هذا الباب، وهو حديثُ البراء بن عازب رضي الله عنه، وهو حديثٌ صحيحٌ؛ رواه الإمام أحمد في « مسنده »، وأبو داود والنسائي في «السنن» والحاكم في «المستدرك» وصحَّحه وأقرَّه الذهبيُّ، وصَحَّحَ الحديث أيضًا الشيخ الألبانيُّ[2] عن البراء رضي الله عنه قال:

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٥٩٠).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب السنن، باب المسألة في القبر وعذاب القبر برقم (٤٧٥٣)، والنسائي في كتاب الجنائز، باب عذاب القبر برقم (٢٠٥٨) مختصرًا، وابن ماجة، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والبلى برقم (٤٢٦٩) مختصرًا، والترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر (١٠٧١)، والحاكم (١/ ٣٧ـ ٤٠)، وصحَّحه على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، وأحمد (٤/ ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٥، ٢٩٦) والرواية من كتاب « أحكام الجنائز » للشيخ الألباني (١٩٨، ٢٠٢) ط مكتبة المعارف، وانظر: « صحيح الجامع » (١٦٧٦).

خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى القَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَد (لم يوضع الميت في القبر بَعْدُ) فَجَلَسَ رَسُولُ الله ﷺ (مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ) وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ وَكَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرُ (يعني: لو نزلت الطير على رؤوسهم ما نفرت ؛ لأنها لن تشك في أن هذه الرؤوس جمادات من السكون والسكينة) وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الأَرْضِ ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ ، وَيَنْظُرُ إِلَى الأَرْضِ ، وَجَعَلَ يَرْفَعُ بَصَرَهُ وَيَخْفِضُهُ ثَلاَثًا ، فَقَالَ : « اسْتَعِيذُوا بالله مِنْ عَذَابِ القَبْرِ » مَرَّتَيْنِ ، أَوْ ثَلاَثًا ، ثُمَّ قَالَ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ ـ ثَلاَثًا » ، ثُمَّ قَالَ : « إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا ، وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلاَئِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ ، بِيضُ الْوُجُوهِ ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ ، وَحَنُوطٌ[1] مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عليه السلام[2] حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ (وفي رواية : المطمَئِنَّة) اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ الله وَرِضْوَانٍ ، قَالَ : فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ ، فَيَأْخُذُهَا (وفي رواية : حَتَّى إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ ، وفتحتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلا وَهُمْ يَدْعُونَ الله أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحه مِنْ قِبَلِهِم) ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى :﴿ تَوَفَّتْهُ

---

(١) بفتح المُهْمَلة : ما يُخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة.

(٢) قلت : هذا هو اسمهُ في الكتاب والسُّنة (ملك الموت) ، وأما تسميتُه (بعزرائيل) فمما لا أصل له ؛ خلافًا لما هو المشهورُ عند الناس ، ولعلَّه من الإسرائيليات .

رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، قَالَ: فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ - يَعْنِي بِهَا - عَلَى مَلأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ - بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا، إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[المطففين:١٩-٢١]، فَيُكْتَبُ كِتَابُهُ فِي عِلِّيِّين، ثُمَّ يُقَالُ: أَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ؛ فَإِنِّي وَعَدْتُهُم أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، قَالَ: فَيُرَدُّ إِلَى الأَرْضِ، وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، قَالَ: فَإِنَّه يسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ إِذَا وَلَّوا عَنْهُ مُدْبِرِينَ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الانْتِهارِ فَيَنْتَهِرَانِهِ، وَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانَ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ الله، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ الله ﷺ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ الله، فَآمَنْتُ بِهِ، وَصَدَّقْتُ، فَيَنْتَهِرُهُ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ الله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾[إبراهيم:٢٧]، فَيَقُولُ: رَبِّيَ الله، وَدِينِيَ الإِسْلَامُ، وَنَبِيِّ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى

الجَنَّةِ ، قَالَ : فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا ، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ ، قَالَ : وَيَأْتِيهِ .

وفي رواية : «يُمَثَّلُ لَهُ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ؛ فَيَقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ ، أَبْشِرْ بِرِضْوَانٍ مِنَ الله ، وَجَنَّاتٍ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ لَهُ : وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ الله بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ ، فوالله ما عَلِمْتُكَ إِلاَّ كُنْتَ سَرِيعًا فِي طَاعَةِ الله ، بَطِيئًا فِي مَعْصِيَةِ الله ، فَجَزَاكَ الله خَيْرًا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَبَابٌ مِنَ النَّارِ ، فَيُقَالُ : هَذَا كَانَ مَنْزِلُكَ لَوْ عَصَيْتَ الله ، أَبْدَلَكَ الله بِهِ هَذَا ، فَإِذَا رَأَى مَا فِي الْجَنَّةِ قَالَ : رَبِّ عَجِّلْ قِيَامَ السَّاعَةِ ، كَيْمَا أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي ، فَيُقَالُ لَهُ : اسْكُنْ ، قَالَ : وَإِنَّ العَبْدَ الْكَافِرَ (وفي رواية : الفَاجِر) إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا ، وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ ، نَزَلَتْ عَلَيْهِ مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ ، سُودُ الوُجُوه ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ [(١)] مِنَ النَّارِ ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَيَقُولُ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ الله وَغَضَبٍ ، قَالَ : فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ (الكَثِيرُ الشُّعَبِ) مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ ، فَتُقَطَّعُ مَعَهَا الْعُرُوقُ والعَصَبُ ، فَيَلْعَنُهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ ، وَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلاَّ وَهُمْ يَدْعُونَ الله ألاَ تَعْرُجَ رُوحُهُ مِنْ قِبَلِهِمْ ، فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا ، لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ

---

(١) جمع المِسْح ، بكسر الميم ،وهو ما يُلْبَسُ من نسيجِ الشعرِ على البدن تَقَشُّفًا وقهرًا للبدن ؟

حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ المُسُوحِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا ، فَلاَ يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلأٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ إِلاَّ قَالُوا : مَا هَذَا الرُّوحُ الخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ : فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ ـ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ ، فَلاَ يُفْتَحُ لَهُ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾[الأعراف:٤٠] (١)، فَيَقُولُ الله ﷻ اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ ، فِي الأَرْضِ السُّفْلَى ، ثُمَّ يُقَالَ : أَعِيدُوا عَبْدِيَ إِلَى الأَرْضِ فَإِنِّي وَعَدْتُهُمْ أنِي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ ، وَمِنْهَا أُخرِجُهُمْ تَارَةً أُخرَى ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ مِنَ السَّمَاءِ طَرْحًا حَتَّى تَقَعَ فِي جَسَدِهِ ـ ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[الحج:٣١] ـ فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ ، قَالَ : فَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الانتهَارِ ، فَيَنْتَهِرَانِه ، وَيُجْلِسَانِهِ ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ (٢) لاَ أَدْرِي ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي ، فَيَقُولاَنِ : فَمَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فلا يَهْتَدِي لاسْمِهِ ، فَيُقَالَ : مُحَمَّدٌ ! فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ ذَلِكَ ! قَالَ فَيُقَالَ : لا دَرَيْتَ ، وَلاَ تَلَوْتَ ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : أَنْ كَذَبَ ، فَافرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا ،

---

(١) أي : ثقب الإبرة ،والجَمَل هو الحيوان المعروفُ ، وهو ما أتى عليه تسعُ سنوات .

(٢) هي : كلمةٌ تقالُ في الضحك ، وفي الإيعادِ ، وقد تُقال للتوجُّع ، وهو أليَقُ بمعنى الحديث ، والله أعلمُ . كذا في (الترغيب) .

وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاَعُهُ وَيَأْتِيهِ (وفي رواية: وَيُمَثَّلُ لَهُ) رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ ، قَبِيحُ الثِّيَابِ ، مُنْتِنُ الرِّيحِ . فَيَقُولُ أَبْشِرْ بالذي يَسوؤُك ، هَذَا يَوْمُكَ الذي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ : وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ الله بِالشَّرِّ مَنْ أَنْتَ ؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بالشَّرِّ ! فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ ، فَوالله مَا عَلِمْتُ إلاَّ كُنْتَ بَطِيئًا عَنْ طَاعَةِ الله ، سَرِيعًا إِلَى مَعْصِيَةِ الله ، فَجَزَاكَ الله شَرًّا ، ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكَمُ فِي يَدِهِ مِرْزَبَّةٌ ! لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ كَانَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً حَتَّى يَصِيرَ بِهَا تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ الله كَمَا كَانَ ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلاَّ الثَّقَلَيْنِ ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ النَّارِ ، وَيُمَهَّدُ مِنْ فُرُشِ النَّارِ ، فَيَقُولُ : رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعَةَ » .

ولا ريب أن هذا الحديث الشريف يبين بجلاء أحوال القبور من نعيم وعذاب ، نسأل الله تعالى أن يسترنا في الدنيا والآخرة ؛ إنه ولي ذلك ومولاه .

أسباب عذاب القبر :

أما الأسباب فهي أسباب مجملة ، وأسباب مفصَّلة .

أما الأسباب المجملة : فهي الشرك وارتكاب المعاصي التي نهى عنها الله ورسوله ﷺ.

وأما الأسباب المفصَّلة ــ كما ذكرت : فالنميمة من أسباب عذاب القبر ، وعدم الاستتار والتنزه من البول . وقد بينتُ ذلك آنفًا.

ومن أسباب عذاب القبر أيضًا : الغلول ؛ وهو ما يؤخذ من الغنيمة قبل أن تقسم ؛ كما في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة ﷺأن النبيَّ

ﷺ لما قال الناس لرجل : هنيئًا له الشهادة ؛ فقال النبيُّ ﷺ : « كَلاَّ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، إِنَّ الشَّمْلَةَ لَتَلْتَهِبُ عَلَيْهِ نَارًا أَخَذَهَا مِنَ الْغَنَائِمِ يَوْمَ خَيْبَرَ لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ ».

وفي رواية البخاريِّ : « لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا »[1].

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران:١٦١] .

كذلك من أسباب عذاب القبر : الكذب والزنا وأكل الربا ، وهذا ثابت في حديثٍ طويلٍ من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه ، رواه البخاري[2] وفيه :« كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلاَةً أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ ؛ فَقَالَ : « مَنْ رَأَى مِنْكُمُ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟» قَالَ : فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ قَصَّهَا ، فَيَقُولُ: «مَا شَاءَ اللهُ» ، فَسَأَلَنَا يَوْمًا ؛ فَقَالَ : « هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا ؟ » قُلْنَا : لاَ ، قَالَ : « لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي ، فَأَخَذَا بِيَدِي فَأَخْرَجَانِي إِلَى الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ وَرَجُلٌ قَائِمٌ بِيَدِهِ كَلُّوبٌ مِنْ حَدِيدٍ يُدْخِلُ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الآخَرِ مِثْلَ ذَلِكَ وَيَلْتَئِمُ شِدْقُهُ هَذَا ، فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ ، قُلْتُ : مَا هَذَا ؟ قَالاَ : انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ أَوْ صَخْرَةٍ ، فَيَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الْحَجَرُ ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر (٤٢٣٤) وانظر طرفه هناك ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب غلظ تحريم الغلول ، وأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون برقم (١١٥) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب (٩٣) (١٣٨٦) ، وفي كتاب التعبير ، باب الرؤيا بعد صلاة الصبح (٧٠٤٧) .

فَانطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ فَلاَ يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ ، قُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ قَالاَ : انْطَلِقْ ، فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ أَعْلاَهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا ، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا ، فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا ، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ قَالاَ : انْطَلِقْ ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهَرِ ، رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ.. إلى أن قال :

« ... طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ ، فَأَخْبِرَانِي عَمَّا رَأَيْتُ ، قَالاَ : نَعَمْ ، أَمَّا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بِالْكَذْبَةِ ، فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الآفَاقَ ، فَيُصْنَعُ بِهِ مَا رَأَيْتَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ الْقُرْآنَ ؛ فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي الثَّقْبِ فَهُمُ الزُّنَاةُ ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهَرِ آكِلُو الرِّبَا... » الحديث .

ما السبيل للنجاة من عذاب القبر ؟

السبيل ـ أيها الأحبة ـ في أن نستقيم في هذه الدنيا على طاعة الله ، وعلى منهج رسول الله ﷺ .

يقول ابنُ القيم ـ رحمه الله تعالى [1]: « تجنب الأسباب التي تقتضي عذاب القبر ، ومن أنفعها أن يجلس الرجل عندما يريد النوم لله ساعة

(١) « الروح » (٧٩) بتصرف .

يحاسب نفسه فيها ما ربحه وخسره ، ثم يجدد توبة نصوحًا بينه وبين ربه ، فينام على تلك التوبة النصوح ، وهو عازم ألا يرجع للذنب ، وأن يكثر من العمل الصالح ؛ فإنْ جاء ملك الموت في أيِّ ليلة على هذه الحالة مات على طاعة الله » .

وكذلك: المداومة على العمل الصالح من أسباب النجاة من عذاب القبر ، وعلى رأسها : التوحيد ، والصلاة ، والصيام ، والحج ، وبَرُّ الوالدين ، وصلة الأرحام ، ومجالس العلم ، وذكر الله ، وقيام الليل ، والاستغفار ؛ فإن من استقام على هذا المنهج الصالح اقتضى عدل الله أن يختم له بالطاعة .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى[1] : « لقد أجرى الله الكريمُ عادته بكرمه ، أنَّ مَنْ عاش على شيءٍ مات عليه ، ومن مات على شيء بُعث عليه » .

وكذلك الشهيد ؛ ففي الحديث الذي رواه الترمذي ، وابن ماجه ، وقال الترمذيُّ : حديثُ حسنٌ صحيحٌ ، وصحَّح إسناده الشيخ الألباني[2] من حديث الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكْرِبَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « لِلشَّهِيدِ عِنْدَ الله سِتُّ خِصَالٍ : يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ،

(١) « تفسير ابن كثير » (سورة آل عمران) آية رقم (١٠٢) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب فضائل الجهاد ، باب في ثواب الشهيد (١٦٦٣) وقال : « حسن صحيح غريب » ، وابن ماجة ، كتاب الجهاد ، باب فضل الشهادة في سبيل الله (٢٧٩٩) ، وأحمد (١٦٧٣٠) ، والبيهقي في « السنن » (٩/ ١٦٤) ، وفي « الشعب » (١٠٨٢٣ ، ١٠٨٢٤) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٥١٨٢) ، و« أحكام الجنائز » (٣٥، ٣٦) .

وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ ؛ الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ ».

فالجهاد والشهادة في سبيل الله من أسباب النجاة من عذاب القبر .

أسأل الله أن يرفع علم الجهاد ، وأن يقمع أهل الزيغ والفساد .

وأختم بهذا الحديث الذي رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع »[1] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ ثَلاَثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ ، وَهِيَ سُورَةُ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ».

فليحرص المسلم على حفظ سورة الملك ، وقراءتها والاجتهاد للعمل بها .

أسأل الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ أن ينجينا وإياكم من عذاب القبر ، وأن يجعلنا وإياكم من أهل النعيم ، وألا يجعلنا من أهل العذاب والجحيم ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه ، وأشهد أن الله على كل شيء قدير .

*****

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الصلاة ، باب في عدد الآي(١٤٠٠) ، والترمذي ، كتاب فضائل القرآن ، باب ما جاء في فضل سورة الملك (٢٨٩١) ،وقال : « حديث حسن » ، وابن ماجة ، كتاب الأدب ، باب ثواب القرآن (٣٧٨٦) ، وأحمد (٢/ ٢٩٩) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٢٠٩١) ، و« المشكاة » (٢١٥٣) ، وروي عن ابن مسعود وأنس ﷺ ، انظر : « صحيح الجامع » (٣٦٤٣، ٣٦٤٤) ، و« الصحيحة » (١١٤٠)، ولفظ ابن مسعود : « سُورَةُ تَبَارَكَ هِيَ الْمَانِعَةُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ » .

أشراط الساعة الصغرى

وقبل أن أبدأ الحديث عن أشراط الصغرى أقدِّم بين يدي الموضوع بأصولٍ مهمةٍ ، ودونك هي :

الأصل الأول : كلُّ ما صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه أخبر بوقوعه ، يجب على كلِّ مسلمٍ ومسلمة أن يؤمن به سواء كان الخبر متواترًا أو آحادًا ؛ وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة .

قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣، ٤]، وقال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [آل عمران:١٣٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر:٧].

المهم أن تَتَثَبَّتَ من صحة هذا القول ، هل هو منسوب حقًّا إلى النَّبِيِّ ﷺ أم لا ؟ فإن ثبت بالدَّليل الصحيح أن هذا الكلام منسوب للنبيِّ ﷺ ، فيجب عليك أن تؤمن به وتصدِّقه ، إذ إن هذا الإيمان من مقتضيات شهادة أن محمدًا رسول الله .

قال الإمام أحمد رحمه الله [١] في قول الله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر:٧]، قال : « كلُّ ما جاء عن النبيِّ ﷺ بإسنادٍ جيدٍ ؛ أقررنا به ، وإذا لم نقر به وبما جاء به الرسول ، ودفعناه ، ورددناه ، رددنا على الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمره ».

وذُكر أن رجلًا سأل الشافعي رحمه الله عن مسألة من المسائل ؛ فقال

(١) انظر : « إتحاف الجماعة » (١/ ٤) نقلا عن « أشراط الساعة » ليوسف الوابل ، وفقه الله .

الشافعي ﷺ : لقد قال النبيُّ ﷺ في هذه كذا وكذا ؛ فقال الرجل : وما تقول أنت ؟ فقال الشافعيُّ ﷺ : سبحان الله ! أتراني في بيعة ؟! أترى على وسطي زنارًا ؟! أقول لك : قال رسول الله ﷺ وأنت تقول : وماذا تقول أنت ؟[1].

وقال الشافعي ﷺ[2]: « متى رويتُ عن رسول الله ﷺ حديثًا صحيحًا ، ولم آخذ به ، فأشهدكم أن عقلي قد ذَهَبَ » .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[3] ـ طيب الله ثراه : « السنة إذا ثبتت ، فإن المسلمين كلَّهم متفقون على وجوبِ اتباعها والأخذ بها » .

هذا كلُّه بخلاف ما ذهب إليه بعضُ أهل البدع ، وبعض أهل الكلام ، وبعض معتزلة عصرنا ممن تفرَّخوا في مدرسة الاعتزال ، وإن ذهب اسمها ، فإن تلامذة الاعتزال ممن يقدِّمون العقل على النقل الصحيح لازالوا موجودين بيننا !

فهذا هو الذي ذهب إليه سلف الأمة من وجوب الأخذ بالحديث إن صحَّ عن النبيِّ ﷺ ؛ سواءٌ كان هذا الحديث متواترًا أو آحادًا .

فمعلوم عند أهل الحديث أن المتواتر : هو الخبر الذي نقله جمعٌ عن جميعٍ ، تستحيل العادة أن يتواطؤوا على الكذِب من أول السندِ إلى آخره ، ويكون مستندهم لأمر محسوس .

---

(١) « حلية الأولياء » (٩/ ١٠٦) ، و« إعلام الموقعين » (٢/ ٢٨٥) ، و« الرسالة » للشافعي (٤٠١).

(٢) « حلية الأولياء » (٩/ ١٠٦) ، و« إعلام الموقعين » (٢/ ٢٨٥) ، و« الرسالة » للشافعي (٤٠١).

(٣) انظر : « إعلام الموقعين » (٤/ ٢٣٣) .

والآحاد : هو ما دون المتواتر :

وذهب بعضُ أهلِ الكلام إلى ردِّ خَبَرِ الواحد ، ولو كان صحيحًا في أمور الاعتقاد ، وفي أمور الغيب بحجة أن خبر الآحاد لا يحتج به إلا في مسائل الأعمال والأحكام !!

هذا الخلاف خرق به أهلُ البدع إجماعَ الصحابة والتابعين وعلماء السلف .

تدبر معي هذا الكلام النفيس للإمام ابن أبي العز الحنفي رحمه الله يقول[1] : « خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول ؛ عملًا به وتصديقًا له يفيد العلم اليقيني عند جماهير الأمة ، وهو أحد قسمي المتواتر ، ولم يكن بين سلف الأمة في ذلك نزاع » .

ويقول الحافظ ابن حجر رحمه الله[2] : « قد شاع فاشيًا عمل الصحابة والتابعين بخبرِ الواحدِ من غير نكير فاقتضى الاتفاق منهم على القبول » .

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله[3] في ردِّه على من أنكر حجية خبر الواحد : « ومن هذا إخبار الصحابة بعضهم بعضًا ؛ فإنهم كانوا يجزمون بما يُحدِّث به أحدهم عن رسول الله ﷺ ، ولم يقل أحد منهم لمن حدَّثه عن النبي ﷺ خبرك خبر واحد لا يفيد العلم حتى يتواتر » .

وأرجو أن يكون هذا الأصل من أصول المقدمة واضحًا جليًّا .

إذًا الذي اتفق عليه أهلُ السنة والجماعة وعلماء الأمة : أن الخبر إن

---

(١) « شرح العقيدة الطحاوية » (٣٩٩، ٤٠٠) .

(٢) « فتح الباري » (١٣/ ٢٣٤) .

(٣) « مختصر الصواعق المرسلة » للموصلي (٢/ ٣٦١) نقلًا من « أشراط الساعة » (٤٤).

صحَّ عن النبيِّ ﷺ فقد وجب على كل مسلم ومسلمة أن يتلقى هذا الخبر بالقبول والعمل والتنفيذ ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر:٧] .

والأدلة على هذا من القرآن والسنة كثيرة ، أوجز بعض الأدلة :

يقول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات:٦] .

هذا يدل على الجزم والقطع بقبول خبر الواحد الثقة ، فالله ﷻ يأمر بالتثبت والتبين من خبر الفاسق الواحد .

وهذا يدلُّ عن طريق الجزم الذي لا شك فيه أنه يُقبل خبر الواحد الثقة دون أن نتثبت أو نتبين ، ولو كان خبر الثقة الواحد لا يفيد العلم لأمر الله ﷻ بالتثبت مطلقًا من الفاسق والثقة[1] .

وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء:٥٩] .

قال ابن القيم[2] : « وقد اتفق السلف والخلف أنَّ الردَّ إلى الرسول الله ﷺ هو الرد إليه في حياته ، واتفقوا على أن الرد إلى النبيِّ ﷺ بعد مماته هو الرجوع إلى سنته ، وهذه هي سعادة الدارين » ، واتفقوا على أن فرض هذا الرد لم يسقط بموته ، فإن كان متواتر أخباره وآحادها لا تفيد علمًا ، ولا

(١) انظر : « وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة » للشيخ الألباني ـ رحمه الله تعالى .

(٢) كما في «الرسالة التبوكية» (٤٣) ط مكتبة المدني ، وانظر : « بدائع التفسير » (٢/ ٢٣، ٢٤) بتصرف في المعنى .

يقينًا ؛ لم يكن للردِّ إليه وجه.

قال الله سبحانه تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب:٣٤] . يأمر نساءَ النبيِّ ﷺ أن يذكرن بالآيات الكريمات اللائي يستمعن إليها في بيوتهن من رسول الله ﷺ ، وبما يشاهدنه من سنة قولية أو عملية في بيوت المصطفى ﷺ ، فيأمر الله نساء النبيِّ ﷺ أن يبلِّغن ذلك للأمة .

قال القرطبيُّ رحمه الله[1]: « وهذا يدل على جواز قبول خبر الواحد من الرجال والنساء في الدين » .

وإلا ما أمر نساء النبيِّ ﷺ أن يذكرن بما يستمعن إليه من قرآن وحكمة . أي : وسنة .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٢] .

فهذه الآية تحث المؤمنين على التفقه في الدين ، والطائفة تطلق على الواحد فما فوق ، ولا تختص بعدد معين[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ...﴾ [الحجرات:٩] .

---

(١) « الجامع لأحكام القرآن » (١٤/ ١٢٠).

(٢) « فتح الباري » (١٣/ ٢٩٠، ٢٩١).

قال البخاري رحمه الله[١] : « ويسمَّى الرجل طائفة لهذه الآية . فلو اقتتل رجلان دخلا في معنى الآية » . والأدلة من القرآن الكريم كثيرة .

أما الأدلة من السنة فكثيرة جدًّا ، ولله الحمد :

تدبر معي هذا الكلام النفيس : كان رسول الله ﷺ يبعث رسله إلى الملوك واحدًا بعد واحد، فقد أرسل أبا عبيدة بن الجراح إلى أهل نجران[٢] ، وبعث معاذ بن جبل إلى أهل اليمن[٣] ، وبعث مصعب بن عمير إلى أهل المدينة ، وكان المسلمون في كل مكان يتلقون الخبر عن هذا الرسول الذي جاء مبعوثًا من قِبَلِ النبيِّ ﷺ دون تثبت أو تمحيص سواء كان الخبر في أمور الاعتقاد أو في أمور الغيب أو في أمور الأحكام أو الأعمال .

وقد روى البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ[٤] : « بَيْنَا النَّاسُ بِقُبَاءٍ فِي صَلاَةِ الصُّبْحِ إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ ؛ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ أُنـزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنٌ ، وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ ؛ فَاسْتَقْبِلُوهَا ، وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ ، فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ » .

فتحوَّلوا بخبر الواحد ، وقَبِلُوه دون تثبت .

---

(١) في «صحيح البخاريّ» ، كتاب أخبار الآحاد ، باب ما جاء في إجازة الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام (١٣/ ٢٨٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أخبار الآحاد ، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق (٧٢٥٤) ، وانظر أطرافه برقم (٣٧٤٥) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الزكاة ، باب وجوب الزكاة (١٣٩٥)، وانظر أطرافه هناك، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١٩) .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الصلاة ، باب ما جاء في القبلة ومن لا يرى الإعادة على من سها فصلى إلى غير القبلة ، برقم (٤٠٣) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة (٥٢٦) .

وفي «صحيح البخاريِّ» [(١)] عن عمر رضي الله عنه قال : « وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ إِذَا غَابَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ وَشَهِدْتُهُ ؛ أَتَيْتُهُ بِمَا يَكُونُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ ، وَإِذَا غَابَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ وَشَهِدَ ؛ أَتَانِي بِمَا يَكُونُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ » .

وهذا الصحابيُّ كان ينقل كل ما يخبر عنه النبيُّ ﷺ في أمور الاعتقاد ، وفي أمور الغيب ، وفي الأحكام ، وفي كلِّ أمور الدين .

ومن أروع الأدلة ؛ ما رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن أنس رضي الله عنه « أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْفَضِيخِ ؟ فَقَالَ : مَا كَانَتْ لَنَا خَمْرٌ غَيْرَ فَضِيخِكُمْ هَذَا الَّذِي تُسَمُّونَهُ الْفَضِيخَ ، إِنِّي لَقَائِمٌ أَسْقِيهَا أَبَا طَلْحَةَ وَأَبَا أَيُّوبَ وَرِجَالاً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ فِي بَيْتِنَا ؛ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ : هَلْ بَلَغَكُمُ الْخَبَرُ ؟ قُلْنَا : لاَ . قَالَ : فَإِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ ، فَقَالَ : يَا أَنَسُ ، أَرِقْ هَذِهِ الْقِلاَلَ ، قَالَ : فَمَا رَاجَعُوهَا وَلاَ سَأَلُوا عَنْهَا ، بَعْدَ خَبَرِ الرَّجُلِ » [(٢)] .

انظر إلى هذا الاستسلام والإذعان ، وهذا الصدق والثقة ؛ رجل أخبر أن رسول الله ﷺ قد حرَّم الخمر ؛ للقرآن الذي أنزله الله عليه ، فما راجعوا الخمر ، وما سألوا عنها بعد ما جاءهم خبرُ الصحابي الواحد عن النبيِّ ﷺ .

وأيضًا روى أحمد [(٣)] وغيره أن النبيَّ ﷺ قال : « نَضَّرَ الله امْرَءًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ ، وَرُبَّ حَامِلِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العلم ، باب التناوب في العلم برقم (٨٩) ، وانظر أطرافه هناك ، وانظر رقم (٧٢٥٦) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المظالم ، باب صب الخمر في الطريق برقم (٢٤٦٤) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الأشربة ، باب تحريم الخمر (١٩٨٠) .

(٣) تقدم .

فِقهٍ إلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ » .

ووجه الاستشهاد في هذا الحديث أنَّ الرسول ﷺ يدعو بنضارة الوجه لكلِّ من يُحدِّث عنه دونما تخصيص لأحاديث الاعتقاد ، ولا لأحاديث الغيبيات ؛ فهذا دليلٌ من أروع وأجمل الأدلة على أن خبر الواحد ما دام صحيحًا صادقًا فهو ممن شملته دعوة رسول الله ﷺ بنضارة الوجه .

أسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم منهم بمنِّه وكرمه .

إذًا القول بأن خبر الواحد ـ ولو كان صحيحًا ـ لا تثبت به عقيدة ، ولا ينبغي أن نستدل به في أمور الغيب ! إنما هو قولٌ مبتدع محدث ، لا أصل له عند سلف الأمة ـ رَضِيَ الله عَلَيْهِم ـ ولم يَقُلْ به واحدٌ منهم ، ولم ينقل على لسانٍ واحدٍ منهم ؛ بل ولا خطر لهم على بال ، ولو وُجِدَ دليلٌ قطعيٌّ يدلُّ على أن أحاديث الآحاد لا تثبت بها عقيدة ؛ لعلم ذلك أصحاب النبيِّ ﷺ، والتابعون لهم بإحسان من سلف هذه الأمة الصالح ـ رضوان الله عليهم جميعًا ـ ومن أنكر خبر الواحد لزمه أن ينكر شفاعة النبيِّ ﷺ العظمى في أرض المحشر ، وشفاعته لأهل الكبائر ، ولزمه أن ينكر كلَّ معجزات النبيِّ ﷺ باستثناء القرآن ، ولزمه أن ينكر سؤال منكر ونكير ، والصراط ، والحوض ، والميزان ، وكلَّ مشاهد يوم القيامة ، وما ثبت من الأحاديث بعدم تخليد أهل الكبائر في النار؛ كمعتقد من معتقدات أهل السنة والجماعة .

إذًا الخبر إن صحَّ عن النبيِّ ﷺ بالضوابط المعروفة وجب على كلٍّ

مؤمنٍ ومؤمنةٍ أن يصدِّقَ كلَّ ما قاله رسول الله ﷺ[(١)].

الأصل الثاني إخبار النبيِّ ﷺ بما كان وما سيكون إلى قيام الساعة .

وأستهلُّ هذا العنصر بحديث في «الصحيحين»[(٢)] من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قَالَ : «لَقَدْ خَطَبَنَا النَّبِيُّ ﷺ خُطْبَةً مَا تَرَكَ فِيهَا شَيْئًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلاَّ ذَكَرَهُ ، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ ، إِنْ كُنْتُ لأَرَى الشَّيْءَ قَدْ نَسِيتُهُ ، فَأَعْرِفُهُ كَمَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ إِذَا غَابَ عَنْهُ فَرَآهُ فَعَرَفَهُ» .

هذا لفظ البخاريِّ .

أما لفظُ مسلم[(٣)] من حديث حذيفة رضي الله عنه قَالَ : «قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَامًا ، مَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، إِلاَّ حَدَّثَ بِهِ ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ ، قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي هَؤُلاَءِ ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ قَدْ نَسِيتُهُ فَأَرَاهُ ، فَأَذْكُرُهُ كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ ، ثُمَّ إِذَا رَآهُ عَرَفَهُ» .

وروى مسلمٌ[(٤)] من حديث حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ : «أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ؛ فَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ قَدْ سَأَلْتُهُ إِلاَّ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ : مَا يُخْرِجُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ ؟» .

---

(١) انظر : «أشراط الساعة» للدكتور الأشقر (٤١-٥٠) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب القدر ، باب «وكان أمر الله قدرًا مقدورًا» برقم (٦٦٠٤) ، ومسلم ، وسيأتي لفظه بعد معزوًا .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة (٢٨٩١) .

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة (٢٨٩١) .

وروى مسلمٌ[1] عن أبي زيد عمرو بن أخطب الأنصاري ﷺ قَالَ : « صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْفَجْرَ ، وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ ، فَخَطَبَنَا ، حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ ، فَنَزَلَ فَصَلَّى ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ ، فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ ، وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ ، فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا » .

ولحذيفة ﷺ خصائص انفرد بها وحْدَه ؛ فهو صاحب منهج فريد في التلقي ، فلقد كان كلُّ أصحابِ النبيِّ ﷺ يسألون عن الخير إلا حذيفة ؛ فهو الصحابيُّ الوحيد الذي كان يسأل النبيَّ ﷺ عن الشرِّ ؛ كما في «الصَّحِيحَيْنِ»[2] عن حذيفة ﷺ قال : « كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي » .

وذلك فضلُ الله أن جعل من أصحاب النبيِّ ﷺ من يفهم هذا الفهم ، لتقف الأمة بعد ذلك على هذا العلم .

ومن الأحاديث ؛ ما رواه البخاريُّ[3] تعليقًا ، ووصله الطبراني وأبو نعيم كما قال الحافظ في «الفتح» بسندٍ صحيح ، عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : « قَامَ فِينَا النَّبِيُّ ﷺ مَقَامًا ، فَأَخْبَرَنَا عَنْ بَدْءِ الْخَلْقِ حَتَّى دَخَلَ أَهْلُ

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة (٢٨٩٢) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المناقب ـ باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٠٦) ، ومسلم ،كتاب الإمارة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (١٨٤٧) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧] ـ تعليقًا. وصححه العلامة الألباني في «المشكاة» (٥٦٩٩) ؛ بل وصححه الحافظ ابن حجر في «الأمالي المطلقة» (١٠٧٥) ط المكتب الإسلامي، بعد أن خرَّجه الحافظ بسنده ، وانظر: «الفتح» (٦/ ٢٩٠).

الجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ، وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ، حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ».

ورُوي عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال[١]: «وَالله مَا أَدْرِي أَنَسِيَ أَصْحَابِي أَمْ تَنَاسَوْا؟ وَالله مَا تَرَكَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ قَائِدِ فِتْنَةٍ إِلَى أَنْ تَنْقَضِي الدُّنْيَا يَبْلُغُ مَنْ مَعَهُ ثَلاثَ مِائَةٍ فَصَاعِدًا إِلاَّ قَدْ سَمَّاهُ لَنَا بِاسْمِهِ، وَاسْمِ أَبِيهِ، وَاسْمِ قَبِيلَتِهِ».

وروى أحمد[٢]، وغيرُه من حديث أَبِي كَبْشَةَ الأَنْمَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا كَانَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، تَسَارَعَ النَّاسُ إِلَى أَهْلِ الحِجْرِ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ فَنَادَى فِي النَّاسِ: «الصَّلاَةُ جَامِعَةٌ»، قَالَ: فَأَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ مُمْسِكٌ بَعِيرَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: «مَا تَدْخُلُونَ عَلَى قَوْمٍ غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ؟» فَنَادَاهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ: نَعْجَبُ مِنْهُمْ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «أَفَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ؟ رَجُلٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَمَا هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكُمْ، فَاسْتَقِيمُوا وَسَدِّدُوا؛ فَإِنَّ الله عز وجل لاَ يَعْبَأُ بِعَذَابِكُمْ شَيْئًا، وَسَيَأْتِي قَوْمٌ لاَ يَدْفَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِشَيْءٍ».

الشاهد: قول النبيِّ ﷺ: «أَفَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ؟» ثم قصد وأشار إلى نفسه ـ وقال: «رَجُلٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَمَا

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها (٤٢٤٣)، وقال المنذري: «في إسناده ابن فروخ، وهو عبد الله بن فروخ كنيته أبو عمر؛ خراساني من أهل مرو، قدم مصر، وخرج إلى المغرب، ومات بها، وقد تكلم فيه غير واحد»، وضعّف إسناده الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٢٩٣)، و«ضعيف سنن أبي داود».

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣١)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٥٤٦، ٥٤٧)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٨٥١، ٨٥٢)، والدولابي في «الأسماء والكنى» (١/ ٥٠)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣٧٤١)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٢٣٥)، وقال الشيخ شعيب: «إسناده ضعيف».

هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكُمْ ».

وهذه معجزة تستحق التدبر والتوقف عندها !

وفي الحديث الذي رواه أحمد في «مسنده»(١) ـ ورواته ثقات ـ من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قَالَ : « بَيْنَا أَعْرَابِيٌّ فِي بَعْضِ نَوَاحِي الْمَدِينَةِ فِي غَنَمٍ لَهُ ، عَدَا عَلَيْهِ الذِّئْبُ فَأَخَذَ شَاةً مِنْ غَنَمِهِ ، فَأَدْرَكَهُ الأَعْرَابِيُّ ، فَاسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ وَهَجْهَجَهُ ، فَعَانَدَهُ الذِّئْبُ يَمْشِي ، ثُمَّ أَقْعَى مُسْتَذْفِرًا بِذَنَبِهِ يُخَاطِبُهُ ! فَقَالَ : أَخَذْتَ رِزْقًا رَزَقَنِيهِ اللهُ ، قَالَ : وَا عَجَبًا مِنْ ذِئْبٍ مُقْعٍ مُسْتَذْفِرٍ بِذَنَبِهِ يُخَاطِبُنِي ؛ قَالَ : وَاللهِ إِنَّكَ لَتَتْرُكُ أَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ ، قَالَ : وَمَا أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَقَالَ : « رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّخْلَتَيْنِ بَيْنَ الْحَرَّتَيْنِ يُحَدِّثُ النَّاسَ عَنْ نَبَإٍ مَا قَدْ سَبَقَ ، وَمَا يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ ! » قَالَ : فَنَعَقَ الأَعْرَابِيُّ بِغَنَمِهِ حَتَّى أَلْجَأَهَا إِلَى بَعْضِ الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ مَشَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى ضَرَبَ عَلَيْهِ بَابَهُ ، فَلَمَّا صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ قَالَ : «أَيْنَ الأَعْرَابِيُّ صَاحِبُ الْغَنَمِ؟ » فَقَامَ الأَعْرَابِيُّ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : « حَدِّثِ النَّاسَ بِمَا سَمِعْتَ وَمَا رَأَيْتَ» فَحَدَّثَ الأَعْرَابِيُّ النَّاسَ بِمَا رَأَى مِنَ الذِّئْبِ وَسَمِعَ مِنْهُ .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ : « صَدَقَ ، آيَاتٌ تَكُونُ قَبْلَ السَّاعَةِ ، وَالَّذِي

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٨٨، ٨٩) ، وعبد بن حميد في « المنتخب » (٨٧٧) ، والبزار (٢٤٣١) ، والترمذي مختصرًا ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في كلام السباع (٢١٨١) وقال : «حسن صحيح غريب» ، والحاكم (٤/ ٤٦٧، ٤٦٨) ، وقال : «صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي ، وأبو نعيم في « الدلائل» (٢٧٠) ، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٤١ـ٤٣) ، وقال : « هذا إسناد صحيح» ، والعقيلي في « الضعفاء» (٣/ ٤٧٨) ، وابن حبان (٦٤٩٤) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٩١) : «رواه أحمد والبزار بنحوه باختصار ، ورجال أحد إسنادي أحمد رجال الصحيح » وقال الشيخ شعيب :«إسناده ضعيف».

نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ أَحَدُكُمْ مِنْ أَهْلِهِ ، فَيُخْبِرَهُ نَعْلُهُ أَوْ سَوْطُهُ أَوْ عَصَاهُ بِمَا أَحْدَثَ أَهْلُهُ بَعْدَهُ ».

وروى أحمد في «مسنده» والطبراني في «الكبير» ــ وقال الهيثميُّ في «المجمع» : «رجاله رجال الصحيح» [1]ـ قال أبو ذر رضي الله عنه :

« لَقَدْ تَرَكَنَا رَسُولُ الله ﷺ، وَمَا يُحَرِّكُ طَائِرٌ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلاَّ ذَكَرَ لَنَا رَسُولُ الله مِنْهُ عِلْمًا».

وفي رواية عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال :

« لَقَدْ تَرَكَنَا رَسُولُ الله ﷺ، وَمَا فِي السَّمَاءِ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا»[2].

وهكذا نكون قد أصَّلنا أصْلَيْنِ في غاية الأهمية :

١ـ كلُّ ما صحَّ عن النبيِّ ﷺ يجبُ على كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ أن يؤمن به ، وأن يصدقه .

٢ـ أن النبيَّ ﷺ ما مات إلا وأخبر أصحابه الكرام عمَّا كان ، وعمَّا سيكون بوحي من الله عز وجل ، حفظ ذلك الكلام من أصحاب النبيِّ ﷺ من حَفِظَهُ ، ونَسِيَهُ من نَسِيَهُ ، وعَلِمَه من عَلِمَه ، وجَهِلَه من جَهِلَه ؛ وبالله التوفيق .

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣، ١٦٢) ، وابن حبان (٦٥) ، والطيالسي (٤٧٩) ، والطبراني في «الكبير» (١٦٤٧) ، والبزار (١٤٧) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٣٠) (١٣٩٧١) : «ورجال الطبراني رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ ، وهو ثقة ، وفي إسناد أحمد من لم يسم » ، وحسنه الشيخ شعيب في «تحقيق المسند» .

(٢) أخرجه أبو يعلى (٥٠٨٧) ، وقال الهيثمي (٨/ ٣٠) (١٣٩٧٣) : «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح » ، وأورده الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (٣٨٧٢) ، وعزاه لأحمد بن منيع وقال : «رجاله ثقات إلا أنه منقطع ».

وقت قيام الساعة

لقد أخبرنا النبيُّ ﷺ عن أماراتها ، وعن أشراطها ، وعن علامات ستقع بين يدي الساعة ، وعن ما سيكون قبل الساعة ، لكنَّ وقتَ قيامِ الساعةِ من الغيب الذي لم يُطْلِعْ الله عليه مَلَكًا مُقرَّبًا ، ولا نبِيًّا مُرْسَلاً ، فالساعة علمها عند الله ؛ ولذلك لما سُئل النبيُّ ﷺ ؛ كما في حديث جبريل ـ الذي نحن بصدد شرحه ـ حينما قال : « مَتَى السَّاعَةُ؟ » قال : « مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » فإذا كان جبريل عليه السلام وهو أعلى الملائكة منزلة ، وإذا كان محمد ﷺ وهو أعلى البشر منزلةً لا يعلمان متى تقوم الساعة ؛ فمن باب أوْلَى لا يجوز لأحدٍ على وجه الأرض إلى قيام الساعة أن يدَّعي أنه يعلم متى تقوم الساعة !!

قال الله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾[الأحزاب:٦٣] ، وقال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾ [النازعات:٤٢ـ ٤٤] ، ويقول الله ﷻ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف:١٨٧] .

فلا يعلم مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ، ولا نبيٌّ مُرْسَلٌ متى تقوم القيامة ؟ ومتى

ستكون الساعة ؟ لأن وقت قيام الساعة من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ؛ قال تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[الأنعام:٥٩] .

ومن هذا الغيب علم قيام الساعة .

قال الله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾[لقمان:٣٤] .

وفي «صحيح البخاري» [(١)] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ الله » ثُمَّ تَلاَ النَّبِيُّ ﷺ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[لقمان:٣٤] .

هذه مفاتح الغيب لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى .

وفي الحديث الذي رواه مسلم [(٢)] من حديث جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِشَهْرٍ : « تَسْأَلُونِي عَنِ السَّاعَةِ ، وَإِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ الله ، وَأُقْسِمُ بِالله ! مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الاستسقاء ، باب لا يدرى متى يجيء المطر إلا الله برقم ١٠٣٩ ، وانظر أطرافه هناك .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب قَوْلِهِ ﷺ « لاَ تَأْتِي مِائَةُ سَنَةٍ وَعَلَى الأَرْضِ نَفْسٌ مَنْفُوسَةٌ الْيَوْمَ » (٢٥٣٨) .

ووضَّح ابن عمر ﷺ معنى كلام النبيِّ ﷺ حتى لا يذهب الناس في مقصد كلام النبيِّ ﷺ مذاهب شتَّى ؛ قال ابن عمر : « يريد بذلك أن ينخرم القرن »[1] ؛ أي : لن يبقى على وجه الأرض ممن كان يعيش في وقت كلام النبيِّ ﷺ حين أخبر بهذا الحديث ، لن يبقى أحدٌ بعد مائة سنة ، وإنها ستأتي أجيال أخرى .

وليس في الحديث دلالة على وجه الإطلاق لا من قريب ولا من بعيد على تحديد وقت قيام الساعة ، كما احتج بهذا الحديث بعض من خاضوا في تحديد وقت قيام الساعة ؛ كما سأبين إن شاء الله تعالى .

فالنبيُّ محمدٌ ﷺ الذي أخبر بما سيكون إلى قيام الساعة أخفى الله عنه وقت قيام الساعة .

وفي حديثٍ رواه أحمد في «مسنده» ، وصحَّح إسناده الشيخ أحمد شاكر ـ رحمه الله تعالى ـ ورواه الحاكم في «المستدرك» وصححه على شرط الشيخين ، وأقره الذهبي ، ورواه ابن ماجه في «سننه» ، وقال البوصيري في «الزوائد»[2] : «إسناده صحيح ورجاله ثقات» ، إلا أنَّ شيخَنا الألباني ﷺ ضعَّفَه في « ضعيف الجامع» من حديث ابن مسعود ﷺ : أن النَّبيَّ

(١) كما في « صحيح مسلم» (٢٥٣٧) .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٩) ، وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم ، وخروج يأجوج ومأجوج (٤٠٨١) ، وقال البوصيري في «الزوائد» : «هذا إسناده صحيح ، رجاله ثقات ،ومؤثر بن عفازة ذكره ابن حبان في الثقات ، وباقي رجال الإسناد ثقات »، والحاكم (٤/ ٤٨٨، ٤٨٩) ،وقال : «حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ،ووافقه الذهبي » ، وصحَّحه الشيخ أحمد شاكر في «تحقيقه للمسند» (٣٥٥٦) ،وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع » (٤٧١٢) .

ﷺ قَالَ : « لَقِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي إِبْرَاهِيمَ ، وَمُوسَى ، وَعِيسَى ، قَالَ : فَتَذَاكَرُوا أَمْرَ السَّاعَةِ ؛ فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ : لاَ عِلْمَ لِي بِهَا ، فَرَدُّوا الأَمْرَ إِلَى مُوسَى ، فَقَالَ : لاَ عِلْمَ لِي بِهَا ، فَرَدُّوا الأَمْرَ إِلَى عِيسَى ، فَقَالَ : أَمَّا وَجْبَتُهَا ، فَلاَ يَعْلَمُهَا أَحَدٌ إِلاَّ الله ، وَفِيمَا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي عز وجل أَنَّ الدَّجَّالَ خَارِجٌ قَالَ : وَمَعِي قَضِيبَانِ ، فَإِذَا رَآنِي ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ فَيُهْلِكُهُ الله ».

فهؤلاء هم أولو العزم أو كبار أولي العزم : إبراهيم وعيسى وموسى ، ومحمد ـ صلَّى الله عليهم جميعًا وسلَّم .

فهؤلاء كلُّهم لا يعلمون وقت قيام الساعة ، ولا يعلمون تاريخًا محددًا لوقت قيامها ؛ فإذا كان الأمر كذلك ؛ فإنه لا ينبغي لأحد أن ينشغل مجرد انشغال في الخوض في تحديد الوقت التي تقوم فيه الساعة !

ومن آخر ما قرأتُ لدكتورٍ بهائيٍّ وقف مع الأرقام العددية في القرآن ، ثم أصدر بعد ذلك فتوى يحدِّدُ فيها وقتَ قيام الساعة ؛ فقال : إن الساعة ستقوم سنة ١٧١٠م ! ولم تقم الساعة !! فأصبحت فتوى مضحكة ، وشرُّ البلية ما يُضحك .

ولاشك أن هناك من أهل العلم مَنْ وقف مع بعض الآيات والأحاديث والأرقام في القرآن ، وحدَّد من خلالها وقتَ قيام الساعة ! وانتهت التورايخ التي ذكرها الأئمة ، ولم تقع الساعة !؛ فكان هذا من باب الخطأ الذي وقع فيه بعضُ أهل العلم .كما سأنقل كلاما نفيسًا لشيخ الإسلام ابن تيمية- طيب الله ثراه ـ لكن لا ينبغي على الإطلاق

أن يُحْتَجَّ بما ورد من كلام أئمتنا وشيوخنا في هذا الباب ؛ فكلُّ أحدٍ يُؤخذ من قوله ويُرَدُّ عليه ، إلا المصطفى ﷺ فهو الذي يؤخذُ كلُّ قوله ، ولا يردُّ عليه مادام ثابتًا صحيحًا عنه ﷺ.

إذًا لا يجوز لأي أحدٍ أن يشتغل ، وأن يكدَّ ذهنه بعد ذلك من خلال الآيات والأحاديث والأرقام والأعداد ليصل إلى وقتٍ بعينه أو إلى عام بعينه ؛ ليقول : إن القيامةَ ستقوم عام ٢٠٠١م ، وهذا كلامٌ باطلٌ ، حتى لو قدَّر الله ﷻ أن تقع في تاريخٍ ذُكر من باب الحدس والتخمين ؛ فلا ينبغي البتة أن نقول بأن ما وصل إليه من تاريخ التحديد صواب ! لا . وإلا فقد تقدَّم من الآيات والأحاديث ما يبين بجلاء أنه لا يعلم وقتَ قيام الساعة مَلَكٌ مُقرَّبٌ ، ولا نَبيٌّ مُرْسَلٌ ؛ فلا يجوزُ لأحدٍ بعد الأنبياء والمرسلين أن يدَّعي لنفسه أنه على علم بوقت قيام الساعة ؛ لأنه تقوُّلٌ على الله بغير علم ، والخائضون في ذلك مخالفون تمامًا للمنهج القرآني والمنهج النبوي الذي وجَّه الناس إلى ترك البحث في وقت قيام الساعة ووجه قلوب وأنظار الناس إلى العمل ، استعدادًا للساعة .

ففي «الصَّحِيحَيْنِ» من حديث أنس ﷺ قَالَ : أَنَّ رَجُلاً (وفي رواية: مِنَ الأَعْرَابِ) سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: مَتَى السَّاعَةُ يَا رَسُولَ الله؟ فَقَالَ : « مَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟» قَالَ : مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ صَلَاةٍ ـ وَفِي رواية : مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيْرَ صَلاَةٍ وَلاَ صِيَامٍ وَلاَ صَدَقَةٍ ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » .

في رواية لمسلم: يقول أنس ﷺ: فَمَا فَرِحْنَا بَعْدَ الإِسْلاَمِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ

النَّبِيُّ ﷺ : « فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ ». قَالَ أَنَسٌ : فَأَنَا أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَأَبَا بَكْرٍ ، وَعُمَرَ ؛ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ [(١)].

ونحن نحبُّ رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا وجميع أصحاب النبيِّ ﷺ والتابعين لهم بإحسان على هذا الدرب الرضي ، ونسأل الله أن يحشرنا معهم بحبنا لهم ، وإن لم نعمل بمثل أعمالهم ؛ إنه على كلِّ شيء قدير .

انظر إلى المنهج القرآني والمنهج النبوي في صرف أنظار الناس عن البحث عن وقت قيام الساعة ، وإنما يصرف أنظارهم إلى الاستعداد العملي للساعة .

وأرى أيضًا جوابًا بديعًا في حديث صحيح رواه الإمام البخاريُّ من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ : مَتَى السَّاعَةُ ؟ قَالَ : فَمَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُ ؛ فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ ، سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ لَمْ يَسْمَعْ ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ : « أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ ؟ » قَالَ : هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : « فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ » قَالَ : كَيْفَ إِضَاعَتُهَا ؟ قَالَ : « إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ » [(٢)].

والذي بعث محمدًا بالحق ، لقد وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله ، وسأقف بتفصيل مع هذه الأشراط التي بيَّنها لنا الصادق الأمين الذي لا ينطق

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب «البر والصلة والآداب» ، باب المرء مع من أحب ، برقم (٢٦٣٩) ، وأخرجه البخاريُّ ، كتاب الأدب ، باب ما جاء في قول الرجل : ويلك (٦١٦٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العلم ، باب من سئل علمًا وهو مشتغل في حديثه فأتم الحديث ، ثم أجاب السائل برقم (٥٩) ، وانظر طرفاه هناك .

عن الهوى ـ إن شاء الله تعالى ـ عند الحديث عن أشراط الساعة الصغرى والكبرى ـ بإذن الله تعالى .

إذًا لا ينبغي أن يحدِّدَ أحدٌ وقتًا بعينه لقيام الساعة ، ويجب أن يسع الجميع ما وسع النبيَّ ﷺ وأصحابه وأئمة الدين ، وينبغي للاحقين أن يتَّعِظُوا بالسابقين ؛ فبعض السابقين قد حدَّد وقتا لقيام الساعة ، ومن هؤلاء الإمام العلم الإمام الطبريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ[1] وهو من أئمة أهل السنة والجماعة ؛ إلا أنه رحمه الله وقف مع بعض النصوص فاستظهر هذه النصوص وقال بأن الدنيا ستفنى وتنتهي ، أي تقوم الساعة بعد خمس مائة عام من البعثة النبوية ، وها نحن نرى أنه قد مرَّ ما يزيد على ألف عام بعد بعثة النبيِّ ﷺ ، ولم يقع ما اجتهد فيه الإمام الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ وهذا يؤكد لنا أن كلَّ أحدٍ يُؤخذ من قوله ويُردُّ عليه إلا المصطفى الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ .

وكذلك وقف الإمام السيوطي رحمه الله[2] عند ظاهر بعض الآيات والنصوص ، وحدَّد وقتًا لقيام الساعة مضى عليه بعض السنوات ، ولم تقع كما ذكر !!

وكذلك الإمام السهيليُّ ـ رحمه الله تعالى وغفر له ـ لما وقف مع بعض مقاطع أوائل السور وبعض الأعداد ، وحسب حسابات معينة ، ووصل في نهايتها إلى وقتٍ معينٍ لقيام الساعة ، وقال بأن الأمة لن تعيش بعد النبيِّ ﷺ إلا بضع مئاتٍ من السنين .

---

(١) كما في «تاريخ الأمم والملوك» ، للطبري (١/ ٥ـ١٠) ط الفكر .

(٢) «الحاوي للفتاوى»(٢/ ٨٦ ـ ٨٨) .

وانتهى الزمن المضروب ، ولم تقع الساعة بعد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ [١] للذين بحثوا في هذا الأمر وحدَّدوا فيه وقتًا بعينه : « ومن تكلَّم في وقتٍ معينٍ للساعة كالذي صنَّف كتابًا سماه : « الدر المنظم في معرفة الأعظم » ، وذكر فيه عشر دلالات بيَّن فيها وقت قيام الساعة ، والذين تكلَّموا على ذلك من «حروف المعجم» والذي تكلَّم في «عَنْقَاء مغرب» وأمثال هؤلاء ، فإنهم وإن كان لهم صورة عظيمة عند أتباعهم فغالبهم كاذبون مفترون ، وقد تبين لديهم من وجوه كثيرة أنهم يتكلَّمون بغير علم ، وإن ادَّعوا في ذلك الكشف ومعرفة الأسرار ، وقد قال الله ﷻ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف:٣٣] » انتهى المراد .

ولا شك أن دعوى معرفة وقت الساعة المحدد قول على الله بلا علم.

وقال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في قول الله تعالى [٢] : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ ، وختم الآية بقوله تعالى : ﴿ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف:٣٣] .

فجعل القول على الله تعالى بلا علم من أخطر مراتب الشرك ، إذ جاء

---

(١) «مجموع الفتاوى»(٤/ ٣٤٢) .

(٢) «إعلام الموقعين»(١/ ٣٨) بتصرف .

هذا القول بعد قوله :﴿ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ .

فالقول على الله بغير علم ـ والعياذ بالله ـ من أخطر مراتب الشرك ، فلا ينبغي أن يتألى أحدٌ على الله ـ تبارك وتعالى ـ وأن يقول على الله ـ جل وعلا ـ بغير علم .

وقال القرطبيُّ رحمه الله [1] : « والذي ينبغي أن يُقال به في هذا الباب : أن ما أخبر به النبيُّ ﷺ من الفتن والكوائن أن ذلك يكون ، وتعيين الزمان في ذلك من سنة كذا يحتاج إلى طريق صحيح يقطع العذر ، وإنما ذلك كوقت قيام الساعة ، فلا يعلم أحد أي سنة هي ولا شهر ، أما أنها فستكون في يوم جمعة ، في آخر ساعة منه ، وهي الساعة التي خلق الله فيها آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولكن أي جمعة؟ لا يعلم تعيين ذلك اليوم إلا الله وحده لا شريك له ، وكذلك ما يكون من الأشراط وتعيين الزمان لها لا يعلم ، والله أعلم ».

ومع ذلك فقد أخبر الله ﷻ أن الساعة قريبة .

ـ وانتبه للفظ القرب هذا من أكثر من ١٤٠٠سنة ، يقول الله : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر:١] .

ويقول الله ﷻ في تعبيرٍ قرآنيٍ عجيبٍ بديعٍ يصور أن الساعة قد وقعت بالفعل ؛ فيقول سبحانه : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل:١] ، ويقول سبحانه : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا

---

(١) «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» (٢/ ٥٥٥) ط الصحابة ـ طنطا .

يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنبياء:١-٣] .

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا وإياكم من الذاكرين ، وأن يجنبنا وإياكم شرَّ الغفلة ؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وعبَّر الله عن الساعة بالغد ، والغدُّ هو اليوم التالي لليوم الذي نعيش فيه ؛ فقال ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر:١٨] .

وقد يُقال : كيف يكون قريبًا ما مضى عن الإخبار عليه ما يزيد على ألف سَنة ؟!

والجواب : أنَّ هذا قريبٌ في علم الله وتقديره ، وإن كانت المقاييس البشرية تراه بعيدًا لكنه عند الله قريب ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج:٦، ٧] .

فليست مقاييس البشر كمقاييس خالق البشر ؛ فقد ينظر الإنسان إلى عمره ، بالمقارنة إلى عمر الأمم لا شيء ، وعمر الأمم بالقياس إلى عمر التاريخ والزمن لا شيء ؛ فقد يرى البشر قيام الساعة بعيدًا ، والله ﷻ يراه قريبًا ، فليست مقاييس البشر في الحساب والزمن هي هي نفس مقاييس رب البشر .

والأحاديث الصحيحة تبين أن النبيَّ ﷺ يقول ـ مثلا ـ كما في « صحيح البخاري» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ :

« إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ »[(١)].

ولو أن الأمم قبل النبيِّ ﷺ استغرقت وقتًا في عمر الزمان كوقت ما بين الفجر إلى العصر ؛ فإن عمر أمة النبيِّ ﷺ بالمقارنة إلى أعمار الأمم التي مضت وسبقت إنما سيكون كوقت ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، ولا شك أن هذا الوقت بالنسبة إلى وقت الأمم السابقة يعدُّ قصيرًا ، لكن هل نستطيع من هذا الحديث أن نقف على حساب محدَّد لما تبقَّى من عمر الأمة ؟! لا، إطلاقًا ؛ ولذلك يقول النبيُّ ﷺ ـ كما في «الصَّحِيحَيْنِ» ـ من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ أنه ﷺ قَالَ : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ ، وَقَرَنَ بَيْنَ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى »[(٢)].

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ ﴾ [النحل:٧٧] ، تدَّبر هذا التعبير القرآني الذي يبين قربَ الساعة ، ومع أن الله ﷻ قد أخفى وقت قيام الساعة ؛ فإنه سبحانه وتعالى قد أخبرَ بأماراتٍ وعلاماتٍ تدلُّ على قرب وقوعها .

وقد سَمَّى القرآن الكريم هذه الأمارات والعلامات أشراطًا ؛ قال تعالى : ﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَا ﴾ [محمد:١٨] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب مواقيت الصلاة ، باب من أدرك ركعة من العصر قبل المغرب (٥٥٧) ، وانظر أطرافه هناك ، وثبت عن أبي موسى الأشعري عند البخاري (٥٥٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب قول النبي ﷺ : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ » برقم (٦٥٠٣) ، وفيه برقم (٥٣٠١) ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب قرب الساعة برقم (٢٩٥٠) ، وثبت عن أنس عند البخاري (٦٥٠٤) ، ومسلم (٢٩٥١) ، وعن أبي هريرة عند البخاري (٦٥٠٥) .

والأشراطُ : جمع شَرَطْ ؛ بفتح الشين والراء ، بخلاف شَرْط؛ بفتح الشين وتسكين الراء ؛ فشَرْط مفرد شروط ، وشَرَطْ مفرد أشراط[(١)] .

والأشراطُ : هي الأمارات والعلامات التي تكون قبل قيام الساعة ، وتدلُّ على قُرْبِهَا .

يقول الطيبيُّ رحمه الله : « الآياتُ أمارات للساعة ، إما على قربها ، وإما على حصولها » .

فمن العلامات التي تدل على قربها ـ مثلاً ـ الدجال ، ونزول عيسى ، ويأجوج ومأجوج ، والخسف .

ومن العلامات التي تدلُّ على وقوعها بالفعل الدُّخَان ، وطلوع الشمس من مغربها ، وكذلك النار التي تحشر الناس إلى محشرهم .

وقد ورد كثيرٌ من الأحاديث الصحيحة التي بَيَّنَ فيها الصادق المصدوق ﷺ جملة من أشراط الساعة .

فمثلاً ـ في «الصَّحِيحَيْنِ» [(٢)] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ عَظِيمَتَانِ يَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ ، دَعْوَتُهُمَا وَاحِدَةٌ ، وَحَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ قَرِيبٌ مِنْ ثَلاَثِينَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ الله ، وَحَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ ، وَتَكْثُرَ الزَّلاَزِلُ ،

---

(١) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٢/ ٤٦٠)، و «لسان العرب»(٧/ ٣٢٩، ٣٣٠) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العلم ، باب من أجاب الفُتيا بإشارة اليد والرأس ، برقم (٨٥) ، وانظر أطرافه هناك ، وانظر رقم (٧١٢١) فاللفظ له ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما برقم (١٥٧) .

وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ ـ وَهُوَ الْقَتْلُ ـ وَحَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ الْمَالُ فَيَفِيضَ حَتَّى يُهِمَّ رَبَّ الْمَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ ، وَحَتَّى يَعْرِضَهُ فَيَقُولَ الَّذِي يَعْرِضُهُ عَلَيْهِ : لاَ أَرَبَ لِي بِهِ ، وَحَتَّى يَتَطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبُنْيَانِ ، وَحَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ ، فَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ ، وَحَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ؛ فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ ، فَذَلِكَ حِينَ ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام:١٥٨] ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلاَنِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلاَ يَتَبَايَعَانِهِ وَلاَ يَطْوِيَانِهِ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ فَلاَ يَطْعَمُهُ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يُلِيطُ حَوْضَهُ فَلاَ يَسْقِي فِيهِ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلاَ يَطْعَمُهَا ».

فهذا حديثٌ يبين فيه النبيُّ ﷺ بعض أشراط وعلامات الساعة ، منها الصغرى ، ومنها الكبرى ، وسنقف عند كلِّ علامة بالتفصيل ـ بإذن الله تعالى .

ومنها : ما رواه البخاريُّ [(١)] ـ رحمه الله تعالى ـ من حديث عوف بن مالك ﷺ قَالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ ، مَوْتِي ، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، ثُمَّ مُوتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا ، ثُمَّ فِتْنَةٌ لاَ يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجزية والموادعة ، باب ما يُحْذَرُ مِنَ الغدر (٣١٧٦) .

إِلاَّ دَخَلَتْهُ ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ فَيَغْدِرُونَ ، فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً ، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا ».

ومنها : الفُحش والتفحش ، وقطيعة الرحم ، وتخوين الأمين وائتمان الخائن .

ومنها : أن يمر الرجل في المسجد لا يصلي فيه ركعتين ، وألَّا يُسلِّم الرجل إلا على من يعرف !

ومنها : أن يتباهى الناس في المساجد ! إلى آخر العلامات ؛ كما سنبين إن شاء الله تعالى .

*****

أقسام العلامات

اعلم ـ أخي ـ أنَّ هذه الأشراط والعلامات قسَّمها العلماء قسمين :

١ ـ علامات صغرى .

٢ ـ علامات كبرى .

وسنتكلَّم عن العلامات الصغرى أولاً ؛ كما يلي :

١ ـ العلامات التي وقعت وانتهت .

٢ ـ العلامات التي وقعت ولم تنته .

٣ ـ العلامات التي لم تقع بعد .

ثم بعد ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ سنتحدث عن العلامات الكبرى للساعة ، والله وليُّ التوفيق .

العلامات الصغرى التي وقعت وانتهت

وأودُّ ـ أولًا ـ أن أبيِّن أن العلامات الصغرى لم يثبت فيها حديثٌ عن النبيِّ ﷺ يبين ترتيب حدوثها ووقوعها ؛ ولذلك قد يأتي حديثي عن العلامات الصغرى باجتهادٍ مني في ترتيب الأحداث من خلال قراءتي ورؤيتي للأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ .

الأمر الثاني : ذكر عددٌ كبيرٌ من أهل العلم علامات صغرى كثيرة ، فلما وقفت على كثير من هذه العلامات ، وعُدْتُ لأُحَقِّقَ الأحاديث ؛ فوجدتُ أن هذه الأحاديث ضعيفةٌ لا تثبت عن النبيِّ ﷺ .

لذا سوف أقتصر على ما صحَّ عن النبيِّ ﷺ في العلامات الصغرى .

الأمر الثالث : بعض الناس قد يفهم من كون الشيء ذكره النبيُّ ﷺ علامة من العلامات الصغرى ، أن هذا الشيء محظورٌ ومحرَّمٌ وممنوع ! وهذه قاعدة غير مسلَّمٍ بها على الإطلاق ؛ فالنبيُّ ﷺ ذكر أن تطاول الناس في البنيان من علامات الساعة ، لكن ليس هذا من الأدلة على تحريم ارتفاع البنيان ، وكذلك فشوُّ المال كعلامة من علامات الساعة الصغرى التي ذكرها النبيُّ ﷺ ، وليست دليلاً على تحريم كثرة المال .

إذًا ليس معنى ورود أمرٍ عن رسولِ الله ﷺ يثبت فيه شيئًا من علامات الساعة الصغرى دليل على أنه محرَّم ؛ وإنما قد يكون هذا الأمر محرمًا ، وقد لا يكون ، وقد يكون واجبًا ، وقد يكون مباحًا ، وقد لا يكون..[1] وهكذا ؛

---

(١) انظر : «صحيح مسلم بشرح النووي» (١/ ١٩٤ط ـ الحديث) بمعناه .

فهذه ملحوظةٌ مهمةٌ ، حتى لا نحكُم بالتحريم على أي أمر أورده الشرع من كلام النبيِّ ﷺ على أنه من علامات الساعة الصغرى أو الكبرى .

فما هي العلامات الصغرى التي وقعت وانتهت؟

١ـ بعثة النبيِّ ﷺ :

يقول النَّبيُّ ﷺ ؛ كما في الحديث الذي رواه البخاريُّ من حديث سهل ابن سعد رضي الله عنه : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ هَكَذَا » وَيُشِيرُ بِإِصْبَعَيْهِ فَيَمُدُّ بِهِمَا.

وفي بعض الروايات أنه أشار بالسبابة والوسطى ؛ كما في حديث أنس رضي الله عنه في «صحيح مسلم» ، قَالَ ﷺ : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ » وَضَمَّ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى(١) .

فأول علامة أو شَرَطٍ من علامات الساعة : بعثة النبيِّ ﷺ ؛ فهو النبيُّ الخاتم ، لا يليه نبيٌّ آخر، وإنما تليه القيامة ، وأودُّ أن أبين أن نزول عيسى عليه السلام ليحكم الأرض ـ آخر الزمان ـ ليس نزوله كنبيٍّ خاتم ، وإنما ينزل ليحكم الأرض بشريعة محمد ﷺ ـ وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله .

فالنبيُّ ﷺ هو خاتمُ النبيين ، وليس بعده نبيٌّ ، وإنما تأتي بعده مباشرة القيامة ؛ قال تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠] .

فأول علامة من العلامات الصغرى التي وقعت وانقضت : بعثة النبيِّ محمد ﷺ .

---

(١) تقدم تخريجه ، وانظر البخاريَّ (٤٩٣٦، ٥٣٠١، ٦٥٠٣) ، وصحيح مسلم (٢٩٥٠) من حديث سهل رضي الله عنه ، والبخاري (٦٥٠٤) ، ومسلم (٢٩٥١) من حديث أنس رضي الله عنه .

٢ـ انشقاق القمر :

وهذه الآية من أشراط الساعة[١] ؛ لأن الله تعالى قرنها باقتراب الساعة ؛ قال تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ [القمر:١-٣] ، وقد سبق الحديث عن انشقاقه في معجزات النبيِّ ﷺ[٢] .

٣ـ موت النبيِّ ﷺ :

وهذه علامة من العلامات الصغرى التي وقعت وانتهت .

يقول النبيُّ ﷺ كما في «صحيح البخاري»[٣] من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه ـ الذي ذكرته آنفا ـ أنه ﷺ قال: « اعْدُدْ سِتًّا (أي: ست علامات) بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ ؛ مَوْتِي ...» .

ولا شك أن موت النبيِّ ﷺ كان من أعظم المصائب إن لم يكن هو أعظم المصائب التي وقعت على الأمة ؛ فلقد أظلمت الدنيا في عيون أصحاب النبيِّ ﷺ لما مات سيد الرُّسل محمد ﷺ .

كما قال أنس بن مالك رضي الله عنه : « لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ ، أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ ، وَمَا نَفَضْنَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ الأَيْدِي ، وَإِنَّا لَفِي دَفْنِهِ

---

(١) يرى بعض أهل العلم أن انشقاق القمر آيةٌ تأتي بين يدي الساعة وتختلف عن الانشقاق الذي جعله الله آية لرسوله ﷺ في زمانه لما سأله المشركون أن يريهم آية . فانشق القمر فرقتين . انظر :«التذكرة» للقرطبي(٦٣٨، ٦٣٩) ط دار الدعوة .

(٢) انظر : «صحيح البخاري» (٣٦٣٦، ٣٦٦٨) ، مع الفتح (٧/ ٢٢٥) .

(٣) سبق تخريجه .

حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا» .

والأثر رواه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجة ، وغيرهم [(١)].

فقالت فاطمة رضي الله عنها [(٢)]لأنس : « يَا أَنَسُ ، أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ التُّرَابَ» .

فأنس رضي الله عنه يقول : « أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا » .

ولكن لأن الله تعالى قد جعلها سُنَّة ماضية في العالمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؛ فقد هيأ الله قلوب أصحاب النبيِّ ﷺ لفعل ذلك ، فوالله الذي لا إله غيره ما عرفت الدنيا ، ولن تعرف البشرية نظيرًا لحب أصحاب النبيِّ ﷺ لنبيهم .

ولك أن تتصور شهادة عروة بن مسعود الثقفي [(٣)]يوم أن أرسلته قريش ليفاوض النبيَّ ﷺ في الحديبية ، وعاد ليقول لهم : « يا قوم ! والله لقد وفدْتُ على الملوك ، لقد وفدْت على كسرى في ملكه ، وعلى قيصر في ملكه ، وعلى النجاشي في ملكه ، فما رأيت أحدًا يعظِّمه أصحابه كما رأيت أصحاب محمد يعظِّمون محمدًا ﷺ والله ما أمرهم بأمر إلا وابتدروا أمره ، وما يحدُّ أحدهم الطرف إليه إجلالا له ، وما تنخَّم

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٢١، ٢٦٨) ، والترمذي ، كتاب المناقب ، باب في فضل النبي ﷺ (٣٦١٨) ، وقال : «حديث غريب صحيح» ، وابن ماجه ، كتاب الجنائز ، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ (١٦٣١) ، والدارمي في المقدمة (٨٨) ، والبغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٥٠) (٣٨٣٤) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي وابن ماجه» .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المغازي ، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٦٢) .

(٣) تقدم تخريجه .

نُخَامة إلا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم ، فدلَّكَ بها وجهه وجلده » .

وصنيع الصحابة إنما وقع في هذا الحال ليدلِّلوا لعروة أنهم أشد الناس حبًّا لحبيبهم ﷺ ؛ فلم يكن من الممكن أن يَدَعُوه أو أن يَفِرُّوا عنه ، لذا بالغوا في هذا الفعل أمامه ، فكانت واقعة عين لا غير !

وهذا صحابيٌّ يقول : « يا رسُولَ الله ، والله إني لأكونُ في بيتي فأذكرك ، فلا أَصْبر حتى آتي لأنظر إليك ، ولقد تذكَّرتُ اليوم مَوْتي وموتك ، وعلمتُ أنك إن توفَّاك الله رُفعتَ في الجنة في مرتبة النبيين ، وأخشى إن دخلت الجنة ألَّا أراك »[1] .

انظروا إلى هذا التفكير العالي ، يفكر هل يصبر ألا يرى النبيَّ ﷺ في الجنة ؟ فهو لا يصبر على ذلك ، ولم يُجب النبيُّ ﷺ عن هذا السؤال الرقراق حتى نزل عليه قول الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[النساء:٦٩] .

انظروا إلى محبَّة ومكانة النبيِّ ﷺ في قلوب الصحابة ـ رضوان الله عليهم جميعًا ، ولكني أعتقد أن الله تعالى قد هيأ الصحابة لفعل ذلك ، وإلا لما دفنوا رسول الله ﷺ !

فهذا هو الصدِّيق يدخل فيشقُّ الجموع الملتهبة التي تصرخ وعلى

---

(١) تقدم تخريجه .

رأسها عمر بن الخطاب وهو ينكر موت النبيِّ ﷺ ، ويقول : « إن النبيَّ ﷺ ما مات ؛ بل ذهب للقاء ربه كما ذهب موسى بن عمران عليه السلام ، وليرجعن النبيُّ ﷺ وليقطعن أرجل وأيدي المنافقين الذين يزعمون أنه قد مات !».

وتصوَّر أنَّ فاروق الأمة هو الذي يقول ذلك ؛ فما ظنك بمن هو دونه ؟! وثبَّت الله يومها رجُلَيْنِ اثنيْن ، ليَمْضي حُكمُ الله ، وشرع الله ، ثبَّت الصدِّيق والعباس رضي الله عنهما ؛ فجاء الصدِّيق من بيته بالسُّنْح[1] وشق الجموع ، ودخل على غرفة عائشة فوجد النبيَّ ﷺ قد مات ، وقد غُطي وجهه الأزهر ، وبدنه الأطهر بغطاء ؛ فبرك الصدِّيق على ركبتيه بحذاء رأس المصطفى ﷺ ، وعلم أن الأمر قد تمَّ ، وأن حكم الله قد وقع ؛ فكشف الغطاء عن وجهه وقبَّله بين عينيه وبكى ، وقال : « طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا يَا رَسُولَ الله ، أَمَّا الموتةُ التي كَتَبها الله عليك فقد ذُقْتَها ، فلا أَلَمَ عَلَيْكَ بَعْدَ اليوْمِ » .

ثم خرج الصدِّيق لينادي على هذه الجموع الملتهبة ، وهو يقول : « على رِسْلك يا عمر ، فالتفَّ الناسُ حَوْل أبي بكر » ، فوقف ليُعْلِنَ الحقيقة الكبرى التي سيشرب كأسها حتمًا الأنبياء والمرسلون ؛ بل والعصاة والطائعون ، تلك الحقيقة التي تُعلن على مدى الزمان والمكان في أُذُنِ كلِّ سامع ، وعقل كلِّ مفكر ، أنه لا بقاء إلا لله.. إلا للحيِّ الذي لا يموت .

(١) قال الحافظ : « بضم المهملة ، وسكون النون وبضمها أيضًا ، وآخره حاء مهملة ، وهو مسكن زوجة أبي بكر الصديق » ، (الفتح ٧/ ٧٥٢) .

قال الصِّدِّيق : « أَيُّهَا النَّاسُ ، مَنْ كَانَ يَعْبُدُ محمَّدًا ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ ؛ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوت » .

وذكَّر الجموع بقوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ (١) [آل عمران:١٤٤] .

مات النبيُّ ﷺ ، فكان موته ﷺ أعظمَ مصيبةٍ أصابت الأمة .

فبموته انقطع الوحي من السماء ، وهذه مصيبةٌ كما في جواب أم أيمن رضي الله عنها لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

فروى مسلمٌ (٢) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : « قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ الله ﷺ لِعُمَرَ : انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَزُورُهَا ، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ ، فَقَالاَ لَهَا : مَا يُبْكِيكِ ؟ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ ؛ فَقَالَتْ : مَا أَبْكِي ، أَنْ لاَ أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ ، وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ ، فَجَعَلاَ يَبْكِيَانِ مَعَهَا» .

قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

(١) انظر : البخاريَّ ، كتاب المغازي ، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٥٤) (مع « الفتح » ٧/ ٧٥٣) ، وسيرة ابن هشام (٢/ ٤٤٧) ، و« سبل الهدى والرشاد » (١٢/ ٢٩٨) وما بعدها .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أم أيمن رضي الله عنها (٢٤٥٤) .

[الأنبياء:٣٤، ٣٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر:٣٠، ٣١] .

قال القرطبيُّ ﷺ[1] : «أول أمر دَهَم الإسلام موت النبيِّ ﷺ، ثم بعده موت عمر ﷺ فبموت النبيِّ ﷺ انقطع الوحي ، وماتت النبوءة ، وكان أول ظهور الشرِّ بارتداد العرب وغير ذلك ، وكان أول انقطاع الخير وأول نقصانه .

قال أبو بكر ﷺ في أبياتٍ يرثي بها النبيَّ ﷺ :

فلتَحْدُثَنَّ حوادث من بعده تعنى بهم جوانح وصدور

وقالت صفية بنت عبد المطلب ﷺ :

لعمرك ما أبكي النبي لفقده ولكن ما أخشى من الهرج آتيا».

انتهى المراد .

والهرج : هو القتل ؛ فموت النبيِّ ﷺ علامة من العلامات الصغرى التي ظهرت وانقضت وانتهت ؛كما أخبر بذلك الصادق الذي لا ينطق عن الهوى .

٤ ـ طاعون عمواس :

وعمواس بلدٌ في فلسطين على بُعْدِ ستة أميال من الرملة على طريق بيت المقدس ؛ كما قال ياقوت الحموي[2].

قال النبيُّ ﷺ ؛ كما في حديث عوف ب مالك ﷺ[3] السابق ذكره

(١) «التذكرة» للقرطبي (٥٦٦) .

(٢) «معجم البلدان» (٤/ ١٥٧) .

(٣) سبق تخريجه .

قال : « « اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ...» ، وذكر منها : « ثُمَّ مُوْتَانٌ » .

ومُوْتَانٌ : بضم الميم موت كثير ، يقع أو «يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الغَنَمِ» ، أي كالداء الذي يصيب الغنم ، فيهلك أكثرها .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله[1] : « هذه الآية : أي العلامة قد ظهرت في طاعون عمواس في خلافة عمر رضي الله عنه ، وكان ذلك بعد فتح بيت المقدس » .

وهو على الراجح في سنة ثمانية عشر للهجرة ، وهذا قول الجمهور [2] .

فوقع هذا الطاعون الذي انتشر بعد ذلك في أرض الشام ، ومات فيه خلقٌ كثيرٌ جدًّا من أصحاب النبيِّ ﷺ ومن غيرهم ؛ بل بلغ عددُ مَنْ مات في هذا الطاعون ما يزيد على خمسة وعشرين ألفًا ، ومن بينهم ، وعلى رأسهم أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه .

ونحن نعلم الخلاف الذي وقع بين أبي عبيدة بن الجراح وعُمر بنِ الخطاب رضي الله عنهما لَمَّا أبى عمر بن الخطاب أن يدخل البلدة التي فيها الطاعون .

وقال له أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين أَنَفِرُّ من قدر الله ؟ .

فقال عمر ـ الفقيه : « نعم ، نفرُّ من قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله » ، نفرٌّ من

(١) «فتح الباري»(٦/ ٣٤٢) .

(٢) انظر : «البداية والنهاية» (٦/ ٢٧٨) .

قَدَرِ الله في البلاء إلى قَدَرِ الله في العافية ، فكلُّ شيء بقَدَرِهِ ـ تبارك وتعالى :
﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر:٤٩] ، إلى أن جاء عبد الرحمن بن عوف ،
فأخبر الصحابة بحديثٍ للنبيِّ ﷺ أنه قَالَ : « إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ ، فَلاَ
تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا ، فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ »[(١)].

فإن أول من قنن القانون الذي يعرف بالحَجْر الصحي هو النبيُّ ﷺ.

وهذه أيضًا علامة من العلامات الصغرى التي وقعت وانقضت وانتهت .

٥ ـ استفاضة المال :

وهذه من العلامات الصغرى التي وقعت وانقضت ، وربما يتكرَّر جزءٌ
منها ، يفيض المال حتى يُستغنى عن الصدقة .

وفي « صحيح البخاري ومسلم »، عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن النَّبِيَّ ﷺ
قَالَ : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ المَالُ ، فَيَفِيضَ حَتَّى يُهِمَّ رَبُّ المَالِ
مَنْ يَقْبَلُهُ صَدَقَةً ، وَيُدْعَى إِلَيْهِ الرَّجُلُ ، فَيَقُولَ : لاَ أَرَبَ لِي فِيهِ »[(٢)].

أي : لا حاجة لي فيه !!

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ
زَمَانٌ يَطُوفُ الرَّجُلُ فِيهِ بِالصَّدَقَةِ مِنَ الذَّهَبِ ، ثُمَّ لاَ يَجِدُ أَحَدًا يَأْخُذُهَا
مِنْهُ »[(٣)].

---

(١)سبق تخريجه .
(٢)أخرجه البخاريُّ ، كتاب الزكاة ، باب الصدقة قبل الرد ، برقم (١٤١٢) ،ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقلبها ، برقم (١٥٧) .
(٣)أخرجه البخاريُّ ، كتاب الزكاة ، باب الصدقة قبل الرد ، برقم (١٤١٤) ،ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها ، برقم (١٠١٢) .

وقال ﷺ - كما في «صحيح مسلم» من حديث ثَوْبَانَ رضي الله عنه: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ»[1].

وفي «صحيح مسلم»[2] عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ ﷺ: «وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الأَرْضِ».

وفي «صحيح البخاريِّ»[3] من حديث عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ (الفقر) ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ (قطاع الطرق) فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ، هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ؟» قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا، قَالَ: «فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ (المرأة التي تركب الظعن أو الهودج) تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ»، قُلْتُ - فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّءٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا الْبِلاَدَ؟ قَالَ: «وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى»، قُلْتُ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ؟ قَالَ: «كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ، فَلاَ يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ».

يقول عديٌّ رضي الله عنه: «فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، برقم (٢٨٨٩).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٢٢٩٦)، وانظر البخاريَّ (٤٠٤٢).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب «الزكاة»، باب الصدقة قبل الرد برقم (١٤١٣)، وانظر أطرافه هناك، وانظر (٣٥٩٥) وهذا لفظه.

بِالْكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ إلاَّ الله ، وَكُنْتُ فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: « يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ ».

ولا شك أن المال قد كثر في حياة النبيِّ ﷺ، وفي حياة أصحابه ـ رضوان الله عليهم جميعًا ـ بسبب ما وقع من الفتوح ؛ فاقتسم الصحابة أموال الفرس وأموال الروم .

ووقعت بالفعل في عهد عمر بن العزيز ، وسيكثر المال أيضًا في آخر الزمان في عهد نبيِّ الله عيسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ حتى سيخرج الرجل بماله ليبحث عن أهل الصدقة ليعطيهم فلا يجد ؛ لأن بعض علامات الساعة يكون قد وقع بالفعل ؛فحينئذٍ لا يرى الرجل أربًا أو حاجة للمال ، وإنما يستعد للقيامة ؛ لأن القيامة بالفعل قد وقع بعض علاماتها الكبرى بوجود نبيِّ الله عيسى عليه السلام.

أما في عهد عمرَ بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ [(١)] الذي ولاه الخلافة من بعده سليمانُ بن عبد الملك رحمه الله بمشورة موفَّقة من وزيره الصالح رجاء بن حيوة قال له سليمان : يا رجاء ، ترى فيمن يكون الأمر بعدي ؟ فقال له رجاء ـ كلماتٍ تكتب في ميزانه ، ونصَحَهُ نصيحةً غاليةً ـ فقال : يا أمير المؤمنين ، إن مما يحفظك في قبرك ، ويشفع لك في أُخراك أن تستخلف على المسلمين رجلاً صالحًا ؛ فقال سليمان : فَمَنْ عَسَاه يكون ؟ فقال رجاء ـ بلا تردد : إنه عمر بن عبد العزيز .

---

(١)انظر ما سيأتي في « سيرة عمر بن عبد العزيز » لابن عبد الحكم ، و« سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز » لابن الجوزي ، و«سيرة عمر بن عبد العزيز » لعفت وصال حمزة .

هل تتصورون كم كان عُمْرُ عُمَرَ بن عبد العزيز في هذا الوقت ؟ كان في السادسة والثلاثين من عمره !!

فقال سليمان بن عبد الملك لرجاء : والله لأعقدن لهم عقدًا لا يكون للشيطان فيه نصيب ، وكتب سليمان بن عبد الملك كتابًا بتولية عمر وختمه بخاتمه وطواه ، وتواصى مع رجاء بن حيوة ألاَّ يعرف أحد مضمون هذا الكتاب ، ودعا سليمان أمراء بني أُمية جميعًا وأمرهم أن يبايعوا من استخلفه في هذا الكتاب ؛ فبايعوه بلا استثناء وهم لا يعلمون من الخليفة الجديد ، ومات الخليفة سليمان ، وهرع الناس إلى المسجد ينتظرون أن يبايعوا هذا الرجل الذي أمر الخليفة ببيعته وهم لا يعلمون ، وامتلأ المسجد بالناس ، وكان المعهود أن تكون الخِلافة وراثة ، وهذا على عهد الأمويِّين ، وقام رجاء بن حيوة ليأخذ البيعة للخليفة الجديد ، وصمتت الأنفاس ؛ بل وانحبست في الصدور ، وهم ينتظرون أن ينادَى على الخليفة الجديد ، ويا ترى من سيكون من بين هذه الجموع ؟ وإذا برجاء بن حيوة ينادي على عمر بن عبد العزيز ، ولم يَكَدْ عمرُ ينتبه من هول المفاجأة حتى راح يرتعد ويرتجف كعصفور مبلل بماء المطر ، ولم يستطع أن يقوم ، فحمله الناس ، فاتكأ عليهم حتى ارتقى المنبر ، وقال كلامًا عجيبًا بعد أن حَمِدَ اللهَ وأثنى على رسول الله ﷺ ، ثم قال : «أما بعد ؛ فلقد ابتليتُ بهذا الأمر على غير رأي منِّي ولا مشورة منكم ، وإني أخلع بيعة من بايعني ، فاختاروا لأنفسكم » ، ولم يكد هذا الوَرِعُ التقيُّ أن ينتهي من كلامه حتى اهتز المسجد بدمدمة رهيبة أطلقتها

الخناجر الصادقة الصارخة : بل إياك نختار يا أمير المؤمنين ، فتولَّ أمرنا على بركة الله ، واندفعت الجموع تبكي من الفرح ، بينما راح عمر بن عبد العزيز يجهش بالبكاء ، وورث عمرُ هذه التركة الضخمة التي شُوهت بالظلم ، ولُوِّثت بالدماء على يد معظم أمراء بني أميَّة ، ويذهب إليه رجاء بن حيوة ؛ ليقول له : استرح يا أمير المؤمنين ، فيجيبه عمر ودموعه على خدَّيْهِ ، ويقول : لقد فعلتها يا رجاء ، فدعني أستنقذ نفسي من عذاب الله .

وفي أول يوم من خلافة عمر الراشدة ، يدخل تحت إصرار المقربين ليستريح ، وما كاد عمر يُسلم جنبه للفراش ليستريح إلا ودخل عليه في غرفته ولده عبد الملك ، لم يتجاوز العشرين من عمره ، ويقول له : ماذا تريد أن تفعل يا أمير المؤمنين ؟ فيقول عمر : أي بني ، أريد أن أغفو (أي : أنام) قليلاً ، فلم يبق في جسدي شيءٌ من الراحة ، ولم يبق في جسدي شيءٌ من الطاقة ؛ فقال له الولد البار : أتغفو قبل أن ترد المظالم إلى أهلها يا أمير المؤمنين ؟ ، فقال عمر : يا بني إني متعب ، وإذا حان وقت الظهر صليتُ بالناس ، ورددت المظالم إلى أهلها ؛ فقال له ولده عبد الملك : وهل تضمن أن تعيش إلى الظهر يا أمير المؤمنين ؟ فجلس عمر وكأن حية رقطاء قد أفرغت كلَّ سمومها في جوفه !! وقال لولده : ادْنُ مني يا عبد الملك ، فدنا منه ؛ فقام هذا الرجل المتعب كأنه قوةٌ خارقة ، فاحتضن ولده وقبَّله بين عينيه ، وقال : الحمد لله الذي أخرج من صُلْبي من يعينني على أمر الله ، نِعْمَ العون أنت يا بني على أمر الله ، ثم خرج

عمر على الفور ، وأمر أن ينادي في الناس : « ألا من كانت له مظلمة فليرفعها » .

ويبدأ عمر بن عبد العزيز حياة فاروقية عمرية خطّابية ؛ فهذا الشبل من ذاك الأسد ، فلقد جاء عمر بن عبد العزيز ليعيد للأرض حياة عمر بن الخطاب ، يرفع عمر بن عبد العزيز الظلم ، ويجدد معالم هذه الحياة في خطبة جامعة على المنبر ؛ فيقول : « أيها الناس : إنه ليس بعد نبيكم نبيٌّ ، وليس بعد هذا الكتاب الذي أُنزل عليه كتاب ، فما أحل الله على لسان نبيه ﷺ فهو حلال إلى يوم القيامة ، وما حرَّم الله على لسان نبيه ﷺ فهو حرام إلى يوم القيامة ، ألا وإني لست بقاضٍ وإنما أنا منفذ ، وإني لست بمبتدع ، وإنما أنا متبع ، ولست بخيركم ، إنما أنا رجل منكم ، ولكني أثقلكم حِملاً ، ثم خنقه البكاء والنحيب ، وهو يقول : وأيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة ، ولا أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلمه عندي من الذنوب ، وأستغفر الله وأتوب إليه » .

وينزل عمر بن العزيز ﷺ فتدخل عليه زوجته الصابرة الوفية (فاطمة بنت عبد الملك وهي بنت الملوك والأمراء) فتراه يبكي ويرتعد ، والدموع تنسال على خديه مدرارًا ؛ فتقول : يا أمير المؤمنين ، لِمَ البكاء ؟ فيقول : يا فاطمة ، إني قد وُلِّيت أمر هذه الأمة ، ففكَّرت اليوم في الفقير الضائع ، والمريض الجائع ، والعاري المجهود ، واليتيم المكسور ، والمظلوم المقهور ، والغريب والأسير ، والشيخ الكبير ، والأرملة الوحيدة ، وذي العيال الكثير والرزق القليل ، فكرت في هؤلاء وأشباههم

في أقطار الأرض وأطراف البلاد ، وعلمت أنَّ ربي سيسألني عنهم يوم القيامة ، وأن خصمي دونهم هو محمَّد ﷺ ، فخشيت ألا تثبت لي يوم القيامة حجة بين يدي الله ﷻ (هذه رؤية عمر ، وتلك عقيدته من أول يوم تولى الولاية) وقام ليؤصل للناس السياسة العمرية الجديدة ؛ فيقول لولاة الولاية : « كونوا في العدل والإصلاح والإحسان بقدر ما كان قبلكم في الظلم والفجور والعدوان» . انظروا إلى هذه الحياة الجديدة من أول يوم لتعلموا يقينًا أن وعد الله حق : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف:٩٦] .

وعد الله حق ، ووعد الله لا يُخلَفُ لمن امتثل أَمْرَه ، واجتنب نهيه ، ووقف عند حدوده .

ثم يوضِّحُ عمر للناس منهجه من أول يوم ؛ فيقول : «أيها الناس ، من أراد أن يَصْحَبنا بخمسة شروط أو يفارقنا :

أولاً : يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع أن يرفعها إلينا .

ثانيًا : ويعيننا على الخير بجهده .

ثالثًا : ويدلنا على الخير ما لم نهتدي إليه .

رابعًا : ولا يغتابن عندنا أحدًا .

خامسًا : ولا يعرضن لما لا يعنيه .

أصول لسياسة عمر ، كان لابد من هذه المقدمة ، ولذلك في مدة لا

تساوي في حساب الزمن شيئًا على الإطلاق ؛ في سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام ـ هذه مدة خلافة عمر بن عبد العزيز ـ ويَحْدُثُ هذا التغيير الرهيب من هذا الناسك الورع ، الذي استطاع بيدٍ رحيمةٍ طاهرةٍ كريمةٍ أن يستلَّ جرثومة الداء الذي استشرى في جسد هذه الأمة ، فأخرجه لتعود الأمة المريضة إلى عافيتها ، وتعود إلى منهج ربها وإلى سُنَّةِ نبيها محمد ﷺ، حتَّى نرى أنفسنا أمام هذا الإجماع التاريخي المذهل عن اختفاء الفقر في عهد عمر ، اختفى الفقر تمامًا ، ويرسل عمر بن عبد العزيز كُتُبًا إلى الآفاق ، وإلى البلاد ، وإلى الأمصار والدول ، إلى دولته الرهيبة التي كانت تبلغ ربع العالم كله اليوم ، ويرسل إلى كلِّ هذه الآفاق ، ويقول :

« من كانت عليه أمانة وهو لا يقدر على أدائها تُؤَدَّى من بيت مال المسلمين ، ومن أراد أن يتزوَّج ولا يقدر على الصداق يُعْطَى من بيت مال المسلمين ، ومن أراد أن يحج يُعْطى النفقة من بيت مال المسلمين ، ومن كان عليه دَيْنٌ ولا يستطيع أن يؤديه فسداد دَيْنِه من بيت مال المسلمين ، وما هو من يوم يمر إلا وينادي منادي عمر : أين الغارمون ؟ أين من يرغبون في الزواج ؟ أين المساكين ؟ أين اليتامى ؟

وَقد عبَّر رجلٌ فقير عن حالة الناس في عهد عمر بن عبد العزيز تعبيرًا دقيقًا ؛ فلقد لبس عمر يومًا ثيابًا فقيرة رثة ، وأخفى نفسه ، وخرج بين الناس ليتفقد أحوالهم ، وليسأل الناس عن عمر بن عبد العزيز ، فالتقى برجلٍ فقيرٍ من المسلمين جاء من المدينة ؛ فقال له عمر : كيف تركت الناس في المدينة ؟ فقال الرجل لعمر وهو لا يعرفه : تركت البلاد والظالم فيها

مقهور ، والمظلوم فيها منصور ، والغني موفور ، والفقير مجبور [(١)] .

فقال عمر ـ ودموع الشكر تنسال على خده من الفرح ـ والتفت إلى صاحبه مُزاحم ـ وقال : « والله يا مزاحم لأن تكون البلاد كلها على ما وصف هذا الرجل أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس » .

نعم .. وقع ما أخبر عنه الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ .

أغنى عمر الفقراء ، وزوَّج الشباب ، وسدَّ الديون ، وردَّ الأمانات ، وبقيت البركة باركة في بيت المال ؛ كما أخبر رب العالمين ، والصادق المصدوق سيد المرسلين محمد ﷺ .

إذًا يقع جزء من هذه العلامة في آخر الدنيا ، أي: في عهد عيسى عليه السلام ، فقد يخرج الرجل ملء كفيه ذهبًا أو فضة ليبحث عن سائل أو مسكين ليعطيه ؛ فيقول : « لا أَرَبَ لي فيه » ، وهذا لأن علامات الساعة الكبرى منها ما وقع بالفعل ، والناس حينئذٍ لا يريدون مالاً ولا دنيا ، إنما يفكرون في الآخرة .

٦ـ ظهور نار الحجاز :

كما في «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ ، تُضِيءُ أَعْنَاقَ الإِبِلِ بِبُصْرَى »[(٢)] .

بُصْرَى : مدينة بالشام .وهذه الآية العظيمة وقعت بالفعل سنة ستمائة

---

(١) ولله درُّ ابن تيمية إذ يقول : « إن الله يقيم الدولة العادلة ولو كانت كافرة ، ولا يقيم الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة » ، («الاستقامة» (٢/ ٢٤٧) ، و«الفتاوى» (٢٨/ ١٤٦) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الفتن ، باب خروج النار برقم (٧١١٨) ،ومسلم ،كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز برقم (٢٩٠٢) .

وأربع وخمسين للهجرة ، وقد تحدَّث عن ذلك المؤرخ والعلامة الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ [1] في أحداث سنة ستمائة وأربع وخمسين من الهجرة في كتابه القيم «البداية والنهاية»، تحدث عن هذه النار ؛ فقال : « في هذه السنة كان ظهور النار في أرض الحجاز التي أضاءت لها أعناق الإبل ببصرى » ، كما نطق بذلك الحديث المتفق عليه .

وقد بَسَطَ القول في ذلك الشيخ الإمام العلامة الحافظ شهاب الدين أبو شامة المقدسي في كتابه «الذيل وشرحه » ، واستحضره من كتب كثيرة وردت متواترة إلى دمشق من الحجاز بصفة أمر هذه النار التي شوهدت معاينة وكيفية خروجها وأمرها ، وملخص ما أورده أبو شامة أنه قال : «جاء إلى دمشق كتب من المدينة النبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ بخروج نار عندهم في الخامس من جمادى الآخرة من هذه السنة ، وكتبت الكتب في الخامس من شهر رجب ، والنار لا زالت على حالتها ، ووصلت الكتب إلينا في العاشر من شهر شعبان ، وقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، ورد إلى مدينة دمشق في أوائل شعبان من سنة ٦٥٤ كُتب من مدينة رسول الله ﷺ فيها شرح أمر عظيم حدث بها فيه تصديق لما في «الصحيحين» من حديث رسول الله ﷺ: « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ ، تُضِيءُ أَعْنَاقَ الإِبِلِ بِبُصْرَى ».

فأخبرني من أثق به ممن شاهدها أنه بلغه أنه كُتب بتيماء على ضوئها الكتب ، قال : وكنا في بيوتنا تلك الليالي ، وكأن في دار كل واحد منا سراج ،

---

(١) «البداية والنهاية» (١٣/ ٢١٢) ط ـ دار الحديث .

ولم يكن لها حرٌّ ولفحٌ على عِظَمِهَا ، إنما كانت آية من آيات الله ﷻ .

قال أبو شامة : وهذه صورة على ما وقفت عليه من الكتب الواردة فيها لما كانت ليلة الأربعاء في الثالث من جمادى الآخر سنة ٦٥٤، ظهر بالمدينة النبوية دوي عظيم ، ثم زلزلة عظيمة رجفت منها الأرض والحيطان والسقوف والأخشاب والأبواب ، ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور ، ثم ظهرت نار عظيمة في الحرة قريبة من قريظة نبصرها من دورنا من داخل المدينة كأنها عندنا وهي نار عظيمة يرتفع لهبها في السماء ما يزيد على ثلاث منارات (المنارة أي المئذنة) ، وقد سالت أودية بالنار إلى وادي شظا مسيل الماء ، وقد سدت هذه النار مسيل شظا ، وما عاد يسيل .

والله ، لقد خرجنا جماعة نبصرها ، فإذا الجبال تسيل نيرانا ، وقد سدت الحرة طريق الحاج العراقي ، فسارت إلى أن وصلت إلى الحرة ، فوقفت بعدما أشفقنا أن تجيء إلينا ، ورجعت تسيل في الشرق فخرج من وسطها سهول وجبال نيران تأكل الحجارة ، فيها أنموذج عما أخبر الله تعالى عنه في كتابه : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۝ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ [المرسلات:٣٢، ٣٣] .

وقد أكلت الأرض ، وقد كتبت هذا الكتاب في يوم الخامس من شهر رجب ٦٥٤، والنار في زيادة ما تغيرت ، وقد عادت إلى الحرة ، ويقول : وما عاد الناس يدرون أي شيء يتم بعد ذلك ، والله يجعل العاقبة إلى خير ، فما أقدرُ أن أصف هذه النار ، ثم قال لأخٍ له : والله يا أخي إن عيشتنا اليوم مكدرة ، والمدينة قد تاب جميع أهلها ، ولا بقي يُسمع فيها

رباب ، ولا دف ، ولا شرب ، ونمت النار تسيل إلى أن سدت بعض طرق الحاج وبعض طرق الحرة ، وجاء في الوادي إلينا منها يسير ، وخفنا أنه يجيئنا (أي: تأتيهم النار) فاجتمع الناس ، ودخلوا مسجد النبيِّ ﷺ وتابوا جميعًا في ليلة الجمعة ، وانطلق بعضهم إلى أمير هذه المدينة ، وأمروه أن يتوب إلى الله ﷻ وطرح المكوس (أي: طرح الضرائب)، وأعتق المماليك ، ورد على الناس ما كان عنده من أموال، وبقيت تلك النار على حالتها تلتهب التهاباً ، وهي كالجبل العظيم ارتفاعاً ، وكالمدينة عرضاً يخرج منها لهب يصعد في السماء ويهوي فيها ، ويخرج منها كالجبل العظيم ناراً ترمي كالرعد .. إلى آخر ما وصفه هذا المؤرخ الحافظ ابن كثير نقلاً عن أبي شامة ـ رحم الله الجميع .

وقعت هذه العلامة ، ومن الجائز وقوعها مرة أخرى وقد ذكرنا وصفًا صغيرًا لها بمثل ما أخبر النبيُّ الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ .

وقد ذكر هذه النار الإمام القرطبيُّ في كتابه : «التذكرة»[1] ، وكذلك الإمام النوويُّ في شرحه للحديث ، والحافظ ابن حجر .

هذه بعض العلامات الصغرى التي أخبر عنها الصادق المصدوق التي وقعت وانتهت وانقضت .

*****

(١) «التذكرة» (٢/ ٥٦٨، ٥٦٩) .

العلامات الصغرى التي وقعت ولا زالت

أما العلاماتُ الصغرى التي وقعت ولا زالت ، ومن الجائز أن يتكرَّر وقوعها قبل أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها ؛ فهي كما يلي :

١ ـ ظهور الفتن :

وهذه أول علامةٍ من العلامات الصغرى التي أخبر النبيُّ ﷺ عن وقوعها فوقعت ، ولَمَّا تنقض بعدُ ، ولازلنا نرى من هذه الفتن أنواعًا وأشكالًا .

نسأل الله ﷻ أن يحفظنا وإياكم من الفتن ما ظهر منها وما بطن ؛ إنه على كلِّ شيء قدير .

قال ابن منظور في «لسان العرب»[1] : «الفتن: جمع فتنة ، وهي الابتلاء والامتحان والاختبار... ثم كثر استعمالها فيما أخرجه الاختبار للمكروه ، ثم أطلقت الفتن على كلِّ مكروه أو آيل إلى مكروه ؛ كالإثم والكفر والقتل والتحريق ، وغير ذلك من الأمور المكروهة »[2] .

هذا هو التأصيلُ اللغويُّ لمعنى كلمة «الفتن».

وقد أخبر النبيُّ ﷺ أن من أشراط الساعة : ظهور الفتن العظيمة التي يلتبس فيها الحق بالباطل ، فتزلزل هذه الفتن الإيمان في القلوب ، حتَّى

---

(١) «لسان العرب» (١٠/ ١٧٨ مادة فتن) ط ـ إحياء التراث العربي ببيروت .

(٢) «لسان العرب» (١٠/ ١٨١) ؛ قاله ابن الأثير ، و«النهاية»(٣/ ٤١٠، ٤١١) ، وانظر مزيدًا في «الفتح» للحافظ ابن حجر في معنى «الفتنة»(١٣/ ٥) .

يُصْبِحَ الرجلُ مؤمنًا ويَمسي كافرًا ، ويُمْسِي مؤمنًا ويُصْبِح كافرًا .

كلَّما ظهرت فتنةٌ من الفتن ، قال المؤمن : هذه مهلكتي ، ثم تنكشفُ فتظهر فتنة جديدةٌ أخرى ، وهكذا لا تزال الفتن تظهر إلى قيام الساعة ؛ كما أخبر النبيُّ ﷺ [(١)].

ففي الحديث الذي رواه مسلمٌ من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا ، وَيُمْسِي كَافِرًا ، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا ، وَيُصْبِحُ كَافِرًا ، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا » [(٢)].

وها نحن نرى الآن مصداق كلام النبيِّ ﷺ ؛ فكم من أناس يبيعون دينهم بعرض من الدنيا حقير ، من أجل كرسيٍّ زائلٍ ، أو وظيفة فانية ، وربما لا يتورع الرجل أن يكذب ، وينافق ، ويخادع ، وأن يرائي ، وأن ينفق كل ما يملك للوصول إلى هذه الغاية ، فإذا ما وصل إلى الغاية التي أراد تنكَّرَ لِجُلِّ وعُودِهِ ؛ إن لم أقل لكلِّ وعوده التي وعد الناس بها ، فالناخب يكذب على ناخبيه ، والحاكم يكذب على محكوميه ، والعالم إلا ـ من رحم ربك ـ قد

---

(١) وهذا ثابتٌ في الحديث الذي رواه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء (١٨٤٤) ، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعًا بلفظ : « إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ ... الحديث» وسيأتي .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن (برقم ١١٨) .

يزل في الكذب فيزوِّر الفتاوى العرجاء لذوي السلطات .. وهكذا .

ولذا حذَّر رسول الله ﷺ من فتنة الدنيا ؛ كما في «الصَّحِيحَيْنِ»[1] من حديث عمرو بن عوف الأنصاري ﷺ : أنه ﷺ قَالَ : « فَوَالله مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا ، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ ».

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والحاكم ، وصحَّحه شيخنا الألباني[2] من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قَالَ : « إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا ، وَيُمْسِي كَافِرًا ، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا ، وَيُصْبِحُ كَافِرًا ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي ، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي فَكَسِّرُوا قِسِيَّكُمْ ، وَقَطِّعُوا أَوْتَارَكُمْ ، وَاضْرِبُوا سُيُوفَكُمْ بِالْحِجَارَةِ ، فَإِنْ دُخِلَ ـ يَعْنِي : عَلَى أَحدكم ـ فَلْيَكُنْ كَخَيْرِ ابْنَيْ آدَمَ ».

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ من حديث أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ : اسْتَيْقَظَ رَسُولُ الله ﷺ لَيْلَةً فَزِعًا، يَقُولُ : « سُبْحَانَ الله ، مَاذَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْخَزَائِنِ ، وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْفِتَنِ ؟ مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجزية والموادعة ، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب (٣١٥٨) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦١) .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب الفتن ، باب في النهي عن السعي في الفتن (٤٢٥٩) ، وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب التثبت في الفتن (٣٩٦١) ، والترمذي ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في اتخاذ سيف من خشب في الفتنة (٢٢٠٤) وقال : «حديث حسن غريب صحيح» ، وأحمد (برقم ١٩٦٦٢ ط الرسالة) (٤/ ٤٠٨) ، والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٤٠) ، وصحَّحه العلامة الألباني في «الصحيحة» (٤/ ٢٤٨) (١٦٨٢)، و«الإرواء» (٢٤٥١) .

الْحُجُرَاتِ لِكَيْ يُصَلِّينَ ؟ رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ »[1].

وذكر الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ[2] أقوالًا كثيرةً في تفسير هذه الفقرة الأخيرة من الحديث : « رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ ».

ومن تلك المعاني ، أي: تلبس لباسًا ضيِّقة أو شفَّافة تُظهر هذه الثياب عورتها ، إما لضيقها وإما لشفافيتها ؛ فالله ﷻ يظهر عورتها في الآخرة جزاءً وفاقًا لإظهارها عورتها في الدنيا إن لم تتب إلى الله سبحانه تعالى .

وروى مسلمٌ من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ ﷺ قَالَ : « صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا : قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ ، لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ ، وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا »[3].

وهناك قولٌ آخرُ ، ذكره الحافظ ؛ وهو : « رُبَّ كاسية في الدنيا بالنعم ، وهي عاريةٌ عن شكر المنعم تبارك وتعالى » .

وهناك من يقول : « رُبَّ كاسية في الدنيا بالثياب لغناها ، ولكنها عارية من الثياب يوم القيامة لتجرُّدِها في الدنيا من العمل الصالح الذي تكسى بفضله عند الله في الآخرة » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العلم ، باب العلم والعظة بالليل برقم (١١٥) ، وانظر أطرافه هناك ، واللفظ في رقم (٧٠٦٩) .

(٢) «الفتح» (١٣/ ٢٦) تحت حديث رقم (٧٠٦٩) بتصرف .

(٣) أخرجه مسلم ،كتاب اللباس والزينة ، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات ، برقم ، (٢١٢٨) ، وأخرجه في كتاب الجنة وصفة نعيها وأهلها ، باب : النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء (عقب ٢٨٥٦) (٥٢) .

نسأل الله تعالى أن يستر نساءنا في الدنيا والآخرة؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه .

وروى مسلمٌ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قَالَ : نَادَى مُنَادِي رَسُولِ الله ﷺ الصَّلاَةَ جَامِعَةً ، فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ : « إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا ، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلاَءٌ ، وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا ، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ ؛ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ : هَذِهِ مُهْلِكَتِي ، ثُمَّ تَنْكَشِفُ ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ ؛ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ : هَذِهِ هَذِهِ (أي : هذه مهلكتي) ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ ، وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ »[1] .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران:١٠٢] .

ففي ظلِّ هذه الفتن يجبُ عليك أن تجدد الإيمان ؛ فإن الإيمان يَخْلَق ويضعف .

كما في الحديث الذي رواه الحاكم في «المستدرك» والطبرانيُّ في «معجمه الكبير» ، وحسنه الألباني[2] من حديث عبد الله بن عمر ﷺ أن النبيَّ

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول برقم (١٨٤٤) .

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٤) ، وعزاه الهيثمي في «المجمع» إلى الطبراني في «الكبير» ، (١/ ٥٢) وقال: «إسناده حسن» ، وهو في «الصحيحة»(١٥٨٥) ، وقد سبق الحديث .

ﷺ قال : « إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ ، فَاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ » .

فالأمر يحتاج في ظل هذه الفتن إلى أن يجدد الإنسان المسلم إيمانه بالله ﷻ وباليوم الآخر ، وأن يتعوَّذ بالله من شرِّ هذه الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وفي «صحيح مسلم»(١) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قَالَ وَهُوَ يُحَدِّثُ مَجْلِسًا أَنَا فِيهِ عَنِ الْفِتَنِ ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَعُدُّ الْفِتَنَ: «مِنْهُنَّ ثَلَاثٌ لَا يَكَدْنَ يَذَرْنَ شَيْئًا ، وَمِنْهُنَّ فِتَنٌ كَرِيَاحِ الصَّيْفِ ، وَمِنْهَا صِغَارٌ ، وَمِنْهَا كِبَارٌ » .

ولذلك أخبر النبيُّ ﷺ أن الفتن قد تشتد ، وأن البلاء قد يزيد لدرجة أن يتمنى العبد المسلم إذا مرَّ على قبر الرجل أن لو كان مكانه ، كما في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ »(٢).

ألم نسمع هذا الكلام مرارًا وتكرارًا من كثير من الناس ؟! يتمنى كثير من الناس من شدة الفتن والبلاء الموت !

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب إخبار النبيِّ ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة برقم (٢٨٩١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الفتن ، باب لا تقوم الساعة حتى يغبط أهل القبور برقم (٧١١٥) ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء برقم (١٥٧) .

نسأل الله ﷻ أن يختم لنا ولكم بالصالحات .

مع أن النبيَّ ﷺ قد حذَّر أو نهى أن يتمنى العبدُ الموتَ لضُرٍّ وقع به[1] ، والجمع بين الحديثين ـ إذ لا تعارض أبدًا ـ أن النبيَّ ﷺ نهى أن يتمنى العبد الموت من باب القنوط أو اليأس من الحياة ، وإنما لا حرج أن يقول العبدُ : « اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي مَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي » .

إذًا فهذه أحاديث ذكرتها تبين أن النبيَّ ﷺ قد بيَّنَ أن ظهور الفتن من أشراط وعلامات الساعة .

*****

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الدعوات ، باب الدعاء بالموت والحياة (٦٣٥١) ، وانظر (٥٦٧١) ، ومسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب كراهية تمني الموت لضر نزل به (٢٦٨٠) من حديث أنس ﷺ ولفظه : « لاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ ؛ فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ مُتَمَنِّيًا فَلْيَقُلِ : اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي » .
وراجع في الجمع بين هذه النصوص كلام القرطبي رحمه الله في «التذكرة» (٨-١١) .

مصدر الفتن

لقد بيَّن لنا النبيُّ ﷺ مصدر الفتن، وأنها تخرج من المشرق؛ كما في الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ - وَهُوَ مُسْتَقْبِلٌ الْمَشْرِقَ: «أَلاَ إِنَّ الْفِتْنَةَ هَا هُنَا مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ»[1].

وفي لفظ مسلم: «رَأْسُ الْكُفْرِ مِنْ هَا هُنَا مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ».

وفي «الصَّحِيحَيْنِ»[2] عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مِنْ هَا هُنَا جَاءَتِ الْفِتَنُ، نَحْوَ الْمَشْرِقِ، وَالْجَفَاءُ وَغِلَظُ الْقُلُوبِ فِي الْفَدَّادِينَ أَهْلِ الْوَبَرِ عِنْدَ أُصُولِ أَذْنَابِ الإِبِلِ وَالْبَقَرِ فِي رَبِيعَةَ وَمُضَرَ».

وعند مسلم[3] من حديث جابر رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «غِلَظُ الْقُلُوبِ وَالْجَفَاءُ فِي الْمَشْرِقِ، وَالإِيمَانُ فِي أَهْلِ الْحِجَازِ».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: دَعَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَمُدِّنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا وَيَمَنِنَا»؛ فقالَ رجلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يا

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الفتن، باب قول النبيِّ ﷺ: «الفتنة قبل المشرق» برقم (٧٠٩٣)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب الفتنة من المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان برقم (٢٩٠٥)، وانظر طرفه وألفاظه.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال (٣٣٠٢)، وانظر أطرافه هناك، واللفظ له برقم (٣٤٩٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه، ورجحان أهل اليمن فيه (٥١).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه، ورجحان أهل اليمن فيه(٥٣).

نَبِيِّنَا ! وَفِي عِرَاقِنَا ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ : « بِهَا قَرْنُ الشَّيْطَانِ ، وَتَهِيجُ الفِتَنُ ، وَإِنَّ الجَفَاءَ بِالمَشْرِقِ » .رواه الطبراني ، ورجاله ثقات [(١)] .

قال ابن حجر رحمه الله [(٢)]: « وأول الفتن كان منبعها من قبل المشرق ، فكان ذلك سببًا للفرقة بين المسلمين ، وذلك مما يحبه الشيطان ويفرح به ، وكذلك البدع نشأت من تلك الجهة » .

فمن العراق ظهر الخوارج ، والشيعة ، والروافض ، والباطنية ، والقدرية (وتقدَّم أنَّ أول من قال بالقدر في البصرة «معبد الجهني») والمعتزلة ، والفتنة العاصفة التي ابتلي بها الأئمة [(٣)] ، وأكثر مقالات الكفر كان منشؤها من المشرق جهة الفرس ، من جهة الصين وروسيا ، هذا هو المشرق ، فمن جهة الفُرس المجوس ، خرجت كل فرق الكفر والضلال كالزردشتيه ، والقاديانية ، والبهائية ، والهندوسية ، والبوذية ، كل هذه الطوائف والفِرَق من فِرَقِ الكفر والضلال ، خرجت من جهة المشرق ؛ كما قال النبيُّ ﷺ ، وظهر أيضًا التتار ، وكان ظهورهم من قِبَلِ المشرق ، وقد حدث على أيديهم من الدمار والقتل ما تعلمونه ، حتى وصلت بِرَكُ الدماء في بلاد المشرق المسلم العربي في بلاد العراق في

---

(١) أخرجه الطبرانيُّ في «الكبير» (١٢/ ١٢٥٥٣) ، وقال الهيثمي في «المجمع»(٣/ ٣٠٥) : «رجاله ثقات» وانظر : «تخريج المشكاة كما في هداية الرواة»(٥/ ٤٩٦) دار ابن عفان ، وصحَّح الألباني سند رواية الطبراني ، وقال : « وقد شرحت ذلك في كتابي «تخريج أحاديث فضائل الشام» للربعي (رقم/ ٨) فليراجع ؛ فإنه مهم ، وانظر:«مختصر الترغيب والترهيب» لابن حجر (٧٧) ط مكتبة السلام ، وانظر: «صحيح البخاري» (٧٠٩٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، والترمذي (٣٩٥٣) .

(٢) «فتح الباري» (١٣/ ٥٨) .

(٣) يعني : فتنة خلق القرآن .

بغداد على وجه التحديد، وصلت برك الدماء، وأكوام الأشلاء إلى منتصف ساق الخيول من كثرة القتل والدم، ومُنعت صلاة الجماعة في بلاد العراق أربعين يومًا، لا يستطيع أحدٌ أن يخرج من بيته ليصلِّي الجماعة، وإلى يومنا هذا، لا يزال المشرق منبع كل فتنة، لنعلم أن النبيَّ ﷺ لا ينطق عن الهوى.

فالشيوعية الملحدة في المشرق، والصين، والفاتيكان، وكل فِرَقِ الضلال والكفر لا زالت إلى يومنا تخرج ابتداءًا من المشرق؛ كما قال النبيُّ ﷺ.

وأحاديث الفتن كثيرة جدًّا كما أخبر النبيُّ ﷺ.

نسأل الله ﷻ أن يعصمنا وإياكم من الفتن ما ظهر منها وما بطن[1].

وبالجملة **أقول**: لا عاصم أبدًا من الفتن إلا الإيمان بالله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وباليوم الآخر، ولزوم جماعة المسلمين من أهل السنة ـ ولو كانوا قلة ـ والابتعاد عن الفتن، والتعوذ منها؛ كما قَالَ النبيُّ ﷺ: «**تَعَوَّذُوا بِالله مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**». والحديث رواه مسلم من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه[2].

وكان النبيُّ ﷺ يتعوَّذ في صلاته من فتنة المحيا، وفتنة الممات، ومن فتنة المسيح الدجال[3] وهي أعصفُ وأخطر فتنةٍ سيتعرض لها مَنْ

---

(١) «أشراط الساعة» ليوسف الوابل (٩٣ـ٩٥).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه برقم (٢٨٦٧).

(٣) انظر: «صحيح البخاري»، كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام (٨٣٢)، وانظر أطرافه هناك، و «صحيح مسلم»، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة =

يعيشُ على وجه الأرض في هذه اللحظات التي يخرج فيها الدجَّال ، والعياذ بالله .

وروى الطبرانيُّ في «المعجم الكبير» عن عصمة بن قيس ﷺ قال: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَتَعَوَّذُ بالله مِنْ فِتْنَةِ المَشْرِقِ ؛ قِيْلَ لَهُ : فَكَيْفَ فِتْنَةُ المَغْرِبِ ؟ قَالَ : « تِلْكَ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ » [(١)].

وفي لفظ : « تِلْكَ أَعْظَمُ وَأَطَمُّ ».

وأظنكم ترون صدق ما أخبر به النبيُّ ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ، وربما تتضح الصورة أكثر عند التحدث عن الملاحم ، إن شاء الله تعالى .

وعن زيد بن عبد الرحمن بن أبي سلامة عن أبي الرباب وصاحب له أنهما [(٢)] سمعا أبا ذرٍّ يدعو ، قال : فقلنا له : رأيناك صليت في هذا البلد صلاة لم نَرَ أطول مقامًا وركوعًا وسجودًا ؛فلما أن فرغت رفعت يديك ، فدعوت ، فتعوذت من يوم البلاء ، ويوم العورة قال : فما أنكرتم ؟ فأخبرناه ، قال : أما يوم البلاء فتلتقي فتتان من المسلمين ، فيقتل بعضهم بعضًا ، وهي فتنة عليٍّ ومعاوية ﷺ وعن جميع أصحاب النبيِّ ﷺ وغفر الله لنا ولهم ، وجمعنا معهم في جنات النعيم ، وتجاوز عنا

= (٥٨٩) من حديث عائشة ﷺ وروي من حديث أبي هريرة ﷺ عند البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨) .

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير»(١٧/ ١٨٧) ، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٣٨٨) ط دار الراية ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٢٠) : «رواه الطبراني ، ورجاله ثقات » ، ونعيم ابن حماد في «الفتن»(٧٤٨، ٧٤٩) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»(٨/ ٦٧٢) (١٦٢) (٣٧٦٠٥) ط الكتب العلمية ، باب ما ذكر في فتنة الدجال . ومن طريقه ابن عبد البر في «الاستيعاب » (١/ ٤٩) .

وعنهم ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

فلا يجوز لمسلمٍ ولا لأي أحدٍ أن يتكلَّم في أصحاب النبيِّ ﷺ إلا بشروط ؛ فالكلام عنهم يتطلب صفاءً في العقيدة ، وإخلاصًا في النية ، وأمانة في النقل ، ودقة في الفهم ، ونظرةً فاحصةً مدققةً لأراجيف المغرضين والكذابين والوضاعين ؛ فهذه الأصول من أنفس ما يستفاد به .

ولقد سأل خبيثٌ عالمًا من العلماء عن الفتنة بين عليٍّ ومعاوية ؛ فقال له[1] : « يا أخي ، إن أخطأ معاوية فإن عليًّا لكريم ، وإن ربَّ عليٍّ ومعاوية ربٌّ رحيم ، فما دخولك بينهما ؟! » .

ولله درُّ من قال[2] : « تلك فتنةٌ سلمت منها أيدينا ؛ فلتسلم منها ألسنتنا » .

وعند الله تجتمع الخصوم ؛ نسأل الله ﷻ أن يغفر لنا ولهم ، وأن يجمعنا بهم في جنات النعيم .

ثم نرجع إلى حديث أبي ذرٍّ ـ مرة أخرى ـ إذ يقول : « وأما يوم العورة ، إن النساء من المسلمات يسبين ، فيكشف عن سوقهن ؛ فأيتهن أعظم ساقًا اشتريت على عظم ساقها ؛ فدعوت الله ألا يدركني هذا

---

(١) انظر : «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٥٩/ ١٤١) ، وفيه : جاء رجلٌ إلى الإمام أبي زرعة الرازي رحمه الله ؛ فقال له : «أنا أُبغِض معاوية ! فقال له : وَلِمَ ؟ قال : لأنه قاتل عليَّ بن أبي طالب ، فقال له الإمام رحمه الله : ربُّ معاوية ربٌّ رحيم ، وخصم معاوية خَصْمٌ كريم ، فأيش دخولك بينهما ؟! » .

(٢) ففي «شرح الطحاوية» (٧٢٤، ٧٢٥) ـ ط الرسالة ـ وهو يتحدث عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : « والفتن التي كانت في أيامه قد صان الله عنها أيدينا ؛ فنسأل الله أن يصون عنها ألسنتنا ؛ بمنه وكرمه » .

الزمان ، ولعلكما تدركانه ؛ قال : فقتل عثمان ، وأرسل معاوية بسر بن أرطاة إلى اليمن ، فسبى نساءً من المسلمات فأقمن في السوق » .

فلقد وقع ما خشيه أبو ذرٍّ من يوم العورة ؛ فلقد كشفت الآن العورات من المسلمات . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ونحن نرى المسلمات ــ إلا من رحم ربي ــ قد انطلقن في الشوارع هائمات ، وقد كشفت المرأة التي تنتمي للإسلام عن صدرها ، وشعرها ، وساقيها ، وذراعيها ، وكشفت عن فتنتها وعورتها ؛ بل وكما قال أبو ذر ﷺ : « فأيتهن كانت أعظم ساقًا اشتريت على عظم ساقها » .

لقد وقع ـ ورب الكعبة ـ ما أخبر به أبو ذرٍّ ﷺ كيف ؟ وأين ؟ . ألم نقرأ ونسمع عن حفلات اختيار ملكات جمال العالم ، حيث تختار ملكة جمال العالم ! بمثل هذه المواصفات التي ذكرت ـ ينظر إلى كل تفاصيل جسدها ، ثم تقدم من تنال النصيب الأوفر من هذه المواصفات ! وكذلك في حفلات عروض الأزياء ، ونرى ذلك على الشواطئ العارية ، وفي الشوارع والطرقات بصورةٍ مستفزَّة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ أسأل الله أن يردَّهنَّ إلى الحقِّ ردًّا جميلًا ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

وعن أبي هريرة ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولَ الله ﷺ : « اللَّهُمَّ لاَ يُدْرِكُنِي زَمَانٌ ـ أو : لا أُدْرِكُ زَمَانَ ــ قَوْمٍ لاَ يَتَّبِعُونَ الْعَلِيمَ ، وَلاَ يَسْتَحْيُونَ مِنَ الْحَلِيمِ ، قُلُوبُهُمْ الأَعَاجِمِ ، وَأَلْسِنَتُهُمْ أَلْسِنَةُ الْعَرَبِ » .

والحديث رواه الحاكم في «المستدرك» وصحَّحه . وللأمانة فقد ضعَّفه الشيخ الألباني في «الضعيفة»[1] .

وإنَّ جُلَّ الأمة الآن لا يتَّبعون العلماء ؛ بل يتَّبعون السفهاء الرويبضات الذين أخبر عنهم النبيُّ ﷺ ؛ كما في حديثه الصحيح الذي رواه أحمد في «مسنده» ، والحاكم في «مستدركه»[2] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ ـ قِيلَ : وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ ؟ ـ قَالَ : الرَّجُلُ التَّافِهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ » .

ويزداد الأمر خطرًا إذا علمنا أن النبيَّ ﷺ قد أخبر أن الفتن تُعرض على القلوب ، وهذا مكمنُ الخطر ؛ كما في «صحيح مسلم» من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا ، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ ، حَتَّى تَصِيرَ الْقُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا ، فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ،

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٥١٠) ، والبيهقي في «الشعب» (٧٧٤٠) ، وأحمد في «المسند» (٥/ ٣٤٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (١٢١٨) ، و«الضعيفة» رقم (١٣٧١) .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٩١) ، وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب شدة الزمان (٤٠٣٦) ، والحاكم (٤/ ٤٦٥ ، ٤٦٦) ، وقال البوصيري في «الزوائد» : «في إسناده إسحاق بن أبي الفرات» ، وقال الذهبي في «الكاشف» : «مجهول» ، وقيل : منكر ، وذكره ابن حبان في «الثقات» ، وقد روي عن أنس رضي الله عنه عند أحمد (٣/ ٢٢٠) ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٨٨٧) .

وَالآخَرِ أَسْوَدُ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا ، لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفاً وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَراً ، إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ »[١].

فاللهم اجعلنا من أصحاب هذه القلوب البيضاء التقية النقية التي لا تضرها الفتن ، ما دامت السموات والأرض ، برحمتك يا أرحم الراحمين .

يقول ابن مسعود ﷺ: « أَخَافُ عَلَيْكُمْ فِتَنًا كَأَنَّهَا اللَّيْلُ ، يَمُوتُ فِيهَا قَلْبُ الرَّجُلِ كَمَا يَمُوتُ بَدَنُهُ »[٢].

فكم من قلوب ماتت الآن في الصدور كما تموت الأبدان ، وأصحابها لا يشعرون ، تَحجبُ الفتنُ القلوبَ ـ عن أنوار الإيمان ـ عن علام الغيوب ؛ قال تعالى : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[المطففين:١٤، ١٥] .

وروى الديلميُّ وأبو نعيم[٣]، وحسَّنه شيخنا الألباني[٤] من حديث عليٍّ ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « مَا مِنَ الْقُلُوبِ إِلاَّ وَلَهُ سَحَابَةٌ كَسَحَابَةِ الْقَمَرِ ، بَيْنَا الْقَمَرُ مُضِيءٌ إِذْ عَلَتْهُ سَحَابَةٌ فَأَظْلَمَ ، إِذَا تَجَلَّتْ عَنْهُ أَضَاءَ » .

والسؤال الآن: كيف يعرف المرءُ هل أصابته الفتنة أم لا؟

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب برقم (١٤٤) .

(٢) أخرجه نعيم بن حماد في «الفتن» (١٢١) عن ابن مسعود ﷺ وأخرجه أحمد (٣/ ٤٥٣) عن الضحاك بن قيس بسندٍ ضعيف مرفوعًا ، والحاكم (٦٢٣٤) ، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٩٨) ، وابن سعد في «الطبقات» (٧/ ٤١٠) ، وأخرجه نعيم بن حماد عن ابن عمر ﷺ مرفوعًا (١١٣) ، وضعَّفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٦٥٤) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٩٦) ، وقال : «هذا حديث غريب من حديث محمد بن عجلان عن سالم» . والطبراني في «الأوسط» (٥٢٢٠) ط الحرمين ، والديلمي في «مسند الفردوس» (٤/ ٦٥٥٢) .

(٤) في «السلسلة الصحيحة» (٥/ ٣٣٩) ، (رقم ٢٢٦٨) ، و«صحيح الجامع» (٥٦٨٢) .

والجواب: من حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول : « إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَعْلَمَ هَلْ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ أَمْ لَا ، فَلْيَنْظُرْ : فَإِنْ كَانَ رَأَى حَلَالًا كَانَ يَرَاهُ حَرَامًا فَقَدْ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ ، وَإِنْ كَانَ يَرَى حَرَامًا كَانَ يَرَاهُ حَلَالًا فَقَدْ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ » .

وفي لفظ أبي نعيم : « إِنَّ الْفِتْنَةَ تُعْرَضُ عَلَى الْقُلُوبِ ، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَعْلَمَ هَلْ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ أَمْ لَا ، فَلْيَنْظُرْ : فَإِنْ كَانَ يَرَى حَرَامًا كَانَ يَرَاهُ حَلَالًا أَوْ يَرَى حَلَالًا كَانَ يَرَاهُ حَرَامًا فَقَدْ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ » [1] .

أسأل الله عز وجل أن يحفظنا وإياكم من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

*****

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٨٤٤٣) ، كتاب الفتن والملاحم ، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٧٢، ٢٧٣) ، ونعيم بن حماد في «الفتن» (١١٠، ١٣٠) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» ، كتاب الفتن (٨/ ٦٢٨) ، وأخرجه الداني في «السنن الواردة في الفتن» (٢٦) ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٤/ ٢٥٨) .

بداية الفتنة

أشرع بحديثٍ صحيحٍ يحدِّدُ فيه النبيُّ ﷺ تاريخ بداية الفتن ، أو متى بدأت الفتن ؟

ذلكم الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ قال : كُنَّا جُلُوسًا عَنْدَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ ﷺ فَقَالَ : « أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ رَسُولِ الله ﷺ فِي الْفِتْنَةِ ؟ قُلْتُ : أَنَا أَحْفَظُهُ كَمَا قَالَهُ ، قَالَ : هَاتِ ؛ إِنَّكَ عَلَيْهِ ـ أَوْ عَلَيْهَا ـ لَجَرِيءٌ » .

وفي لفظٍ : «لله أَبُوكَ» ، قُلْتُ : « فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ ، وَالصَّدَقَةُ ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ» قَالَ : لَيْسَتْ هَذِهِ ، وَلَكِنِ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ الْبَحْرِ.

قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لاَ بَأْسَ عَلَيْكَ مِنْهَا ، إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا ، قَالَ : يُفْتَحُ الْبَابُ أَوْ يُكْسَرُ ؟ قَالَ : لاَ ؛ بَلْ يُكْسَرُ ، قَالَ ذَلِكَ أَحْرَى أَلاَّ يُغْلَقَ ، قُلْنَا : عَلِمَ الْبَابَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ؛ كَمَا أَنَّ دُونَ الغَدِ اللَّيْلَةَ ، إِنِّي حَدَّثْتُهُ حَدِيثًا لَيْسَ بِالأَغَالِيطِ ، فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَهُ ، وَأَمَرْنَا مَسْرُوقًا فَسَأَلَهُ ، فَقَالَ : مَنِ الْبَابُ ؟ قَالَ: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ [١].

هذا الحديث يبين فيه حذيفة ﷺ ويمثل الفتن بدار، ويمثل حياة عمر

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب مواقيت الصلاة ، باب الصلاة كفارة برقم (٥٢٥) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب ، وعرض الفتن على القلوب برقم (١٤٤) ، وفي كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب الفتنة التي تموج كموج البحر .

ﷺ بباب أَغْلَقَ هذه الدار ؛ فما دام هذا البابُ مغلقًا على هذه الدار ، فلن يخرج منها شيء ، فإذا فُتِحَ هذا الباب أو كُسِرَ سيخرج ما بهذه الدار من الفتن !!

ولذا ؛ روى البزَّار بسندٍ فيه لين عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه أنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا : يا غَلْقَ الفِتْنَةِ ؛ فسأله عمر رضي الله عنه عن ذلك ؛ فقال عثمان بن مظعون رضي الله عنه :مَرَرْتَ بِنَا يَوْمًا وَنَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَيْكَ : « هَذَا غَلْقُ الفِتْنَةِ ، لاَ يَزَالُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الفِتْنَةِ بَابٌ شَدِيدُ الغَلْقِ مَا عَاشَ هَذَا بَيْنَ ظَهْرَانِيكُمْ » وأشار إلى عمر رضي الله عنه[(١)].

وروى الطبرانيُّ في «المعجم الكبير» بسندٍ رجالُه ثقات ـ كما قال الحافظ ـ أن أبا ذر رضي الله عنه لقيَ عمر بن الخطاب يومًا فأخذه عمر بن الخطاب من يده فغمزه ؛ فقال : أرسل يدي يا قفل الفتنة ؛ فَقَالَ عُمَرُ : وَمَا قَفْلُ الفِتْنَةِ ؟ قَالَ : جِئْتَ رَسُولَ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وَرَسُولُ الله ﷺ جَالِسٌ ، وَقَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ فَجَلَسْتَ فِي آخِرِهِمْ ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « لاَتُصِيبُكُمْ فِتْنَةٌ مَا دَامَ هَذَا فِيكُمْ »[(٢)].

---

(١) أخرجه البزار (٢٣٣) في «زوائد البزار» والطبراني في «الكبير» (٩/ ٣٨) (٨٣٢١) ، وأبو نعيم الأصبهاني في « معرفة الصحابة » (١٩٢٥) (ترجمة عثمان بن مظعون) عن قدامة بن مظعون أن عمر بن الخطاب أدرك عثمان بن مظعون . فذكره ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/ ٣٣٤) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٧٣) باب أمان الناس من الفتن :«رواه الطبراني والبزار ، وفيه جماعة لم أعرفهم ، ويحيى بن المتوكل ضعيف».

(٢) أخرجه الطبراني في«الأوسط» (١٩٦٦) ، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٤/ ٣٣٤) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٩٩) : «رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله رجال الصحيح غير السري بن يحيى ، وهو ثقة ثبت ، ولكن الحسن البصري لم يسمع من أبي ذر فيما أظن (٢٢) .
وقال ابن حجر في «الفتح» (١٠/ ٣٩١) (رقم ٣٣٢١) ـ بعدما عزاه للطبراني ـ «بإسناد رجاله ثقات».

فعمر بن الخطاب كان بابًا مغلقًا لدار الفتن ولنارها التي ما استشرت إلا بعد موت عمر ﷺ .

وسنتعرض لأعصف فتنة بدأت في حياة هذه الأمة بعد موت عمر ، ألا وهي فتنة قتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ ، والتي قال فيها النَّبِيُّ ﷺ : « مَنْ نَجَا مِنْ ثَلاَثٍ فَقَدْ نَجَا » يقولها ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، قَالُوا : مَاذَا يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « مَوْتِي ، وَخُرُوجِ الدَّجَّالِ ، وَقَتْلِ خَلِيفَةٍ مُصْطَبِرٍ بِالْحَقِّ يُعْطِيهِ »[1].

وسأضع النقط على الحروف ؛ لأننا نرى الآن كثيرًا من المنافقين ممن لا يجيدون الصيد إلا في الماء العكر ، ولا يعرفون إلا التطاول على هذه القمم الشماء .

أسأل الله أن يرضَى عنهم ، وأن يجمعنا بهم في جنات النعيم بحبنا لهم ، وإن لم نعمل بمثل أعمالهم ؛ إنه على كلِّ شيء قدير .

فعمر بن الخطاب ﷺ بشهادة النبيِّ ﷺ كان بابًا مغلقًا على الفتن ، فلما كُسِرَ هذا البابُ بقتل عمر ، خرجت الفتن وأطلَّت الفتن برأسها الظَّلوم ، وبوجهها الكالح الغشوم !!

وقد سبق الحديثُ عن عمر ﷺ في أول شرحنا للحديث ؛ فعمر الذي شهد له النبيُّ ﷺ أن الله قد أجرى الحق على لسانه وقلبه ، وأنه محدَّث وملْهَم ، وأن الشيطان يفرُّ من عمر ﷺ ، وقد رزقه الله الدين ، والعلم .

---

(١) سيأتي تخريجه .

أيُّ طبيعةٍ هذه ؟! وهل عند بلغاء الأرض وأدباء الدنيا كلِّها من الكلمات ما يستطيعون أن يعبروا به عن هذه الطبيعة العُمَرية التي لا مثيل لها البتة على وجه الأرض ؟ .

فالشيطانُ يهاب عمر رضي الله عنه ! إذًا لا تعجب إن كان عمر هو الباب المغلق الذي إن كُسِرَ أطلت الفتنة بوجهها الكالح الغشوم ؛ كما قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما .

فحذيفة ذلكم الصحابيُّ الذي يروي لنا جُلَّ أحاديث الفتن ، ذلكم الرجل الذي قال ـ كما في « صحيح مسلم » : « وَاللهِ إِنِّي لأَعْلَمُ النَّاسِ بِكُلِّ فِتْنَةٍ هِيَ كَائِنَةٌ ، فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ السَّاعَةِ »[١].

وهو الذي يقول ـ كما في «الصَّحِيحَيْنِ»: « لَقَدْ خَطَبَنَا النَّبِيُّ ﷺ خُطْبَةً مَا تَرَكَ فِيهَا شَيْئًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلاَّ ذَكَرَهُ ، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ ، إِنْ كُنْتُ لأَرَى الشَّيْءَ قَدْ نَسِيتُهُ ، فَأَعْرِفُهُ كَمَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ إِذَا غَابَ عَنْهُ فَرَآهُ فَعَرَفَهُ »[٢].

وفي «صحيح مسلم» من حديث حذيفة رضي الله عنه قَالَ : « أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، فَمَا مِنْهُ شَيْءٌ إِلاَّ قَدْ سَأَلْتُهُ ، إِلاَّ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ ، مَا يُخْرِجُ أَهْلَ المَدِينَةِ مِنَ المَدِينَةِ ؟ »[٣].

وفي الحديث الذي رواه أبو داود بسندٍ ضعيف من حديث حذيفة بن

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة برقم (٢٨٩١) (٢٢) .

(٢) تقدم .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة برقم (٢٨٩١) (٢٤) .

اليمان رضي الله عنه قال: «وَاللهِ مَا أَدْرِي أَنَسِيَ أَصْحَابِي أَمْ تَنَاسَوْا؟ وَاللهِ مَا تَرَكَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ قَائِدِ فِتْنَةٍ إِلَى أَنْ تَنْقَضِيَ الدُّنْيَا يَبْلُغُ مَنْ مَعَهُ ثَلاثَ مِائَةٍ فَصَاعِدًا إِلاَّ قَدْ سَمَّاهُ لَنَا بِاسْمِهِ، وَاسْمِ أَبِيهِ، وَاسْمِ قَبِيلَتِهِ»(١).

وروى نعيم بن حماد في «الفتن» بسندٍ رجاله ثقات عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «مَا مِنْ صَاحِبِ فِتَنِةٍ يَبْلُغُونَ ثَلاثَ مِائَةِ إِنْسَانٍ إِلاَّ وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أُسَمِّيَهُ بِاسْمِهِ، وَاسْمِ أَبِيهِ، وَمَسْكَنِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، كُلُّ ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِيهِ رَسُولُ الله ﷺ، إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَسْأَلُونَ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وَأَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، وَتَسْأَلُونَهُ عَمَّا كَانَ، وَأَسْأَلُهُ عَمَّا سَيَكُونُ»(٢).

انظر إلى هذا السرِّ العجيب الذي أطلع عليه رسولُ الله ﷺ حذيفةَ ابن اليمان رضي الله عنه.

وعن حذيفة رضي الله عنه قَالَ: «مَا أَنَا إِلَى طَرِيقٍ مِنْ طُرُقِكُمْ بِأَهْدَى مِنِّي بِكُلِّ فِتْنَةٍ هِيَ كَائِنَةٌ وَبِنَاعِقِهَا وَقَائِدِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»(٣).

وعنه أيضًا رضي الله عنه قال: «واللهِ مَا أَنَا بِالطَّرِيقِ إِلَى قَرْيَةٍ مِنَ القُرَى، وَلاَ إِلَى مِصْرٍ مِنَ الأَمْصَارِ بِأَعْلَمَ مِنِّي بِمَا يَكُونُ مِنْ بَعْدِ عُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ»(٤).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «لَوْ حَدَّثْتُكُمْ بِكُلِّ مَا أَعْلَمُ مَا رَقَدتُّمْ فِي اللَّيْلِ»(٥).

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها (٤٢٤٣)، وضعَّفه الشيخ الألباني في «ضعيف أبي داود»(٩١٣) و «المشكاة» (٥٣٩٣) والمعنى له شواهد.

(٢) أخرجه نعيم بن حماد في «الفتن»(١٦) (١/ ٣١، ٣٢).

(٣) أخرجه نعيم بن حماد في «الفتن»(٢٦) (١/ ٣٤).

(٤) أخرجه نعيم بن حماد في «الفتن»(٢٧) (١/ ٣٤).

(٥) أخرجه نعيم بن حماد في «الفتن»(١٨) (١/ ٣٢).

وهذه الأحاديث كلُّها رواها نعيم بن حماد في «الفتن» .

وكلها تبين مكانة حذيفة ، وتبين ـ بحقٍّ ـ أنه كان صَاحبَ سرِّ النبيِّ ﷺ؛ كما روى البخاريُّ ومسلمٌ .

نبذةٌ عن حذيفة

صاحب سرِّ رسول الله ﷺ والعالم بالفتن

فحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما من نجباء أصحاب رسول الله ﷺ، وهو ابن حِسْل أو حُسَيْل بن جابر العبسي ، قتل والده في غزوة أُحد . وأسلم حذيفة هو وأخوه صفوان وأبوه في يوم واحد لَّما رأوا النبيَّ ﷺ، وسمعوا منه ، وحذيفة بن اليمان له في «الصَّحِيحَيْنِ» من الأحاديث ؛ ثمانية في «صحيح البخاري» وسبعة عشر في «صحيح مسلم» ؛ كما قال الإمام الذهبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ في «سير أعلام النبلاء»[(١)].

بعد أن شرحِ الله صدر حذيفة للإسلام بدأ يتربى على يد النبيِّ ﷺ، ونمَتْ موهبتُه في جانبٍ فذٍّ عظيم ، وكأن هذا الرجل قد تخصص في السؤال عن معرفة الفتن ، وعن معرفة الشر ، وبدأ يبحث عن الأمور التي تكون بين يدي الساعة ؛ فهو يرى أصحاب النبيِّ ﷺ يسألون عما كان ، وحذيفة في موهبة فذة عظيمة يسأل النبيَّ ﷺ عما سيكون ، ولقد بلغ من موهبة وفطنة وذكاء حذيفة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو الملهم

---

(١) انظر: ترجمة حذيفة في «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٣٦١) ، و «طبقات ابن سعد» (٦/ ١٥) ، (٧/ ٣١٧) ، و«التاريخ الكبير» للبخاري (٣/ ٩٥) ، و«الجرح والتعديل» (٣/ ٢٥٦) ، و«الاستيعاب» (١/ ٣٣٤) ، و«أسد الغابة» (١/ ٤٦٨) ، و«الإصابة» (٢/ ٢٢٣) ، و«تهذيب التهذيب»(٢/ ٢١٩، ٢٢٠) .

الفطن العاقل الذكيُّ كان يستأنس دومًا برأيِ حذيفة وببصيرته في اختيار الرجال ، وفي معرفتهم ، حتى ذهب عمر إليه يومًا ليقول له : «أنشدك الله يا حذيفة ، هل سمَّاني لك رسول الله في المنافقين؟!! »[1]؛ لأن النبيَّ ﷺ قد اتخذ حذيفة أمينًا ، وصاحبًا لسرِّهِ ؛ فأطلعه على أخبار الفتن ، وأخبره أيضًا بأسماء المنافقين ـ والعياذ بالله .

ولقد أوتي حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما من الحصافة[2] ما جعله يدرك الخير في هذه الحياة ، وأن يهتم بدراسة الشرِّ حتى لا يقع فيه ؛ لأن الخير واضحٌ جليٌّ بيِّنٌ .

وهكذا عكف حذيفة رضي الله عنه على دراسة الشرِّ والأشرار والنِّفاق والمنافقين ، يسأل ورسول الله ﷺ يخبره .

فروى البخاريُّ ومسلمٌ عن حذيفة رضي الله عنه قال : « كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الخَيْرِ ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي ».

وفي رواية : « وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الخَيْرَ لاَ يَسْبِقُنِي ـ أي : لا يفوتني ـ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ ؛ فَجَاءَنَا الله بِهَذَا الخَيْرِ ؛ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ، قُلْتُ : وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ

---

(١) سبق تخريجه ، وهو في ابن عساكر (١٢/ ٢٧٦) .

(٢) الحصافة ؛ أي ركانة العقل ؛ كما قال ابن فارس في « مجمل اللغة » (ص٢٣٦) ، زاد ابن منظور في «اللسان» «مادة حصف» ؛ فقال: «الحصافة : ثخانة العقل ، حَصُفَ : بالضم ، حصافة إذا كان جيد الرأي ، محكم العقل . وفي الأبيات :

حديثك في الشتاء حديثُ صيف ... وشتويُّ الحديث إذا تَصِيفُ
فتخلطُ فيه من هذا بهذا ... فما أدري أأحمق أم حَصِيفُ؟

مِنْ خَيْرٍ ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، وَفِيهِ دَخَنٌ » قُلْتُ : وَمَا دَخَنُهُ ؟ قَالَ : « قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي ، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ » قُلْتُ : فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، دُعَاةٌ [1] إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا » قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، صِفْهُمْ لَنَا ؟ فَقَالَ : « هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا ، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا » قُلْتُ : فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ ؟ قَالَ : « تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ » قُلْتُ : فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ ؟ قَالَ : « فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا ، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ ، وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ » [2].

هكذا يبين لنا هذا الحديث وأحاديث الفتن الأخرى شخصيةَ حذيفة بجلاء وبوضوح ؛ ذلكم الرجل الذي عاش مفتوح البصر ؛ بل والبصيرة على الفتن ، وتواريخ الفتن ، وأسباب الشر ، ونتائج الشر حتى لا يقع فيه ، وليحذر الناس منه ؛ ولذلك يقول حذيفة رضي الله عنه: « أَفَلاَ تَسْأَلُونَ عَنْ مَيِّتِ الأَحْيَاءِ ؟ فَقَالَ : إِنَّ الله تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ فَدَعَا النَّاسَ مِنَ الضَّلاَلَةِ إِلَى الْهُدَى ، وَمِنَ الْكُفْرِ إِلَى الإِيمَانِ ، فَاسْتَجَابَ لَهُ مَنِ اسْتَجَابَ ، فَحَيَا بِالْحَقِّ مَا كَانَ مَيِّتًا ، وَمَاتَ بِالْبَاطِلِ مَا كَانَ حَيًّا ، ثُمَّ ذَهَبَتِ النُّبُوَّةُ فَكَانَتِ الْخِلاَفَةُ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا عَاضًا ؛ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُنْكِرُ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسَانِهِ ، أُولَئِكَ اسْتَجَابُوا لِلْحَقِّ ، وَمِنَ

---

(١) وفي رواية : «عَلَى» .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام برقم(٣٦٠٦) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب «الإمارة» ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ، وفي كل حال ، وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة برقم (١٨٤٧) .

النَّاسِ مَنْ يُنْكِرُ بِقَلْبِهِ وَلِسَانَهُ كَافًا يَدَهُ ، فَهَذَا تَرَكَ شُعْبَةً مِنَ الحَقِّ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ بِقَلْبِهِ كَافًا يَدَهُ وَلِسَانَهُ، فَهَذَا تَرَكَ شُعْبَتَيْنِ مِنَ الحَقِّ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لاَ يُنْكِرُ بِقَلْبِهِ وَلاَ بِيَدِهِ وَلا بِلِسَانِهِ ، فَذَلِكَ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ »[1] .

ويتحدث حذيفة الخبير بأحوال القلوب ؛ فيقول : « الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ : قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ ؛ فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ ؛ فَذَلِكَ قَلْبُ الْكَافِرِ ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ ، وَأَبْصَرَ ثُمَّ عَمِيَ ، فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُنَافِقِ ، وَقَلْبٌ تَمُدُّهُ مَادَّتَانِ ؛ مَادَّةُ إِيمَانٍ وَمَادَّةُ نِفَاقٍ ، وَهُوَ لِمَا غَلَبَ عَلَيْهِ مِنْهُمَا »[2] .

وإيمان حذيفة ﷺ وولاؤه لله ولرسوله وللمؤمنين لا يعترفان بالضعف أبدًا وبالضعيف ؛ بل ولا بالمستحيل ؛ فها هو حذيفة ﷺ ؛ حتى في جوانب المعارك والأزمات المهلكة الطاحنة التي لا يقف إليها الأقوياء ، ولا يتعرض لها الأبطال الصناديد ، نرى حذيفة بن اليمان ﷺ يتعرض لمثل هذه المهام الكبيرة .

ففي غزوة الخندق «الأحزاب» وبعد أن دبَّ الفشل في صفوف كفار قريش وحلفائهم من اليهود أراد النبيُّ ﷺ في ليلةٍ حالكةِ السواد ، شديدة الريح ، عظيمة البرد بصورةٍ قاتلة ، أراد النبيُّ ﷺ أن يقف في

---

(١) كما في «حلية الأولياء»(١/ ٢٧٥) لأبي نعيم ، وقد روي عن علي بن أبي طالب ؛ وانظر: « كنز العمال » (١٦/ ١٩٣) (٤٤٢١٦) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف » (١١/ ٣٦) عن أبي البختري عن حذيفة موقوفًا ، وأشار غلى انقطاعه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٨٥) ، وانظر :«جامع التحصيل» (ص١٨٣) ، وقد رُوِيَ مرفوعًا ؛ أخرجه أحمد في «المسند»(٣/ ١٧) (١١١٢٩) عن أبي سعيد الخدري ، وقد ضعفه الشيخ الأرناؤوط ، وراجع «مجمع الزوائد» (١/ ٦٣) .

هـذه الليلـة عـلى آخـر تطـورات الموقـف في معسـكر المشركـين ، وكانـت العواصف رهيبة ، وكانت الريح تزمجر في وسط الصحراء ، وكان الليـل مظلمًا شديد السواد ، وأراد النبيُّ ﷺ أن يرسـل واحـدًا مـن أصـحابه ـ رضوان الله عليهم ـ إلى معسكر العدوِّ ليتسلَّل إلى داخل المعسكر ليسمع بأذنيه ، وليرى بعينيه ؛ ليقـف عـلى آخـر تطـورات معسـكر أهـل الشرك بشرط أن يرجع إلى النبيِّ ﷺ ليخبره ؛ فمـن يملـك في هـذا الجـو القاتـل المهلك في هذا الليل الأسود الحالك السـواد ، وفي هـذه العواصـف التـي تكاد أن تقلع الجبال ، وفي اللحظات القاسية البرودة أن يقوم بهذه المهمة الصعبة خلف خطوط العدو ؟! نادى النبيُّ ﷺ على رجـل مـن أصـحابه ليقوم بهذه المهمة العظيمة ، ودعونا نقرأ كلام حذيفة بن اليمانِ رضي الله عنه وهو يحكي لنا هذا الموقف الجميل الذي رواه مسـلم ، وأحمـد في «المسند»[(١)] ، واللفظ له .

يقول محمد بن كعب القرظيُّ : « قَالَ فَتًى مِنَّا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ لِحُذَيْفَةَ ابْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه يَا أَبَا عَبْدِ الله ، لَقَدْ رَأَيْتُمْ رَسُولَ الله ﷺ وَصَحِبْتُمُوهُ ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ : نَعَمْ ، يَا ابْنَ أَخِي ، قَالَ : فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ ، قَالَ : وَالله ، لَقَدْ كُنَّا نَجْهَدُ ، فَقَالَ الفَتَى : وَالله يَا أَبَا عَبْدِ الله ، لَوْ أَدْرَكْنَا رَسُولَ الله ﷺ مَا تَرَكْنَاهُ عَلَى الأَرْضِ ، وَجَعَلْنَاهُ عَلَى أَعْنَاقِنَا » .

فَقَالَ حُذَيْفَةُ : يَا ابْنَ أَخِي ، وَالله لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بِالْخَنْدَقِ ،

---

(١) [illegible]جه مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة الأحزاب (١٧٨٨) . وأحمد في « المسند » [illegible]٣٩٢) ، واللفظ له .

وَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ هَوِيًّا ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا ، فَقَالَ : « مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ - يَشْتَرِطُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ يَرْجِعُ - أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ » ، فَمَا قَامَ رَجُلٌ ، ثُمَّ صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ هَوِيًّا مِنَ اللَّيْلِ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا ، فَقَالَ : « مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرَ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ ، يَشْرِطُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّجْعَةَ ، أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ » ؛ فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ مَعَ شِدَّةِ الْخَوْفِ ، وَشِدَّةِ الْبَرْدِ ، وَشِدَّةِ الْجُوعِ ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ دَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنَ الْقِيَامِ حِينَ دَعَانِي فَقَالَ : «اذْهَبْ، فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ ، فَانْظُرْ مَا يَفْعَلُونَ ، وَلاَ تُحْدِثَنَّ شَيْئاً حَتَّى تَأْتِيَنَا» قَالَ : فَذَهَبْتُ فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ وَالرِّيحُ وَجُنُودُ اللهِ تَفْعَلُ مَا تَفْعَلُ ، لاَ تُقِرُّ لَهُمْ قِدْرٌ وَلاَ نَارٌ وَلاَ بِنَاءٌ ؛ فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، لِيَنْظُرِ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ.

يَقُولُ حُذَيْفَةُ : فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي إِلَى جَنْبِي ، وَقُلْتُ مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ ، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إِنَّكُمْ وَاللهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ[1] ، وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ ، وَبَلَغَنَا مِنْهُمُ الَّذِي نَكْرَهُ ، وَلَقِينَا مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ ، وَاللهِ مَا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ ، وَلاَ تَقُومُ لَنَا نَارٌ ، وَلاَ يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ فَارْتَحِلُوا ، فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ ، ثُمَّ قَامَ إِلَى جَمَلِهِ - وَهُوَ مَعْقُولٌ - فَجَلَسَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ عَلَى ثَلاَثٍ ، فَمَا أَطْلَقَ عِقَالَهُ ، إِلاَّ وَهُوَ قَائِمٌ ، وَلَوْلاَ عَهْدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لاَ تُحْدِثْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي ، ثُمَّ شِئْتُ لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ ؛ قَالَ حُذَيْفَةُ : ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ

---

(١) أي: الخيل .

ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ ، مُرَجَّلٍ [١] ، فَلَمَّا رَآنِي أَدْخَلَنِي إِلَى رَحْلِهِ ، وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ الْمِرْطِ ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ وَإِنِّي لَفِيهِ ، فَلَمَّا سَلَّمَ أَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ ، وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ بِمَا فَعَلَتْ قُرَيْشٌ ، وَانْشَمَرُوا إِلَى بِلاَدِهِمْ » .

وفي لفظِ مسلم زيادة رائعة يقول حذيفة رضي الله عنه : « فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ ، حَتَّى أَتَيْتُهُمْ ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ : « وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ » وَلَوْ رَمَيْتُهُ لأَصَبْتُهُ ، فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ ، فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ ، وَفَرَغْتُ ، قُرِرْتُ [٢] ، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا ، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ : « قُمْ ، يَا نَوْمَانُ ! » [٣].

وهكذا نرى أن البطل في هذه الليلة الذي نادى عليه رسول الله ﷺ هو حذيفة رضي الله عنه، وحسبنا أن نعلم أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما كان ثالث ثلاثة أو خامس خمسة كانوا أصحاب السبق العظيم في فتوح العراق كلِّها حتى لا يظنَّ أحدٌ أنه كان عابدًا فحسب !، فهؤلاء كانوا في محاريب العبادة عُبَّادًا زهَّادًا ، وكانوا في المتاجر أمناء ، وكانوا في وقت الغزوات والمعارك أبطالاً أفذاذًا ينطلقون في صفوف الأعداء يبحثون عن الشهادة في سبيل الله قبل أن يبحثوا عن النصر ؛ فحذيفة رضي الله عنه [٤] هو قائد معركة نهاوند ، حيث احتشد الفرس في مائة ألف فارس ، وفي هذا اليوم اختار عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقيادة

---

(١) أي : من صوف مخطط . (٢) أي : أصابني البرد حين فرغت .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة الأحزاب ، برقم (١٧٨٨) .

(٤) « البداية والنهاية » (٧/ ٢٥٥ ، سنة إحدى وعشرين) ط ابن رجب .

الجيوش النعمان بن مقرن ﷺ ، وقُتِل النعمان ؛ فقال عمر بن الخطاب : إنْ قتل النعمان ، فليتولَّ القيادة حذيفة بن اليمان ، وأرسل عمر إلى المقاتلين كتابه ، يقول : « إذا اجتمع المسلمون فليكن كلُّ أمير على جيشه ، وليكن أمير الجيوش جميعًا النعمان ؛ فإذا استشهد النعمان ، فليأخذ الراية حذيفة بن اليمان ؛ فإذا استشهد حذيفة ، فليأخذ الراية جرير بن عبد الله » .

ومضى أمير المؤمنين ﷺ يختار قواد المعركة ، حتى سمَّى منهم سبعة ، والتقى المسلمون مع الفرس ، والمسلمون لا يزيدون عن ثلاثين ألف مقاتل ، والفرس يزيدون عن مائة ألف مقاتل ، وبدأت المعركة ، وسقط قائد المسلمين الأول شهيدًا ، وقبل أن تهوي الراية على الأرض التقطها ، وانقض عليها كالأسد أو كالصقر حذيفة بن اليمان ﷺ ، وانطلق حذيفة ﷺ ينادي بأعلى صوته في صفوف المعركة ، وهو يقول : الله أكبر ، صدق وعده . الله أكبر ، نصر جنده ، ثم لَوى زمام فرسه صَوْبَ المقاتلين في جيوشه ، وظلَّ ينادي على أصحاب النبيِّ ﷺ وهو يقول : يا أتباع محمد ، ها هي جنان الله ﷻ تتهيأ لاستقبالكم ؛ فلا تطيلوا عليها الانتظار ، هيا يا رجال بدر ، تقدَّموا يا أبطال الخندق ، تقدَّموا يا أبطال أحد ، تقدَّموا يا أبطال تبوك ، وهكذا ظلَّ ينادي بهذه الكلمات التي تحرك الإيمان والشوق في القلوب للشهادة ، وإلى الجنة ، حتى انقضَّ أصحاب النبيِّ ﷺ ـ وَرَضِيَ الله عَنْهُم ـ في هذا العدد القليل على هذا الجيش الجرار ، وأوقعوا بالفرس هزيمة ساحقة على يد هذا البطل القائد حذيفة بن اليمان ﷺ .

وهكذا شهد حذيفة كثيرًا من المشاهد ، وكثيرًا من الغزوات ؛ بل كان

قائدًا لمعظم المعارك في أرض العراق كلِّها ـ رَضِيَ الله عَنْهُ وأرضاه .

وفي يومٍ من الأيام في العام الهجري السادس والثلاثين ينام حذيفة بن اليمان رضي الله عنه على فراش الموت ، ويأتيه بعض إخوانه وأصحابه بأكفانٍ ، فيتلمسها ، فيراها غالية الثمن ؛ فيقول : « ما هذا لي بكفنٍ ، إنما يكفيني لفافتان بيضاوان ليس معهما قميص ؛ فإني لم أُترك في القبر إلا قليلاً حتى أُبدَّل خيرًا منهما أو شرًّا منهما »[1].

وتمتم حذيفة رضي الله عنه بكلماتٍ استمع إليها بعض إخوانه وأحبابه ، وهو يقول[2]: « مرحبًا بالموت ، حبيبٌ جاء على شوق ، لا أفلح من ندم » ، وصعدت روحه إلى الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ في جنات ونَهَر في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر ؛ فرضيَ الله عن حذيفة ، وصلى الله وسلَّم وبارك على أستاذه ومعلمه ؛ فقد يزولُ عجبك إذا علمتَ أن هذا الشابَّ المبارك ما وَصَلَ إلى ما وصل إليه إلا لأن الذي ربَّاه هو المصطفى ﷺ. وإذا كان كلُّ منهج يترك بصماته وطابعه على من يتربَّون عليه ، ويتلمذون عليه ؛ فكيف تكون البصمات ، وكيف يكون الطابع إذا كان المنهج الذي تربى عليه حذيفةُ ، هو قرآن الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ ومنهج الحبيب رسول ﷺ؟!

أيها الأحبة : وبعد هذه النبذة التي وقفنا فيها مع ذالكم العالم بالفتن ؛ مع حذيفة بن اليمان ، صاحب سرِّ رسول الله ﷺ؛ فسوف نتحدث عن أول ظهور للفتن بمقتل عثمان ـ رَضِيَ الله عَنْهُ وأرضاه .

---

(١) « سير أعلام النبلاء » (٢/ ١٦٨) .

(٢) ورد ذلك من طرقٍ عن حذيفة ، عند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧/ ٤٥٨)، والحاكم (٤/ ٥٤٧) ، وأبي نعيم في « معرفة الصحابة » (١٧٤٢)، وانظر : « تاريخ دمشق » لابن عساكر (١٢/ ٢٩٦ـ٢٩٩) ، و« حلية الأولياء » (١/ ٢٨٢) ، (١٠/ ٩١) .

نبوءة المصطفى ﷺ بمقتل عثمان ﷺ

وكان ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ ؛ فإنه لا ينطق عن الهوى ، فقد قُتل عمر ، وكُسر الباب الذي كان مغلقًا على فتنٍ كثيرةٍ ، وظهرت الفتن ووقع البلاء ؛ فكانت الفتنةُ الأولى بلا نزاع التي ظهرت بعد قتل عمر ﷺ هي: فتنة قتل عثمان ﷺ على يد طائفة من دعاة الشرِّ الذين تألبوا عليه من العراق والكوفة والبصرة ومصر ، ودخلوا المدينة ، وقتلوا عثمان ﷺ وهو يقرأ القرآن الكريم !!

والذي أودُّ أن نَعْلَمهُ أن الفتنة التي قُتل فيها عثمان قد تَحدَّث عنها الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ كما وقعت ، وهذه العلامات من علامات النبوة ، فقال النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأبي موسى الأشعري ﷺ ، حينما استأذن عليه عثمان ﷺ: « ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ مَعَ بَلْوَى تُصِيبُهُ »[1] .

وسنورد أحاديث صحيحة أخبر فيها الصادق الذي لا ينطق عن الهوى عن مقتل عثمان ﷺ شهيدًا مظلومًا ، وهذا هو الذي ينبغي أن يكون راسخًا في الأذهان .

وأسأل الله أن يوفقني ، وأن يسددني لأُجَلِّيَ الحديث في هذه الفتنة

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب قول النبيِّ ﷺ : « لو كنت متخذًا خليلًا » برقم (٣٦٧٤) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عثمان بن عفان ﷺ برقم (٢٤٠٣) .

الحالكة السواد ، والتي بدأت بقتل عثمان ، وانتهت بقتل عليٍّ والحسن والحسين ، وجمعٍ كبير من أصحاب النبيِّ ﷺ ؛ لا سيما وأنا أعلم أنه قد خاض في بحرٍ متلاطمِ الأمواج من لا يجيدُ السباحة ، وخاض في تاريخ الأصحاب وفي سيرة الأطهار من لا يجيد النزال ممن يحملون قلوبًا مريضة مشوشة ، وعقيدةً فاسدةً ، ومِن هؤلاء مَنْ تطاول على هذه القمم الشماء ، وعلى هؤلاء الأطهار ، ونقل بعض الآثار ـ وإن كانت في كتب أئمتنا من أئمة السلف ؛ كابن عساكر ، وابن جرير الطبري وغيرهم ـ فنقلوها دونما علم البتة بأقوال أهل الجرح والتعديل في أسانيدها ؛ فإن علماءنا الذين سطَّروا كل هذه الآثار . رووا كلَّ أثر بسنده ، ليتعرف من يريد أن يأخذ من هذه التركة على صحةِ الأثر من عدمه بالوقوف على أسانيدِ الروايات ؛ لكن بكلِّ أسفٍ تُركت هذه التركة التاريخيةُ الضخمةُ بما فيها من الغث والسمين ، والحق والباطل ، وجاء مَنْ لا يُحْسِن النزال ، فنقل إلينا من هذه التركة دونما تمحيص ، أو تدقيق ، أو فهم دقيق ، أو حتى دونما نظرٍ سَوِيٍّ لمكانة الصحْب عند الله تبارك وتعالى ، وعند النبيِّ ﷺ ؛ فنقل إلينا كثيرٌ ممن لا نشك في نيتهم ، ولا في صدقهم أخبارًا لا ينبغي البتة أن تُنْسب إلى آحاد المؤمنين من الصادقين ؛ فما بالكم لو نُسِبَت لأصحاب النبيِّ الأمين ـ رضوان الله عليهم أجمعين ؟!! زلَّ في ذلك من زلَّ ، وسأبين ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ وأنا أُجَلِّيَ الحديث عن فتنة موقعه الجمل وصفين وغيرها من هذه الفتن التي كانت الفتن الأولى .

والسؤال الآن : لماذا خَصَّ النبيُّ ﷺ عثمان بذكر البلاء مع أن عثمان قُتل كما قُتل عمر ؟

والجواب : أن عمر ﷺ قد قُتِلَ وكانت الدولةُ قويَّةً فتيَّة أَبِيَّة ، وكان عمر مُهابًا وقويًّا ، لكن عثمان ﷺ قُتل وامتحن بما لم يمتحن به عمر ؛ فلقد تسلَّط عل قتل عثمان ﷺ مجموعةٌ من القوم ممن أرادوا أن يخلعوه من الإمامة ، أو يقتلوه بسببِ ظلمٍ وقع فيه عثمان ـ بزعم هؤلاء الكذابين ـ فعثمان ابْتُلِيَ بما لم يُبْتَلَى به عمر .

إن عمر قتله أبو لؤلؤة المجوسي[1] ـ عليه من الله ما يستحق ـ بين الصحْبِ الكرام .. حادثٌ كأيِّ حادثٍ فردي ، لكنَّ عثمان ابتُلِيَ بحثُالةِ من القوم ممن ادَّعوا ورعًا باهتًا ، وزُهْدًا كاذبًا ، وانطلقوا في زيِّ الحُجَّاج ، وقد خدعوا الناس ، وأنهم ما خرجوا إلا للحجِّ ،و إلا للقاء عثمان ﷺ ليبينوا له بعضَ المظالم التي يشتكي منها بعض الناس ! وهم خرجوا بخطَّة مدبَّرة آثمةٍ على يد هذا اليهودي الخبيث عبد الله بن سبأ ؛ ليقتلوا عثمان ﷺ ، أو ليخلعوه من الإمامة ، وهذه كانت أول فتنة .. يخرجُ مجموعةٌ من المجرمين من الثوَّار ، ليخلعوا خليفة المسلمين بالقوَّة أو يقتلوه ! أما عمر فلم يتعرض لذلك ﷺ ؛ بل قُتِلَ في حادث فردي ، وعلى فراش الموت ، ورشَّح عمر ستة من أصحاب النبيِّ ﷺ ، وكان على رأس هؤلاء عثمان ليكون خليفة للمسلمين من بعده ، وبايع المسلمون

(١) كما عند البخاري (كتاب فضائل الصحابة ، باب قصة المبايعة ، والاتفاق على عثمان بن عفان ﷺ) (رقم : ٣٧٠٠) .

عثمان رضي الله عنه بالإجماع بيعةً عظيمةً جليلةً، وتولَّى عثمان الخلافة، وعاش الناس في رخاء إلى أن دبَّتْ وظهرت هذه الفتنة الحالكة السواد، وثار هؤلاء على خلع عثمان أو قتله، وهذه هي المرة الأولى التي تقع فيها مثل هذه الفتنة في تاريخ أمة النبيِّ ﷺ!!

وبمقتل عثمان رضي الله عنه انقسم المسلمون، ووقع القتال بين الصحابة، وانتشرت الفتن والأهواء، وكثر الاختلاف، وتشبعت الآراء، وازدادت المعارك، واشتعلت نارها؛ فإن الرسول ﷺ قد علا يومًا على جبلٍ مرتفع من جبالِ المدينة، وقال كلامًا عجيبًا، لا ينطق صاحبه عن الهوى - بأبي هو وأمي - فقال لأصحابه: «هَل تَرَوْنَ مَا أَرَىَ؟ إِنِّي لَأَرَى مَوَاقِعَ الفِتَنِ خِلاَلَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ القَطْرِ»[1]. والحديث رواه البخاريُّ، وهو في مسلمٍ في كتاب (الفتن و أشراط الساعة).

قال الإمام النووي[2] رحمه الله: «يريد النبيُّ ﷺ بذلك الفتن التي وقعت بين الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - بعد مقتل عثمان». وأصابت هذه الفتن الحالكة جُلَّ بيوت الصحابة؛ مصداقًا لقول الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى.

تدبَّر معي هذا الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «أَنَّهُ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ خَرَجَ؛ فَقَالَ: لَأَلْزَمَنَّ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل المدينة، باب آطام المدينة (١٨٧٨)، وانظر أطرافه هناك، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر برقم (٢٨٨٥).

(٢) «شرح مسلم» للنووي (١٨/ ٧، ٨).

رَسُولَ الله ﷺ وَلأَكُونَنَّ مَعَهُ يَوْمِي هَذَا ؛ قَالَ : فَجَاءَ الْمَسْجِدَ ، فَسَأَلَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا : خَرَجَ هَا هُنَا . قَالَ : فَخَرَجْتُ عَلَى إِثْرِهِ أَسْأَلُ عَنْهُ ، حَتَّى دَخَلَ بِئْرَ أَرِيسٍ .قَالَ : فَجَلَسْتُ عِنْدَ الْبَابِ . وَبَابُهَا مِنْ جَرِيدٍ . حَتَّى قَضَى رَسُولُ الله ﷺ حَاجَتَهُ وَتَوَضَّأَ ، فَقُمْتُ إِلَيْهِ . فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى بِئْرِ أَرِيسٍ ، وَتَوَسَّطَ قُفَّهَا ، وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ ، وَدَلَّاهُمَا فِي الْبِئْرِ. قَالَ : فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ ، فَجَلَسْتُ عِنْدَ الْبَابِ .فَقُلْتُ :لأَكُونَنَّ بَوَّابَ رَسُولِ الله ﷺ الْيَوْمَ ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَدَفَعَ الْبَابَ . فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ فَقَالَ : أَبُو بَكْرٍ. فَقُلْتُ : عَلَى رِسْلِكَ . قَالَ : ثُمَّ ذَهَبْتُ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله هَذَا أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ ، فَقَالَ : «ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ» قَالَ : فَأَقْبَلْتُ حَتَّى قُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ : ادْخُلْ وَرَسُولُ الله ﷺ يُبَشِّرُكَ بِالْجَنَّةِ . قال : فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ ، فَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ الله ﷺ مَعَهُ فِي الْقُفِّ . وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي الْبِئْرِ . كَمَا صَنَعَ النَّبِيُّ ﷺ وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ. ثُمَّ رَجَعْتُ فَجَلَسْتُ . وَقَدْ تَرَكْتُ أَخِي يَتَوَضَّأُ وَيَلْحَقُنِي . فَقُلْتُ : إِنْ يُرِدِ اللهُ بِفُلَانٍ خَيْرًا ـ يُرِيدُ أَخَاهُ ـ يَأْتِ بِهِ. فَإِذَا إِنْسَانٌ يُحَرِّكُ الْبَابَ . فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ فَقَالَ : عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ . فَقُلْتُ : عَلَى رِسْلِكَ . ثُمَّ جِئْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَسَلَّمْتُ عَلَيْه ، وَقُلْتُ : هَذَا عُمَرُ يَسْتَأْذِنُ . فَقَالَ : «ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ» قَالَ : فَجِئْتُ عمر فَقُلْتُ : أَذِنَ وَبَشَّرَكَ رَسُولُ الله ﷺ بِالْجَنَّةِ . قَالَ : فَدَخَلَ فَجَلَسَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي الْقُفِّ ، عَنْ يَسَارِهِ . وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي الْبِئْرِ . ثُمَّ رَجَعْتُ فَجَلَسْتُ ؛ فَقُلْتُ : إِنْ يُرِدِ الله بِفُلَانٍ خَيْرًا ـ يَعْنِي أَخَاهُ ـ يَأْتِ بِهِ . فَجَاءَ إِنْسَانٌ يُحَرِّكُ الْبَابَ . فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟

فَقَالَ : عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ . فَقُلْتُ : عَلَى رِسْلِكَ . قال : وَجِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ . فَقَالَ : «ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ مَعَ بَلْوَى تُصِيبُهُ» قَالَ : فَجِئْتُ فَقُلْتُ : ادْخُلْ وَبَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْجَنَّةِ ، عَلَى بَلْوَى تُصِيبُكَ ، قال : فَدَخَلَ فَوَجَدَ الْقُفَّ قَدْ مُلِئَ ، فَجَلَسَ وِجَاهَهُمْ مِنَ الشِّقِّ الْآخَرِ[1] » .

وفي رواية مسلم[2] حينما قال أبو موسى لعثمان : رسول الله ﷺ يبشرك بالجنة مع بلوى تصيبك ؛ قال عثمان : «اللَّهُمَّ صَبْرًا ، أَوْ اللهُ الْمُسْتَعَانُ» .

وقبل الشروع في الحديث عن الفتنة أرى من الجفاء ألا أبيّن ــ في عجالة سريعة ــ مَنْ هو عثمان بن عفان رضي الله عنه ؛ فعثمان هو زوج ابنتي رسول الله ﷺ ، وهو أصدق الأُمَّة حياءً رضي الله عنه .

ففي الحديث الذي رواه مسلمٌ من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِي ، كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ ، أَوْ سَاقَيْهِ ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ ، فَأَذِنَ لَهُ ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، فَتَحَدَّثَ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ فَأَذِنَ لَهُ . وَهُوَ كَذَلِكَ . فَتَحَدَّثَ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وَسَوَّى ثِيَابَهُ ؛ فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها : دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ ، وَلَمْ تُبَالِهِ ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ ! فَقَالَ : «أَلَا أَسْتَحِي

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب قول النبيِّ ﷺ : «ولو كنت متخذًا خليلاً» برقم (٣٦٧٤) ، وانظر أطرافه هناك ، مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه برقم (٢٤٠٣) .

(٢) مسلم (٢٤٠٣) ، باب من فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وفي البخاري (٣٦٩٦) : «والله المستعان» .

مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ »[1] .

إنه رجلٌ بلغ هذه المكانة من شدَّة حيائه من الله ، فكان رجلاً تستحي منه الملائكة !!

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ ـ من حديث أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ صعد يومًا على جبل أُحدٍ مع أبي بكر وعمر وعثمان ، فارتجَّ الجبل بهم ؛ فقال النبيُّ ﷺ للجبل : «اثْبُتْ أُحُدُ ؛ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ ، وَصِدِّيقٌ ، وَشَهِيدَانِ »[2] .

فحكم النبيُّ ﷺ لعمر وعثمان بالشهادة في سبيل الله . وأنتم تعلمون فضل الشهادة عند الله ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران :١٦٩ ، ١٧٠] .

وعثمان ممن هاجر الهجرتين إلى الحبشة وإلى المدينة ، ولما هاجر النبيُّ ﷺ إلى المدينة فاجأ النبيَّ ﷺ والصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مشكلة الماء .

وأود أن أقول : إن المشكلة القادمة في القرن المقبل هي مشكلة المياه ـ لقد شقَّ على النبيِّ ﷺ وأصحابه هذا القحطُ . وكان يتحكم في المياه رجلٌ يهوديٌّ خبيثٌ يبيع الماء بالمال والشعير والتمر[3] .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عثمان بن عفان ﷺ برقم (٢٤٠١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب قول النبيِّ ﷺ : « ولو كنت متخذًا خليلًا» برقم (٣٦٧٥) ، وانظر أطرافه هناك .

(٣) واليهود هذا هو ديدنهم في كل زمان ومكان ، يتحكمون في المصادر الحقيقية في هذه الأرض ..=

فاشتكى الصحابة للنبيِّ ﷺ قلة المياه في المدينة ، وجشع هذا اليهودي الخبيث ، وتمنى النبيُّ ﷺ أن لو وجد بين أصحابه من يشترى بئر رومة من هذا اليهودي الجشع ، ولم تجد هذه الأزمة إلا عثمانها المعطاء ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه ـ الذي انطلق فورًا بعدما سمع النَّبيَّ ﷺ يقول : «مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ فَيَجْعَلَ دَلْوَهُ مَعَ دِلَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ»[1] .

فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «أَنَا يَا رَسُولَ الله» . وانطلق عثمان رضي الله عنه ليشتري البئر من هذا اليهودي الخبيث ؛ فقال له اليهودي الغبيُّ : لا أبيع لك البئر كاملة ؛ بل أبيع لك نصفها ! (كيف تباع نصف البئر؟) فقال : البئر لك يوم ولي يوم ، فوافق عثمان ، واشترى العين منه بـاثني عشر ألـف

ـــــــــــــــــــ

= في المياه .. في الذهب .. في الإعلام .. في التعليم ؛ خبثاء ! قد يتحكم واحدٌ فقط في رقاب آلاف من الناس ، بل في ملايين البشر ؛ كذلك في الإعلام يوجِّه عقول البشر ، وكذلك في التعليم ، كما قال خبيث منهم : (دعوا أولادهم يذهبون إلى المساجد ، ويقرؤون القرآن ، ولكن سنغير هذا كلَّه لأبنائهم في مدارسهم) ، يخططون ويدبرون ويصنعون المناهج ، التي تغير عقول أبنائنا وبناتنا في المدارس ،ولا زالت منظمة اليونسكو هي التي تضع إلى الآن مناهج أولادنا وبناتنا ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ـ كنا ندرس في المرحلة الثانوية مثلاً ـ التاريخ الإسلامي تاريخ الحروب الصليبية ، لينشأ الولد على عقيدة الولاء والبراء ، ولكنك الآن ترى تاريخًا عجيبًا ؛ ترى تاريخ الفن في الدولة العباسية .. إلى غير ذلك من هذا التاريخ المشوه المبتور الذي لا يخرج أبطالاً ، ولا رجالاً ، وإنما يخرج جيلًا لا يعرفون شيئًا عن عقيدتهم أو تاريخهم الإسلامي ـ أسأل الله أن يرد الأمة إلى الحقِّ ردًّا جميلاً .

(١) أخرجه البخاريُّ (تعليقًا كتاب الوصايا ، باب إذا وقف أرضًا أو بئرًا أو اشترط لنفسه مثل دلاء المسلمين) (٢٧٧٨) ، والترمذي ، كتاب المناقب (٣٦٩٩) ، وقال : «حديث حسن صحيح غريب» من طريق أبي عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه ، ورواه النسائي ، كتاب الجهاد ، باب فضل من جهَّز غازيًا (٣١٨٢) ، وفي كتاب الأحباس باب وقف المساجد (٣٦٠٨ ، ٣٦٠٩) من طريق : الأحنف بن قيس ، ورواه ثمامة بن حزن القشيري ؛ كما عند الترمذي (٣٧٠٣) ، والنسائي (٣٦١٠) وغيرهما . وحسَّنه الألباني في «الإرواء» (٦/ ٣٨ ، ٣٩) .

درهم ؛ فكان المسلمون بفضل الله في يوم عثمان يأخذون ما يكفيهم ليومين ، ويجلس اليهوديُّ في يومه ، ليرى مسلمًا يشتري منه فلا يجد ؛ فذهب اليهودي الخبيث إلى عثمان ﷺ ليعرض عليه النصف الآخر للبئر .

وبعد أن اشترى عثمان بئر رومة ضاق المسجد النبويُّ يومًا بأصحاب النَّبيِّ ﷺ ، وتمنى النَّبيُّ ﷺ على أصحابه أن لو تقدم أحدٌ فاشترى الأرض المجاورة [١] للمسجد ، ليزيد مسجد النَّبيِّ ﷺ ، فلم تجد هذه المشكلةُ أيضًا إلا عثمانها المعطاء ؛ فتقدَّم عثمان ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه ـ واشترى الأرض المجاورة ، وزادت رقعة المسجد النبويِّ ـ على صاحبه أفضل الصلاة والسلام .

وفي العام السادس من الهجرة خرج النَّبيُّ ﷺ وأصحابه من المدينة إلى مكة ، وهم يريدون العمرة ، وقد عَلِمت قريشٌ بذلك ، وأراد النَّبيُّ ﷺ أن يخبر قريشًا أنه ما جاء مقاتلًا ولا محاربًا ؛ بل جاء لزيارة البيت ، وخرج النَّبيُّ ﷺ وهو يلبس ملابس الإحرام ، وساق الهدي أمامه ، ليؤكد لهم أنه ما جاء إلا للعمرة ، ولكن قريشًا أبت ورفضت رفضًا باتًّا دخول النَّبيِّ ﷺ إلى مكة .

وأراد النَّبيُّ ﷺ أن يرسل رجلًا إلى قريش من وُجَهاء الناس ليؤكِّد لسادة قريش أن النَّبيَّ ﷺ ما جاء إلا معتمرًا ، فأرسل النَّبيُّ ﷺ خراش بن أمية الخزاعي [٢] ، وهو رجلٌ شريفٌ في قومه وجيهٌ ، فكادت قريش أن

---

(١) انظر : المصادر السابقة .

(٢) انظر : «السيرة» لابن هشام (٢/ ٢٠٨ـ ٢١٠) ، و«مسند أحمد» (٤/ ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٩ـ ٣٣١) ، والطبري في «التاريخ» من رواية ابن إسحاق (٢/ ١٢١) .

تقتله بعدما عقروا ناقته ، لولا أن الله ﷻ نجّاه ، ولولا أن مجموعة من عقلاء قريش قالوا : لا تقتلوه ؛ فإن الرجل ما جاء إلا رسولًا ، والرسُل عندهم لا تقتل ، ومنعت الأحابيش قريشًا من قتل خراش ، وأراد النبي ﷺ أن يرسل آخر فنادى على عمر ﷺ ، فقال عمر : يا رسول الله ، ليس بمكةَ أحدٌ يمنعني ، وقد عرفت قريشٌ عدواتي إياها ، وغلظتي عليها ، ولكني سأدلك على رجلٍ أعزُّ بها مني ؛ فقال النَّبيُّ ﷺ : «مَنْ هُوَ ؟» فقال عمر : إنه عثمان بن عفان ، واختار النَّبيُّ ﷺ عثمان ﷺ ، وانطلق عثمان بأمر النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام ، ليخبر قريشًا أنه ما جاء إلا للعمرة ، وهو لا يفكر إلا أن يوصل رسالة النَّبيِّ ﷺ حتى لو قُتل ؛ فهو يعلم يقينًا أن خراش بن أمية تعرَّض للموت وللهلاك لولا أن الأحابيش قد منعته من القتل ، وانطلق عثمان وَسَطَ هذه المخاطرة المرعبة المرعدة لا يعنيه إلا أن يوصل رسالة النَّبيِّ ﷺ ، ولا يعنيه أبدًا أن يرجع حيًّا أو ميتًا ، فاستقبلته قريش ، وأحسنوا استقباله ، وبالغوا في إكرامه ، فهو الوجيه في قومه الشريف النسيب ، وبلَّغهم رسالة النَّبيِّ ﷺ ؛ فقالوا له :

(يا عثمان إن شئت أن تطوف بالبيت فطُفْ) ، هو ما جاء إلا أن يطوف بالبيت ، وهذه أمنيته ،لكن انظروا إلى الفقه والفهم ؛ فقال عثمان التقيُّ النقيُّ : والله ما كنتُ لأطوفَ به حتى يطوف رسول الله ﷺ ، فحبسوه ؛ فوصل الخبر للنبيِّ ﷺ أن عثمان قد قُتل ؛ فلما سمع الصحابة بأن عثمان قد قتل ؛ بايعوا النَّبيَّ ﷺ على الموت ، تلك البيعة التي خلَّد ذكرها القرآن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، والتي سُمِّيت ببيعة الرضوان ، والتي

ذكرها من فوق سبع سموات الرحمن الرحيم - جَلَّ وعَلاَ - فقال سبحانه:

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

وكانت البيعة على الموت. يقاتلون مع النبيِّ ﷺ قريشًا لما بلغهم أنهم قتلوا عثمان ﷺ وأرضاه؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: ١٠].

وقام النَّبي ﷺ ليبايع الصحب الكرام؛ فقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ فِي حَاجَةِ الله وَحَاجَةِ رَسُولِهِ» فقدم النَّبيُّ ﷺ بعد هذه الكلمة يده اليمنى، وضرب النَّبيُّ ﷺ بيده اليُمنى على يده اليسرى وقال: «هَذِهِ يَدُ عُثْمَانُ» فالنَّبيُّ ﷺ يضرب بيده اليمنى لعثمان بن عفان؛ يقول أنس ﷺ: «فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان ﷺ خيرًا من أيديهم لأنفسهم»، فالذي يضرب بيد عثمان هو النَّبيُّ ﷺ، ويا لها من كرامة!! والحديث أخرجه الترمذي [(١)] وقال: «حديث حسن صحيح» وله شاهدٌ في «صحيح البخاري» [(٢)] - مختصرًا - من حديث ابن عمر ﷺ.

ولم يمض على بيعة الرضوان ثلاثة أعوام إلا وقد ترامت الأنباء إلى رسول الله ﷺ أن هرقل ملك الروم قد عزم على غزو المسلمين في المدينة

---

(١) أخرجه الترمذيُّ، كتاب المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان ﷺ (٣٧٠٣) وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب» من حديث أنس ﷺ، والنسائي، كتاب الأحباش، باب وقف المساجد (٣٦١٥) من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن، ورواه أحمد (١/ ٥٩).

وقال الشيخ شعيب: «صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين».

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عثمان بن عفان (٣٦٩٩).

المنورة ، وكان الصيف حارًّا يصهر الجبال ، وكانت البلاد تعاني من الجدب والعسر ، فإذا قاوم المسلمون بإيمانهم ؛ فأين ما يركبون عليه ؟ أين الطعام ؟ وأين الشراب ؟ وأين الظَهْر ؟

وأراد النبيُّ ﷺ أن يجيِّش جيشًا جرَّارًا ليقاتل الروم بقيادة هرقل ، وهنا دعا النَّبيُّ ﷺ إلى تجهيز جيش العُسرة ، وارتقى النَّبيُّ ﷺ المنبر يحث الناس على النفقة ؛ كما في الحديث الذي رواه أحمد والترمذي [(١)] بسندٍ حسن من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال : « جَاءَ عُثْمَانُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَلْفِ دِينَارٍ فِي كُمِّهِ حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ ، فَنَثَرَهَا فِي حِجْرِهِ ، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَلِّبُهَا فِي حِجْرِهِ ، وَيَقُولُ : «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ» مَرَّتَيْنِ .

ورَوَى الترمذيُّ عن عبد الرحمن بن خُباب رضي الله عنه قال: «شَهِدْتُ النَّبِيَّ ﷺ ، وَهُوَ يَحُثُّ عَلَى جَيْشِ الْعُسْرَةِ ، فَقَامَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ! عَلَيَّ مِائَةُ بَعِيرٍ بِأَحْلَاسِهَا وَأَقْتَابِهَا فِي سَبِيلِ اللهِ ، ثُمَّ حَضَّ عَلَى الْجَيْشِ ؛ فَقَامَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ! عَلَيَّ مِائَتَا بَعِيرٍ بِأَحْلَاسِهَا وَأَقْتَابِهَا فِي سَبِيلِ اللهِ ، ثُمَّ حَضَّ عَلَى الْجَيْشِ ، فَقَامَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ! عَلَيَّ ثَلَاثُ مِائَةِ بَعِيرٍ بِأَحْلَاسِهَا وَأَقْتَابِهَا فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْزِلُ مِنْ عَلَى الْمِنْبَرِ وَهُوَ يَقُولُ: «مَا

---

(١) أخرجه الترمذيٌّ ، كتاب المناقب ، باب مناقب عثمان (٣٧٠١) ،وقال : «حديث حسن غريب من هذا الوجه» ، وأحمد في «المسند» (٥/ ٦٣) ، والحاكم (٣/ ١١٠) وقال : «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي ، وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٧١٠) ، و«المشكاة» (٦٠٦٤) .

عَلَى عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذِهِ ، مَا عَلَى عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذِهِ» [(١)] .

وهذا ما استدل به عثمان ﷺ على الثُّوَّار حينما أرادوا قتله ، وهذا نزر يسير لتقف من البداية على قَدْرِ عثمان ؛ لأنه لو انطلق المسلم في الحديث عن الفتنة التي قُتل فيها عثمان من هذا المنطلق لفهم قَدْر الصحابة ؛ فهذه شهادةٌ من النَّبيِّ ﷺ لعثمان بأن الملائكة تستحي منه ، وشهادةٌ له بأنه شهيد ، وشهادةٌ له بأنه لا يضره شيء سيعمله بعد يومِهِ ! مناقب وشهاداتٌ من النَّبيِّ ﷺ لعثمان ؛ لو انطلقتَ أيها المسلم لتتحدث عن الصحابة من منطلق هذه القاعدة الواضحة الظاهرة ، من منطلق تكريم الله وتكريم النَّبيِّ ﷺ لهم لوقفت على قَدْرِهم ، وفضلهم ، وصِدْقِهم ، وطُهْرهم ، ولما رميْتَ واحدًا منهم بما لا يمكن أن يُرمى به مؤمنٌ من آحاد المؤمنين الصادقين فضلًا عن أن يكون من أصحاب سيد النبيين ﷺ .

هاهو عثمان بن عفان ﷺ يصحب رسول الله ﷺ ، حتَّى يُتَوَفَّى رسولُ الله ﷺ وهو عنه راضٍ ، ويصحب أبا بكر حتَّى يُتَوَفَّى أبا بكر وهو راضٍ عنه ، ويصحبُ عمر حتَّى يُتوفَّى عمر وهو عنه راضٍ ؛ بل ويكتب عمر اسمه في قائمة ستةٍ من الصحابة ؛ ممن أراد عمر أن يكون الأمر بينهم [(٢)] ، فاختارت الأمة كُلُّهَا بالإجماع عثمانَ بن عفانَ ﷺ ، وما أن تولى الخلافة عثمان ﷺ إلَّا واشتعلت نارُ الفتن اشتعالًا ، وبدأت ثَوْراتٍ مسلحةٌ

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب المناقب ، باب في مناقب عثمان (٣٧٠٠) ، وقال :«حديث غريب من هذا الوجه» ، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٣١١) ، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الترمذي» ويشهد له ما قبله ؛ فهو به صحيح .

(٢) كما عند البخاري في «صحيحه» ، كتاب فضائل الصحابة ،باب قصة البيعة (٣٧٠٠) .

تنتفض على هذه الدولة العظيمة المترامية الأطراف من هنا وهناك، انتفضت دولة الروم، وغارت على حدود الدولة الإسلامية؛ بل وواصلوا بأسطولهم فعلًا إلى الإسكندرية وفلسطين بعد موتِ عمر، وتولَّى عثمان. ولقد كانت كلُّ الأرض تهاب عمر، وأعتى الإمبراطوريات كُسرت أنوفها على يَدِ عمر؛ فلما أن قُتل عمر، وتولَّى الخلافة عثمانُ إلا وقامت كلُّ دولة بثورة مسلحة على الدولة الإسلامية؛ نظرًا لأن الذي تولَّى الخلافةَ شيخٌ قد جاوز السبعين من عمره رضي الله عنه؛ فلما قُتل عمر قامت الدنيا كلُّها على دولة الإسلام[1] !!!

وتمرَّدت كذلك قُوى التمرُّد في أذربيجان وأرمينية، واشتعلت النار لتطوق دولة الإسلام بأسرها، وسبحان الله !!

أصدر عثمانُ بنُ عفان على الفور الأوامر، وقام بنفسه ليختار قواد الجيوش لإطفاء هذه النار، وسبحان ربي ! كأنما تحرك داخل إهاب هذا الشيخ الكبير شبابُ التاريخ بأسره؛ انطلق بكلِّ حيوية وشباب ليختار قواد الجيش بنفسه، وينطلق مع كل قائد ليوصيه، وسرعان ما تحولَّت هذه الفتن إلى فتوحات، وتمت الانتصارات، وزحف المسلمون؛ بل ومهدت الأرض لزحف المسلمين، فبنيت الجسور في عهد عثمان رضي الله عنه وأرضاه؛ وانطلق الفتح في عهده كأنه الليل والنهار، حتى بلغ المسلمون السودان والحبشة في الجنوب، والهند والصين في الشرق، وزرفرفت راية الإسلام على الصين.

---

(١) انظر: «صحيح البخاري». كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن (٤٩٨٧).

والفتنة إذا بدأت من الداخل ؛ فإنها أخطر بكثيرٍ من كلِّ الفتن الخارجية ، ولو اجتمع أهلها ؛ يقول الأعداء ــ دومًا في مقولة خبيثة: لابد أن يتسبب في قطع الشجرة أحدُ أغصانها !! لو كُسِرَ فرع منها فمال في طريق الناس ، وحال بين الناس وبين المرور يمكن أن يُهَيِّجَ الناسَ لقطع هذه الشجرة من جذورها .

فنحن لا نخشى أبدًا من الفتن الخارجية مهما كان أهلها أقوياء ، ولكن الفتنة كلَّ الفتنة أن تشتعل نارُها من داخل البيت المسلم ومن داخل الصف الإسلامي ! وهذا الذي وقع ، سرعان ما تحولَّت هذه الريح الباردة الهادئة إلى عاصفة مدمِّرة أخذت تتجمع شيئًا فشيئًا ، وينادي بعضها بعضًا حتى تحولَّت إلى إعصار مُزَلْزِلٍ مدمِّرٍ ؛ كُتِبَ على الخليفة عثمان ﷺ أن يواجهه وحده في محنةٍ هبطت بها شراسة الثوار المجرمين إلى الحضيض ، وارتفع بها تسامح الخليفة إلى القمة ﷺ ؛ اشتعلت نار الفتنة التي قُتل فيها عثمان ، بشهادة النبيِّ ﷺ ، وهو يتحدث عن فتنة وأشار فيها إلى عثمان ؛ فقال: «يُقْتَلُ فِيْهَا هَذَا مَظْلُوْمًا» . والحديث رواه الترمذي[1] ، وقال : «حديث حسن غريب» ، وأورده الحافظ ابنُ حجر في«الفتح» [2] ، وقال : «إسناده صحيح» .

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب المناقب ، باب في مناقب عثمان ﷺ (٣٧٠٨) وقال : «حديث حسن غريب من هذا الوجه» ، وأحمد في«المسند» (٢/ ١١٥) و«فضائل الصحابة» (١/ ٥٥١) وحسَّنه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٩٢٥) .

(٢) «فتح الباري» (٧/ ٣٨) .

وشهد له النَّبيُّ ﷺ أنه يومئذ على الهدى ، وهو ومن معه على الحق .

روى ابن ماجه[(١)] عنْ كعب بن عجرة رضي الله عنه قال : ذَكَرَ رَسُولُ الله ﷺ فِتْنَةً فَقَرَّبَهَا ؛ فَمَرَّ رَجُلٌ مُقَنَّعٌ رَأْسُهُ ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « هَـذَا يَوْمَئِذٍ عَلَى الْهُدَى» فَوَثَبْتُ ؛ فَأَخَذْتُ بِضَبْعَيْ عُثْمَانَ ، ثُمَّ اسْتَقْبَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ ، فَقُلْتُ : هَذَا ؟! قَالَ : «هَذَا» .

وتولَّى كِبْر هذه الفتنة المروعة عبد الله بن سبأ ابن السوداء اليهودي الخبيث ، هذا الرجل الذي انتحل الإسلام وادَّعى الغيرة الشديدة على دينه ، ومضى الخبيث يدرس في صمت ودهاءٍ كل جوانب الحياة في مدينة النَّبيِّ ﷺ من جوانب القوة والضعف على السواء ، حتى رسم الخطة بإحكامٍ ، ثم بدأ يتحرَّك إذ لم يجد له أعوانًا في المدينة ؛ فالمدينة لا زال فيها أصحابُ النَّبيِّ ﷺ ، فلم يجد له أنصارًا ولا أعوانًا على هذه الفتنة الخبيثة ؛ فانطلق إلى العراق .. إلى البصرة والكوفة ، ثم نزل إلى مصر ، وأعدَّ له أعوانًا على الفتنة ضدَّ عثمان خليفة المسلمين زوج ابنتيِّ رسول الله ﷺ.

فينطلق هذا الخبيث ليجيِّش ضدَّ هذا الرجل العملاق الطاهر حُثالةً من أردأ الخلق ، وأقذر الناس ، وأعفنهم .

والمصيبة الكُبرى أنه نجح في أن يحرِّك هؤلاء الغوغاء والسفلة بزعم

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ، باب فضل عثمان رضي الله عنه (١١١) ، وقال البوصيري : «إسناده منقطع» ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٢٤) ، وانظر : الترمذيَّ (٣٧٠٤) وقال : «حديث حسنٌ صحيحٌ ، وفي الباب عن ابن عمر وعبد الله بن حوالة وكعب ابن عجرة» ، و «فضائل الصحابة» لعبد الله بن أحمد (١/ ٥٥٠) .

أنهم لا يتحركون إلا لنصرة الإسلام !! حيث قال لهم : «إنَّ لكلِّ نبيٍّ وصيًّا ، وإنَّ عليًّا وصيُّ رسول الله ﷺ »[١].

ولقد وثب عثمان بن عفان على أمر هذه الأمة ، وأخذ الحق من عليٍّ ، فهُبوا وردُّوا الحق إلى صاحبه[٢]. واستطاع ابنُ السوداء أن يصطفي من المفتونين أنصارًا ، وهؤلاء لا يخلوا منهم زمان ولا مكان ، ورسم لهم ابنُ سبأ منهجهم في هذه الكلمات الخطيرة ؛فقال: «تظاهروا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتستميلوا الناس إليكم» !.

هذا أول أصل من أصول الضلال .

والأصل الثاني : قال : وابدؤوا بالطعن في أمرائكم وقولوا للناس : إن عثمان قد أخذ الخلافة بغير حقٍّ ، وإن عليًّا هو وصيُّ رسول الله ، فانهضوا وردُّوا الحق إلى صاحبه !!

واستجاب له حُثالةٌ من أصحاب القلوب المريضة من المفتونين من البصرة ، ومن الكوفة ، ومن مصر، ومن الشام ، وخرجوا جميعًا يتواعدون على أن يكون اللقاء في مدينة النبيِّ ﷺ ، وهم يعلمون جيدًا أن الناس لو علموا أنهم ما خرجوا إلا لعَزْلِ عثمان أو لقتله لذبَّحوهم وقتَّلوهم ، فتظاهروا مرة أخرى بالخروج بملابس الإحرام ؛ وكأنهم ما

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٦٤٧) ، وقد جاء هذا بلفظٍ مرفوع عن بريدة عند ابن عساكر (٤٢/ ٣٩٢) وهو في «الموضوعات» لابن الجوزي (١/ ٣٧٦) .

(٢) انظر هذه الأحداث بأسرها في «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٢/ ٥٢٢) ، وما بعدها ط الرشد ، و «تاريخ الطبري» (٢/ ٦٤١) وما بعدها ط العلمية ، و«البداية والنهاية» (٧/ ١٥٧) وما بعدها (ط «الحديث» أحداث سنة ٣٤ ، ٣٥ هـ) .

ذهبوا إلا لحج بيت الله الحرام ، ومن مكة إلى المدينة لزيارة مسجد النَّبيِّ ﷺ ، وللسلام عليه .

أمرٌ لا يثير الشكوك أبدًا ولا الشبهات ، ثم انطلقوا ليسألوا عثمان عن أسئلة لابد أن يتبينوها بأنفسهم منه هو رضي الله عنه ؛ فلقد كان الرجل ينطلق إلى أمير المؤمنين فيسأل عن أمره ثم يرجع ، إلى هنا الأمرُ عاديٌّ جدًّا ، ولا يثير الشكوك أبدًا ! ولكن عثمان رضي الله عنه قد عَلِمَ بمجيء القوم ، وعلِمَ مُرادهم ، فأرسل إلى الناس رجلين من بني مخزوم ليندسَّ الرجلان في صفوف القوم ليتأكَّد من هذه الخطة الخبيثة التي من أجلها خرج هؤلاء الأوباش ، وتأكَّد عثمان رضي الله عنه بمقصد هؤلاء ! بسبب مجيئهم إلى المدينة .

فماذا فعل عثمان رضي الله عنه ؟ ارتقى بالمنبر ، وحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلَّى على النَّبيِّ ﷺ ، وأخبر الناس في مسجد النَّبيِّ ﷺ بما خرج إليه هؤلاء القوم ؛ فقام الرجلان من بني مخزوم ، فأخبرا الناس بما سمعا من هؤلاء ، وأكَّدا كلام عثمان رضي الله عنه ، فَرَدَّ الناسُ في مسجد النَّبيِّ ﷺ على لسانِ رجلٍ واحدٍ : «أقتلهم يا أمير المؤمنين ؛ فهذا حكْمُ من خرج على إمام المسلمين الذي بايعه المسلمون ، وارتضوا خلافته ، فمن خرج عليه ، ودعا إلى نفسه ، أو إلى رجلٍ غير خليفة المسلمين ، حُكْمه أنه ملعون ويُقتل »[1] . فهذا خرج ليفسد في الأرض ، لكن انظر إلى عثمان رضي الله عنه ..

فعثمان لم يكن من عُبَّاد الكراسي ، ولا من عبَّاد المناصب ، وليس ممن

---

(١) وهذا الحكم عند مسلم ، كتاب الإمارة ، باب حكم من فرقَّ أمر المسلمين وهو مُجتمعٌ (١٨٥٢) .

يسفكون الدماء ، ويمزقون الأشلاء ، ليستقروا على الكرسيِّ بأي ثمن !

لا ؛ فلقد قال ﷺ : «بل نعفوا ونقبل ، ونبين لهم الحق إن شاء الله تعالى ، ونبصرهم جهدنا ، ولا نقيم الحدَّ على أحدٍ حتى يركب حدًّا أو يبدي كفرًا [(١)]» .

ثم أخذ يذكر الأمور التي نَقَمَها القوم عليه ، وأخذ يجيب على كلِّ مسألة بعد الأخرى ؛ فماذا قال ؟

قال : «ماذا تنقمون عليَّ؟» فقالوا : أتممت الصلاة في الحج في المزدلفة [(٢)] ، وقد قصر الصلاة من قَبْلِكَ رسول الله ﷺ وصاحباه ؛ فهذا ابتداعٌ أتيت بما لم يأت به النَّبيُّ ﷺ وصاحباه .

فقال عثمان ﷺ : «أَلَا وَإِنِّي قَدِمْتُ بَلَدًا فِيهِ أَهْلِي فَأَتْمَمْتُ» [(٣)] .

فهذا اجتهادٌ منه ﷺ ، لما نزل إلى المدينة وفيها أهله ، وعشيرته ، وقومه اجتهد في أنه في موطن أهله ، إذًا لزمه الإتمام ، إذ لا قَصْرَ عليه ؛ لكن في رواية البيهقي [(٤)] : أن عثمان ﷺ أتم الصلاة في مزدلفة ، ثم قام فخطب في الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ؛ ثم قال : «أيها الناس ، إنَّ القصر سنة نبيِّكم وصاحبيه ، ولكن حدث طغام ـ أي : أعراب جهلاء لا يعلمون شيئًا عن السنة في هذا الموسم ، كَثُرَ في الحج الأعراب جدًّا ممن

---

(١) «تاريخ الطبري» (٥/ ٣٥٤ ، ٣٥٥) ط الفكر .

(٢) انظر البخاريَّ ، كتاب تقصير الصلاة ، باب الصلاة بمنى (١٠٨٤) ، وانظر (١٠٩٠) (١٦٥٧) ، ومسلم (٦٩٥) ، (٦٨٥) .

(٣) انظر : «تاريخ الطبري» (٢/ ٦٥١) ، و «تاريخ دمشق» (٣٩/ ٣١٣) .

(٤) أخرجه البيهقيُّ في «السنن» (٣/ ١٤٤) ، باب من ترك القصر في السفر غير رغبة عن السنة .

لم يعايشوا النَّبيَّ ﷺ ، ولم يروه ، ولم يعيشوا في المدينة ، ولم يعرفوا السنة . يقول عثمان : «فخفتُ أن يسْتَنُّوا» .

وعن ابن جريج : أن أعربيًّا نادى على عثمان ، وقال : «يا أمير المؤمنين ، والله لا زلت أصلِّي الصلوات ركعتين ركعتين منذ رأيتك تصلي ركعتين في العام الماضي»[1] .

فعثمان رضي الله عنه كان يُقْصِر الصلاة في العام المنصرم في الحج ، تدبروا ؛ فالتاريخ مملوء بالروايات الضعيفة والمكذوبة والموضوعة ؛ وكلُّ هذا يحتاج إلى تحقيق وجهد كبير ؛ فقد تجدها في كتب أئمة أهل السنة والجماعة مثل «التاريخ» لابن عساكر ، و«تاريخ الطبري» ، و«البداية والنهاية» لابن كثير[2] ؛ ولكن لا بدَّ أن نعلم هذه الحقيقة ، وهي أنهم قد سجَّلوا كل الروايات بأسانيدها دون أن يلزموا أنفسهم أن يحققوا أسانيد هذه الروايات ، وجاء أناسٌ لا يجيدون النزال ، فنزلوا في هذا الميدان الخطير ، وجاء أناس لا يجيدون السباحة ، فنزلوا في هذا البحر المتلاطم الأمواج ؛ فنقلوا هذه الروايات ، وبنوا عليها أحكامًا دون أن يحققوا السند ، وأن يقفوا على صحة الرواية من عدمها ؛ إذ إن التاريخ لم يُدَوَّن إلا في عهد الدولة العباسية ، وانتهت مدة دولة بني أمية ، ولم يكتب فيها التاريخ ، ولم يسطَّر .

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٤٢٧٧) وانظر : «فتح الباري» وكلام الحافظ هناك فهو مهم (٢/ ٧٣٧) تحت حديث (١٠٩٠) .

(٢) والحافظ ابن كثير [illegible] أئمة الحديث ؛ فقلَّما يورد مثل هذه الروايات دون تنقيح لأسانيدها ، وبيان تصحيحها من سقيمها .

وقام على تدوين التاريخ ثلاث طوائف :

الطائفة الأولى : هي طائفة المتنفعين الذين لا يخلو منهم زمان ولا مكان ، ممن يكتبون ليأكلوا بأقلامهم . وهؤلاء شوَّهوا تاريخ بني أمية ليُرضوا بهذا التشويه أمراء بني العباس !

الطائفة الثانية : هي طائفةٌ محترقةٌ من الخوارج ومن الروافض ، فسفَّهوا عليًّا ﷺ ونسفوا تاريخه نسفًا ؛ بل واتهموه بالكفر ، وهم الخوارج ! ـ كما سأبين إن شاء الله تعالى.

وقد شوَّهت أيضًا تاريخ عثمان ﷺ ، وشوَّهت تاريخ أبي بكر وعمر ﷺ وشوَّهت صورة هؤلاء الأطهار ، وحكموا على عليٍّ بالكفر ! فجاءت طائفةٌ في مقابل هذه الطائفة التي نسفت عليًّا ﷺ لترفع عليًّا إلى مرتبة الإلهية ؛ ألا وهي طائفة الروافض ! فكتبوا تاريخًا جديدًا رفعوا فيه عليًّا إلى مرتبة الألوهية ، ونسفوا تاريخ الخلفاء ـ رضوان الله عليهم ـ بل وأساؤوا إساءةً بالغَة إلى بيوت النبوة ؛ لاسيما بيت عائشة ﷺ ، فهم لا يقبلون البتة حديثًا عن النبيِّ ﷺ ترويه عنه أمنا عائشة ﷺ ، وقالوا كلامًا لا أحبُّ أن أذكر مثله !!.

والطائفة الثالثة : وهم الطائفة الوسط ـ وهم أئمة السلف ؛ كابن كثير ، وابن جرير ، وابن عساكر ، وابن الأثير ،والذهبي ، وغيرهم ، وهؤلاء ـ للظروف السياسية التي عرفتم شيئًا منها سجَّلوا الروايات كلَّها بأسانيدها ، إذ إنهم لو سطَّروا روايات أهل السنة لتعرَّضوا للبلاء ، ولو لم يسطِّروا روايات الروافض لتعرَّضوا للبلاء ، ولو لم يسطروا روايات

الخـوارج لتعرَّضـوا للـبلاء ، فجـاءوا بكـلِّ الروايـات ، وشـحنوها في الأسفار والكتب ؛ لكنهم ليَخْرجوا من العُهْدة عليهم أمام الله وضعوا سَنَد كل رواية أمامها ليأتي بعد ذلك من يريد أن يبحث ، وينقب ، وينقح تاريخ الأطهار ، ليحقق سند الرواية ليعلم صحتها من كذبها لكن بكل أسف من العلماء من نزل إلى هذا البحر المتلاطم الأمواج ، ونقل دون تحقيق !

قال عثمان رضي الله عنه حينما قال له الأعرابيُّ : «يا أمير المؤمنين ، والله ما زلتُ أصليها ركعتين منذ أن رأيتك تصلِّي ركعتين في العام الماضي» .

فقال عثمان رضي الله عنه[1] : «ألا وإني قدمتُ بلدًا فيه أهلي فأتممت» .

وقال : «خشيت أن تُضَيِّعَ السنةُ الفرضَ» .

أي : خشيت أن يستن الناسُ بسنة القصر في السفر ، وهم أعراب جهلاء ،فيحافظوا على صلاة القصر في الحضر ؛ فلا يقبل الله عز وجل منهم صلاة ؛ ثم قال عثمان رضي الله عنه لأصحاب النبيِّ ﷺ في المسجد : «أو كذلك هو ؟» ، فقالوا جميعًا : «اللهم نعم »[2].

قالوا : الثانية ! قال : «ما هي ؟»: قالوا : أكثرت الحِمَى لنفسك ـ أي المرعى ـ فاستثمرت أموالك ، وقصرت الأموال لك ، ولأولادك ،

---

(١) قال الحافظ ابن حجر ـ لله درُّه: «وهذه الطرق يقوِّي بعضها بعضًا ، ولا مانع أن يكون هذا هو أصل الإتمام عند عثمان رضي الله عنه ، فلقد خشي أن تؤدي السنةُ إلى إسقاط الفريضة في الحضر» .

(٢) انظر : كلام عبد الرحمن بن عوف مع عثمان في هذه المسألة في «تاريخ الطبري» (٥/ ٢٦٨) ط الفكر ، وراجع : «العواصم من القواصم» لابن العربي المالكي (٩٠) وما بعدها ؛ فإنه مهم جدًّا .

ولنفسك ؛ فماذا قال عثمان ﷺ قال : «إني قد وليت ، وأنا أكثر العرب بعيرًا وشاة ، وليس ليَ اليوم من الشاة والبعير غير اثنين لحجي . أكذلك هو ؟ ! قالوا : «اللهم نعم» .

وقيل: إن عثمان زاد في الحمى لما زادت الرعية ، وإذا جاز أصله للحاجة إليه جازت الزيادة لزيادة الحاجة (١) .

نسيتم أيها الثوار الحاقدون عثمان بن عفان الذي اشترى بئر رومة ؟

أنسيتم عثمانَ الذي جهَّز جيش العسرة؟

أنسيتم عثمانَ الذي أنفق ليشتري أرضًا جديدة ؛ ليوسع المسجدَ النبويَّ لأصحاب الحبيب النبيِّ ﷺ ؟

تتهمون عثمانَ المنفقَ السخيَ الباذل ؟

فأهل الباطل يريدون أن يشككوا دومًا في كلِّ شيء يمتُّ إلى أهل الفضل بصلة ؛ تارة في شرفهم ، وتارة في ذِممهم ، وتارة في أعراضهم ، وتارة في بيوتهم ، وتارة في أخلاقهم ، وتارة في نياتهم ....إلى آخره .

ثم قال عثمان : «هاتوا الثالثة» ؛ قالوا : كان القرآن كُتبًا ، فجعلتَهُ كتابًا واحدًا (٢) ؛ فقال عثمان ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه: «أيها الناس ! إن القرآن واحد ، جاء من عند واحد ، وإنما أنا في ذلك تابع لصاحبي أبي بكرٍ وعمر ، ثم نظر إلى أصحابه ، وقال : «أكذلك هو ؟» قالوا : «اللهم نعم» .

---

(١) انظر : «العواصم من القواصم» (٨٥) وما بعدها وقبلها ، و«تاريخ المدينة» لابن شبة (٢/ ١٩٧١ ، ١٩٨٠) والطبري (٥/ ٣٥٥ ، ٣٥٦) ، و «الفتنة» لأحمد عرموش (١٠ ـ ١٤) .

(٢) (فصَّلنا ذلك في الركن الرابع من أركان الإيمان ، في الإيمان بالكتب) .

ثم قال : «هاتوا الرابعة» ؛ قالوا : إنك استعملت الأحداث ـ أي : صغار السن ـ تدبر إفلاسهم ! أهذه حجة تُنكر على خليفة المسلمين ؟ أليس له الحق في أن يختار من يشاء ؟ ألم تتفق الأمة بالإجماع على بيعة هذا الرجل ، فما ولَّت الأمةُ عثمانَ إلا لدينه ، وزهدِه ، وورعه ، وخُلُقِهِ ، وفضله ؛ فكيف يعاب عليه إن اختار واليًا ؟

ثم ألم يختر النبيُّ ﷺ أسامة بن زيد على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ؟ ألم يكن أسامة ـ وهو الشاب ـ الذي لم يبلغ العشرين من عمره قائدًا لجيش كبير ، انطلق ليناطح الصخور الصماء في الروم ، ليقلم أظافر هؤلاء الذين أغاروا على أطراف الدولة الإسلامية ، وتحت قيادة أسامة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير ، وكل هؤلاء الفحول ؟ أليس كذلك ؟! إنه الغباء ؛ ما كان السن أبدًا عاملاً لتنحية الأكفاء .

وقد اختار عمرُ بن الخطاب ابنَ عباس رضي الله عنهما ليكون عضوًا من أعضاء الشورى ، وهو الشاب في ريعان الشباب !!

فقال عثمان ـ حينما قالوا له : إنك استعملت الأحداث: «والله لم أستعمل إلا مرضيًا ، وقد وَلِّي مَنْ قبلي أحدَثَ منهم ، وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ في استعماله لأسامه أشدُّ مما قيل لي ؛ أكذلك هو ؟ قالوا : «اللهم نعم» .

فقال : «هاتوا الخامسة» ؛ قالوا : أما الخامسة إنك أعطيت ابن أبي السرح مما أفاء الله عليه أكثر من إخوانه ، ونفلته خُمُس ما أفاء الله عليه من الغنائم ؛ فقال : «إني أعطيت ابن أبي السرح ما أفاء الله عليه ، وإني

إنما نفلته خُمُس ما أفاء الله عليه من الخُمس ، وقد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر ، ولماَّ زعم الجند أنهم يكرهون ذلك رددته عليهم ، وليس لهم حقٌّ في ذلك ؛ أكذلك هو ؟ قالوا : اللهم نعم» .

«هاتوا السادسة» ؛ قالوا : إنك تحبُّ أهل بيتك ، وتعطيهم ، وتكثر لهم في العطاء ؛ فقال : « أما حبِّي لأهل بيتي ، فإني لم أمِل معهم إلى جَوْر ؛ بل أُجري الحقوق عليهم كغيرهم من المسلمين ، وأما إعطاؤهم ؛ فإني أُعطيهم من مالي ، ولا أستحلُّ أموال المسلمين لنفسي ، ولا لأحدٍ من أهلي ، فو الله لا آكل منذ أن وليت الخلافة إلا من مالي ، ولا آكل من مال المسلمين ، ثم نظر إلى الصحابة ؛ فقال : أكذلك هو ؟ قالوا : اللهم نعم» .

وقد ردَّ عبد الله بن عمر ﷺ على مثل هذا ؛ فقال : «قد كنا نقول ورسول الله ﷺ حيٌّ : أفضل أمة رسول الله : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، وإنا والله ما نعلم عثمان فعل شيئًا بغير حقٍّ ، ولا جاء من الكبائر شيئًا ، ولكن هو هذا المال إن أعطاكموه رضيتم ، وإن أعطى إلى قرابته سخطتم ، إنما تريدون أن تكونوا كفارس والروم ، لا يتركون لهم أميرًا إلا قتلوه »[1] .

وقال أبو نعيم الأصبهاني[2] رحمه الله : «عثمان ﷺ أعلم ممن أنكر عليه ، وللأئمة إذا رأوا المصلحة للرعية في شيء أن يفعلوه ، ولا تجعل إنكار من جهل المصلحة حجة على من عرفها ، ولا يخلو زمان من قوم يجهلون ،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ١٩٤٢) .

(٢) «تثبيت الإمامة» لأبي نعيم (١٤٩) .

وينكرون الحق من حيث لا يعرفون ، ولا يلزم عثمان رضي الله عنه فيما أمر به إنكار لما رأى من المصلحة ؛ فقد فرق رسول الله ﷺ غنائم حنين في المؤلفة قلوبهم يوم الجعرانة وترك الأنصار [1] لما رأى من المصلحة ، حتى قال قائلهم : تقسم غنائمنا في الناس ، وسيوفنا تقطر من دمائهم ! .

فكان الذي دعاهم إلى الإنكار على ما فعل رسول الله ﷺ ، قلة معرفتهم بما رأى من المصلحة فيما قسم ، وكان أعظم من إنكار من أنكر على عثمان رضي الله عنه ؛ لأن مال المؤلفة من الغنيمة ، فلا يلزم عثمان رضي الله عنه من إنكار من أنكر عليه شيئًا إلا ما لزم رسول الله ﷺ حين رأى المصلحة فيما فعل اقتداءً بنبيه ﷺ ، فظنَّ عثمان أنه بعد هذه الحجج الدامغة البالغة الوجيهة الناصعة البيضاء ؛ أنه قد أصابَ من نفوس هؤلاء الخبثاء المجرمين موضعًا ، وظنَّ أن عفوه عنهم سيطفئُ نارَ الحقدِ والغلِّ المشتعلة في قلوبهم ، ولكن القوم ما خرجوا لله أبدًا ، وإنما خرجوا للفتنة ، فعادوا وتفرَّقوا ، وسرعان ما عادوا جميعًا !! على الرغم من اختلاف طرقهم التي سلكوها ؛ ليفاجؤوا المدينة يومًا بحصارهم لبيت الخليفة من جديد ، سبحان الله !! كيف عاد أهل المدينة ، وأهل البصرة ، وأهل الشام ، وأهل مصر في وقتٍ واحدٍ ؛ لتلتقي هذه العصابة المجرمة في وقت واحدٍ أمام بيت عثمان رضي الله عنه ؟! والمعلوم أن الطريق إلى الشام يختلف

---

(١) انظر : الحديث في البخاري (٣١٤٧ ، ٣٧٧٨) ، ومسلم (١٠٥٩) .

ومن الطعون على عثمان ـ لكنها لم تثبت : أنه أخرج أبا ذرٍ إلى الربذة ، وضرب عمار بن ياسر حتى فتق أمعاءه ، وضرب ابن مسعود ومنعه العطاء ، وهذا كلُّه باطل وزور ، ولا أصل له ، وانظر : «تثبيت الإمامة» (١٣٩ ، ١٥١ ، ١٥٢) ، و«العواصم من القواصم» (٧٧ ، ٧٨ ، ٨٥) .

تمامًا عن الطريق إلى البصرة ، يختلف تمامًا عن الطريق إلى الكوفة ، يختلف تمامًا عن الطريق إلى مصر ؛ هذا سؤال لابد أن ننتبه إليه !.

والجواب : أن هؤلاء قد عادوا عبر مسرحية هزلية حقيرة ؛ ادَّعوا من خلال هذه المسرحية الهزلية أنهم في طريق العودة قبضوا على رجلٍ زعموا أنه رسولٌ من قِبَلِ عثمان ﷺ إلى واليه على مصر . وهذه أول أكذوبة !!

فَوَاَلِي عثمان ﷺ على مصر عبدُ الله بن سعد بن أبي السرح ، كان قد استأذن عثمان ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه ـ أن يركب إليه إلى المدينة بعدما سمع ما سمع ؛ فأذن له عثمان ﷺ ؛ ففي الوقت الذي زعم فيه الكاذبون المجرمون أن الرسالة جاءت من عند عثمان ﷺ إلى واليه على مصر كان واليه في طريقه إلى المدينة ، قالوا : بأنهم قبضوا على رسول أمير المؤمنين عثمان ، وقد أرسل معه عثمان كتابًا (أي : رسالة) بخطٍّ عثمان عليها خاتَمُه ، يأمر فيها عثمانُ أميرَه في مصر ـ أي : عبد الله بن سعد بن أبي السرح ـ أن يقتل هؤلاء ، أو يصلبهم ، فقبضوا على هذا الرجل ، ووقفوا على هذا الكتاب ، فأقبلوا بهذا الكتاب المكذوب ، وعادوا إلى المدينة فأتوا علي بن أبي طالب ﷺ فقالوا له : ألم تر إلى عدو الله (أي : عثمان) كتب فينا بكذا ،وقد أحلَّ الله دمه ـ هكذا قالوا له! ـ فقم معنا إليه ؛ فقال عليٌّ : والله لا أقوم معكم ، قالوا: فلم كتبت إلينا؟ قال: ما كتبت إليكم !!! فنظر بعضُهم إلى بعض .

وهذا يبين لنا أن هؤلاء ينقسمون إلى فريقين : فريقٍ مخادعٍ ، وفريقٍ مخدوع ، وما أكثر المخدوعين! فالفريق الخادع الذي يقود الحركة ،

والقائد الذي يدير المؤامرة السوداء هو الذي يقود هؤلاء المخدوعين من السذَّج والرعاع ، الذين انطلقوا وراء هؤلاء ينعقون وراء كلِّ ناعق .

والذي نظر ؛ كما قال ابن العربي ـ رحمه الله تعالى: هو الفريق الثاني (أي : الفريق المخدوع) ، وتركهم عليٌّ رضي الله عنه وخرجَ من المدينة ؛ فانطلقوا إلى عثمان رضي الله عنه فقالوا له : لقد كتبت فينا كذا وكذا ؛ فقال لهم عثمان الحيي الكريم : إما أن تقيموا اثنين من المؤمنين ، أي : ليشهدوا عليَّ ـ أني كتبت هذه الرسالة الخطيرة أو يميني ـ فالبينة على من ادَّعى، واليمين على من أنكر ـ فلم يقبلوا من عثمان رضي الله عنه وقالوا : بل تنقض عهدك ، وحاصروه [1].

فلقد نُسِبَ كتابٌ مزوَّرٌ إلى عثمان رضي الله عنه، و نُسِبَ كتابٌ مزوَّرٌ إلى عليٍّ رضي الله عنه ونُسِبَ كتابٌ مزوَّرٌ ـ كما سنرى الآن ـ إلى عائشة رضي الله عنها لتتم الخطة !!

إن من أعجب العجائب أن قوافل الثوار العراقيين التي كانت متباعدة في الشرق عن قوافل الثوَّار المصريين التي كانت في الغرب ، وقد أخذت طريقها لتسير بمحاذاة ساحل البحر الأحمر ، لتنزل إلى خليج السويس ، ثم إلى العريش ؛ فكيف التقت هذه القوافل في وقت واحد عند باب الخليفة رضي الله عنه بعدما صار كل فريق في اتجاهه .

تدبر فقهَ عليٍّ رضي الله عنه وعبقريته ؛ فعليٌّ هو أولُ من فَطِنَ لهذه الخطة الخبيثة ، ولِمَ لا ؛ وقد تربَّى في حجر المصطفى ﷺ وكفى ؛ فماذا قال عليٌّ لهم ؟

---

(١) «البداية و النهاية» (٧/ ١٩١) ط الريان ، و«تاريخ الطبري» (٥/ ٣٧٩) ط الفكر ، و«العواصم من القواصم» (١٣٣ ، ١٣٤) وما بعدها ، و«فضائل الصحابة» للإمام عبد الله أحمد (١/ ٥٧٤) وما بعده برقم (٧٦٥) ، و«تاريخ خليفة بن خياط» (١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٤) .

قال : كيف علمتم يا أهلَ الكوفة ويا أهلَ البصرة بما لقي أهلُ مصر ، وقد سرتم مراحلَ ثم طويتم نحونا ! هذا ـ والله ـ أمرٌ دُبِّرَ بالمدينة ، يشير عليٌّ ﷺ إلى تخلف مالك بن الحارث الأشتر ـ عليه من الله ما يستحقه ـ وحكيم بن جبلة العبدي في المدينة ليدبرا الخطة ؛ فلقد استأجر هؤلاء راكبًا في وقت واحد لينطلق إلى أهل الشام بحكاية هذه الرسالة المكذوبة التي أمسك بها أهل مصر ، وأرسلوا في الوقت نفسه رسولًا آخر إلى أهل الكوفة ، وإلى أهل البصرة ؛ ليخبرهم بما كان من أمر الرسالة المكذوبة ، بما كان على لسان عثمان ﷺ ليرجع الجميع في وقت واحد ، ولتلتقي هذه العصابة المجرمة حول بيت الخليفة ﷺ .

فماذا قال الثُّوَّارُ العراقيون بلسان رؤسائهم؟ قالوا : فضعوه على ما شئتم لا حاجة لنا في هذا الرجل ! أي : ضعوا الكتاب . يعني : فسِّروه كما تريدون ؛ لكن انظروا إلى الأمر الذي خرجوا له أصلًا . لا حاجة لنا في هذا الرجل ، فليعتزلنا [1] . هذا هو الهدف الذي من أجله خرجوا ، ولأجله التقوا ، ولأجله ساروا .

وهذا تسليمٌ واضحٌ منهم بأن قصَّةَ الكتاب مفتعلة ، وأن الغرض الأول والأخير هو خلْع أمير المؤمنين عثمان ﷺ أو سفك دمه الذي عصمه الله ،بشريعة نبيه ﷺ.

هذا الحوار الذي دار بين عليٍّ وبين الثوار مُجْمَعٌ عليه في كلِّ كتب

---

(١) «تاريخ الطبري» (٥/ ١٠٥) ، نقلًا عن حاشية : «العواصم من القواصم» لابن العربي (١٣٤) .

السيرة والروايات ؛ لا خلاف أبدًا على أن الحوار على هذه الصورة قد تمَّ بين عليٍّ ﷺ وبين الثوار ؛ وهو نصٌّ قاطعٌ على أن اليد التي زوَّرت الكتاب على عثمانَ ﷺ وبعثته إلى العراقيين ، لتخبرهم بذلك ، ولتطلب منهم أن يعودوا إلى المدينة هي نفسُ اليد التي زوَّرت الكتابَ باسم وخاتم عليٍّ ﷺ؛ فالثوارُ - كما ذكرت - فريق مخادع ، وهو القائد ، وفريق مخدوع ، وهم الكثرة ، وللأسف زُوِّرَ كتابٌ ثالث على لسان عائشة ﷺ تُهَيِّجُ فيه عائشة الصحابة على قتلِ عثمان !!

هل تتصور أن امرأةً فاضلة من أمهاتنا الفضليات تُهَيِّجُ المسلمين على قتل عالمٍ من علمائنا من أهل السنة ؟! فكيف بأمِّ المؤمنين زوجِ النبيِّ ﷺ التي ترعرعت في بستان الوحي ، وسمعت القرآن غضًّا طريًّا وحدها من فمِ نبيِّها ﷺ؛ بل ما نزل جبريلُ بالقرآن أو الوحي على زوجٍ من زوجات النبيِّ ﷺ وهو في لحافها ، إلا في لحاف عائشة ﷺ[(١)].

وهذه منقبة ؛ فَمَنِ الذي يتصور - إلا وهو يحمل قلبًا من أمرض قلوب أهل الأرض - أن عائشة ﷺ تحث الصحابة وتهييجهم على قتل عثمان - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه!! .

انظر ما قال لها مسروق بن الأجدع - وهو تابعي جليل كريم من كبار التابعين ، من المقربين إلى عبد الله بن مسعود ، ولحذيفة بن اليمان ، ولعثمان - رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وأرْضَاهُم - يقول لها : هل كتبتِ كتابًا إلى

---

(١) انظر: البخاريَّ ، كتاب الهبة ، باب من أهدى إلى صاحبه وتحرى بعض نسائه دون بعض (٢٥٨١) ، وكتاب فضائل الصحابة ، باب فضل عائشة ﷺ (٣٧٧٥) .

الناس تؤلبين الصحابة فيه للخروج على عثمان ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وأرْضَاهُم ؟!

فأقسمت عائشة قَسَمًا لم يقسمه أحدًا من قلبها قط ؛ ماذا قالت عائشة ؟ قالت : «أقْسِمُ بالله الذي آمن به المؤمنون ، وكَفَر به الكافرون ، ما كتبتُ إليهم سوداء في بيضاء»[(١)] .

هل تتصور أن عالمًا من علمائنا يكذب ، هذا مستحيل !! فمن يتصور أن أم المؤمنين عائشة تكذب ، ولصالح منْ ؟!

قفوا مع هذه الحقائق ؛ فلقد ذكرتُ ـ وأُكرِّر : أنه لا يجوز لأحدٍ أن يتكلَّم في أصحاب النبيِّ ﷺ إلا بأصول ؛ فإن الحديث عنهم يتطلب صحةَ العقيدة ، وأمانةَ النقل ، ودقةَ الفهم ، وإخلاصَ النِّيَّةِ ، ونظرَةً فاحصَة مدققَة لأراجيف المغرضين والكذَّابين والوضَّاعين والمبطلين .

فعائشة ﵂ ما خطَّت خطًّا واحدًا في ورقة ؛ فاللعبة كلُّها لتشويه التاريخ ـ تاريخ أطهر الخلق بعد الأنبياء ـ ولتزوير الحقائق ، ولتأليب الخلف على السلف ، ولتشويه حِقْبةٍ من أخرج أوقات التاريخ الإسلامي ، حتى لا تصل إلينا ناصعة البياض ؛ لابد أن ينطلق كلُّ مسلم صادق من هذه الأسس ، ومن هذه الأصول ؛ ليعلم على مَنْ يتكلَّم ، وفي تاريخ مَنْ يقرأ ، إنه يتكلَّم على القمم ، الذين قال في حقهم

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٣٦٣) ، وهو في «تاريخ خليفة بن خياط» (٣٩) عن عائشة . بسنَدٍ صحَّحه الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٧/ ١٩٥) ، وراجع : «العواصم من القواصم» لابن العربي (١/ ١٤٢) .

ابن مسعود رضي الله عنه: «إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ؛ فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ»(١).

وقد ذكرت أن الله قد زكَّاهم وعدَّ لهم في مواضعَ كثيرة في القرآن، وزكَّاهم رسول الله ﷺ وعدَّلهم، وشهد لكثيرٍ منهم بالجنة، وهم يعيشون في الدنيا بين ظهرانيِّ الناس، ويا لها ـ والله ـ من كرامة !! فتدبر معي هذه اليد الخبيثة التي زوَّرت الكتاب على عثمان، وزورت الكتاب على عليٍّ وعائشة، زوَّرت بعد ذلك على طلحة والزبير ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم جميعًا ـ كل هذا من أجل خلع الخليفة أو قتله !

والسؤال الخطير: أين كان الصحابةُ حينئذٍ ـ رضوان الله عليهم جميعا ؟

فأنا أعلم أنه سؤال يدور بأذهانكم، فالثوَّار الموتورون المجرمون يحاصرون بيت الخليفة؛ فما عليه إلا أن يأمر الصحابة بأن يَحُولُوا بينه وبين هؤلاء، فما الأمر ؟

والجواب: لقد كان موقف عثمان رضي الله عنه إزاء هذه الأحداث الخطيرة التي أَلَمَّت به ـ المثل الأعلى، لما يقدِّمه الفردُ من تضحية في سبيل أمته، أو في سبيل الفرد، أو في سبيل الجماعة؛ فلقد كان بإمكان عثمان رضي الله عنه أن يفدي نفسه بدماء الصحابة.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٣٧٩) بسندٍ حسن.

فما كان فقط إلا أن يأمر ، لا ؛ بل ما كان عليه إلا أن يتقبلَ رجاءَهم في أن يذبوا عنه ، وفي أن يدفعوا عنه ، وفي أن يَحُولُوا بينه وبين هؤلاء الموتورين المجرمين ؛ لقد حاول كلُّ الصحابة ، ولكنهم لم يفلحوا ، ولم ينجحوا !! لماذا ؟!

يقول عبد الله بن عامر بن ربيعة : كنت مع عثمان ﷺ في الدار (أي : في داره) يوم أن قتل ، فقال عثمان : أعزم على كلِّ من رأى أن عليه سمعًا وطاعةً لي إلا كفَّ يدَه وسلاحَه ، فإن أفضلكم عندي غناءً من كفَّ يده وسلاحَه[1] ! هذا كلام عثمان ، وعثمان له وجهة نظر عجيبة جدًّا ، وله فلسفة غريبة في هذا الأمر بالذات .

وعن محمد بن سيرين[2] قال : انطلق الحسن والحسين وابن عمر وابن الزبير و مراون يحملون السلاح حتى دخلوا دار عثمان ؛ فماذا قال عثمان ؟ قال لهم ـ رضوان الله عليهم جميعًا: «أعزم عليكم أن ترجعوا ، وأن تضعوا أسلحتكم ، وأن تلزموا بيوتكم» .

وعن أبي هريرة ﷺ قال لعثمان : «اليوم طاب الضرب معك يا أمير المؤمنين ، فقال عثمان : «أعزم عليك لتخرجن إلى بيتك يا أبا هريرة»[3] .

---

(١) «العواصم من القواصم» (١٣٨) لأبي بكر ابن العربي .
والأثر أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٦٨١) ، باب ما ذكر في عثمان ، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٧٠) ، وابن شبة في «تاريخ المدينة المنورة» (٤/ ١٢٠٨) وخليفة بن خياط في «تاريخه» (٣٨) بسند صحيح .

(٢) انظر : «تاريخ خليفة بن خياط» (٣٩) ، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر ترجمة عثمان (٣٩/ ٣١٩) .

(٣)عند خليفة بن خياط في «تاريخه» (٣٨) ، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٧٠) ، وابن عساكر=

وأخرج ابن أبي شيبة [(١)] عن عبد الله بن الزبير، قال: قلت لعثمان يوم الدار: «اخرج فقاتلهم؛ فإن معك من قد نصر الله بأقل منهم، والله إنَّ قتالهم لحلال». يقول عبد الله الزبير: فأبى عثمان ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

وأخرج أيضًا ابن أبي شيبة [(٢)] عن ابن سيرين قال: جاء زيد بن ثابت إلى عثمان، قال: يا أمير المؤمنين؛ الأنصار بالباب؛ فإن شئت أن نكون أنصار الله مرتين، فمُرنا فلنقاتل. (أي: مرة ينصرون فيها النبيَّ ﷺ، ومرة ينصرون فيها عثمان)، فقال عثمان: «أما القتال فلا».

وفي رواية: «لا حاجة لي في هذا، فكفُّوا».

وستعلمون لماذا قال عثمان هذا كلَّه الآن؟

وهذه أقوال عثمان؛ فَرَوَى ابن عساكر [(٣)] بإسناده إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن عليًّا رضي الله عنه أرسل إلى عثمان، وقال له (لأن عليًّا اتُّهِم في قتل عثمان اتهامًا عريضًا باطلاً، هذا هو عليٌّ رضي الله عنه ذهب مع خمسمائة بطل من أبطال الصحابة مع خمسمائة دارع، أي: قد تدرعوا بالدروع، والأسلحة، وعليُّ بن أبي طالب معتمٌّ بعمامة رسول الله ﷺ). وقال لأمير المؤمنين:

= (٣٩/ ٣٩٦)، وأبي نعيم في «تثبيت الإمامة» (١٥٧)، و«سنن سعيد بن منصور» (٢٩٣٧)، وانظر: «العواصم من القواصم» (١٤١).

(١) في «المصنف» (٨/ ٥٨٤)، باب ما جاء في خلافة عثمان وقتله، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٧٠)، و«تاريخ خليفة بن خياط» (١٧٢، ١٧٣)، وأبي نعيم في «تثبيت الإمامة» (١٥٨)، و«تاريخ دمشق» (٣٩/ ٣٩٤).

(٢) «المصنف» (٨/ ٥٨٤)، (٨/ ٦٨٢)، باب ما ذكر في عثمان. وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٧٠) ومن طريقه ابن عساكر (٣٩/ ٣٥٩، ٣٩٦).

(٣) «تاريخ دمشق» (٣٩/ ٣٩٨).

يا أمير المؤمنين : ائذن لي أن أمنعك من القوم ، فإنك لم تحدث شيئًا يستحلُّون به دمك ؛ فقال عثمان : جزيت خيرًا يا عليٌّ ، ما أحبُّ أن يراق دمٌ بسببي .

وهكذا تجمَّع حول عثمان ﷺ كثيرٌ من أبطال الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم ، ليدافعوا ويذودوا عن أمير المؤمنين ﷺ ، وعلى رأسهم ـ كما ذكرتُ ـ عليٌّ ، والزبير بن العوام ، والمغيرة بن شعبة ، وأبو هريرة ، وزيد بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن عمر ، والحسن ، والحسين ، وعبد الله بن الزبير ، وطلحة ، وغيرهم ؛ بل وكانت أم حبيبة ، وصفية ، وعائشة ، وأسماء بنت عميس ، والصعبة بنت الحضرمي ، وغيرهم الكثير ـ رضي الله عنهم جميعًا ـ كلُّ هؤلاء أرادوا أن يدافعوا عن عثمان .

ووالله لو أذن لهم عثمان في الحرب لحاربوا ، ولقاتلوا دون عثمان ﷺ ، ولكن عثمان ﷺ يوفي عهدًا عاهد عليه رسولَهُ المصطفى ﷺ ؛ فو الله ، ثم و الله ! لو أذن عثمانُ للصحابة لقاتلوا دونه ؛ ولكن ـ تدبر ـ يقول القاضي أبو بكر ابن العربي ـ رحمه الله وطيب ثراه ـ في كتابه الماتع المهم في هذا الباب «العواصم من القواصم»[1] : «إن عثمان مظلومٌ محجوج بغير حجة ، وأن الصحابة برآء في ذمته بأجمعهم ؛ لأنهم أتوا إرادته ، وسلموا له رأيه في إسلام نفسه» .

فعثمان ﷺ قُتل ، والصحابةُ برآءٌ من دمه ؛ لأنه منع من قتال من ثار

---

(١) (١٤٥) ط دار الجيل .

عليه ، وروي عنه أنه قال [١] : «فلن أكون أول من خَلَفَ رسول الله ﷺ في أُمته بسفك الدماء» ، فصَبَرَ على البلاء . واستسلم للمحنة ، وفدى الأمة بنفسه ودمه !

والسؤال الآن : هل كان عثمان ـ حتى ولو لم يأذن للصحابة بالقتال ـ عاجزًا على الفرار إلى الشام أو إلى مصر ، أو إلى أي بلدٍ من البلدان لأي والٍ من ولاته على هذا المصر ؟

والجواب : لقد طُلب منه أن يفر ؛ لقد قال معاوية رضي الله عنه لعثمان رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين ، انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك من الأمور والأحداث ما لا قِبَل لك بها ، قال عثمان : أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيءٍ ، ولو كان فيه قطع خيط عنقي ؛ قال له معاوية : أبعث إليك جندًا ؛ أي من أهل الشام ليقيم الجند معك إن نابت المدينة نائبة أو إياك ؟ فماذا قال عثمان رضي الله عنه ؟ قال : أخشى أن أُضَيِّق الطرق والأرزاق بجندك على أصحاب رسول الله ﷺ في المدينة [٢] ـ يا خالق عثمان سبحانك !! .

إن عثمان رضي الله عنه كان قويَّ الإيمان ، قويَّ اليقين ، كبيرَ النفس . لقد كان الرجل يعلم يقينًا أنه سيُبْتَلَى .

ألم يخبره رسولُ الله ﷺ بذلك ؟ ألم يبشِّره رسول الله ﷺ بالجنة مع بلوى تصيبه ؟

ألم يعاهد عثمانُ رسول الله ﷺ على الصبرِ إذا ما وقعت به الفتنة ؟

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٦٧) بسندٍ منقطع ؛ كما قال الشيخ شعيب الأرناؤوط .

(٢) «تاريخ الطبري» (٢/ ٦٥٤) ، و«البداية والنهاية» (٧/ ١٦٩) .

لتصدق الله يا عثمان ، ولْتف بعهدك لرسولك وحبيبك ﷺ !!!

فعن عبد الله بن حوالة[1] ﷺ : أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول : «مَنْ نَجَا مِنْ ثَلَاثٍ فَقَدْ نَجَا ، مَنْ نَجَا مِنْ ثَلَاثٍ فَقَدْ نَجا ، مَنْ نَجَا مِنْ ثَلَاثٍ فَقَدْ نَجَا » ، قالُوا : مَاذَا يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : «مَوْتِي ، وَخُرُوجُ الدَّجَّالِ ، وَقَتْلُ خَلِيفَةٍ مُصْطَبِرٍ بِالْحَقِّ يُعْطِيهِ» .

وهذا هو ما كان ؛ لقد فدى عثمان ﷺ الأمة كلَّها ، ونظامِ الخلافة بنفسه ؛ إذ لو تنازل عثمان لهؤلاء المجرمين لصارت سُنَّة ، فكلُّ عصبة مجرمة لا ترضى عن خليفة المسلمين أو عن أميرها ، تقوم عليه لتخلعه ! لو قبل عثمان ذلك لصارت سُنة في الأمة ، ولكن عثمان ﷺ تمسَّك ، لا حرصًا على الكرسي ؛ فهؤلاء ليسوا من هذا الصنف أبدًا ، ومما لا شك فيه أن عثمان بهذا الصنيع قدَّم أعظم وأقوى ما يستطيع أن يفعله رجلٌ صادق لأمة قلدته مقاليد الأمور .

لقد كان عثمان ﷺ يعلم يقينًا أن الفتنة ستقع ، وقد وافقه الصحابيُّ الجليل عبد الله بن عمر ﷺ على أن لا يخلع نفسه ، وعلى أن يصبر .

فعن نافع أن ابن عمر دخل عليه وهو محصور ، وعنده المغيرة بن الأخنس ؛ فقال : انظر ما يقول هؤلاء ؟ يقولون : اخلعها ولا تقتل نفسك ؛ فقال ابن عمر : يا أمير المؤمنين إذا خلعتها أمخلَّدٌ أنت في الدنيا ؟

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٠) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٤٩٠) ط العلمية ، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٣/ ٢٢٠) ، وابن قانع في «معجم الصحابة» (٢/ ٨٩) ، والحاكم (٣/ ١٠١) ، وقال : «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٣٩٢) وحسَّن إسناده الشيخ شعيب في «تحقيق المسند» .

قال : لا .

قال ابن عمر ﷺ : فإن لم تخلعها هل يزيدون على أن يقتلوك ؟ قال : لا ، قال : فهل يملكون لك جنة أو نارًا ؟ ، قال : لا ، قال : فلا أرى أن تخلعها ، ولا أرى لك أن تخلع قميصًا قمصكه الله فتكون سُنَّة ، كلَّما كره قوم خليفتهم أو إمامهم خلعوه حتى لا يقوم لله دين ولا للمسلمين نظام »[1].

وأخرج الإمام أحمد[2] بسندٍ صحيحٍ من حديث عائشة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : «اُدْعُوا لِي بَعْضَ أَصْحَابِي» قُلْتُ : أَبُو بَكْرٍ ؟ قَالَ :« لَا » ، قُلْتُ : عُمَرَ ، قَالَ : « لَا » ، قُلْتُ : ابْنُ عَمِّكَ عَلِيٌّ ؟ قَالَ :«لَا» ، قَالَتْ: قُلْتُ : عُثْمَانُ ؟ قَالَ : «نَعَمْ» ، فَلَمَّا جَاءَ عُثْمَانُ تَنَحَّى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وجَعَلَ يُسِرُّ لَهُ كَلَامًا لَا أَسْمَعُهُ ، وَلَوْنُ عُثْمَانَ يَتَغَيَّرُ. فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الدَّارِ ، وَحُصِرَ فِيهَا ، قُلْنَا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : أَلَا تُقَاتِلُ ؟ قَالَ : لَا ؛ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَهِدَ إِلَيَّ عَهْدًا ، وَإِنِّي صَابِرٌ نَفْسِي عَلَيْهِ» .

هذا العهد ـ كما هو معلوم ، وسأبين الآن ـ أن لا يخلع عثمانُ نفسه أبدًا من الخلافة ، حتى لا يكون هذا الأمر سابقةً في تاريخ هذه الأمة .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٥١٥) وأحمد في «فضائل الصحابة» (٧٦٧) ، وخليفة بن خياط في «تاريخه» (٣٧) وابن عساكر (٣٩/ ٣٥٨) ، وابن سعد (٣/ ٦٦) ، وابن شبة في «تاريخ المدينة المنورة» (٤/ ١٢٢٤) .

(٢) أخرجه أحمد «٦/ ٥١ ، ٢١٤» ، وابن حبان (٦٩١٨) ، وابن ماجه في «المقدمة» ، باب فضل عثمان ﷺ (١١٣) ، وقال البوصيري في «الزوائد» : «إسناده صحيح رجاله ثقات» ، والحاكم (٣/ ٩٩) وقال : «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي ، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٨٠٥) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٣٦١) ، وإسحاق بن راهويه (٣/ ١٠٢٦ ، ١٠٤٤) ، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٦٦ ، ٦٧) . وصحَّحه الشيخ العلامة الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» .

ومن الأحاديث الجميلة الموضحة الصريحة :

ما رواه أحمد في «مسنده» وابن ماجه في «سننه» والترمذي في «سننه» ـ بسندٍ صحّحه الألباني [(١)] ـ من حديث عائشة ﷺ ؛ أنها قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «يَا عُثْمَانُ ، إِنَّ اللهَ ﷻ عَسَى أَنْ يُلْبِسَكَ قَمِيصًا ، فَإِنْ أَرَادَكَ الْمُنَافِقُونَ عَلَى خَلْعِهِ فَلَا تَخْلَعْهُ حَتَّى تَلْقَانِي» ثلاثًا .

وفي رواية [(٢)] عجيبة يقول فيها النَّبيُّ ﷺ لعثمان ﷺ :«إِنَّكَ مَقْتُولٌ مُسْتَشْهِدٌ ، فَاصْبِرْ صَبَّرَكَ اللهُ ، وَلاَ تَخْلَعَنَّ قَمِيْصاً قَمَّصَكَهُ اللهُ ﷻ» .

وأنا ـ ورب الكعبة ـ ألمس استجابة دعاء النَّبيِّ ﷺ استجابةً عجيبةً لقوله : «صبَّرك اللهُ» ألمس لها أرواحًا زكيَّةً ، وأفعالًا ندِيَّةً من أقوالِ وأفعالِ عثمان من أول لحظة . بلى ! لقد استجاب الله دعاء نبيه ، فصبَّرَ الله عثمان صبرًا تنوءُ عن حمله الجبالُ الراسيات !!

أوامر من النَّبيِّ ﷺ بالصبرِ ، وعدمِ القتال ، وعدم الاختلاع من الخلافة . وصدق النَّبيُّ ﷺ في كل كلمة قالها .

وفي الحديث أيضًا دلالة واضحةٌ على أن قتلة عثمان ﷺ هم من المنافقين

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ٧٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٤٩) ، والترمذي ، كتاب المناقب ، باب مناقب عثمان بن عفان (٣٧٠٥) ، وابن ماجه في «المقدمة» (١١٢) ، والحاكم (٣/ ٩٩ ، ١٠٠) ، وقال : «صحيح عالي الإسناد» . وقال الذهبي : «أنى له الصحة ، ومداره على فرج بن فضالة ؟ !» وابن أبي شيبة (١٢/ ٤٩) ، (١٥/ ٢٠١) ، وابن أبي عاصم في «السنة» (١١٧٢ ، ١١٧٣ ، ١١٧٨ ، ١١٧٩) . وصححه الشيخ الألباني في «صحيح السنن» ، وفي «صحيح الجامع» (٧٩٤٧) .

(٢) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٧٠١٠) ، وفي «المقصد العلي» (١٣١٠) ، ومن طريقه ابن عدي في «الكامل في الضعفاء» (١/ ٢٦٤) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٩٠) : «رواه أبو يعلى ، وفي إسناده إبراهيم بن عمر بن عثمان العثماني وهو ضعيف» .

المجرمين بشهادة النَّبيِّ الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ [(١)].

وفي السنة الخامسة والثلاثين من الهجرة قام عثمان رضي الله عنه فصلَّى من الليل ما قدَّر الله له أن يصَلِّي وقرأ من القرآن ما قدَّر الله له أن يقرأ، ونام فجاءه المصطفى في رؤياه، وقال له المصطفى ﷺ: «أَفْطِرْ عِنْدَنَا غَدًا يَا عُثْمَانُ».

وفي لفظٍ: «إِنَّكَ سَتُفْطِرُ عِنْدَنَا اللَّيْلَةَ يَا عُثْمَانُ»؛ كما رواه الإمام الطبري في «تاريخه» وابن الأثير في «الكامل» [(٢)].

وروى الحاكم في «المستدرك» [(٣)] وصحَّحه وأقرَّه الذهبي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أن عثمان أصبح فحدَّث؛ فقال: إني رأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام الليلة؛ فقال: «يَا عُثْمَانُ أَفْطِرْ عِنْدَنَا» فأصبح عثمان صائمًا، فقُتِل من يومه رضي الله عنه.

وفي رواية عبد الله بن أحمد [(٤)] بسندٍ حسنٍ أن عثمان رضي الله عنه أعتق عشرين

---

(١) قلت: لم يشارك أحدٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ في قتل عثمان رضي الله عنه ولو بكلمة، وإنما الذي أشعل نار هذه الفتنة هم السبئية والمنافقون، فالصحابة مبرَّءون من ذلك. قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٧/ ١٩٣): «روى الحافظ ابن عساكر أن عثمان لما عزم على أهل الدار في الانصراف، ولم يبق عنده سوى أهله تسوروا عليه الدار، وأحرقوا الباب، ودخلوا عليه، وليس فيهم أحد من الصحابة، ولا أبنائهم إلا محمد بن أبي بكر، وسبقه بعضهم، فضربوه، حتى غشي عليه، وصاح النسوة فانزعروا، وخرجوا، ودخل محمد بن أبي بكر وهو يظن أنه قد قتل ...» وهو في «تاريخ ابن عساكر» (٣٩/ ٤٠٢، ٤٠٣). وقال ابن كثير أيضًا في «البداية» (٧/ ٢٠٧): «وأما ما يذكره بعض الناس من أن بعض الصحابة أسلمه ورضي بقتله، فهذا لا يصح عن أحد من الصحابة أنه رضي بقتل عثمان رضي الله عنه؛ بل كلهم كرهه، ومقته، وسب من فعله، ولكن بعضهم كان يودُّ لو خلع نفسه من الأمر؛ كعمار بن ياسر، ومحمد بن أبي بكر، وعمرو بن الحمق، وغيرهم» انتهى.

(٢) «الطبري» (٢/ ٦٧١) ط العلمية، و«الكامل» لابن الأثير (٢/ ٥٤٥) ط مكتبة الرشد.

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ١٠٣) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وابن أبي شيبة (٨/ ٥٨٤)، وابن عساكر (٣٩/ ٣٨٤)، وعزاه ابن حجر في «المطالب العالية» (٤٤٤٨) إلى أبي يعلى والبزار في «مسنده» برقم (٣٤٧).

(٤) في «زوائد المسند» (١/ ٧٢)، وصحَّحه الشيخ أحمد شاكر في «المسند» وهو في =

مملوكًا ، ودعا بسراويل ، فشدها عليه ، ولم يلبسها في جاهلية ، ولا إسلام ، وقال : «رأيتُ رسول الله ﷺ في النوم البارحة ، ورأيت أبا بكر وعمر ، وإنهم قالوا لي : «اصْبِرْ فَإنَّكَ تُفْطِرُ عِنْدَنَا القَابِلَةَ» فأصبح عثمان صائمًا ، ثم دعا بمصحف فنشره بين يديه ، فقتل عثمان ﷺ والمصحف بين يديه» .

وفي «زوائد الفضائل» لعبد الله بن أحمد [1] بسندٍ صحيحٍ عن عَمْرَة بنت أرطأة ﷺ قالت : خرجت مع عائشة ﷺ إلى مكة في السنة التي قتل فيها عثمان ﷺ ، وفي طريق عودتنا مررنا بالمدينة ، ورأينا المصحفَ الذي كان في حِجْرِ عثمان ﷺ يوم قُتل . فكانت أولُ قطرة من دمه نزلت على قول الله تعالى : ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة : ١٣٧]

قالت عمرة : «فو الله ما مات رجلٌ منهم سويًّا» .

وهنا أصبح عثمان ، وأمر الصحابة أن ينصرفوا ، وفتح باب داره ، وهو صائم ، وقد شدَّ على نفسه السراويل ، وفتح كتاب الله بين يديه ، وجلس يقرأ القرآن الكريم ، وهو ينتظر انقضاض المجرمين عليه في أي لحظة ؛ بل هو ينتظر ويرجو أن تقترب هذه اللحظة ؛ ليسعد بالإفطار مع رسول الله ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر ، وانقضَّ عليه المجرمون

= «فضائل الصحابة» (٨٠٩) ومن طريقه ابن الأثير في «أسد الغابة» (١/ ٧٥٣) ، وابن عدي في «الكامل» (٧/ ١٧٥) ، وابن عساكر (٣٩/ ٣٨٧ ، ٤٠٠) ، ورُوي ذلك عن نائلة زوج عثمان ﷺ عند ابن سعد (٣/ ٧٥) ، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٩١) ، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (٤/ ١٢٢٧) .

(١) «زوائد فضائل الصحابة» لعبد الله بن أحمد (١/ ٥٠١) (٨١٧) ، و«الزهد» (١٢٧ ، ١٢٨) .

الآثمون ، كالذئاب المسعورة ، فضربه الغافقيُّ بحديدةٍ معه ، والتفت الغافقي إلى المصحف في حِجْرِ عثمان ، فضربه برِجْلِهِ ، فاستدار المصحف دورةً كاملةً ، واستقر مرةً أخرى في حِجْرِ عثمان ، لتخالطَه دماُء عثمانَ ، كما خالطتَ آياتُ القرآنِ دماءَ عثمان رضي الله عنه !

أهؤلاء قوم خرجوا لله؟ يضرب المصحف برِجْلِهِ ويدعي أنه خارج لله ؟!

وها هو عثمان الصابر لم يقاوم ، ولم يتحرَّكْ من مجلسه ؛ بل ظلَّ جالسًا في مكانه ، وكتاب الله بين يديه كالطود الشامخ ـ رضي الله عنه ـ .

واستمر عثمان ـ بعدما ضُرب بحديدة ـ يقرأُ كتابَ الله ـ جلَّ وعلا ـ فانقضَّ عليه رجلٌ يقال له التجيبيُّ فضرب عثمانَ رضي الله عنه ضربةً آثمةً فأصيب كفُّ عثمان ؛ فقال عثمانُ [1] : «الحمد لله ، والله إنها يدٌ خطَّتْ المفصَّل ، وكتبت القرآنَ لرسولِ الله ﷺ » . فلقد كان عثمانُ من كتَّاِب الوحيِ ، وجاء التجيبيُّ مخترطًا سيفه ، فوضع السيف في بطن عثمان رضي الله عنه فجاءت زوجته الصابرة ، الوفية ، التقية ، النقية ، العفيفة ، الطاهرة ؛ نائلة ـ رُضْوَانُ الله عَلَيْهَا ـ جاءت وهذا المجرم يتكئ بالسيف على صدر عثمان رضي الله عنه فهرولت عليه لتفدي عثمان رضي الله عنه بروحها ودمها ونفسها ؛ فطعنها المجرم طعنةً فقطع يدها ، ولما جرت نظر إلى مؤخرتها ؛ فقال : ما أعظم عجيزتها ـ عليهم من الله ما يستحقون ـ أهؤلاء قوم خرجوا لله ـ جلَّ وعلا ؟!!.

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الفضائل» (٧٦٥ ، ٧٦٦) ، والطبري في «تاريخه» (٢/ ٦٧١) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٥٢٠) ، وخليفة بن خياط في «تاريخه» (٣٩) ، وابن حبان (٦٩١٩) ، وابن أبي داود في «المصاحف» كما في «فضائل القرآن» (٣٩) ، و«الدر المنثور» للسيوطي (١/ ٣٣٩ ، ٣٤٠) ، وابن عساكر (٣٩/ ٤١١ ، ٤١٤) .

ألم أقل لكم : إن الذي يُبكي العين ، ويُدمي القلب أن هؤلاء المجرمين الخبثاء في كل عصر ، وفي كل مصر يدفعون الحرب ، ويقودونها ، ويشعلونها على أئمة الدين وقادة الأمة باسم الإسلام ! يرفعون شعار : لله تعالى ، ولصالح الإسلام !!

إنهم يريدون أن يطمسوا هوية الدِّين تحت هذه الشعارات المضللة الخبيثة الكاذبة ،ولم يكتف المجرمون الخبثاء بهذا الأمر ،وإنما أدى ورعهم الباهت ، وزهدهم الكاذب أن لا يُدفن عثمان ﷺ في مقابر المسلمين . هل تتصور هذا ؟! إلى هذا الحدِّ من الورع والزهد الكاذب الباهت المريض يقفُ هؤلاء ، ويمنعون ـ تمامًا ـ أن يُدفن عثمان ﷺ في مقابر المسلمين ، لم يدفن في البقيع في مقابر المسلمين ،وإنما دُفن ابتداءً خارج المقابر ، ثم بعد ذلك اتسعت البقيع والمقابر ، وأدخلوا عثمان ﷺ إلى مقابر المسلمين .

إن مكمن الخطر أن ترفع الحرب دومًا على القيادة لقطع رأسها ، وتحطيم أضلاعها باسم الإسلام ، ومن أجل الله تعالى !! .

والمصيبة الكبرى أن الأمر ينطلي على كثيرٍ من السذَّج والرعاع والغوغاء الذين يتبعون وينقادون لكل ناعقٍ بالهوى والباطل والضلال ، فهؤلاء المجرمون غوغاء من الأمصار ؛ كما وصفهم الزبير [1] وهم نُزَّاع القبائل ؛ كما وصفتهم عائشة [2] ، وحثالة الناس متفقون على الشر ؛ كما ورد عند ابن سعد في «الطبقات» [3] ، وهم همج رعاع من غوغاء

---

(١) «تاريخ الطبري» (٣/ ١٣) .

(٢) المصدر السابق (٣/ ١٤ ، ١٩) .

(٣) «الطبقات» (٣/ ٧١) .

القبائل ؛ كما ذكر النووي في «شرح صحيح مسلم »[(١)] ، وهم خوارج مفسدون ضالون باغون معتدون ؛ كما قال ابن تيمية في «منهاج السنة» [(٢)] ، وهم رؤوس الشر والجفاء ؛ كما قال الذهبي في «تاريخ الإسلام» ، وهم أراذل من أوباش القبائل ؛ كما وصفهم ابن العماد الحنبلي في «الشذرات» ؛ هؤلاء هم قتلة عثمان رضي الله عنه !!.

وأجمع العلماء أن عثمان رضي الله عنه قتل في ذي الحجة ، والجمهور على أن ذلك كان في يوم الجمعة لثمانٍ عشرة من ذي الحجة في السنة الخامسة بعد الثلاثين من الهجرة ، وهو ابن اثنين وثمانين سنة وأشهر على قول الجمهور .

وقام نفرٌ من الصحابة في يوم قتله ، وغسَّلُوه وكفَّنُوه ، وحملوه على باب ومنهم: حكيم بن حزام ، وحويطب بن عبد العزى، وأبو الجهم بن حذيفة، وينار بن مكرم الأسلمي ،وجبير بن مطعم ، والزبير بن العوام ، وعلي بن أبي طالب ، وصلَّى عليه جبير بن مطعم ، وقيل : الزبير بن العوام ، وقيل : حكيم بن حزام ، وقيل : مروان بن الحكم ، وقيل : المسور بن مخرمة [(٣)] .

وفي رواية في «مسند أحمد» ـ لكن سندها منقطع ـ أن الذي صلَّى عليه هو الزبير بن العوام [(٤)] . وكان عثمان رضي الله عنه أوصى إليه .

ودفن يوم السبت بين المغرب والعشاء في حشي كوكب بالبقيع ، وكان عثمان اشتراه فوسَّع به البقيع [(٥)] .

---

(١) (١٥/ ١٤٨) . (٢) (٦/ ٢٩٧) .

(٣) «البداية والنهاية» (٧/ ١٩٩) .

(٤) «مسند الإمام أحمد» (١/ ٧٤) .

(٥) «الإصابة» لابن حجر (٥٤٥٢) (٤/ ٤٥٨) ط دار الجيل .

القصاص الرباني من قتلة عثمان:

عن ابن عمر [١] ﷺ قال : «بينما عثمان بن عفان يخطب إذ قام إليه رجل ، يقال له : جهجاه الغفاري ، تناول عصا كانت في يد عثمان فكسرها على ركبته ، فرمي عن ذلك الموضع بأَكَلَة» .

وفي رواية : «وصاح به الناس ،ونزل عثمان حتى دخل داره ، ورمى الله الغفاريَّ في ركبته ، فلم يحل عليه الحول حتى مات» .

وقد سبق حديث عَمْرَةَ بنت أرطأة لما قالت : «ما مات منهم أحدٌ سويًّا» .

وقال الحسن البصري [٢] ﷺ : « ما علمت أحدًا أشرك في دم عثمان ﷺ ولا أعان عليه إلا قتل» .

وَرَوَى ابن عساكر في «تاريخه» عن محمد بن سيرين قال : «كنت أطوف بالكعبة ، فإذا رجل يقول : اللهم اغفر لي ، وما أظن أن تغفر لي ، قلت : يا عبد الله ، ما سمعت أحدًا يقول ما تقول ! قال : كنت أعطيت الله عهدًا إن قدرت أن ألطم وجه عثمان إلا لطمته ، فلما قتل وضع على سريره في البيت ، والناس يجيؤون ، فيصلون عليه ، فدخلت كأني أصلي عليه ، فوجدت خلوة ، فرفعت الثوب عن وجهه ، فلطمت وجهه ، وسجيته ، وقد يبست يميني ، قال محمد بن سيرين : رأيتها يابسة كأنها عود » [٣].

والمتتبع لأحوال أولئك الخارجين على عثمان ﷺ المعتدين عليه يجد أن

---

(١) أخرجه البخاريُّ في «التاريخ الأوسط» (١/ ٧٩) ، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٨٨) ، وابن عساكر (٣٣٢، ٣٣٣) ، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (٣/ ١١١١) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ١٢٥٢) ، وابن أبي الدنيا في «مجابو الدعوة» (٥٤) .

(٣) أخرجه البخاريُّ في «التاريخ» كما عند ابن كثير في «البداية والنهاية» (٧/ ١٩١) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٥٨) ، وانظر : « تحقيق مواقف الصحابة» (١/ ٤٨٥) .

الله تعالى لم يمهلهم ؛ بل أذلَّهم ، وأخزاهم ، وانتقم منهم ، فلم ينج منهم أحد !! ونسأل الله أن يرفع الغمة عن الأمة ، وأن يرد المسلمين إلى الحق ردًّا جميلًا ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

*****

ماذا بعد مقتل عثمان رضي الله عنه
وما جرى من مبايعة عليٍّ بن أبي طالب؟

يقول الإمام القاضي ابن العربي [(١)] ـ رحمه الله تعالى: «فلما قضى الله من أمره ما قضى ، ومضى في قدره ما مضى ، عُلِمَ أن الحقَّ لا يترك الناس سدى ، وأن الخلق بعده مفتقرون إلى خليفة ، مفروض عليهم النظر فيه ، ولم يكن بعد الثلاثة كالرابع قدرًا وعلمًا وتقى ودينًا ، فانعقدت له البيعة ، ولولا الإسراع بعقد البيعة لعليٍّ رضي الله عنه لجرى على مَنْ بها من الأوباش ما لا يرفع خرقه ، ولكن عَزَمَ عليه المهاجرون والأنصار ، ورأى عليٌّ رضي الله عنه ذلك فرضًا عليه فانقاد إليه» . اهـ .

وروى ابن شبة في «تاريخه» وابن عساكر في «تاريخه» [(٢)] روايةً جميلةً تبين لنا كيف كانت البيعة لعليٍّ رضي الله عنه ، وفيها أن عليًّا رضي الله عنه أتى منزله ، فجاء الناس كلُّهم يهرعون إليه ـ وهم أصحاب النبيِّ ﷺ وغيرهم ـ كلُّهم يقول : أمير المؤمنين عليّ ، حتى دخلوا عليه داره ، وقالوا له : نبايعك فمُدَّ يدك ، فلا بدَّ لنا من أمير !!

---

(١) «العواصم من القواصم» (١٤٦ ، ١٤٧) ط دار الجيل .

(٢) أخرجه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٤/ ١٣٠٣) ، وابن عساكر (٤٢١ ، ٤٢٢) ، وأورده الذهبي في «تاريخ الإسلام» (٣/ ٤٥٩ ، ٤٦٠) ، والطبري في «الرياض النضرة» (٢/ ١٢٥) وابن الأثير في «أسد الغابة»(٤/ ١١٣) .

فقال عليٌّ : ليس ذلك إليكم ، إنما ذلك إلى أهل بدر ؛ فمن رضيَ به أهل بدر ؛ فهو خليفة ، فلم يبق أحدٌ من أهل بدر إلا أتى عليًّا ، فقالوا : ما نرى أحدًا أحقُّ بها منك ، مُدَّ يدك نبايعك ؛ فقال عليٌّ : أين طلحة والزبير ؟ فكان أول مَنْ بايعه طلحةُ بلسانه ، وسعد بيده ، فلما رأى ذلك عليٌّ خرج إلى المسجد ، فصعد المنبر ، فكان أول من صعد إليه طلحة فبايعه الزبير ، وسعد ، وأصحابُ النبيِّ ﷺ جميعًا ».

وبويع ﷺ يوم الجمعة لثمان عشرة مضت من ذي الحجة ؛ كما ذكر أصحاب السير والتواريخ ، وذلك في سنة خمس وثلاثين [(١)] ، وقيل لخمس بقين من ذي الحجة [(٢)] .

وأستهلُّ الحديث عن الفتنة الطاحنة ، الظلوم ، الغشوم ، الجهول العمياء ، الصماء ، البكماء التي وقعت بعد مقتل عثمان ﷺ ؛ فأقول : لما قُتل عثمان ؛ تصوَّر معي أن المدينة ظلَّت خمسة أيام على الراجح من أقوال أهل السير بدون إمام ، بدون خليفة ، وأرجو أن تتصوَّر معي الفجيعة حينما تعلم أن الغافقي ـ وهو قاتل عثمان ـ هو الذي كان يقود أمر المسلمين ؛ بل ويتقدم للصلاة في مسجد النبيِّ الأمين ﷺ [(٣)] . يا لها من فتنة ! ويا لها من نكبة !

أستهلُّ هذه الروايات برواية واضحة في بيعة عليٍّ ؛ لأنه قد قيل ما قيل ،

---

(١) «الطبقات» لابن سعد (٣/ ٣١) .

(٢) انظر «البداية والنهاية» ، و «تاريخ الطبري» .

(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير (٧/ ٢١٤ ، ٢١٥) ، و«تاريخ الطبري» (٥/ ١٥٥) ، و«العواصم من القواصم» (١٤٧) تعليق الشيخ محب الدين الخطيب .

وشحنت كتب التاريخ، والأسفار، وكتب السير بالروايات الموضوعة والمكذوبة التي لا يصح بحال أن تنسب إلى أصحاب سيد الرجال ﷺ.

وأبدأ هذه الروايات برواية مؤثرة جدًّا من كلام عليٍّ ﷺ رواها الحافظ ابن عساكر في «تاريخ دمشق»[1] عن قيس بن عُبَاد يقول: سمعت عليًّا ﷺ يوم الجمل يقول: «اللهمَّ إني أبرأ إليكَ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَقَدْ طَاشَ عَقْلِي يَوْم قُتِلَ عُثْمَان، وَأَنْكَرْتُ نَفْسِي، وجاَؤوني للبيعَة؛ فقُلتُ: وَالله إنِّي لأسْتَحِي من الله أنْ أُبَايِعَ قَومًا قَتَلُوا رَجُلاً قَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «ألا أَسْتَحِي مِمَّنْ تَسْتَحِي منهُ الملائكة»، وإنِّي لأسْتحي مِنَ الله أنْ أُبَايَعَ، وعُثْمَانُ قَتِيلُ الأرْضِ لمْ يُدْفَنْ بَعْدُ! فَانْصَرَفُوا، فَلَمَّا دُفِنَ رَجَعَ النَّاسُ فَسَألُونِي البَيْعَة؛ فَقُلْتُ: اللهمَّ إنِّي مُشْفِقٌ مِمَّا أُقْدِمُ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَاءَت عَزِيمَةٌ فَبَايَعْتُ، فَلَقَدْ قَالُوا: يَا أمير المؤمِنِينَ، فَكَأنَّمَا صُدِعَ قلْبِي، وَقُلتُ: اللهمَّ خُذْ مِنِّي لعُثْمَان حَتَّى تَرْضَى».

فهؤلاء هم الصحابة ـ ﷺ جميعًا ـ ما كانوا طُلَّابَ مناصب، وما كانوا طُلَّاب كراسٍ أبدًا!! وسيزول عجبك إذا علمت أنَّ الذي ربَّى عليًّا ﷺ هو المصطفي ﷺ وكفى! فقد تربَّى في حِجْرِ رسول الله ﷺ، وسمع القرآن غضًّا طريًّا من فم رسول الله ﷺ وحده؛ فهذه كرامة لا يستطيعُ بليغٌ على وجه الأرض أن يجسِّدها الآن.

يقول عبيد الله بن أبي رافع كاتب عليٍّ ﷺ: «رأيت عليًّا حين ازدحموا عليه، حَتَّى أدْمَوْا رِجْلَهُ؛ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إنِّي قَدْ كَرِهْتُهُمْ وَكَرِهُوني،

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ١٠١) وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٣) ط دار صادر بيروت، وابن عساكر (٣٩/ ٤٥٠).

فَأَرِحْنِي مِنْهُمْ ، وَارْحَمْهُمْ مِنِّي » [(١)].

فهؤلاء هم أئمةُ الورع والزهد ؛ فعليٌّ إمامٌ آخر من أئمة الزهد ، والورع ، والتقى ، والعلم ، والفقه ، والخطابة ، والبلاغة ، والبيان .

يقولُ : «فلما قالوا : يا أمير المؤمنين ! كأنما صُدِعَ قلبي» . يعرف قدْر هذه الكلمة ، ويعرف حجم الأمانة ، ويعرف خطورة الولاية ، ولم لا ؟ ! ألم يسمع ﷺ من رسول الله ﷺ ؛ كما في «صحيح مسلم» من حديث أبي ذر ﷺ حين ذهب يومًا يطلب الولاية من رسول الله ﷺ فضرب النبيُّ ﷺ على منكب أبي ذر وقال : «يَا أَبَا ذَرٍّ ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ . وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا ، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا» [(٢)].

ألم يسمع عليٌّ من رسول الله ﷺ قوله ؛ كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاريُّ ومسلم من حديث معقل بن يسار ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً ، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ ، وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ [(٣)]» .

فالإمامة ، والولاية ، والحكم مسؤوليةٌ عظيمةٌ كبيرةٌ ! إنها أمانة ثقيلة . أسأل الله ﷻ أن يعين كلَّ راعٍ على رعيته .

وتدبَّر - معي - هذه الرواية التي رواها الإمام أحمد في «فضائل

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٥٨٦) ، وابن عساكر (٤٢/ ٥٣٥) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة برقم (١٨٢٥) .

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الأحكام ، باب مَن استرعى رعية فلم ينصح (٧١٥٠ ، ٧١٥١) ، ومسلم ، كتاب الإمارة ،باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر ، والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم برقم (١٤٢) واللفظ له .

الصحابة» والخلال في «السنة»[(١)] بسندٍ حسنٍ عن محمد بن الحنفية بن عليٍّ رضي الله عنهما قال : «كنت مع عليٍّ رضي الله عنه وعثمان محصور ؛ فأتاه رجلٌ ، فقال : إن أمير المؤمنين مقتول ! ثم جاء آخر ؛ فقال : إن أمير المؤمنين مقتول الساعة ! قال : فقام عليٌّ ـ يقول محمد ابن الحنفية : فأخذت بِوَسَطِهِ تخوفًا عليه ؛ فقال : خلِّ عني لا أُمَّ لك ، يقول : فأتى عليٌّ الدارَ ، وقد قُتل الرجل رضي الله عنه فأتى دارَه ، فدخلها ، وأغلقَ بابه ، فأتاه الناسُ ، فضربوا عليه الباب ، فدخلوا عليه ؛ فقالوا : إن هذا الرجل قد قُتِلَ، ولا بدَّ للناس من خليفة ، ولا نعلم أحدًا أحقُّ بها منك ؛ فقال لهم عليٌّ : لا تريدوني ، فإني لكم وزير خيرٌ مني لكم أمير ؛ فقالوا : لا ، والله ، ما نعلم أحدًا أحق بها منك ، قال : فإن أبيتم عليَّ ، فإن بيعتي لا تكون سرًّا ، ولكن أخرج إلى المسجد ؛ فمن شاء أن يبايعني بايعني ، قال : فخرج عليٌّ رضي الله عنه إلى المسجد ، فبايعه الناس» .

وروى الإمام أحمد في «الفضائل» والإمام الخلال في «السنة» [(٢)]عن عوف ، قال : كنتُ عند الحسن البصري ـ وكان الحسن في المدينة عند مقتل عثمان ـ فذكروا أصحاب رسول الله ﷺ ؛ فقال ابن جوشن الغطفاني : يا أبا سعيد ، إنما أزري بأبي موسى اتباعه عليًّا ! قال : فغضب

---

(١) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (٩٦٩) ، و«السنة» للخلال (٢/ ٤١٥) (٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢) وما بعدها ط الراية ، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (٤/ ١٢٢٣) ، وابن قدامة في «المنتخب من العلل» (١٣٠) .

(٢) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (٩٧٦) ، والخلال في «السنة» (٢/ ٤٣١) (٦٥١) .
وفي رواية الخلال : « انتقصَ» .

الحسن البصري حتى تبين الغضب في وجهه ، قال : فمَنْ يتَّبع ؟ فمن يتبع ؟ وظلَّ يكررها ؛ ثم قال : «قُتل أمير المؤمنين عثمان مظلومًا ، فعمد الناس إلى خيرهم فبايعوه» .

فهذه روايات تبين وتوضح لنا بجلاء أن بيعة عليٍّ ﷺ كانت في العلن ، ولم تكن سرًّا ، وإنما كانت في المسجد .

وروى ابن عساكر [(١)] عن الحسن البصري ﷺ قال : «لما قدم عليٌّ البصرة في إثر طلحة وأصحابه ، قام عبد الله بن الكواء ، وقيس بن عباد ، قالا له : يا أمير المؤمنين ، أخبرنا عن سيرك هذا ، أوصيةٌ أوصاك بها رسول الله ﷺ ، أم عهدٌ عهده إليك ؟ أم رأيٌ رأيته حين تفرقت الأمة واختلفت كلمتها ؟ فقال عليٌّ : والله ما أكون أول كاذب على رسول الله ﷺ . والله ما مات رسول الله ﷺ فجأة ، ولا قُتل قتلًا ، ولقد مكث في مرضه أيامًا وليالي يأتيه المؤذن ، فيؤذن بالصلاة ، فيأمر النبيُّ ﷺ أبا بكر فيصلي بالناس ، ولقد تركني وهو يرى مكاني ، ولو عهد إليَّ شيئًا لقمت به ، ولقد أرادت امرأةٌ من نسائه أن تصرفه عن أبي بكر ، فأبى وغضب ؛ وقال : «أَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ » [(٢)] .

يقول عليٌّ : فلما قَبَضَ الله نبيه ، نظرنا في أمورنا ، فاخترنا لدنيانا من اختاره النبيُّ لديننا ؛ فكانت الصلاة أصل الإسلام ، وقوام الدين ، وهو أمين الدين ، فبايعنا أبا بكر ﷺ ؛ فكان لذلك أهلًا ، لم يختلف عليه منا

---

(١) «تاريخ دمشق» (٤٢/ ٤٤٠ ـ ٤٤٢) وما بعدها ط الفكر ، وانظر : «تاريخ الإسلام» (٦٤٠) ، و«سير أعلام النبلاء» ـ سيرة الخلفاء الراشدين ـ (٢٤١ ، ٢٤٢) .

(٢) وهذا كما عند البخاري (١٦٧٩) ، (٣٣٨٤) ، كتاب الأذان ، وكتاب الأنبياء .

اثنان ، ولم يشهد بعضنا على بعض ، ولم نقطع منه البراءة ؛ فأديت إلى أبي بكر حقَّه ، وعرفت له طاعته ، وغزوت معه في جنوده ، وكنت آخذ إذا أعطاني ، وأغزو إذا أغزاني ، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي ، فلما قُبض ﷺ ولاَّها عمر ، فأخذها بسنَّةِ صاحبه ، وما يعرف من أمره ؛ فبايعنا عمر ﷺ لم يختلف عليه منا اثنان ،ولم يشهد بعضنا على بعض ، ولم نقطع منه البراءة ؛ فأديت إلى عمر حقَّه ، وعرفت له طاعته ، وغزوت معه في جيوشه ، وكنت آخذ إذا أعطاني ، وأغزو إذا أغزاني ، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي ، فلما قُبض عمر ﷺ تذكرت في نفسي قرابتي ، وسابقتي ، وفضلي ، وأنا أظن ألا يعدلوا بي ، ولكن خشي أن لا يعمل بعده دمٌ إلا لحقه في قبره ، فأخرج نفسه وولده ، ولو كانت محاباةً منه لآثر بها ولده ، فبرئ منها إلى رهط من قريش ستة ؛ أنا أحدهم ، فلما اجتمع الرهط ، فذكرت في نفسي قرابتي وسالفتي ، وأنا أظن أن لا يعدلوا بي ، فأخذ عبد الرحمن بن عوف مواثيقنا على أن نسمع ونطيعَ لمن ولاَّه الله أمرنا ، ثم أخذ عبد الرحمن بيد عثمان ، فضرب بيده على يده ، فنظرت في أمري ، فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي ، وإذا ميثاقي قد أُخِذ لغيري ، فبايعنا عثمان ، فأديت إليه حقَّه ، وعرفت له طاعته ، وغزوت معه في جيوشه ، وكنت آخذ إذا أعطاني ، وأغزو إذا أغزاني ، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي ، فلما أصيب نظرت في أمري ، فإذا الخليفتان اللذان أخذاها بعهد رسول الله ﷺ إليهما بالصلاة قد مضيا ، وهذا الذي قد أُخذ له الميثاق قد أصيب ، فبايعني أهل حرم[illegible] أهل هذين

المصرين : «الكوفة والبصرة» .

وفي رواية : «ثم إن عثمان قد قتل ، فجاءني الناس ، فبايعوني طائعين غير مكرهين» . هكذا قال عليٌّ ﷺ .

ويمكن القول ـ أيها الأحبة ـ بأن عليًّا ﷺ كان بلا نزاع أقوى المرشحين للإمامة بعد قتل عثمان ، على أنه لم يكن أحدٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ الموجودين بعد عثمان أحقَّ بالخلافة من عليٍّ ﷺ بلا نزاع بين أئمة أهل السنة والجماعة ؛ فهو من السابقين الأولين والمهاجرين ، وهو ابن عم النبيِّ الأمين ﷺ ، وهو صهره و .. إلى غير ذلك من الفضائل التي أودُّ أن أقف معها ـ الآن ـ قبل أن أخوض غمار هذه الفتنة ؛ لننطلق من قاعدة صلبة قوية متينة ، ألا وهي :

مَنْ هو عليٌّ ؟

أقولُ :أولًا لا ينبغي أن ننطلق في هذا البحر الهائج المائج إلا ونحن على معرفة تامة بمكانة وقدْر عليٍّ ﷺ ، وقد قلت: إن الحديث عن أصحاب النبيِّ ﷺ يتطلب صفاءً في العقيدة ، وإخلاصًا في النية ، وأمانة في النقل ، ودقة في الفهم ، ونظرة فاحصة مدققة لأراجيف المغرضِينَ والكذابين والوضاعين .

فتعال معي بإيجازٍ شديدٍ جدًّا لنتعرف على قَدْرِ عليٍّ وعلى مكانته ـ رَضِيَ الله عَنْهُ وأرضاه ـ حتى نتطلق من هذه القاعدة .

اسمه [1] :عليُّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن

(١) انظر ترجمته في «الإصابة» لابن حجر (٥٧٠٤) ، و«أسد الغابة» (٣٧٨٩) و«الاستيعاب» (١٨٧٥) =

قصي بن كلاب بن مرة ؛ ابن عم رسول الله ﷺ .

كنيته : أبو الحسن والحسين ، وكناه النبيُّ ﷺ بأبي تراب .

أمه : فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ، وهي بنت عم أبي طالب .

واختُلف في سنة ولادته [١] ورجَّح ابنُ حجر أنه وُلِدَ قبل البعثة بعشر سنين ، وتربى في حِجْرِ النبيِّ ﷺ

وهو أول من أسلم من الغلمان رضي الله عنه بلا نزاع . فلا تعارض بين الحديث الذي رواه الترمذيُّ [٢] وقال : «حديث حسن صحيح» من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : «أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ عَلِيٌّ» وبين الحديث الذي يثبت أن أبا بكر هو أول من أسلم ؛ فأبو بكر أول من أسلم من الرجال [٣] ، وعليٌّ هو

= و «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٤/ ١٢٦ ، ١٨٩) و «تاريخ بغداد» (١/ ١٣٣) ، و«حلية الأولياء» (٢/ ٦١ ، ٨٧) ، و«الجرح والتعديل» (٦/ ١٩١) ، و«تهذيب التهذيب» (٧/ ٣٣٤) ، و«تهذيب الكمال» (٢٠/ ٤٧٢) ، و«سير أعلام النبلاء» سيرة الخلفاء الراشدين (٢٢٥) .

(١) «الإصابة» (٢/ ٥٠١) ، و «فتح الباري» (٧/ ١٧٤) ، و «المعجم الكبير» للطبراني (١/ ٥٣) (١٦٥) .

(٢) أخرجه الترمذي ، كتاب المناقب ، باب مناقب علي بن أبي طالب (٣٧٣٥) ، وقال : «حديث حسن صحيح» والنسائي في «الخصائص» (٢ ، ٣ ، ٤) ، وفي «الفضائل» (٣٤) ، والحاكم (٣/ ١٣٦) ، وقال : «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي ، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٠٠٠ ، ١٠٠٤) ، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ١/ ١٢ ، ١٣) ، والطيالسي (٦٧٨) ، وابن أبي شيبة (١٢١٥٥) ، وأحمد (٤/ ٣٦٨) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي» .

(٣) أخرجه الترمذي ، كتاب المناقب ، باب في مناقب أبي بكر (٣٦٦٧) ، وقال : «حديث غريب» ، وابن حبان في «صحيحه» (٦٨٦٣) عن أبي سعد الخدري ، وقال الأرناؤوط : «رجاله ثقات» ، وانظر : «فضائل الصحابة» للإمام أحمد (١/ ٢٢٦) ، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٢٠١) ، و «صحيح السيرة» (١٢٠) .

أول من أسلم من الصبيان ـ رُضْوَانُ الله عَلَيْهِ [١]، وهو الخطيب المفوَّه الذي تهتزُّ الدنيا لكلماته، وهي تخرج من شفتيه، كأنها نورٌ يبدِّد الظلماء.

عليٌّ ﷺ الفقيه العالم الذي يجري الحق على لسانه وقلبه.

عليٌّ ﷺ البطل الشريف والفدائي العظيم الذي علَّم الدنيا شرف البطولة، وحقيقة الفداء.

عليٌّ ﷺ الذي أحبَّ الله ورسولَه وأحَبَّه الله ورسولُهُ.

عليٌّ تلميذُ بيت النبوة الذي تربَّى في حجر المصطفي وكفى.

عليٌّ الذي اضطر يومًا أن يعدِّد مناقبَه، وأن يبين للناس فضائله، فقال [٢]:

محمَّدٌ النَّبي أخي وصِهْرِي ... وحمزةُ سيدُ الشهداءِ عَمِّي
وجعفرٌ الذي يُمْسي ويُضْحي ... يطيرُ مع الملائكةِ ابنُ أمي
وبنتُ محمدٍ سكني وعُرسي ... منوطٌ لحمُها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ولداي منها ... فأيكم له سهمٌ كسهمي
سبقتكم إلى الإسلام طرًّا ... صغيرًا ما بلغت أوان حلمي

وللأمانة ـ مع تواتر هذه الأبيات عنه ﷺ ـ إلا أن الحافظ ابن كثير

---

(١) وهو قول جمع من أهل العلم منهم إسحاق بن راهويه؛ كما نقل ذلك البغوي في «معالم التنزيل» (١/ ٨٧)، والقرطبي في «التفسير» (لسورة التوبة/ ١٠٠) وهو قول طائفة من أهل العلم بالسير والخبر؛ كما قال ابن عبد البر في «الاستيعاب» (١/ ٢٩٤)، وانظر: «فتح المغيث» (٣/ ١٣٧)، و«مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام (٤/ ٤٦٢)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٢٩)، و«تحفة الأحوذي» (١٠/ ١٠٤).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٢/ ٥٢٠، ٥٢١)، وابن المغازلي في «مناقب عليٍّ» (٤٥٨ ط الآثار)، وانظر: «الوافي في الوفيات» لابن خلكان (٣٤٦٠)، و«الصواعق المحرقة في أهل الرفض والضلال والزندقة» (٢/ ٣٨٦) والسند فيه انقطاع؛ كما قال ابن كثير رحمه الله.

رحمه الله في «البداية والنهاية»[(١)] قال : «وهذا منقطع بين أبي عبيدة وزمان عليٍّ ومعاوية» .

مَنْ كعلي ؟ وقد شهد النبيُّ ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه بالجنة .

فعن سعيد بن زيد [(٢)] رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « عَشَرَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ فِي الجَنَّةِ : أَنَا فِي الجَنَّةِ ، وَأَبُو بَكْرٍ فِي الجَنَّةِ ، وَعُمَرُ فِي الجَنَّةِ ، وَعُثْمَانُ فِي الجَنَّةِ ، وَعَلِيٌّ فِي الجَنَّةِ ، وَطَلْحَةُ فِي الجَنَّةِ ، وَالزُّبَيْرُ فِي الجَنَّةِ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الجَنَّةِ، وَسَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي الجَنَّةِ » ، قيل لسعيد بن زيد : فمن العاشر ؟ قال : أنا .

وروى مسلم [(٣)] عن عليٍّ رضي الله عنه قال : «وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ !! إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﷺ إِلَيَّ : أَنْ لَا يُحِبَّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ ، وَلَا يُبْغِضَنِي إِلَّا مُنَافِقٌ» .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» [(٤)] من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : «لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ الله عَلَى يَدَيْهِ ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَيُحِبُّهُ الله وَرَسُولُهُ» .

---

(١) «البداية والنهاية» (٨/ ٩) .

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ١٨٨) ، وأبو داود ، كتاب السنة ، باب في الخلفاء (٤٦٤٩) ، والترمذي ، كتاب المناقب ، باب مناقب سعيد بن زيد (٣٧٥٧) ، وقال : «حديث حسن» ، وابن ماجه في المقدمة ، باب فضائل العشرة رضي الله عنهم (١٣٣) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٤٠١٠) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنه من الإيمان (٧٨) .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب دعوة اليهود والنصارى وعلى ما يقاتلون عليه (٢٩٤٢) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٦) .

فأعطاها لعليٍّ ﷺ بعدما تساور لها الصحابة جميعًا ؛ وعلى رأسهم عمر ﷺ [١].

وقد شهد عليٌّ ﷺ بدرًا ، وبارز وظاهر ؛ روى أبو داود [٢] وغيره عن عليٍّ ﷺ قال : «تَقَدَّمَ ـ يَعْنِي : عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ـ وَتَبِعَهُ ابْنُهُ وَأَخُوهُ ، فَنَادَى : مَنْ يُبَارِزُ ؟ فَانْتَدَبَ لَهُ شَبَابٌ مِنَ الأَنْصَارِ ؛ فَقَالَ : مَنْ أَنْتُمْ ؟ فَأَخْبَرُوهُ ؛ فَقَالَ : لَا حَاجَةَ لَنَا فِيكُمْ ، إِنَّمَا أَرَدْنَا بَنِي عَمِّنَا ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «قُمْ يَا حَمْزَةُ ، قُمْ يَا عَلِيُّ ، قُمْ يَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْحَارِثِ » ، فَأَقْبَلَ حَمْزَةُ إِلَى عُتْبَةَ ، وَأَقْبَلْتُ إِلَى شَيْبَةَ ، وَاخْتُلِفَ بَيْنَ عُبَيْدَةَ وَالْوَلِيدِ ضَرْبَتَانِ ، فَأَثْخَنَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ ، ثُمَّ مِلْنَا عَلَى الْوَلِيدِ فَقَتَلْنَاهُ ، وَاحْتَمَلْنَا عُبَيْدَةَ» .

وروى البخاريُّ [٣] عن البراء بن عازب ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال لعليٍّ ﷺ : «أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ» .

وروى النسائيُّ وأحمد والحاكم [٤] عن أبي عبد الله الجدلي ، قال : دخلت على أم سلمة ﷺ ، فقلتْ : أَيُسَبُّ رَسُولُ الله ﷺ فِيكُمْ ؟ قُلْتُ : سُبْحَانَ الله ! ـ أَوْ مَعَاذَ الله ـ قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : «مَنْ سَبَّ عَلِيًّا فَقَدْ سَبَّنِي» .

وروى أبو يعلى [٥] عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال : «كُنْتُ جَالِسًا فِي

---

(١) انظر : «صحيح مسلم» (٢٤٠٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب الجهاد ، باب في المبارزة (٢٦٦٥) ، وأحمد في «المسند» (١/ ١١٧) ، والبيهقي في «السنن» (٣/ ٢٧٦) ، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٩٤) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود» .

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب المغازي ، باب عمرة القضاء (٤٢٥١) .

(٤) أخرجه النسائي في «الخصائص» (٨٨) ، وهو في «الكبرى» (٥/ ١٣٣) ، وأحمد (٦/ ٣٢٣) ، والحاكم (٣/ ١٢١) ، وصححه الشيخ شعيب في «تخريج المسند» .

(٥) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (١٠٧٨) ، وأبو يعلى (٢/ ١٠٩) وصحَّحه الشيخ الألباني =

المَسْجِدِ أَنَا وَرَجُلَيْنِ مَعِي فَنِلْنَا مِنْ عَلِيٍّ ؛ فَأَقْبَلَ رَسُولُ الله ﷺ غَضْبَانَ ، يُعْرَفُ فِي وَجْهِهِ الغَضَبُ ، فَتَعَوَّذْتُ بِالله مِنْ غَضَبِهِ فَقَالَ : «مَا لَكُمْ وَمَالِي ؟ مَنْ آذَى عليًّا فَقَدْ آذَانِي» .

وروى أحمد وابن حبان والنسائيُّ [(١)] عن عليٍّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا مَوْلَاهُ - يعني عليًّا رضي الله عنه - اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ» .

وروى البخاريُّ [(٢)] عن سعد رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ إِلَى تَبُوكَ وَاسْتَخْلَفَ عَلِيًّا ، فَقَالَ : أَتُخَلِّفُنِي فِي الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ ؟ قَالَ : «أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي» .

وروى أحمد [(٣)] عن عمرو بن ميمون قال : «إِنِّي لَجَالِسٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ إِذْ أَتَاهُ تِسْعَةُ رَهْطٍ فَقَالُوا: يَا أَبَا عَبَّاسٍ ، إِمَّا أَنْ تَقُومَ مَعَنَا وَإِمَّا أَنْ تُخْلُونَا هَؤُلَاءِ. قَالَ : فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : بَلْ أَقُومُ مَعَكُمْ. قَالَ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ صَحِيحٌ قَبْلَ أَنْ يَعْمَى قَالَ : فَابْتَدَؤُوا فَتَحَدَّثُوا فَلَا نَدْرِي مَا قَالُوا ، قَالَ : فَجَاءَ يَنْفُضُ ثَوْبَهُ وَيَقُولُ: أُفْ وَتُفْ (وهي كلمة تقال عند الشيء يستقذر) وَقَعُوا فِي رَجُلٍ لَهُ عَشْرٌ ، وَقَعُوا فِي رَجُلٍ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : «لَأَبْعَثَنَّ رَجُلًا لَا يُخْزِيهِ الله أَبَدًا يُحِبُّ الله

= في «الصحيحة» (٢٢٩٥) ، و «صحيح الجامع» (٥٩٢٤) .

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٧٠) ، وابن حبان ؛ كما في «موارد الظمآن» (٢٢٠٥) ، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٣٦٨) ، والطبراني في «الكبير» (٤٩٦٨) ، والنسائي في «الخصائص» (٩٠) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٦٥٢٣ ، ٦٥٢٤) ، وانظر : «الصحيحة» (١٧٥٠) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المغازي ، باب غزوة تبوك (٤٤١٦) ومسلم ، كتاب «فضائل الصحابة» باب من فضائل علي رضي الله عنه (٢٤٠٤) .

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٣٣٠ ، ٣٣١) وصحَّح إسناده الشيخ أحمد شاكر رحمه الله.

وَرَسُولَهُ ». قَالَ : فَاسْتَشْرَفَ لَهَا مَنِ اسْتَشْرَفَ قَالَ: « أَيْنَ عَلِيٌّ ؟». قَالُوا: هُوَ فِي الرَّحَى يَطْحَنُ. قَالَ : « وَمَا كَانَ أَحَدُكُمْ لِيَطْحَنَ ». قَالَ : فَجَاءَ وَهُوَ أَرْمَدُ لاَ يَكَادُ يُبْصِرُ . قَالَ : فَنَفَثَ فِي عَيْنَيْهِ ثُمَّ هَزَّ الرَّايَةَ ثَلاَثاً فَأَعْطَاهَا إِيَّاهُ ؛ فَجَاءَ بِصَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ ، قَالَ : ثُمَّ بَعَثَ فُلاَنًا لِسُورَةِ التَّوْبَةِ ، فَبَعَثَ عَلِيًّا خَلْفَهُ فَأَخَذَهَا مِنْهُ ، قَالَ: « لاَ يَذْهَبُ بِهَا إِلاَّ رَجُلٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ ». قَالَ : وَقَالَ لِبَنِي عَمِّهِ : « أَيُّكُمْ يُوَالِينِي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ». قَالَ: وَعَلِيٌّ مَعَهُ جَالِسٌ ، فَأَبَوْا ، فَقَالَ عَلِيٌّ : أَنَا أُوَالِيكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ . قَالَ : « أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ». قَالَ: فَتَرَكَهُ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ فَقَالَ : « أَيُّكُمْ يُوَالِينِي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ». فَأَبَوْا ، قَالَ: فَقَالَ عَلِيٌّ : أَنَا أُوَالِيكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ . فَقَالَ : « أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ». قَالَ : وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ النَّاسِ بَعْدَ خَدِيجَةَ . قَالَ : وَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَوْبَهُ فَوَضَعَهُ عَلَى عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَحَسَنٍ وَحُسَيْنٍ ؛ فَقَالَ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب :٣٣] .

قَالَ: وَشَرَى عَلِيٌّ نَفْسَهُ ، لَبِسَ ثَوْبَ النَّبِيِّ ﷺ ، ثُمَّ نَامَ مَكَانَهُ . قَالَ : وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَرْمُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَعَلِيٌّ نَائِمٌ . قَالَ : وَأَبُو بَكْرٍ يَحْسَبُ أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ ، قَالَ: فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ. قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ : إِنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَدِ انْطَلَقَ نَحْوَ بِئْرِ مَيْمُونٍ فَأَدْرِكْهُ. قَالَ: فَانْطَلَقَ أَبُو بَكْرٍ فَدَخَلَ مَعَهُ الْغَارَ ، قَالَ : وَجَعَلَ عَلِيٌّ يُرْمَى بِالْحِجَارَةِ كَمَا كَانَ يُرْمَى نَبِيُّ اللهِ وَهُوَ يَتَضَوَّرُ ، قَدْ لَفَّ رَأْسَهُ فِي الثَّوْبِ لاَ يُخْرِجُهُ حَتَّى أَصْبَحَ ، ثُمَّ كَشَفَ عَنْ رَأْسِهِ فَقَالُوا : إِنَّكَ لَلَئِيمٌ ، كَانَ صَاحِبُكَ نَرْمِيهِ فَلاَ يَتَضَوَّرُ وَأَنْتَ تَتَضَوَّرُ ، وَقَدِ اسْتَنْكَرْنَا ذَلِكَ. قَالَ : وَخَرَجَ بِالنَّاسِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ. قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: أَخْرُجُ مَعَكَ.

قَالَ: فَقَالَ لَهُ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: «لَا». فَبَكَى عَلِيٌّ، فَقَالَ لَهُ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَّا وَأَنْتَ خَلِيفَتِي». قَالَ: وَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنْتَ وَلِيِّي فِي كُلِّ مُؤْمِنٍ بَعْدِي». وَقَالَ: «سُدُّوا أَبْوَابَ الْمَسْجِدِ غَيْرَ بَابِ عَلِيٍّ، فَيَدْخُلُ الْمَسْجِدَ جُنُبًا وَهُوَ طَرِيقُهُ لَيْسَ لَهُ طَرِيقٌ غَيْرُهُ» قَالَ: وَقَالَ «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ، فَإِنَّ مَوْلَاهُ عَلِيٌّ».

قَالَ: وَأَخْبَرَنَا اللهُ ﷻ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنْهُمْ، عَنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ، فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ، هَلْ حَدَّثَنَا أَنَّهُ سَخِطَ عَلَيْهِمْ بَعْدُ؟ قَالَ: وَقَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ لِعُمَرَ حِينَ قَالَ: ائْذَنْ لِي فَلأَضْرِبْ عُنُقَهُ[1]. قَالَ: «أَوَكُنْتَ فَاعِلًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ قَدِ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ».

فحياة عليٍّ حياة تتفجر عظمة وجلالًا؛ لكنها أيضًا في الوقت ذاته تموج بالأسى والهول مَوْجًا؛ لاسيما إذا علمنا أن طائفة من الناس قد غالَتْ فيه، فجعلته إلهًا! وأن طائفة أخرى قد جفت فيه، فجعلته كافرًا بالله! فهي حياة ـ بلا نزاع ـ حافلة بالبطولة .. حافلة بالعظمة والمأساة .. حافلة بالبأساء والضراء .. حافلة بالنصر والهزيمة .. حافلة بالرخاء والشدة .. حافلة بالبسمة والدمعة .. حافلة بالفرح والحزن . ولا نزاع ـ أبدًا ـ في أن عليًّا ـ رُضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ ـ كان أحقَّ الناس بالخلافة بعد مقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ وَأَرْضَاهُ.

وأقول: ليست سابقة عليٍّ، والقرابة له من رسول الله ﷺ، والمصاهرة؛ هي المزايا الأولى والوحيدة التي تؤهل عليًّا رضي الله عنه لمنصب

(١) يقصد حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه .

الخلافة ! لا ؛ لكن كان له ـ بالإضافة إلى كل هذا ـ من القدرة ، والكفاءة ، والذكاء ، والعلم ، والشجاعة ، والإقدام ، والمروءة ، والعقل ، وكان له من حزم اشتهر به بين جميع أصحاب النبي ﷺ ، ولما كان له من صلابة في الحقِّ ، ولما كان له من بُعد نظر في تصريف الأمور ؛ حتى كان عمر ﷺ يستشير عليًا في كل شيء .

أقول : لهذا كلّه كان عليٌّ ـ رُضْوَانُ الله عَلَيْهِ ـ أجدر وأولى الناس بهذا المنصب الخطير ـ وهو الخلافة ـ بعد مقتل عثمان ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

ولن أقف طويلًا عند حياة عليٍّ قبل الخلافة لأخلصَ سريعًا سريعًا إلى هذه الفتنة الصماء البكماء ؛ لنستخرج الحقَّ من وسط الركام من الأقوال الموضوعة ، والأخبار المكذوبة !.

بايع الناسُ عليًّا ﷺ مع بداية العام السادس والثلاثين من الهجرة ، وكان من أول من بايع طلحةُ والزبيرُ ﷺ .

وبعد البيعة بأيام قليلة بدأ الخلاف الحاذ ! لماذا ؟

والجواب : ذهب طلحة والزبير[1] ﷺ إلى عليٍّ ﷺ ، وطلبا منه على وجه السرعة أن يقيم الحدَّ على قتلَةِ عثمان ، فاعتذر عليٌّ ، وهنا بدأ الخلاف . وكلٌّ له وجهةُ نظره واجتهاده ؛ لكنَّ الذي ندين لله به أن الحقَّ كان مع عليٍّ ﷺ ، بنص كلام النبيِّ ﷺ ـ كما سنبين إن شاء الله تعالى .

فاعتذر عليٌّ ﷺ بكلام جميل فقال : «إن قَتَلَة عثمان لهم مدد وأعوان» ،

(١) انظر هذه الأحداث في «تاريخ الطبري» ، و«الكامل» لابن الأثير ، و«البداية النهاية» ـ أحداث سنة ٣٦ .

ومن أعظم الأدلة على ذلك ، حصارهم لبيت الخليفة ، ووصولهم إليه ؛ فهم كثرة ، وما رفض عثمان ﷺ أن يقاتل هؤلاء إلا لأنهم كثرة ، وخاف أن تُسفك الدماء في مدينة رسول الله ﷺ، وقال : « والله ما أحبُّ أن ألقى الله ، وفي عنقي قطرة دم لامرئ مسلم ».

فعليٌّ ﷺ رأى أن قتلة عثمان ﷺ لهم مددٌ وأعوان ، وهم كثرة ، وأين القوة التي تستطيع أن تنفذ ذلك الآن في الوقت الذي فيه مدينة النبيِّ ﷺ ذاتها مستكينة تحت وطأة إرهاب هؤلاء المجرمين الموتورين ؛ فلقد ظلَّت المدينة بعد قتل عثمان ما يقرب من أسبوع تحت قيادة الغافقي قاتل عثمان !!.

بل وكان يتقدَّم ليصلِّي بالمسلمين عُنوةً في مسجد النبيِّ ﷺ؛ بل وتخلَّف عليٌّ ﷺ حتى عن صلاة الجماعة ، وأغلق عليه باب داره ؛ فقال عليٌّ ﷺ: هؤلاء تعصَّب لهم كثيرٌ من الناس . وبلغ عدَدُهم ما يقرب من عشرة آلاف ، قد يتحولون إلى جيوش كاسرةٍ متوحشةٍ ، تدمِّر الأخضر واليابس إن جاء عليٌّ ﷺ بفرقة منهم ، وأقام عليهم الحدَّ ، فرأى عليٌّ بفهمه وفقهه واجتهاده ، ونظرته للأمور ، وموازنته بين المفاسد والمصالح ؛ واختياره لأخفِّ الأضرار أو لأخف الضررين على وَجْهِ التحديد ، رأى أن يؤجل إقامة الحدِّ على قتلة عثمان ؛ فرفض طلحةُ والزبيرُ هذا الاجتهاد وثارا ﷺ وثار معهما عدد كبير من الصحابة وعلى رأسهم معاوية ﷺ الذي أرسلت نائلة زوج عثمان ﷺ إليه قميص عثمان الذي قُتل فيه ، وأرسلت فيه أصابعها التي قطعت ، وهي تدافع عنه .

فمن المعلوم أن أقوى قوة حين ذاك كانت في الشام لمعاوية ﷺ، وكان

عاملًا لعثمان على بلاد الشام ؛ فما أن وصل القميصُ لمعاوية ، حتى بكى بكاءً شديدًا ، وخرج بقميص عثمان إلى المسجد الدمشقي في دمشق ، وعلَّق معاويةُ قميصَ عثمان على المنبر ، وعلَّق في القميص أصابع نائلة ؛ فما أن رأى المسلمون هذا المشهد إلا وانخلعت قلوبُهم ، وبكوْا بكاءً شديدًا ، وألزموا معاوية ـ في هذه اللحظات الشديدة التي تأججت فيها العاطفة لعثمانَ ﷺ ـ بالثأر لعثمان ، والأخذ على يد من قتله ، وإقامة الحدِّ عليهم .

وهنا رفض معاوية ﷺ أن يعطي البيعة لعلي ﷺ ؛ حتى يقيم الحدَّ على قتلة عثمان ، أو يسلِّم عليٌّ إلى معاوية قتلة عثمان ؛ فمعاويةُ ما طلب الخلافة ، وما طلب البيعة إطلاقًا ، وإنما أخَّر البيعةَ لعليٍّ ، حتى يقيم عليٌّ الحدَّ على قتلة عثمان ، أو يُسْلم عليٌّ قتلةَ عثمان لمعاوية ، وهذا أيضًا خلافٌ على محورٍ ثانٍ بعد خلاف طلحة والزبير مع عليٍّ ﷺ ، ولما اعتذر عليٌّ هذا الاعتذار قرَّر طلحة والزبير الخروج من المدينة .. إلى أين ؟ إلى مكة . لماذا ؟ لأن في مكة في هذا الوقت عائشة ﷺ ، وظن طلحة والزبير أن خروجهما لعائشة ، وأن خروج عائشة ﷺ معهما لحثِّ الناس على المطالبة بدم عثمان ، سيجعل الناس يلتفون حول عائشة مراعاة منهم لحرْمة نبيهم ﷺ ؛ فهذه أمُّ المؤمنين ؛ زوجُ سيِّد المرسلين ﷺ . وإياك ثم إياك أن تصدق الكذابين والأفاكين الذين يزعمون أن طلحة والزبير خرجا من المدينة إلى مكة ؛ لأنهما قد نقضا البيعةَ لعليٍّ ؛ بل سأبين الآن بالأدلة الصحيحة أن طلحة والزبير وعائشة ؛ بل وعليًّا ﷺ ما خرجوا البتة من المدينة إلا وهم يريدون جميعًا الإصلاح بين الناس .. عقيدة لابد أن تثبت في قلوبنا ؛ فهم ما خرجوا يريدون سفك الدماء! إطلاقًا ؛

بل خرجوا يريدون الإصلاح ، هؤلاء اجتهدوا في أن يحمِّسوا الناس للمطالبة بدم عثمان ، ليشكِّلوا ضغطًا على هؤلاء ، وعليٌّ رضي الله عنه ما خرج هو الآخر لمقابلة طلحة والزبير وعائشة إلا وهو يريد الإصلاح ـ كما سأبين إن شاء الله ـ فما خرج واحدٌ منهم يريد قطرة دم أبدًا ؛ فهذا بعيدٌ عن آحاد المؤمنين العاديين ، فما ظنُّك بأصحاب سيد المرسلين ﷺ؟!

ولا يفهم أحدٌ أني أريد أن أحكم لأصحاب النبيِّ ﷺ بالعصمة ! لا .

وقد فصَّلتُ الحديث في عصمة الأنبياء من قبل ، وعرضتُ أقوال أهل السنة والجماعة في عصمة الأنبياء ، وأقسامها ، وأنواعها .

فنحنُ نعتقد أن العصمة قد انتهى زمانها يوم أن دُفن المصطفى ﷺ؛ فلا عصمة لأحدٍ على وَجْه الأرض بعد رسول الله ﷺ.

خرج طلحة والزبير إلى مكة ـ شرفها الله ـ وكان هذا بعد مقتل عثمان بأربعة أشهر تقريبًا في ربيع الآخر عام ٦٣ هجريًا [(١)].

وكانت عائشة قد خرجت لأداء مناسك الحج بقَدَرِ الله ـ جَلَّ وَعَلَا ـ فلما سمعت بمقتل عثمان رضي الله عنه قامت تحثُّ الناس على القيام بالمطالبة بدم عثمان ، ولكنَّ عائشة أرادت أن تخرج من مكة إلى المدينة ؛ فقال لها طلحة والزبير رضي الله عنهما يا أم المؤمنين ، دعي المدينة ، فإن مَنْ معنا لا يقْوُون على تلك الغوغاء التي بالمدينة ، ولكن انطلقي معنا إلى البصرة ؛ فإن أصلح الله الأمر كان الذي تريدين .

والسؤال : لماذا البصرة ؟

---

(١) «تاريخ الطبري» (٥/ ٤٦٩) .

أولًا : كان معهم في هذا الوقت عبد الله بن عامر ـ وهو والي عثمان على البصرة ـ وهنالك أيضًا معاوية بقوته .

وقد قال عبد الله بن عامر: بأن له من الأعوان في البصرة من خلال فترة حكمه هنالك ما يستطيع أن يحمِّس به أهل البصرة بالمطالبة بدم عثمان .

وهناك أيضًا معاوية في بلاد الشام فخرجوا ، والزبير يقول : خرجنا لنستنهض الناس ليدركوا دم عثمان ؛ لئلا يبطل ؛ لأن في إبطاله توهينًا لسلطان الله ﷻ بيننا أبدًا ؛ فإذا لم يُفطم الناس عن أمثاله لم يبق إمام إلا قتله هذا الصنف من الناس[1] .

وهذا الذي دفعهم للمطالبة بدم عثمان ؛ لأنهم اتهموا أنفسهم بخذلان الخليفة المقتول ، ولا تكفير لهذا الذنب إلا بقتال هؤلاء ، والأخذ بثأر عثمان ، ولو أدى ذلك إلى موتهم !

فعائشة رضي الله عنها تقول : «إن عثمان قُتل مظلومًا ، والله لأطالبن بدمه[2]» .

وطلحة يقول : «إنه كان مني في عثمان شيء ، ليس توبتي إلا أن يُسفك دمي في طلب دمه»[3] .

فانطلقوا جميعًا نحو البصرة ، وهم لا يريدون إلا الإصلاح .

*****

---

(١) «تاريخ الطبري» (٥/ ٤٨٧) .

(٢) «تاريخ الطبري» (٥/ ٤٨٥) .

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٤) .

فتنة موقعة الجمل

روى ابنُ أبي شيبة وأحمد وابن حبان والحاكم بسندٍ صحيحٍ [١] عن قيس قال : لَمَّا أَقْبَلَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها بَلَغَتْ مِيَاهَ بَنِي عَامِرٍ لَيْلاً ، نَبَحَتِ الْكِلاَبُ ، قَالَتْ: أَيُّ مَاءٍ هَذَا ؟ قَالُوا : مَاءُ الْحَوْأَبِ. قَالَتْ : مَا أَظُنُّنِي إِلاَّ أَنِّي رَاجِعَةٌ ؛ فَقَالَ بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعَهَا .

(وفي رواية : قال لها الزبير) ؛ بَلْ تَقْدَمِينَ فَيَرَاكِ الْمُسْلِمُونَ فَيُصْلِحُ الله عز وجل ذَاتَ بَيْنِهِمْ. قَالَتْ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لَهَا ذَاتَ يَوْمٍ : « كَيْفَ بِإِحْدَاكُنَّ تَنْبَحُ عَلَيْهَا كِلاَبُ الْحَوْأَبِ ».

ألم أقل بأن هذه الفتن ـ كما وقعت ـ قد أخبر عنها الصادق الذي لا ينطق عن الهوى؟! ستعجب إذا علمت أن النَّبيَّ ﷺ قد ذكر هذه الحادثة لعائشة ، حين ذكر لها نباح كلاب الحوأب ؛ كما في الحديث الذي رواه البزار وابن أبي شيبة بسندٍ صحيحٍ ، وصححه شيخنا الألباني في «السلسلة الصحيحة» [٢] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النَّبيَّ ﷺ قال يومًا لزوجاته : «أَيَّتُكُنَّ صَاحِبَةُ الْجَمَلِ الأَدْبَبْ ـ وهو الذي كثر وبره في

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٥٢ ، ٩٧) ، وابن حبان في «صحيحه» (٦٧٣٢) ، والحاكم (٣/ ١٢٩) ، وأبو يعلى (٤٨٦٨) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٥٣٦) ط ـ الرشد ، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠٧٥٣) ، وإسحاق بن راهويه في «مسنده» (١٥٦٩) ، وأبو نعيم في «الفتن» (١٨٨) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٣٤): «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح»، وصححه الشيخ شعيب في «المسند» ، وقال : «رجاله ثقات رجال الشيخين» ، والشيخ الألباني في «الصحيحة» (٤٧٤) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٥٣٨) ط الرشد ، والبزار ، ورجاله ثقات ؛ كما قال الحافظ في «الفتح» (١٣/ ٥٥) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٣٤) : «رواه البزار ، ورجاله ثقات» ، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٤٧٤) (١/ ٨٤٦) .

وجهه - تَخْرُجُ حَتَّى تَنْبَحُهَا كِلابُ الحَوْأَبِ ، يُقْتَلُ عَنْ يَمِينِهَا وعَنْ شِمَالِهَا قَتْلَى كَثِيرٌ ، وَتَنْجُو مِنْ بَعْدِ مَا كَادَتْ» - أي : أن تهلك.

وبذلك سُمِّيت موقعة الجمل ؛ لأن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كانت راكبة على جمل قدَّمه لها يزيد بن أمية في مكة ، وكان قد اشتراه من اليمن . وقتل جملها في هذه الواقعة ، وكادت أن تُقتل هي رضي الله عنها .

وروى الحاكم والبيهقي بسندٍ صحيحٍ [(١)] أن الزبير رضي الله عنه لما عزم على الرجوع إلى المدينة عَرض له ابنه عبد الله ؛ فقال له : مالَكَ ؟ فقال الزبير : ذكَّرني عليٌّ بحديثٍ سمعته من رسول الله ﷺ ، وإني راجع ؛ فقال له عبد الله : وهل جِئتَ للقتال ؟ إنما جِئتَ لتصلح بين الناس ، وليصلح الله بك هذا الأمر» ؛ حتى عائشة لما قدِمَت ما قدِمَت إلا وهي تريد الإصلاح ، ومتأولة لقول الله - سبحانه وتعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء :١١٤]

خرجت وهي متأولة لهذه الآية ، وهي تعلم أن رسول الله ﷺ قد خرج قبل ذلك في الإصلاح ؛ فخرجت للإصلاح بين المسلمين وهي أمٌّ لكل المؤمنين - رضي الله عنها وأرضاها.

فلما خرجت إلى البصرة ، وبلغ عثمان بن حنيف خبر قدومها ، وعثمان بن حنيف هو عاملُ عليٍّ رضي الله عنه عَلَى البصرة ، فلما سمع بخبر خروجها أرسل إليها يستفسرها عن خبر خروجها ؛ فقالت : إن الغوغاء من أهل

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٤١٣) ، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٩١) ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٨/ ٤١٠) ، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٤١٤ ، ٤١٥) . وانظر : «البداية والنهاية» (٧/ ٢٤٢) ط المعارف ، وقال : «غريب» .

الأمصار ، ونزاع القبائل ، غزوا حرم رسول الله ﷺ، وأحدثوا فيه الأحداث ، وآوو فيه المحدثين ، واستوجبوا فيه لعنة الله ، ولعنة رسوله ، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر ، فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه ، وانتهبوا المال الحرام ، وأحلوا البلد الحرام ، والشهر الحرام ، ومزقوا الأعراض والجلود ، وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ، ضارِّين مُضِرِّين غير نافعين ولا متَّقين ، ولا يقدرون على امتناع ، ولا يأمنون ، فخرجتُ في المسلمين أُعْلِمهم ما فعل هؤلاء القوم ،وما فيه الناس وراءنا ، وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح ، هذا وقد قرأتُ قول الله تعالى : ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[النساء :١١٤]

فنهض في الإصلاح ممن أمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ الصغير والكبير ، والذكر والأنثى ، فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ، ومنكر ننهاكم عنه ، ونحثكم على تغييره . روى ذلك الطبريُّ في «تاريخ الأمم والملوك»[(١)].

ونقل ابن حبان[(٢)] أن عائشةَ رضي الله عنها كتبت إلى أبي موسى الأشعري ، وأبو موسى حينئذٍ والي الكوفة من قِبَلِ عليٍّ رضي الله عنه، فأرسلت عائشة رسالة إليه ، تقول : «إنه قد كان من قَتل عثمان ما قد عَلِمْت ، وقد خرجتُ مُصْلِحَةً بين الناس ، فمُرْ مَنْ قِبَلك بالقرار في منازلهم ، والرضا بالعافية ، حتى يأتيهم ما يحبون من صلاح أمر المسلمين» .

(١)«تاريخ الطبري» (٥/ ٤٨٩) .

(٢)«الثقات» لابن حبان (٢/ ٢٨٢) .

وأخرج عبد الرزاق في «مصنفه»[(١)] عن الزهري بسندٍ منقطعٍ عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إنما أريد أن يحجز بين الناس مكاني، ولم أحسب أن يكون بين الناس قتال، ولو علمتُ ذلك لم أقف ذلك الموقف أبدًا».

ويؤكِّدُ هذا الإمام ابن العربي[(٢)] ـ لله درُّه ـ في كتابه «العواصم من القواصم»؛ فيقول: «وأما خروج عائشة إلى حرب الجمل فما خرجت عائشة لحرب، ولكن تعلَّق الناس بها، واشتكى الناس إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة، وتهارج الناس، ورجوا بركتها في الإصلاح، وطمعوا في استحياء الناس منها، إذا وقفت بين الخلق، وظنت هي ذلك فخرجت عاملة بقول الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[النساء:١١٤].

وخرجت وهي متأولة أيضًا لقول الله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[الحجرات:٩]».

لما أرسل علي رضي الله عنه القعقاع بن عمرو لعائشة رضي الله عنها ومن كان معها سألها عن سبب قدومها، دخل عليها القعقاع فسلَّم عليها، وقال: أي أُمَّه! ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة؟ قالت: «أي بُنَيَّ، إصلاحٌ بين الناس»[(٣)].

---

(١) «مصنف عبد الرزاق» (٥/ ٤٥٢).

(٢) «العواصم من القواصم» (١٥٦) بتصرف في المعنى.

(٣) «تاريخ الطبري» (٥/ ٥٢٠).

وبعد انتهاء الحرب يوم الجمل جاء عليٌّ رضي الله عنه إلى عائشة رضي الله عنها ؛ فقال لها «غفر الله لك» ، قالت : «ولك ، ما أردت إلا الإصلاح» [(١)].

وبالجملة ؛ فعائشة ، وطلحة ، والزبير ، وبقية أصحاب النَّبي ﷺ كلُّ هؤلاء رضي الله عنهم ما خرجوا للقتال ؛ بل إن الروايات الصحيحة التي ذكرت تؤكد تأكيدًا لا مراء فيه أن هؤلاء جميعًا ما خرجوا إلا للإصلاح .

وجاء في «تاريخ الطبري» [(٢)] بسندٍ صحيحٍ ما يؤكد أن عليًّا نفسه ما خرج إلا لذلك ، فلما سمع عليٌّ رضي الله عنه بخروج طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة ، عزم هو الآخر على أن يخرج إلى البصرة ، فوقف أمام دابته عبدُ الله بن سلام رضي الله عنه وقال له : «لا تخرج من مدينة رسول الله ﷺ ، فو الله لئن خرجت منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبدًا» .

وستعجب إذا علمت أن من هؤلاء الذين وقفوا يصدُّون دابة عليٍّ رضي الله عنه عن الخروج : الحسن بن عليٍّ رضي الله عنه [(٣)].

وجاء في «تاريخ الطبري » [(٤)]: أن عليًّا لما أراد الخروج قام إليه ابنٌ لرفاعة بن رافع رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين ، أي شيء تريد ؟ وإلى أين تذهب بنا ؟ فقال عليٌّ : «أما الذي نريد وننوي فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابونا إليه ، قال : فإن لم يجيبوا إليه ؟ قال : ندعهم بعذرهم ، ونعطيهم الحق ونصبر ، قال : فإن لم يرضوا ؟، قال : ندعهم ما تركونا ،

---

(١) «شذرات الذهب» (١/ ٤٢) .

(٢) «تاريخ الطبري» (٣/ ١٠) ط العلمية .

(٣) «تاريخ الطبري» (٣/ ١٠) ط العلمية .

(٤) المصدر السابق (٣/ ٢٤) .

قال : فإن لم يتركونا ؟ قال : امتنعنا منهم ، قال : فنعم إذًا» .

وقام إليه رجلٌ آخر ، وقال له : ما أنت صانعٌ يا أمير المؤمنين إذا لقيت هؤلاء القوم ؟ . فقال : «قد بان لنا ولهم أن الإصلاح الكفُّ عن هذا الأمر ؛ فإن بايعونا فذلك ، وإن أبَوْا وأبينا إلا القتال فصدعٌ لا يلتئم[١] » .

ولما قدم عَلَى عليٍّ من الكوفة عامرُ بن مطر الشيباني سأله عما وراءه ، فأخبره ، فسأله عليٌّ عن أبي موسى ـ وهو واليه على الكوفة ـ فقال : «إن أردت الصلح ، فأبو موسى صاحب ذلك ، وإن أردت القتال فهو ليس بصاحب ذلك ؛ فقال عليٌّ عند ذلك : «والله ما أريد إلا الإصلاح[٢] » .

وحين قدم عليه وفد الكوفة بذي قار ، قال لهم : «يا أهل الكوفة ، أنتم وليتم شوكة العجم وملوكهم وفضضتم جموعهم ...» إلى أن قال : «وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة ؛ فإن يرجعوا فذاك الذي نريد ، وإن أبوا داويناهم بالرفق حتى يبدؤونا بالظلم ، ولن ندع أمرًا فيه الإصلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد ـ إن شاء الله تعالى »[٣] .

ولم يكن هذا هو رأي عليٍّ ﷺ وحده ، فقد ثبت عن ولده الحسن ﷺ أنه كان يحلف بالله ويقول : « والله ما أردنا إلا الإصلاح» .

ويُقْبِل الأحنف بن قيس[٤] فيقول لعليٍّ : «يا أمير المؤمنين ، إن شئت قاتلت معك ، وإن شئت كففت عنك أربعة آلاف سيف ؛ فأجاب عليٌّ : بل اكفف عنا أربعة آلاف سيف» . فلو كان يريد القتال لأمره أن يقاتل

---

(١) «تاريخ الطبري» (٣/ ٣٤) ط العلمية .

(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٤) ط العلمية .

(٣) المصدر السابق (٣/ ٢٨) .

(٤) المصدر السابق (٣/ ٣٦) .

معه ، ولكن عليًّا ما خرج للقتال ، وما أراد قتالًا .

وإن من أعظم الأدلة العملية على ذلك أن عليًّا ما خرج من المدينة إلا مع ألف رجل[1] ، فهل هذا جيش ؟ ! انضم إليه الناس من كلِّ مكان لينصروه ويؤيدوه يوم أن سمعوا بخروجه من المدينة ، واجتمع إليه بعد ذلك عددٌ كبيرٌ . فلما وصل عليٌّ إلى البصرة ، وهو الذي ما خرج إلا للإصلاح . ويؤكد لنا لآخر لحظةٍ أنه ما خرج إلا لذلك ، ما إن وصل إلى البصرة إلا وأرسل القعقاع بن عمرو ﷺ[2] رسولًا إلى طلحة ، والزبير ، وعائشة ﷺ . فما أن وصل القعقاع بن عمرو إلى البصرة ، فقابل ابتداءً أمَّهُ عائشة ﷺ ؛ فقال لها القعقاع ـ في حوار بديع ـ : «أمَّاه ما أقدمك إلى هذه البلاد ؟ ، فقالت عائشة : أيْ بُنَيَّ ، ما أقدمني إلا الإصلاح بين الناس ؛ فقال لها القعقاع : فهلاً بعثتي إلى طلحة والزبير ؟ فأرسلت عائشة إليهما ؛ فأقبل طلحة والزبير ، فقال لهما القعقاع : إني سألتُ أم المؤمنين عائشة ما الذي أقدمها إلى هذه البلاد ؟ فقالت : إنها

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٦) .

(٢) القعقاع بن عمرو بن معبد التميمي : مختلفٌ في صحبته ؛ قال ابن عساكر ﷺ : يُقال : إن له صُحْبة . كان أحد فرسان العرب وشعرائهم ، شهد فتح دمشق وأكثر فتوح العراق ، وله في ذلك أشعار موفقة مشهورة ، وذكر سيف عن محمد وطلحة أنه كان من أصحاب النبي ﷺ ، وأنه كان على كردوس في فتح اليرموك ؛ وهو القائل :

يدفعون قعقاعًا لكل كريهة ... فيجيب قعقاعُ دعاةَ الهاتف

ولما استمد خالد بن الوليد ﷺ أبا بكر ﷺ لما حاصر الحيرة أمده بالقعقاع بن عمرو ، وقال : لا يُهزم جيشٌ فيه مثله ، وكان الصديق يقول : لصوتُ القعقاع في الجيش خيرٌ من ألف رجل . وله في قتال الفرس بالقادسية وغيرها بلاءٌ عظيم . ذكر ذلك سيف بن عمر في «الفتوح» ، وسيف ابن عمر : متروك . وانظر : «الإصابة في تمييز الصحابة» (٥/ ٦) (ص/ ٢٤٤) .

جاءت للإصلاح بين الناس ؛ فقال طلحة والزبير : ونحن والله ما جئنا إلا لذلك .

فقال القعقاع : فأخبراني ما وَجْه هذا الإصلاح؟ فو الله لئن عرفنا لنصلحن ، ولئن أنكرناه لا نصلح ؛ فقالا : أن يَقْتُلَ عليٌّ قتلة عثمان ، فإن ترك هذا كان تاركًا للقرآن !! فقال القعقاع : يا طلحة ويا زبير ؛ لقد تحمستما وقتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة ، فغضب لهؤلاء الذين قُتلوا ستة آلاف ، فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلتموهم وقعت مفسدة هي أربى من الأولى .

فقالت عائشة : فماذا تقول أنت يا قعقاع ؟ فقال : يا أمَّاه ، إن هذا الأمر الذي وقع دواؤه التسكين .. إلى أن قال : فآثِرُوا العافية تُرْزَقُوها ، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم ، ولا تُعرِّضونا للبلاء ؛ فإن هذا الأمر الذي قد حدث أمر ليس يقدَّر ، وليس كالأمور ، ولا كقتل الرجل الرجل ، ولا النفر الرجل ، ولا القبيلة الرجل ؛ فقالت عائشة وطلحة والزبير ـ رضوان الله عليهم جميعًا: نعم ، إذًا قد أصبت وأحسنت المقالة ، فارجع إلى عليٍّ ، فإن قدِمَ عليٌّ عَلَى مثل رأيك صلح الأمر .

فرجع إلى عليٍّ فأخبره ، فأعجبه ذلك ، وأشرف القوم على الصلح ، كره ذلك من كره ، ورضيه من رضيه[1] .

وأعتقد أن هذه الرواية تبين لنا أن تراجعًا بيِّنًا في موقف طلحة والزبير ﷺ قد ظهر ، فأشرف القوم على الصلح ، وهنا تغلي مراجلُ الغلِّ

---

(١) «تاريخ الطبري» (٣/ ٢٩) .

والحقد والحسد في قلوب السبئية مرةً أخرى ، الذين آثاروا الفتنة الأولى ، ووصلوا في نهايتها إلى قتل عثمان ؛ فأنا أدين لله أنه لا يوجد صحابيٌّ واحدٌ من أصحاب النَّبيِّ ﷺ قد أعان ـ ولو بكلمة ـ على قتل عثمان ﷺ ، ولا على هذه الفتنة الحالكة ، وإنما الذي أشعل نارها هم السبئية من الأوباش والمنافقين بشهادة النَّبيِّ الأمين ـ كما ذكرتُ قبل ـ فهذه الفتنة الخبيثة التي قتلت عثمان هي التي أشعلت نار الفتنة ، ونار حرب الجمل بين عليٍّ وطلحة والزبير ! فكيف تم ذلك ؟

بات قتلة عثمان في همٍّ شديد في الوقت الذي بات فيه طلحة والزبير وفريقهما ، وفريق علي في غاية السعادة والهدوء والانشراح ؛ ففي الصباح سيلتقي عليٌّ مع طلحة والزبير ليتم الإصلاح [1] ، وقالوا : والله إن عليًّا هو أعلم الناس بكتاب الله ؛ بل هو أعلم بكتاب الله ممن يطالبون بقتل قتلة عثمان ، وغدًا سيجمع عليكم الناس ولا يريد الناس إلا أنتم ؛ فإن كان الأمر هكذا ألحقنا عليًّا بعثمان ؛ فقال الخبيث ابن سبأ : «لو قَتلناه جميعًا» ! ؛ لأنهم تظاهروا من أول لحظة أنهم ينصرون عليًّا ، فينكشف أمرهم !!

فقال ابن سبأ : ولكن اندسوا في الصفوف بين الناس ! وقسَّم الخبيثُ جيشه إلى فرقتين ، وأجمعوا أمرهم على أن تتسلَّل كلُّ فرقةٍ في سواد الليل إلى معسكر كلِّ فريق من الفريقين ؛ فرقة تنطلق إلى معسكر طلحة والزبير ، وفرقة تنطلق إلى معسكر عليٍّ ، وينشبون القتل بالسيوف

(١) «البداية والنهاية» (٧/ ٢٤) ، و «تاريخ الطبري» (٣/ ٣٩) .

والرماح في كل معسكر من المعسكرين في سواد الليل ، وانطلقوا في وقتٍ واحدٍ ، وثارت جَلَبَةٌ وضوضاء في سواد الليل ، وقامت أمُّ المؤمنين تركَبُ هودجها على ناقتها ، لا يعلم كلُّ فريقٍ ما الخبر ، وظن كلُّ فريق من الفريقين أنَّ الفريق الآخر قد خدعه ، وأن ما كان بالليل من أمْر القعقاع ما كان إلا خُدْعة كبيرة من عليٍّ ؛ فقال فريقُ طلحة : فعلها عليٌّ وخدعنا ، ولما بدأ الطعن والضرب في فريق عليٍّ ، قال عليٌّ وفريقه : فعلها طلحة والزبير !! ونشب القتال الضاري ، وما توقف القتال إلا بعد أن أشرقت الشمسُ وتبين للناس الأمر ، ووقفت عائشة ﵂ تبكي ، ووقف طلحة والزبير يُسَكِّتان الناس ، ويطلبان منهما الصبر والتأني ، ولكن في وقت الفتن من الذي يُسكت ويطفئ النار ؟! وقام عليٌّ ﵁ يقول كلامًا شديدًا .. وقعت هذه الفتنة بهذه الصورة التي لا يمكن البتة لمنصفٍ عاقلٍ أن يقول بأن حرب الجمل قد دارت رحاها بتخطيطٍ وتدبيرٍ من فريق من فريقي عليٍّ أو طلحة والزبير ﵄ .

هكذا وقعت الفتنة ، وقُتِلَ حول هَوْدج أم المؤمنين قَتْلى كثير ، كما أخبر البشير النذير ﷺ .

ماذا قالت عائشة ؟ وماذا قال عليٌّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم جميعًا ـ بعد هذه المأساة ؟ قال ﵁ يوم الجمل : «اللهم ليس هذا أردت ، اللهم ليس هذا أردت» [(١)].

وحينما نظر وقد أخذت السيوف مأخذها من الرجال ، قال : «لوددت

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٧٩١) ط العلمية .

أني متُّ قبل هذا بعشرين سنة»[(١)]. وقال مثله لولده الحسن[(٢)].

وفي الجانب الآخر: ينادي طلحة ـ وهو على دابته وقد غشيه الناس: «يا أيها الناس، أنصتوا، فجعلوا يرجمونه ولا ينصتون، فما زاد طلحة على قوله: أفٍّ أفٍّ، فراشُ نار، وذبابُ طمع»[(٣)].

ومرَّ عليٌّ ﷺ على طلحة بعد ما قُتل؛ فلقد قُتِلَ طلحة!!! فمرَّ عليه عليٌّ ﷺ فرآه مقتولًا، فجعل عليٌّ يمسح التراب عن وجهه، ويبكي، ويقول: «عزيزٌ عليَّ أبا محمد أن أراك مجندلاً في التراب تحت نجوم السماء». ثم قال عليٌّ: «إلى الله أشكو عُجَرِي وبُجَرِي»، وبكى ﷺ[(٤)] وبكى أصحابه على طلحة، على صاحب اليد التي شُلَّت، وهو يدافع بها عن رسول الله ﷺ يوم أحد، ولما جاء قاتل الزبير ألا هو: ابن جرموز يحملُ سيفَ الزبير، وأراد أن يدخل به على عليٍّ، وهو يظن أنه سيجد عنده مكانة وحظوة؛ فهو قاتل الزبير، فلما أقبل على عليٍّ ﷺ فأمسك عليٌّ السيف بيده وبكى، وقال: طالما جلَّى الزبير بهذا السيف الكَرْب عن وَجْهِ رسول الله ﷺ، ثم التفت عليٌّ إلى هذا الرجل القاتل، وقال: «بَشِّر قاتل ابن صفية بالنار»[(٥)]. بشَّره عليٌّ ﷺ بالنار، ولم يأذن له بالدخول عليه.

---

(١) «الفتن» لنعيم بن حماد (١/ ٨٠).

(٢) «الفتن» لنعيم بن حماد (١/ ٨٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٨٢١)، والطبراني في «الكبير» (١/ ١١٤)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ١٥): «إسناده جيد».

(٣) أخرجه خليفة بن خياط في «تاريخه» (٤١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٥/ ١٠٩)، وانظر: «العواصم من القواصم» (١٥٨).

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١/ ١١٣)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ١٥٠): «إسناد حسن»، وانظر: «البداية والنهاية» (٧/ ٢٥٨).

(٥) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (١٢٧٢، ١٢٧٣)، و«المسند» (١/ ٨٩) وابن سعد =

والأعجب من ذلك أن عليًّا هو الذي قام بنفسه ، وصلَّى على قتلى الطرفين - رَضِيَ اللهُ عَنْهُم جميعًا - صلَّى على أهل البصرة والكوفة ، وصلَّى على من كان من أهل قريش من مدنيين ومكيين ، ودفن أطرافهم جميعًا في قبرٍ كبيرٍ واحدٍ عظيمٍ .

وعن سليمان بن صُرَد قال : جئتُ إلى الحسن ؛ فقلتُ : أعذرني عند أمير المؤمنين حيث لم أحضر الواقعة - يعني الجمل - فقال الحسن : وما يصنع عليٌّ بهذا ، لقد رأيته - والله - يلوذُ بي يوم الجمل ، وهو يقول : «يا حسن ، يا حسن ، ليتني متُّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة »[(١)] .

وكانت عائشة رضي الله عنها إذا قرأت بعد ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾[الأحزاب:٣٣] تبكي ، حتى يبتلَّ خمارها من البكاء ، وتقول : «كلَّما تذكَّرتُ الجمل ، وددتُ أني كنت جلسْتُ كما جلس أصحابي» .

وفي رواية : «وددت أني غُصْنًا رطبًا ، ولمْ أسر سيري هذا»[(٢)] .

والعجيب أن عليًّا رضي الله عنه اقترب من عائشة بعد انتهاء الوقعة ، وهي في هودجها ليطمئن عليها .

وقد رُوِيَ عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال له يومًا : «إِنَّهُ

= (٣/ ١٠٥) ، والحاكم (٣/ ٣٦٧) وقال : «هذا حديثٌ صحيحٌ وإن لم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي ، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٣٨٨) .

(١) «الفتن» لنعيم بن حماد (١/ ٨٠) ، وابن أبي شيبة (٣٧٨٢١) ، والطبراني في «الكبير» (١/ ١١٤) ، والحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (زوائد الهيثمي ٧٥٧) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ١٥) : «إسناد جيد» - وقد مرَّ معنا .

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٨١) ، ونعيم بن حماد في «الفتن» (١/ ٨٠) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٧١٧ ، ٧١٨) ، انظر : «سير أعلام النبلاء» (٢/ ١٧٧) .

سَيَكُونُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَائِشَةَ أَمْرٌ » ، فَقَالَ عَلِيٌّ : أَنَا يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : «نَعَمْ» ؛ قَالَ : إِنِّي واللهِ لأشْقَاهُمْ ؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «لَا، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ ذَلِكَ فَارْدُدْهَا إِلَى مَأْمَنِهَا» [١].

فانطلق عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلى عائشة رضي الله عنها وقال لها : كيف حالك يا أمَّاه؟ فقالت : بخير والحمد لله ؛ فقال : غفر الله لكِ ، فقالت عائشة : ولكَ ، فأنزلها من هَوْدَجِهَا ، وزوَّدها بما تحتاج إليه في سفرها ، وأرسل معها محمد ابن أبي بكر أخوها ليصحبها من البصرة إلى مكة ، ومن مكة إلى المدينة [٢] .

ولم تفارق من هذا اليوم بيتها ، حتى ماتت رضي الله عنها ، ورَضِيَ اللهُ عن جميع أصحاب النبيِّ ﷺ .

و يتضح لنا ـ أيها الأحبة الكرام ـ الأصابع التي دبَّرت هذه الفتنة الحالكة المظلمة .

قال الإمام الطحاويُّ [٣] رحمه الله : «فجرت فتنة الجمل على غير اختيار من عليٍّ ولا من طلحة ، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين» .

وقال الباقلانيُّ [٤] : «... وتمَّ الصُّلْحُ والتفرق على الرِّضا ، فخاف قتلةُ عثمان من التمكُّن منهم ، والإحاطة بهم ، فاجتمعوا وتشاوروا

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٩٣) ، والطبراني في «الكبير» (١/ ٩٩٥) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٣٤) : «رجاله ثقات» ! والبزار كما في «كشف الأستار» (٣٢٧٢) وحسن سنده الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٦٠) ، وقال الشيخ شعيب : «إسناده ضعيف . الفضيل بن سليمان النميري عنده مناكير» اهـ ، وقد روى له الجماعة .

(٢) «تاريخ الطبري» (٣/ ٦٠) بتصرف .

(٣) «شرح العقيدة الطحاوية» (٤٨٢) ط المكتب الإسلامي .

(٤) «التمهيد» (ص ٢٣٣) ، و «التذكرة» للقرطبي (٢/ ٤١٣) .

واختلفوا ، ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين ، ويبدؤوا بالحرب سحرة في المعسكرين ويختلطوا ، ويصيح الفريق الذي في عسكر عليٍّ : غدر بطلحة والزبير ، ويصيح الفريق الذي في عسكر طلحة والزبير : غدر بعليٍّ ، فتمَّ لهم ذلك على ما دبروه ونشبت الحرب ؛ فكان كلُّ فريق منهم دافعًا لمكروهٍ عن نفسه ، و مانعًا من الإشاطة بدمه ، وهذا صواب من الفريقين ، وطاعة لله تعالى إذ وقع ، والامتناع منهم على هذا السبيل ؛ فهذا هو الصحيح المشهور ، وإليه نميل ، وبه نقول» .

ونقل القاضي عبد الجبار [1] أقوال العلماء ، باتفاق رأي عليٍّ وطلحة والزبير وعائشة ـ رضوان الله عليهم ـ على الصلح وترك الحرب ، واستقبال النظر في الأمر ، وأن من كان في المعسكر من أعداء عثمان كرهوا ذلك ، وخافوا أن تتفرغ الجماعة لهم ، فدبروا في إلقاء ما هو معروف ، وتم ذلك» .

وقال ابن العربي [2] : وقدم عليٌّ على البصرة ، وتدافعوا ليتراؤوا ، فلم يتركهم أصحاب الأهواء ، وبادروا بإراقة الدماء ، واشتجر بينهم الحرب ، وكثرت الغوغاء على البوغاء [*]، وكلُّ ذلك حتى لا يقع برهان ، ولا يقف الحال على بيان ، ويخفى قتلة عثمان ، وإن واحدًا في الجيش يفسد تدبيره ، فكيف بألف» ؟!

وقال ابن حزم [3] : «.. وبرهان ذلك : أنهم اجتمعوا ، ولم يقتتلوا ،

---

(١) «تثبيت دلائل النبوة» للهمداني (ص ٢٩٩) .

(٢) «العواصم من القواصم» (١٥٩) .

(*) البوغاء : هم حمقى الناس.

(٣) «الفصل في الملل والنحل» (٤/ ١٥٧ ، ١٥٨) .

ولا تحاربوا ؛ فلما كان الليل عرف قتلة عثمان أن الإراغة والتدبير عليهم ، فبيتوا عسكر طلحة والزبير وبذلوا السيف فيهم ، فدفع القوم عن أنفسهم حتى خالطوا عسكر عليٍّ ، فدفع أهله عن أنفسهم ، كل طائفة تظن ـ ولا شك ـ أن الأخرى بدأتها القتال ، واختلط الأمر اختلاطًا ، لم يقْدِر أحدٌ على أكثر من الدفاع عن نفسه ، والفسقةُ من قتلة عثمان لا يفتُرون من شنِّ الحرب وإضرامها ، فكِلْتَا الطائفتين مصيبة في غرضها ومقصدها ، مدافعة عن نفسها ، ورجع الزبير ، وترك الحرب بحالها ، وأتى طلحةَ سهمٌ غارب ،وهو قائمٌ لا يدري حقيقة ذلك الاختلاط ، فصادف جرحًا في ساقه كان أصابه يوم أحدٍ بين يدي رسول الله ﷺ ، فانصرف ، ومات من وقته رضي الله عنه وقُتِلَ الزبير بوادى السباع ، بعد انسحابه من المعركة على أقل من يوم من البصرة ، فهكذا كان الأمر» .

وقال الذهبيُّ[(١)] : «كانت وقعة الجمل أثارها سفهاء الفريقين» .

وقال[(٢)] : «إن الفريقين اصطلحا ، وليس لعليٍّ ولا لطلحةَ قصدُ القتال ؛ بل ليتكلَّموا في اجتماع الكلمة ؛ فترامى أوباش الطائفتين بالنبل ، وشبت الحرب ، وثارت النفوس» .

وكان قد اعتزل هذه الفتنة عددٌ من الصحابة اعتمادًا منهم على أحاديث رسول الله ﷺ في الاعتزال وقت الفتن على رأسهم : سعد بن أبي وقاص ، ومحمد بن مسلمة ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن عمر ، وسلمة بن الأكوع ، وعمران بن حصين ، وأسامة بن زيد ،

---

(١) «العبر» (١/ ٣٧) .　　(٢) «تاريخ الإسلام» (١/ ١٥) .

وسعيد بن العاص الأموي ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ؛ فإنه خرج طاعة لأبيه وما قاتل ، وصهيب الرومي ، وأبو أيوب الأنصاري ، وأبو بكرة ، وحذيفة ، وأبو هريرة ـ رضوان الله عليهم جميعًا.

وتدبَّر معي هذا الكلام النفيس ؛ لأواصل الحديث عما وقع من فتن بعد موقعة الجمل .

يقول الإمام القرطبيُّ [(١)] ﷺ: «لا يجوز أن يُنسب إلى أحدٍ من الصحابة خطأ مقطوع به ، إذ كانوا كلُّهم اجتهدوا فيما فعلوه ، و أرادوا الله ﷻ؛ وهم كلُّهم لنا أئمة» .. إلى أن قال : «هذا مع ما قدْ ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبيِّ ﷺأن طلحة شهيدٌ يمشي على وجه الأرض ؛ فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصيانًا لم يكن بالقتل فيه شهيدًا ، ومما يدلُّ على ذلك ؛ ما قد صحَّ وانتشر من إخبار عليٍّ بأن قاتل الزبير في النار ، وقوله : سمعت رسولَ الله ﷺيقول : «بَشِّر قَاتِلَ ابْنِ صَفِيَّة بالنَّارِ» .

وإذا كان كذلك ، فقد ثَبَتَ أن طلحة والزبير غيرُ عاصيين ، ولا آثمين بالقتال ؛ أي : أنهما معذوران باجتهادهما ؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يقل النبيُّ ﷺفي طلحة شهيد ، ولم يخبر النبيُّ ﷺبأن قاتل الزبير في النار ، وكذلك من قعد غير مخطئ في التأويل ، بل صواب . أراهم الله الاجتهاد ، وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقهم ، وإبطال فضائلهم وجهادهم ، وعظيم غنائهم في

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢١١) .

الدين ـ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ » ؛ بل إن أمير المؤمنين عليًّا ، يقر بحقٍّ طلحة والزبير وعائشة في الخروج للمطالبة بدم عثمان ، وبأن لهم حجة [(١)] ودليلًا على ما قاموا به ما داموا يريدون وجه الله ﷻ ؛ فحين قام أبو سلامة الدالاني فقال لعليٍّ : يا أمير المؤمنين : هل لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا أرادوا الله بذلك ؟ قال عليٌّ : نعم .

وعلى ذلك إذا كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يجوز عليهم الخطأ كما يجوز على كل البشر ؛ فحينئذٍ نستطيع أن نقبل ما يحدث في تصرفاتهم من أخطاء غير مقصودة أو معتمدة ، وإنما وقعت نتيجة اجتهادٍ لم يوَفَّق فيه فريقٌ منهم إلى الصواب ، لكنهم مثابون على أيِّ حال على إخلاصهم في اجتهادهم إن شاء الله تعالى .

ولذا يقول الإمام ابن حزم [(٢)] ـ رحمه الله تعالى: «فقد صحَّ صحة ضرورية لا إشكال فيها ، أن طلحة والزبير وعائشة ـ رضوان الله عليهم ـ لم يمضوا إلى البصرة لحرب عليٍّ ، ولا خلافًا عليه ، ولا نقضًا لبيعته ، ولو أرادوا ذلك لأحدثوا بيعةً غير بيعتِه . هذا ما لا يَشُكُّ فيه أحدٌ ،ولا ينكره أحدٌ ،فصحَّ أنهم إنما نهضوا إلى البصرة لسد الفتق الحادث في الإسلام من قتل أمير المؤمنين عثمان ﷺ ظلمًا وعدوانًا.

إذًا السبب الذي أوقع الخلاف بين أصحاب النبيِّ ﷺ هو المطالبةُ بدم عثمان ؛ فريق يطالب بإقامة الحدِّ على قتلة عثمان فورًا ، وفريق يطالب بالتأجيل والإرجاء حتى تلتقي كلمة المسلمين ، وحتى تلتقي هذه

---

(١) «تاريخ الطبري» (٣/ ٣٣) ط العلمية .

(٢) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم (٣/ ٨٣) ط العلمية .

الجموع المشتتة ، وتقوى شوكتهم ، ويستطيع عليٌّ ﷺ بقوة ومنعةٍ أن يقيم الحدَّ على هؤلاء البغاه الذين زادات أعدادهم عن ستة آلاف !!!

لكن على أيِّ حال ، قَدَّرَ الله وما شاء فعل ، ووقعت وقعة الجمل في سنة ست وثلاثين من الهجرة ، وقُتل فيها كثير من المسلمين .

نسأل الله تعالى أن يتجاوز عنا وعنهم بمنّة وكَرَمِهِ .

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾[الحشر :١٠] .

*****

موقعة صِفين

وصِفِّين مكانٌ على شاطئ الفرات في آخر حدود العراق ، وعلى أول حدود الشام ، وفي هذا الموطن وقعت الفتنة الثانية بين فريق عليٍّ وفريق معاوية ﷺ.

لقد كان معاوية ﷺ ومَنْ معه من أهل الشام على القول بوجوب أن يقتص عليٌّ من قتلةِ عثمان ، ورفض معاوية ﷺ أن يُعطيَ البيعة لعليٍّ ﷺ حتى يقيم الحدَّ على قتلة عثمان ، أو يسلم إليه قتلة عثمان ، فتحدَّدَ موقفُهُ منذ اللحظة الأولى التي حمل فيها النعمان بن بشير ﷺ قميصَ عثمان مع أصابع نائلة زوج عثمان ﷺ[1] .

فخرج يبكي وأخذ القميص ، وعلَّقه على المنبر في مسجد دمشق ،

(١) «تاريخ الطبري» (٣/ ٧٠) ، و «البداية والنهاية» (٧/ ٥٣٩) .

وعلَّق فيه أصابع نائلة ؛ فقام الناس ، وبايعوا معاوية على المطالبة بدم عثمان ، وعلى أن لا يعطي البيعة لعليٍّ إلاَّ إن أقام الحدَّ عليهم ، أو سلَّم قتلة عثمان لمعاوية رضي الله عنه ليقيم عليهم الحدَّ باعتبار أنه ابن عمِّ عثمان ، وهو مِنْ أولى الناس بالمطالبة بدمه ، وهو عامله على الشام .

ذكر الإمام ابن كثير[1] في «تاريخه» أن معاوية رضي الله عنه أرسل رسولًا إلى عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه فلما دخل الرسول على عليٍّ قال : «لقد تركتُ ورائي ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم ، وقد ألبسوه منبر دمشق » ، قال عليٌّ : منِّي يطلبون دمَ عثمان ، ثم قال : «اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان ، نَجَا ـ والله ـ قتلة عثمان إلا أن يشاء الله» .

لأن كلمة المسلمين افترقت ، وفي فرقة المسلمين سيضيع دم عثمان ويضيع الحق ، وهذا ما كان يخشاه عليٌّ رضي الله عنه وتمنَّى أن لو بايع معاويةُ لتلتقي القوة والجموع ، جموع الشام مع جموع أهل العراق ، ليستطيعوا من خلال هذه القوة أن يقيموا الحدَّ على قتلة عثمان رضي الله عنه .

ولكن افترقت كلمة الأمة ؛ لذا قال عليٌّ : «نَجَا ـ والله ـ قَتَلَةُ عثمان إلا أن يشاء الله» .

ولذلك أرسل عليٌّ رضي الله عنه وفدًا ، وهذا ديدنه ، وهذا خُلُقه ؛ كما ذكرنا في وفادته العظيمة للقعقاع بن عمر التميمي إلى طلحة والزبير ، فقد أرسل عليٌّ وفدًا إلى معاوية فيهم بشير بن عمرو الأنصاري ، فقال له بشير : أدعوك إلى تقوى ربك ، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق ،

---

(١) «البداية والنهاية» (٧/ ٢٣٠) ، و«تاريخ الطبري» (٣/ ٤) ، وكذا «تاريخ ابن خلدون» (٢/ ٦٠٢) ، و «الثقات» لابن حبان (٢/ ٢٧٦، ٢٧٧) .

فإنـه أسـلَمُ في دينـك ، وخـير لـك في عاقبـة أمـرك ؛ فقـال معاويـة ﷺ : «ويبطلُ دم عثمان ، لا ، والرحمان لا أفعل ذلك أبدًا »[1] .

فكتب معاوية كتابًا إلى عليٍّ ﷺ يقول لـه : «إن كنـت صادقًا فأمكنَّا من قتلة عثمان نقتلهم به ، ونحـن أسرع إليك إجابـة وأطـوعهم طاعـة ، وإلا فليس لك ولأصحابك عندنا إلا السيف ؛ فو الله الذي لا إلـه غيره لنطلبن قتلة عثمان في البر والبحر ، حتى نقتلهم أو تلحق أرواحنا بـالله ، والسلام»[2] .

وذكر يحيي بن سليمان الجعفي[3] في «كتاب صفين» بسندٍ جيدٍ عن أبي مسلم الخولاني أنه قال لمعاوية : «أنت تنازع عليًّا في الخلافة أو أنت مثله ؛ فقال معاوية : لا ، وإني أعلم أنه أفضل مني ، وأحقُّ بالأمر مني ، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قُتِلَ مظلومًا ، وأنا ابن عمه ووليه أطلب بدمه ؛ فأتوا عليًّا ، فقولوا له يدفع لنا قتلة عثمان فَأَتَوْهُ فكلَّموه ، فقال عليٌّ: يدخلُ في البيعة ويحاكمُهُم إليَّ ، فامتنع معاوية ـ رضي الله عنهم جميعًا » .

وروى ابن مزاحم في كتابه «وقعة صِفِّين» أن أبا مسلم الخولاني قال : «تُناوئه وليست لك سابقة ؛ فقال معاوية : لست أدَّعي أني مثل عليٍّ في الفضل ، ولكن هل تعلمون أن عثمان قُتل مظلومًا ، قالوا :نعم ، قال : فليدفع لنا قَتَلَةُ عثمان حتى نسلم له في هذا الأمر» .

---

(١) «تاريخ الطبري» (٣/ ٧٧) ط العلمية .

(٢) «تاريخ الطبري» (١٣/ ٨٦) ، و«البداية والنهاية» (٨/ ١٢٩) .

(٣) «تاريخ الطبري» (٢/ ٦٦٧) ، و «الثقات» لابن حبان (٢/ ٢٨٧) .

وذكر القاضي ابن العربي [(١)] رحمه الله في كتابه الماتع «العواصم من القواصم» : «أن سبب القتال بين أهل الشام وأهل العراق يرجع إلى تباين الموقف بينهما ؛ فهؤلاء يَدْعُونَ إلى عليٍّ بالبيعة ، وتأليف الكلمة على الإمام عليٍّ ، وهؤلاء يَدْعُونَ إلى التمكين من قتلة عثمان ، ويقولان : لا نبايع من يأوي القَتَلة» .

ويقول إمام الحرمين الجويني [(٢)] رحمه الله في كتابه «لمع الأدلة في عقائد أهل السنة والجماعة» : «إن معاوية وإن قاتل عليًّا ؛ فإنه لا ينكر إمامته ، ولا يدَّعيها لنفسه ، وإنما كان يطلب قَتَلَةَ عثمان ظنًّا منه أنه مصيب ، وكان مخطئًا» .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» [(٣)]: «إن معاوية لم يدَّع الخلافة ، ولم يُبَايَع له بها حين قاتل عليًّا ، ولم يقاتل معاوية على أنه خليفة ، ولا على أنه يستحق الخلافة ويقرون له بذلك ، وقد كان يقرُّ بذلك لمن سأله عنه ، ولا كان معاوية وأصحابه يريدون أن يبتدؤوا عليًّا وأصحابه بالقتال ولا فعلوا» .

وقال ابن حزم [(٤)] : «ولم ينكر معاويةُ قط فضل عليٍّ واستحقاقه الخلافة ، ولكن اجتهاده أداه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان رضي الله عنه على البيعة ، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان» .

---

(١) «العواصم من القواصم» (١٦٦) بتصرف .

(٢) «لمع الأدلة في عقائد أهل السنة والجماعة» (١١٥) .

(٣) «الفتاوى» (٣٥/ ٧٢) ، و«منهاج السنة» (٤/ ٣٨٣) .

(٤) «الفصل في الملل والنحل» (٤/ ١٦٠) .

ويورد الحافظ ابن كثير [(١)] روايتين في هذا الموضوع :

الرواية الأولى :عن أبي الدرداء وأبي أمامة :«أنهما دخلا على معاوية ؛ فقالا له : يا معاوية ، علام تقاتل هذا الرجل؟ فو الله إنه أقدم منك ومن أبيك إسلامًا ، وأقرب منك إلى رسول الله ﷺ، وأحق بهذا الأمر منك ؛ فقال معاوية : أقاتله على دم عثمان ، وأنه آوى قتلته ، فاذهبا إليه ، فقولا له : فليقدنا من قتلة عثمان ، ثم أنا أولُ من بايعه من أهل الشام» .

أما الرواية الثانية [(٢)] :«فتذكر أن عليًّا ﷺ بعث جرير بن عبد الله البجلي ﷺ إلى معاوية يدعوه إلى بيعته ، وأعطاه كتابًا بذلك ، فاستشار معاوية عمرو بن العاص ، ورؤوس أهل الشام ، فكان منهم جميعًا أن أَبَوْا أن يُبايعوا عليًّا ، حتى يقتل قَتَلَةَ عثمان أو يسلمهم إليهم ــ رضوان الله عليهم جميعًا » .

يقول الحافظ ابن حجر في «الإصابة» [(٣)]: «ثم قام معاوية في أهل الشام ، وكان أميرها لعثمان ولعمر من قبله ، فدعى إلى الطلب بدم عثمان» .

ويقول الهيتمي [(٤)]: «ومن اعتقاد أهل السنة والجماعة أن ما جرى بين معاوية وعليٍّ ﷺ من الحروب لم يكن لمنازعة معاوية لعليٍّ في الخلافة للإجماع على أحقيتها لعليٍّ ، فلم تتوهج الفتنة بسببها ، إنما بسبب أن

---

(١)«البداية والنهاية» (٧/ ٢٤٥ ، ٢٤٦) وما بعدها ط الحديث .

(٢)«البداية والنهاية» (٧/ ٢٤٠) ط الحديث .

(٣)«الإصابة في تمييز الصحابة» (٤/ ٤٦٥) ط العلمية .

(٤)«الصواعق المحرقة» (٢/ ٦٢٢) .

معاوية ومن معه طلبوا من عليٍّ تسليم قتلة عثمان إليهم ، لكون معاوية ابن عمه فامتنع عليٌّ رضي الله عنه» .

ويمكن القول بعد هذه النقول أن معاوية رضي الله عنه كان مجتهدًا متأولًا ، يغلب على ظنه أن الحق معه ؛ ولذلك قام معاوية بنفسه خطيبًا في أهل الشام بعد أن جمعهم ، وذكَّرهم أنه ولي عثمان ، وأنه ابن عمه ، وأن عثمان قُتل مظلومًا ، وقرأ عليهم قول الله تعالى : ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾[الإسراء:٣٣] .

يتأول الآيات ؛ كما تأولت عائشة رضي الله عنها قول الله تعالى : ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء:١١٤] .

ثم قال : أنا أحبُّ أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان ؛ فقال أهل الشام جميعًا بالطلب بدم عثمان ، وبايعوه على ذلك ، وأعطوه العهود والمواثيق على أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم حتى يدركوا ثأرهم أو يفني الله أرواحهم جميعًا [1].

وهذا الخطأ في التأويل يبرهن عليه ما قاله عمار بن ياسر رضي الله عنه في موقعه صفين ؛ فعن زياد بن الحارث [2] قال : كنت إلى جنب عمار بن ياسر بصفين ، وركبتي تمسُّ ركبته ؛ فقال رجل : كفر أهل الشام ؛ فقال عمار ابن ياسر ــ رضوان الله عليه: لا تقولوا ذلك ، نبيُّنا ونبيُّهم واحد ،

(١) «البداية والنهاية» (٨/ ١٢٨) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٧٢٢) وابن عساكر (١/ ٣٤٨) .

وقبْلتنا وقِبْلتهم واحدة ، ولكنهم قوم مفتونون جاروا على الحقِّ ، فحقٌّ علينا أن نقاتلهم ، حتى يرجعوا إليه . بل إن عليَّ بن أبي طالب ﷺ كان إذا سئل عن قتلى يوم صفين ، يقول : «قتلانا وقتلاهم في الجنة»[١] .

وقتل في هذه المعركة عمار بن ياسر ﷺ .. وهذا من دلائل النبوة .

روى البخاريُّ[٢] عن أبي سعيد الخدري ﷺ : لما ذكر بناء المسجد قال : كُنَّا نَحْمِلُ لَبِنَةً لَبِنَةً ، وَعَمَّار لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ ، فَرَآهُ النَّبِيُّ ﷺ ، فَيَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْهُ ، وَيَقُولُ : «وَيْحَ عَمَّارٍ ، تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ» .

وقد قال ﷺ : «تَقْتُلُ عَمَّارًا الفِئَةُ البَاغِيَةُ»[٣] .

وقد عدَّ العلماء هذا من الأحاديث المتواترة[٤] .

وقد رواه من الصحابة أم سلمة ، وعمرو بن العاص ، وخزيمة بن ثابت ، وعبد الله بن عمرو ، وأبو هريرة ، وحذيفة ، وأبو أيوب ، وأبو رافع ، وقتادة بن النعمان .

قال ابن حجر[٥] : «وفي هذا الحديث علمٌ من أعلام النبوة ، وفضيلة

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٧٢٩) .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الصلاة ، باب التعاون في بناء المسجد (٤٧٤) ، وانظر أطرافه في كتاب الفتن (٢٨١٢) ، ومسلم ، كتاب الفتن (٢٩١٥) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٩١٦) عن أم سلمة .

(٤) قال ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٣/ ١١٤٠) : «تواترت الآثار عن النبيِّ ﷺ أنه قال : «تقتل عمار الفئة الباغية» وهذا من الإخبار بالغيب ، وإعلام نبوته ﷺ ، وهو من أصح الأحاديث» ، وقال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١/ ٤٢١) بعد أن ذكر الحديث: وهو في الباب عن عدة من الصحابة فهو متواتر ، و«الصحيحة» (٧١٠).

(٥) «فتح الباري» (١/ ٦٤٦) .

ظاهرة لعليٍّ وعمار ، وردٌّ على النواصب الزاعمين أن عليًّا لم يكن مصيبًا في حروبه» .

وقال : «دلَّ الحديث : «يَقْتُلُ عَمَّارًا الفِئَةُ البَاغِيَةُ» على أن عليًّا كان المصيب في تلك الحروب ؛ لأن أصحاب معاوية قتلوه»[١].

وقال النووي [٢] : «وكانت الصحابة يوم صفِّين يتبعونه حيث توجه (أي عمارًا) لعلمهم بأنه مع الفئة العادلة ؛ لهذا الحديث» .

وقال ابن كثير[٣] : «كان عليٌّ وأصحابه أدنى الطائفتين إلى الحقِّ من أصحاب معاوية ، وأصحاب معاوية كانوا باغين عليهم» .

وقال [٤] : «وهذا مقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه مع أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب ، قتله أهل الشام ، وبان وظهر بذلك سرُّ ما أخبر به الرسول ﷺ من أنه تقتله الفئة الباغية ، وبان بذلك أنَّ عليًّا محقٌّ ، وأن معاويةَ باغ ، وما في ذلك من دلائل النبوَّة» .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية [٥] : «وهذا يدل على صحة إمامة عليٍّ ، ووجوب طاعته ، وأن الداعي إلى طاعته داع إلى الجنة ، والداعي إلى مقاتلته داع إلى النار ، وإن كان متأوِّلا ـ أو باغ ـ بلا تأويل ـ وهو أصح القولين لأصحابنا ، وهو الحكم بتخطئة من قاتل عليًّا ، وهو مذهب الأئمة الفقهاء الذين فرعوا على ذلك قتال البغاة المتأولين» .

---

(١) «فتح الباري» (٣١/ ٩٢) .

(٢) «تهذيب الأسماء واللغات» (٢/ ٣٨) .

(٣) «البداية والنهاية» (٦/ ٢٢٠) .

(٤) «البداية والنهاية» (٧/ ٢٧٧) .

(٥) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٣٧) .

وقال رحمه الله [١] : «ومع أن عليًّا أولى بالحق ممن فارقه ، ومع أن عمارًا قتلته الفئة الباغية ـ كما جاءت النصوص ـ فعلينا أن نؤمن بكلٍّ ما جاء من عند الله ، ونقر بالحق كلِّه ، ولا يكون لنا هوًى ، ولا نتكلَّم بغير علم ، بل نسلك سبل العلم والعدل ، وذلك هو اتباع الكتاب والسنة ، فأما من تمسك ببعض الحق دون بعض ، فهذا منشأ الفرقة والاختلاف» .

وقال القرطبي [٢] : «قال الإمام أبو المعالي في كتاب «الإرشاد» : فصل : عليٌّ رضي الله عنه كان إمامًا حقًّا في توليته ، ومقاتلوه بغاة ، وحُسْن الظَّن بهم يقتضي أن يُظنَّ بهم قصد الخير وإن أخطأوه» .

وقال ابن حجر [٣] : «والظن بالصحابة في تلك الحروب أنهم كانوا متأولين للمجتهد المخطئ أجر ، وإذا ثبت هذا في حقِّ آحاد الناس ؛ فثُبوته للصحابة بالطريق الأولى» .

فمن أصول أهل السنة والجماعة : حُبُّ الصَّحابة جميعًا ، والترضي عنهم والسكوت عما شجر بينهم ، وسلامة الألسنة من الطعن فيهم ، والسب والشتم لأحدهم أو الوقيعة فيهم ؛ قال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾[الحشر : ١٠] .

وقال قبيصة بن عقبة [٤] رحمه الله : «حب أصحاب النبيِّ ﷺ كلهم سنة» .

---

(١) نفس المصدر (٤/ ٤٤٩ ، ٤٥٠) .

(٢) «التذكرة» (٢/ ٢٢٣) .

(٣) «الإصابة» (٧/ ٢٦٠) .

(٤) «الحجة للتيمي» (٢/ ٣٦٨) .

وعائشة رضي الله عنها تتعجب من هؤلاء الضَّالين الذين يقعون بألسنتهم في الصحابة ، فتقول لابن أختها عروة بن الزبير : «يا ابن أختي أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبيِّ ﷺ فسبُّوهم» [(١)].

وقال السفاريني [(٢)] : «بل يجب ذكر محاسنهم ، والترضي عنهم ، والمحبة لهم ، وترك التحامل على أحد منهم ، واعتقاد العذر لهم ، وإنما فعلوا ما فعلوه باجتهاد سائغ لا يوجب كفرًا ، ولا فسقًا ؛ بل ربما يثابون عليه ؛ لأنهم اجتهدوا ابتغاء الحقِّ والصواب ، وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ينكر على من خاض ، ويسلم أحاديث فضائلهم ، وقد تبرأ ممن ضلَّلهم ، أو كفَّرهم ، وقال : السكوت عما جرى بينهم أولى وأحرى» .

وسُئل عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ عن القتال الذي حصل بين الصحابة ؛ فقال : «تلك دماء طهر الله يدي منها أفلا أطهر لساني منها ؟ مَثَلُ أصحاب رسولِ الله ﷺ مثل العيون ، ودواء العيون ترك مسها» [(٣)].

قال البيهقي ـ معلقًا على قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله : «هذا حسنٌ جميلٌ ؛ لأن سكوت الرجل عمَّا لا يعنيه هو الصواب» [(٤)].

وسُئل الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ عن قتال الصحابة فيما بينهم ؛ فقال : «قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا ، وعلموا وجهلنا ، واجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا» [(٥)] .

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٢٢) .

(٢) «لوامع الأنوار» للسفاريني (٢/ ٩٩) .

(٣) «الإنصاف» للباقلاني (ص٦٩) ، و«الطبقات» (٥/ ٣٩٤) .

(٤) «مناقب الشافعي» (ص ١٣٦) .

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٣٢) .

ومعنى قول الحسن هذا : أن الصحابة كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا وما علينا إلا أن نتبعهم فيما اجتمعوا عليه ، ونقف عند ما اختلفوا فيه ، ولا نبتدع رأيا منا ، ونعلم أنهم اجتمعوا وأرادوا الله ﷻ إذ كانوا غير متهمين في الدين»[(١)].

وسئل جعفر بن محمد الصادق عما وقع بين الصحابة ؛ فأجاب بقوله : أقول ما قال الله : ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه : ٥٢][(٢)].

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ بعد أن قيل له : ما تقول فيما كان بين علي ومعاوية ؟ قال : «ما أقول فيهم إلا الحسنى»[(٣)].

وعن إبراهيم بن آرز الفقيه قال : حضرت أحمد بن حنبل وسأله رجلٌ عما جرى بين عليٍّ ومعاوية ؟ فأعرض عنه ؛ فقيل له : يا أبا عبد الله ، هو رجل من بني هاشم ، فأقبل عليه ، فقال : اقرأ : ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٣٤][(٤)].

وقال أبو عبد الله بن بطة ـ في عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة : «ومن بعد ذلك نكفُّ عمّا شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ ؛ فقد شهدوا المشاهد معه ، وسبقوا الناس بالفضل ، فقد غفر الله لهم ، وأمرك بالاستغفار لهم ، والتقرب إليه بمحبتهم ، وفرض ذلك على لسان نبيه ،

---

(١) المصدر نفسه (١٦/ ٣٣٢) .

(٢) «الإنصاف» للباقلاني (ص ٦٩) .

(٣) «مناقب الإمام أحمد بن حنبل» لابن الجوزي (ص ١٦٤) .

(٤) «تاريخ بغداد» (٦/ ٤٤) .

وهو يعلم ما سيكون منهم ، وأنهم سيقتتلون ، وإنما فضلوا على سائر الخلق ؛ لأن الخطأ والعمد وضع عنهم ، وكل ما شجر بينهم مغفور لهم [١] .

وقال أبو بكر بن الطيب الباقلاني : ويجب أن يُعْلَم : أن ما جرى بين أصحاب النبيِّ ﷺ، ورضي الله عنهم من المشاجرة نكف عنه ، ونترحم على الجميع ، ونثني عليهم ، ونسأل الله تعالى لهم الرضوان والأمان والفوز والجنان ، ونعتقد أن عليًّا عليه السلام أصاب فيما فعل وله أجران ، وأن الصحابة رضي الله عنهم ما صدر منهم كان باجتهاد ؛ فلهم الأجر ، ولا يُفَسَّقُون ، ولا يُبَدَّعُون ، والدليل عليه ؛ قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[الفتح : ١٨] .

وقوله ﷺ: «إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِم فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخطأَ فَلَهُ أَجْر» .

فإذا كان الحاكم في وقتنا له أجران على اجتهاده ؛ فما ظَنُّك باجتهاد من رضي الله عنهم ورضوا عنه ؟ ويدلُّ على صحة هذا القول : قوله ﷺ للحسن رضي الله عنه : «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ ، وَسَيُصْلِحُ اللهُ به بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» [٢].

فأثبت العظمة لكل واحدة من الطائفتين ، وحكم لهما بصحة الإسلام ، وقد وعد الله هؤلاء القوم بنزع الغل من صدورهم بقوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا

---

(١) «الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة» (ص ٢٦٨) .

(٢) البخاري ، كتاب الفتن رقم (٧١٠٩) .

مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ [الحجر :٤٧] .

إلى أن قال : ويجب الكف عما شجر بينهم والسكوت عنه[١] .

وقال ابن تيمية ـ في صددِ عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة فيما شجر بين الصحابة: «ويمسكون عما شجر بين الصحابة ، ويقولون : إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب ، ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه ، والصحيح منه هم فيه معذورون ؛ إما مجتهدون مصيبون ، وإما مجتهدون مخطئون»[٢] .

وقال ابن كثير[٣] : « أما ما شجر بينهم بعده ﷺ : فمنه ما وقع من غير قصد ؛ كيوم الجمل ، ومنه ما وقع عن اجتهادٍ ؛ كيوم صفين ، والاجتهاد يخطئ ، ولكن صاحبه معذور ، وإن أخطأ ، ومأجور أيضًا ، وأما المصيب فله أجران» .

وقال ابن حجر : «واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ، ولو عرف المحق منهم ؛ لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد ؛ بل ثبت أنه يؤجر أجرًا واحدًا ، وأن المصيب يؤجر أجرين»[٤] .

فيتبين لنا مما سبق أن معاوية كان يطالب بقتلة عثمان ، وعلي ﷺ ـ وهو الإمام ـ يريد البيعة من معاوية .

---

(١) «الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به» (ص ٦٧ ـ ٦٩) .

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٥٤ ، ١٥٥) ، و«العقيدة الواسطية» (٢٦) .

(٣) كما في «الباعث الحثيث» (ص ١٨٢) .

(٤) «فتح الباري» (١٣/ ٣٤) .

ومن خلال هذا التأويل ، ومن خلال هذا الفهم احتدم الخلاف ، ووقع القتال ؛ بل واشتد في موقعة صفين ، واحتدم ليلة السبت من شهر صفر سنة سبع وثلاثين من هجرة النبيِّ ﷺ ، وكانت الليلة تسمَّى بليلة الهرير ، دار القتال فيها حتى الصباح - ولا حول ولا قوة إلا بالله - ووقع خلق كثير قتلى ، وهنا رفع أهل الشام المصاحف في ساحة المعركة ، ورفعوا أصواتهم ينادون بالصلح والعودة والاحتكام إلى كتاب الله - جَلَّ وَعَلا - فما أن رُفعت المصاحف على أسنة السيوف والرماح إلا وقال فريقٌ كبيرٌ من جيش عليٍّ - يقال له حينئذٍ القراء - وسأقف معهم ؛ لأن هذه فتنةٌ ثالثةٌ خرجت بعد فتنة صفين ، فتنة القُراء الذين يعرفون الآن باسم الخوارج .

فلما احتكموا إلى كتاب الله ، ورفعوا المصاحف على أسنة الرماح ، وطلبوا التحاكم إلى كتاب الله ، وأنا أسأل من على وجه الأرض يُدعى إلى التحاكم إلى كتاب الله ﷻ وتكون استجابته أعلى من استجابة عليٍّ ؟!

هل يظن ذلك أحد ؟ مستحيل ؛ ولذلك ما يقال بأن عليًّا قد اضطر وأرغم لقبول التحاكم والحكم ، هذا ضلال مبين !!

بل مجرد أن رُفعت المصاحف قال عليٌّ رضي الله عنه : ما هي إلا لحظات وستنتهي المعركة ؛ فأبى فريقٌ من جيشه إلا أن يتحاكم إلى الكتاب ، فقال بأننا ما حِدنْا عن الكتاب ، وما خرجنا عن الكتاب ؛ فلمَّا رأى إصرارًا أذعن عليٌّ رضي الله عنه ، ولكن لا أقول : أذعن لرأى هؤلاء ، ولكن أذعن لكتاب الله ، وهل خرج عليٌّ إلا لينصر كتاب الله سبحانه وتعالى ؟!!

قضية التحكيم

لقد نُسبَ إلى أمير المؤمنين عليٍّ ﷺ أقوالٌ مكذوبةٌ ، وروايات يسب فيها معاوية وعمرو بن العاص ﷺ ، وقد شحنت كتب التاريخ بمثل هذا ؛ كما نقله الطبريُّ [١] وابن الأثير وغيرهم .

فعند الطبريِّ في «تاريخه» [٢] من رواية أبي مخنف أن عليًّا رفض تحكيم القرآن لما اقترحه أهل الشام ؛ ثم استجاب بعد ذلك تحت ضغطِ القرَّاء الذين عرفوا فيما بعد بالخوارج !!

وهذه الروايةُ ساقطةٌ ، ولا يجوز الاعتماد عليها ، وقد صحَّ ما يخالفها !!

فقد روى أحمد في «مسنده» والنسائي في «الكبرى» [٣] عن حبيب بن أبي ثابت قال : أتيت أبا وائل في مسجد أهله أسأله عن هؤلاء القوم الذين قتلهم عليٌّ بالنهروان ، ففيما استجابوا له ، وفيما فارقوه ، وفيما استحل قتالهم ، قال : كنَّا بصفين ، فلما استحرَّ القتل بأهل الشام اعتصموا بتل ؛ فقال عمرو ابن العاص لمعاوية : أرسل إلى عليٍّ بمصحف ، وادعه إلى كتاب الله ، فإنه لن يأبى عليك ، فجاء به رجل ؛ فقال: بيننا وبينكم كتاب الله : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ

---

(١) «الكامل في التاريخ» (٢/ ٣٨٦) ، و «تاريخ الطبري» (٥/ ٦٦٢) .

(٢) «تاريخ الطبري» (٥/ ٦٦٢ ، ٦٦٣) .

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٨٥) ، والنسائي في «الكبرى» (١١٥٠٤) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٣٣٦) ، وأصله في «صحيح البخاري» (٤١٨٩) ، وقال الشيخ شعيب : «إسناده صحيح على شرط الشيخين» .

ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[آل عمران:٢٣] .

فقال عليٌّ : نعم ، أنا أولى بذلك ، بيننا وبينكم كتاب الله ، قال : فجاءته الخوارج ونحن ندعوهم يومئذ القراء ، وسيوفهم على عواتقهم ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ما ننتظر بهؤلاء القوم الذين على التل ، ألا نمشي إليهم بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فتكلَّم سهل بن حنيف ؛ فقال : يا أيها الناس ، اتهموا أنفسكم ؛ فلقد رأيتنا يوم الحديبية يعني : الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ والمشركين ... » الحديث.

فقد تمَّ الاتفاق بين الفريقين على التحكيم ، بعد انتهاء موقعة صفين ، وهو أن يحكِّم كلُّ واحدٍ منهما رجلًا من جبهته ، ثم يتفق الحكمان على ما فيه مصلحة المسلمين .

وفي رواية ابن أبي شيبة : أن عليًّا رضي الله عنه رضي بالتحكيم وعدَّ ذلك فتحًا ورجع إلى الكوفة ، ورجع الفريقُ الآخر .

وقد اتفقا على أن يكُفَّا عن القتال ؛ وأن ينتظر كلُّ فريق حُكْمَ الحكمين المختارين ؛ اختار فريق العراق أبا موسى الأشعري ، واختار فريق الشام عمرو بن العاص رضي الله عنه . وهنا قال الناس كلامًا لا يرضاه الله !! .

يقول الإمام ابن العربي [(١)] : «وهنا قال الناس في أمر التحكيم كلامًا لا يرضاه الله إذا تدبرتموه بعين المروءة دون الديانة ، رأيتم أنها سخافة ، حمل على تسطيرها في الكتب في الأكثر عدمُ الدين ، وفي الأقل جهلٌ متين» .

جهالةٌ وسخافةٌ ما سُطِّرَ في الكتب عن أبي موسى بأنه الساذج

(١) «العواصم من القواصم» (١٧٥) بتصرف في المعنى .

المخدوع ! وعن عمرو بن العاص الداهية الذكي العبقري بأنه الخادع !

فتعال معي لنقرأ قصة التحكيم ، ثم لأبين فسادها وضلالها .

وروى الإمام الطبري[1] بسندِهِ عن أبي مخنف ، فقال : حدَّثني أبو جناب الكلبي أن عَمْرًا وأبا موسى ﷺ حيث التقيا بدومة الجندل ؛ أخذ عمرو يقدم أبا موسى في الكلام ، ويقول : إنك صاحب رسول الله ؛ وأنت أَسَنُّ مِنِّي فتكلَّم ؛ وأتكلَّم ، فكان عمرو قد عوَّد أبا موسى أن يقدمه في كلِّ شيء اغتزى بذلك كلِّه أن يقدمه فيبدأ أبو موسى بخلع عليٍّ ، قال : فنظرا في أمرهما وما اجتمعا عليه ،فأراده عمرو على معاوية فأبى وأراده على ابنه عبد الله بن عمرو فأبى ، وأراده أبو موسى على عبد الله بن عمر فأبى ؛ فقال له عمرو : خبرني ما رأيك ؟ قال : رأيي أن نخلع هذين الرجلين من الخلافة (وهل كان معاوية خليفة ؟) ، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين ، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبُّوا ، فقال له عمرو : فإن الرأي ما رأيت ؛ فأقبلا على الناس وهم مجتمعون ؛ فقال : يا أبا موسى ، أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق : فتكلم أبو موسى فقال : إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر ، نرجو أن يصلح الله ﷻ به أمر هذه الأمة ؛ فقال عمرو : صدق وبر ، يا أبا موسى تقدَّم فتكلَّم ؛ فقال ابن عباس : ويحك والله إني لأظنه قد خدعك ، إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلَّم بذلك الأمر قبلك ، ثم تكلَّم أنت بعده ، فإن عَمْرًا رجلٌ غادر ، ولا آمَنُ أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه ؛ فإذا قمت في الناس خالفك ، وكان أبو موسى مغفلًا ، فقال له : إنا قد اتفقنا ؛

---

(١) «تاريخ الطبري» (٣ / ١١٢ ، ١١٣) .

فتقدم أبو موسى فحمد الله ﷻ وأثنى عليه ؛ ثم قال : أيها الناس ، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة ، فلم نر أصلح لأمرها ، ولا ألَمَّ لشعْثِها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عَمْرٍو عليه ، وهو أن نخلع عليًّا ومعاوية ، وأن تستقبل الأمة هذا الأمر لتولي من أحبَّت عليها ، وإني قد خلعت عليًّا ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ،وولُّوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلًا ، ثم تنحَّى أبو موسى الأشعري ، فقام عمرو ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وقال : إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه عليًّا كما خلعه ، وأُثبت صاحبي معاوية ؛ فإنه وليُّ عثمان ، والطالب بدمه وأحقُّ الناس بمُقامه ؛ فقال أبو موسى : ما لك ! لا وفقك الله ، غدرت ، وفجرت ، إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ؛ فقال عمرو : وإنما مثلُك كمثل الحَمار يحمل أسفارًا !! فحمل شريح بن هانئ على عمرو ، فضربه بالسوط ، وحمل على شريح ابنٌ لعمرو فضربه بالسوط ؛ فقام الناس فحجزوا بينهم ، وكان شريح ابن هانئ بعدها يقول : ما ندمت على شيء كندمي على ضرب عمرٍو بالسوط ، ألا أكون قد ضربته بالسيف آتيًا بها الدهر ما آتي ، والتمس أهل الشام أبا موسى فركب راحلته ولحق بمكة ؛ فقال ابن عباس : قبَّح الله رأي أبي موسى ، حذَّرته وأمرته بالرأي ، فما عقل ، فكان أبو موسى يقول : حذَّرني ابن عباس غدرة الفاسق ، ولكني اطمأننت إليه ، وظننت أنه لن يؤثر شيئًا على نصيحة الأمة ، ثم انصرفوا ، انصرف أهل الشام وعمرو إلى ومعاوية ، وسلَّموا عليه بالخلافة ، قالوا : يا أمير المؤمنين . ورجع ابن عباس وشريح ابن هانئ إلى عليٍّ ، وكان إذا صلَّى الغداة يقنت ، ويقول : اللَّهم العَنْ معاوية ،

وعَمْرًا ، وأبا الأعور السلمي ، وحبيبًا بن مسلمة ، وعبد الرحمن بن خالد ، والضحاك بن قيس ، والوليد ، فبلغ ذلك معاوية ، فكان يقنت هو الآخر في صلاة الصبح ، ويقول: «اللهم العن عليًّا ، وابن عباس ، والأشتر ، وحسنًا وحسينًا» .

فبالله عليكم ! هل تحتاج الرواية إلى تفنيد ؟! لكن لابد من التوضيح ، فالرواية هذه هي العمدة ، وأظن أن من طالع أي كتاب في الفتنة ، سواءً كان سِفرًا كبيرًا ، أو كتابًا صغيرًا، إلا وقد وقف على هذه الرواية بكلماتها .

والرواية مكذوبةٌ باطلةٌ لا تصحُّ سندًا ولا متنًا .

أما السند ؛ فعن أبي مخنف ،قال : حدثني أبو جناب الكلبي .

وأبو مخنف هو لوط بن يحيى . ودونك أقوالُ أهل الجرح والتعديل[1] فيه .

قال أبو حاتم : متروك .

وقال الدارقطني : ضعيف .

وقال ابن معين : ليس بثقة .

وقال ابن عدى : شيعي محترق ، صاحب أخبارهم .

قال الآجري: سألت أبا حاتم عنه فنفض يديه، وقال:أحد يسأل عن هذا؟!!

وقال الذهبي : إخباريٌّ تالفٌ لا يوثق به .

وأبو جناب الكلبي[2] : قال فيه ابن سعد : كان ضعيفًا .

---

(١) انظر: «لسان الميزان» (٦/ ٧٧، ٧٨) ط الفاروق ، و«الجرح والتعديل» (٧/ ١٨٢) .

(٢) « التاريخ الأوسط » (٢/ ١٠٠ المسمى بالصغير!) ط الوعي ، و«التاريخ الكبير» (٨/ ٢٦٧) ، و«تهذيب التهذيب» (١١/ ١٧٧) ، و«ميزان الاعتدال» (١/ ١٧٤) ، و«تهذيب الكمال» (٣١/ ٢٨٦) .

وقال البخاري وأبو حاتم : كان يحيى القطان يضعفه .

وقال عثمان الدارمي : ضعيف .

وقال النسائي : ضعيف .

هذا هو السند .

أما المتن ؛ فمن المعروف والمتفق عليه أن الخلاف بين عليٍّ ومعاوية كان بسبب دم عثمان ، ولم يطلب معاوية البيعة على الخلافة ؛ بل ولم يبايع أهل الشام معاوية بالخلافة إطلاقًا ، لم يثبت هذا حتى في الروايات المكذوبة الموضوعة التي ذكرت بعضها ، فلم يكن الخلاف بسبب الخلافة ؛ وإنما كان بسبب القصاص من قتلة عثمان ، فكان معاوية يصرُّ على عدم إعطاء البيعة لعليٍّ إلا إذا أقام الحدَّ على قتلة عثمان أو سلَّم له قتلةَ عثمان ليقيم عليهم الحد .

ويقول ابن حزم رحمه الله [(١)] : «إن عليًّا قَاتَلَ معاوية لامتناعه من تنفيذ أوامره في جميع أرض الشام ، وهو الإمام الواجب الطاعة ، ولم ينكر معاوية فضل عليٍّ واستحقاقه الخلافة ؛ لكن اجتهاده أداه إلى أن رأي تقديم أخذِ القود من قتلة عثمان على البيعة ، ورأى نفسه أنه أحق الناس بطلب دم عثمان لسنِّه وقوَّته على الطلب بذلك ، وأصاب في هذا ، وإنما أخطأ في تقديمه ذلك على البيعة فقط» .

وبذلك فُهم الخلاف على هذه الصورة ، وهذه هي صورة الخلاف الحقيقية ، والتي تبين إلى أي مدى خطأ الرواية التي ذكرت الآن في

---

(١) «الفصل في الملل والنحل»(٤/ ١٦٠) .

قضية التحكيم ؛ فلم يكن الخلاف أبدًا بينهم في قضية الخلافة ،وإنما كان في أخذ الثأر من قتلة عثمان ﷺ .. هذه واحدة .

أما الثانية : فإنه لا يستقيم بحال أن أبا موسى الأشعري كان في قضية التحكيم ضحيةَ خدعةٍ كبرى لعمرو بن العاص ، هذا ينافي الحقائق الكبيرة التي ثبتت في السيرة والسنة والتاريخ لأبي موسى الأشعري . لقد أثبتت السيرة والتواريخ فضل أبي موسى [1] وفطنته وفقهه ودينه ؛ فلقد استعمله النبيُّ ﷺ على زبيد وعدن ، واستعمل أبا موسى بعد النبيِّ ﷺ عمرُ بن الخطاب على البصرة ، وبقي أبو موسى واليًا على البصرة إلى أن قُتل عمر ، فاستعمله عثمان بن عفان على البصرة ، ثم على الكوفة ، وبقي أبو موسى واليًا على الكوفة إلى أن قُتل عثمان ، فأقره عليٌّ ﷺ واليًا على الكوفة .

فهل يُتصور أن يثق رسول الله ﷺ وعمر وعثمان وعليٌّ برجلٍ يمكن بعد ذلك أن يُقال بأنه رجلٌ مغفلٌ ؟!!

ولقد شهد الصحابة وكثير من التابعين برسوخه في العلم ، والكفاءة في الحكم ، والفطنة ، والذكاء ، والكياسة في القضاء .

قال أنس ﷺ : بعثني أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب ، فقال لي عمر : كيف تركت الأشعري ؟

قال أنس : «تركته يعلِّم الناس القرآن ، فقال : أما إنه كيِّسٌ ولا

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٣٨٠) ، و «الطبقات» لابن سعد (٢/ ٣٤٤ ، ٣٤٥) (٤/ ١٠٥) (٦/ ١٦) ، و«التاريخ الكبير» (٥/ ٢٢ ، ٢٣) ، و«تاريخ خليفة» (١٧٨) وغيرها ، و«الجرح والتعديل» (٥/ ١٣٨) ، و«الاستيعاب» (٣/ ٩٧٩) ، و«أسد الغابة» (٣/ ٣٦٧) ، و«تهذيب الكمال» (١٥/ ٤٤٦ وما بعدها) ، و«تهذيب التهذيب» (٥/ ٢٤٩) ، و«الإصابة» (٦/ ١٩٤) ، و«العبر» (١/ ٥٢) .

تُسمعها إياه»[١].

وقال الشعبيُّ[٢]: «كتب عمر في وصيته : ألا لا يقرُّ لي عاملٌ أكثر من سنة ، وأقرَّ الأشعريَّ أربع سنين» .

وروى الفسويُّ بسند منقطع عن أبي البختري قال : أتينا عليًّا فسألناه عن أصحاب محمدٍ ﷺ، فقال : تسألوني عمن؟ قلنا : نسألك عن أبي موسى الأشعري . قال عليٌّ : «صُبغ في العلم صبغة»[٣].

وقال مسروق : «كان القضاء في الصحابة إلى ستة : عمر ، وعليٌّ ، وابن مسعود ، وأبيٌّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهم جميعًا»[٤].

وقال الأسود بن يزيد : «لم أر بالكوفة أعلم من عليٍّ وأبي موسي الأشعري »[٥].

وقال صفوان بن سليم : «لم يكن يُفتي في المسجد في زمن رسول الله ﷺ غير هؤلاء : عمر وعليٌّ ومعاذ وأبو موسي الأشعري»[٦].

وقد ثبت أن أبا موسى الأشعري كان ممن حفظ القرآن كلَّه على عهد رسول الله ﷺ، وكان من المشهورين بتعليمه للناس ، وقد عُلم أن مدار

---

(١)«طبقات» ابن سعد (٤/ ١٠٨، ٣٤٥) ، و«سير أعلام النبلاء» (٢/ ٣٩٠) ، وابن عساكر (٣٢/ ٦٩) .

(٢)أخرجه ابن عساكر(٣٢/ ٨١) ، وانظر: «البداية والنهاية» (٨/ ٦٠) ، و«سير أعلام النبلاء» (٢/ ٣٩١) .

(٣)«المعرفة والتاريخ» للفسوي (٢/ ٥٤٠) ، وانظر: «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٣٨٨) وفي السند انقطاع بين أبي البختري وعلي رضي الله عنه كما في «جامع التحصيل» (١٨٣) ط عالم الكتب .

(٤)أبو زرعة في «تاريخه» (١٩٢٢)، وابن عساكر (١٩/ ٣١٤)، و«المعرفة والتاريخ» للفسوي (١/ ٤٨١) ، و«سير أعلام النبلاء» (٢/ ٣٨٨).

(٥)«سير أعلام النبلاء» (٢/ ٣٨٨) ، وروي عن عطاء نحوه في ابن عساكر (٤٢/ ٤١٠) .

(٦)ابن عساكر (٣٢/ ٦٦) .و «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٣٨٩) .

حياة الناس في ذلك العهد في سِلمهم وحربهم كان على فقه القرآن .

إذا علمت مكانة أبي موسى الأشعري ﷺ حتى خصَّه عمر بن الخطاب بكتابة في القضاء وسياسة الحكم ؛ فكيف يمكن بعد ذلك أن نتصوَّر غفلة أبي موسى الأشعري إلى هذا الحدِّ حتى لا يفقه حقيقة النزاع الذي كُلف هو وعمرو بالحكم فيه .

وإذا كان عِلْم أبي موسى الأشعري ﷺ وخبرته في القضاء يحولان بينه وبين أن يخطئ الحكم في القضية التي أوكل إليه أن ينظر في أمرها ؛ فإن ذلك أيضًا هو نفس الشأن مع الصحابي الجليل عمرو بن العاص ﷺ [1] .

فعمرو بن العاص ﷺ بشَّره النبيُّ ﷺ حين قال : «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ» . والحديث رواه البخاري [2] .

فهل كان عمرو بن العاص في أداء مهمته رجلًا تُسيره الأهواء والمنافع والمصالح على فطنته وخبرته فحسب ، لا والله ! بل هو على ورعه وتقواه وإيمانه ودينه ؛ فعمرو بن العاص كان من أجلاَّء الصحابة وأفاضلهم ومناقبه وفضائله كثيرة .

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٥٤) ، و «طبقات» ابن سعد (٤/ ٢٥٤) (٧/ ٤٩٣) ، و «المعرفة والتاريخ» للفسوي (١/ ٣٢٣) ، و «الاستيعاب» (١١٨٤) ، و «أسد الغابة» (٤/ ١١٥) ، و «الكامل» (٣/ ٢٧٤) ، و «الإصابة» (٥٨٨٤) ، و «تهذيب التهذيب» (٨/ ٥٦) ، و «التاريخ الكبير» (٦/ ٣٠٣) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (٧٣٥٢) . ومسلم ، كتاب الأقضية ، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (١٧١٦) .

وأخرج الإمام أحمد [(١)] من حديث طلحة بن عبيد الله أن رسول الله ﷺ قال: «عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ مِنْ صَالِحِي قُرَيْشٍ، نِعْمَ أَهْلُ الْبَيْتِ أَبُو عَبْدِ الله، وَأُمُّ عَبْدِ الله، وَعَبْدُ الله».

وروى أحمد بسندٍ رجاله ثقات، وحسَّنه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي» من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَسْلَمَ النَّاسُ، وَآمَنَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ» [(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «ابْنَا الْعَاصِ مُؤْمِنَانِ عَمْرٌو وَهِشَامٌ» [(٣)].

فهذه شهادة له بالإيمان وشهادة من رسول الله ﷺ لبيت عمرو كلِّه؛ لولده؛ وزوجه ـ رضيَ الله عنهم جميعًا ـ وقد أمَّره النبيُّ ﷺ على جيش ذات السلاسل وتحت إمرته أبو بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

قال قبيصة بن جابر الكوفي أبو العلاء: «صحبتُ عمرو بن العاص، فما رأيت رجلًا أبين أو أنصع رأيًا، ولا أكرم جليسًا منه، ولا أشبه سريرة بعلانية منه» [(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٦١)، والترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب لعمرو بن العاص (٣٨٤٥) وأبو نعيم في «الحلية» (١٣٠٥)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٦٥٣).

(٢) أخرجه الترمذيُّ، كتاب مناقب، باب مناقب لعمرو بن العاص (٣٨٤٤) وقال: «حديث غريب»، وأحمد (٤/ ١٥٥)، والروياني في «مسنده» (١٢٢، ٢١٩)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «المشكاة» (٦٢٣٦)، و«الصحيحة» (١٥٥).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٤، ٣٢٧، ٣٥٣، ٣٥٤)، والنسائي في «الكبرى» (٨٣٠٠)، والحاكم (٣/ ٢٤٠، ٤٥٣)، وابن سعد في «الطبقات» (٤/ ١٤٦)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ ١٧٧)، وابن عساكر (٤٦/ ١٣٥)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٥٦).

(٤) أخرجه الطبريُّ في «تاريخ» (٣/ ٢٦٩) وابن أبي خيثمة كما في «الإصابة» لابن حجر =

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «إن أحدًا من السلف لم يتهم عمرو بن العاص، ومعاوية رضي الله عنهما بنفاق أو خداع؛ فعمرو بن العاص وأمثاله ممن قدم مهاجرًا إلى النبيِّ ﷺ بعد الحديبية هاجروا إليه من بلادهم طوعًا لا كرهًا، والمهاجرون لم يكن فيهم منافق، وإنما كان النفاق في بعض أهل المدينة؛ إذ لما دخل في الإسلام أشرافهم وجمهورهم، احتاج الباقون أن يظهروا الإسلام نفاقًا لعزِّ الإسلام وظهوره في قومهم، وأما أهل مكة فكان أشرافهم وجمهورهم كفَّارًا؛ فلم يكن يظهر الإيمان إلا مَنْ هو مؤمن ظاهرًا وباطنًا؛ فإنه من كان يُظْهر الإسلام بمكة يُؤذى ويُهجر، وإنما كان المنافق يظهر الإسلام لمصلحة دنياه، ولو كان عمرو ابن العاص ومعاوية وأمثالهم ممن يتخوف منهما النفاق لم يُوَلَّوْا على المسلمين، فعمرو بن العاص أمَّره النبيُّ ﷺ في غزوة ذات السلاسل، واستعمل أبا سفيان بن حرب رضي الله عنه على نجران، وقد اتفق المسلمون على أن إسلام معاوية خيرٌ من إسلام أبيه أبي سفيان، فكيف يكون هؤلاء منافقين والنبيُّ ﷺ يأتمنهم على أحوال المسلمين في العلم والعمل».

أما ما قيل أن عليًّا كان يلعن في قنوته معاوية وأصحابه؛ فهذه فِرية يغني فسادها عن إفسادها، ويغني بطلانها عن إبطالها، ويغني كسادها عن إكسادها؛ فمعلوم أن عليًّا ـ رضوان الله عليه ـ كان من أعظم الصحابة وقوفًا عند كلام رسول الله ﷺ وامتثالًا لأمره، واجتنابًا لنهيه،

= (٤/ ٦٥٢)، وانظر: ابن عساكر في «تاريخه» (١٩/ ١٨٢، ١٨٣)، و«سير أعلام النبلاء» (٣/ ٥٧).

(١) «الفتاوى الكبرى» لشيخ الإسلام (٣/ ٤٤٦) بتصرف، و«مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٦٣ ـ ٦٦) وما بعدها.

ووقوفًا عند حدِّه ، وهو المبشَّر بالجنة في هذه الدنيا ، وهو المبشَّر بأن الله ورسوله يحبان عليًّا ، وبعد كلِّ هذا يقنت ليلعنَ معاويةَ وأصحابه ؟! فهذا ضلالٌ وإفكٌ مبين !!

فالنبيُّ ﷺ يقول : «وَمَنْ لَعَنَ مُؤْمِنًا فَهُوَ كَقَتْلِهِ» . والحديث رواه «البخاري ومسلم» [(١)] من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه .

ويقول ﷺ : «لَا يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» والحديث في «صحيح مسلم» [(٢)] من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

ويقول ﷺ : «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ ، وَلَا اللَّعَّانِ ، وَلَا الْفَاحِشِ ، وَلَا الْبَذِيءِ» . والحديث في «مسند أحمد» [(٣)] ، وصحَّحه الشيخ الألباني في «السلسة الصحيحة» .

ولما بلغ عليًّا رضي الله عنه أن اثنين من أصحابِ عليٍّ يُظهران شتمَ معاوية ، ولعن أهل الشام أرسل إليهما ، وقال : «كفا عما يبلغني عنكما ، فأتيا ، فقالا : يا أمير المؤمنين ألسنا على الحق ، وهم على الباطل ؟ قال عليٌّ : بلى ، ورب الكعبة المسدنة ؛ فقالا: فلم تمنعنا من شتمهم ولعنهم؟ قال عليٌّ:

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الأدب ، باب ما ينهى من السباب واللعن (٦٠٤٧) وأطرافه في (١٣٦٣) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وأن من قتل نفسه بشيء عُذِّب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة (١١٠) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (٢٥٩٨) .

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٤ ، ٤٠٥) ، وابن أبي شيبة في «الإيمان» (٨٠) ، و«المصنف» (١١/ ١٨) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣١٢ ، ٣٣٢) ، والترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في اللعنة (١٩٧٧) ، وقال : «حديث غريب» ، وأبو يعلى (٥٣٦٩) ، والحاكم (١/ ١٢) ، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٤٣) ، والبغوي في «شرح السنة» (٣٥٥٥) وغيرهم ، وصحَّحه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٣٢٠) .

كرهتُ لكم أن تكونوا لعَّانين ، ولكن قولوا : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح بيننا وبينهم ، وأبعدهم من ضلالتهم حتى يعرفَ الحقَّ مَنْ جَهِلَهُ ، ويرعوي عن الغي من لجج به»[1] .

أما معاوية ـ رضوان الله عليه ـ[2] فهو من كُتَّابِ وحي النبيِّ ﷺ ، فيا لها من كرامة وتعديل أن يختار النبيُّ ﷺ معاوية لكي يكتب له الوحي ، وهو من أفاضل الصحابة ، وأصدقهم لهجة ، وأكثرهم حلمًا ، وهو الذي يقول ـ والأثر رواه الذهبيُّ في «السير» وعزاه إلى «المصنف» بسنَدٍ رجاله ثقات يقول معاوية: «والله لا أُخَيَّرُ بَيْنَ أَمْرَيْنَ بَيْنَ الله وَبَيْنَ غَيْرِهِ ؛ إِلاَّ اخْتَرْتُ اللهَ عَلَى مَا سِوَاهُ»[3] .

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال في حقِّ معاوية : «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا وَاهْدِ بِهِ» . رواه أحمد والترمذيُّ وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي»[4] .

---

(١) «الأخبار الطوال» (١٦٥) نقلًا عن «تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة» (٢/ ٢٣٢) .

(٢) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٣/ ١١٩) ، و«طبقات» ابن سعد (٣/ ٣٢) (٧/ ٤٠٦) ، و«التاريخ الكبير» (٧/ ٣٢٦) ، و«المعرفة والتاريخ» (١/ ٣٠٥) ، و«الجرح والتعديل» (٨/ ٣٧٧) ، و«أسد الغابة» (٤/ ٣٨٥) ، و«الكامل في التاريخ» (٤/ ٥) ، و«تهذيب الكمال» (١٣٤٣) ، و«تهذيب التهذيب» (١٠/ ٢٠٧) ، والإصابة (٣/ ٤٣٣) وغيرها .

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٧١٧) ، وراجع : «سير أعلام النبلاء» (٣/ ١٥٠، ١٥١) .

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٢١٦) والترمذي ، كتاب المناقب ، باب مناقب معاوية بن أبي سفيان ﷺ (٣٨٤٢) وقال : «حديث حسن غريب» ، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٥/ ٢٤٠) (٧/ ٣٢٦) ، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١١٢٩) ، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١/ ٢٠٧ ، ٢٠٨) ، والخلال في «السنة» (٦٩٧ ، ٦٩٩) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٥٨) ، والطبراني في «الأوسط» (٦٦٠) ، وصحَّحه الألباني في «المشكاة» (٦٢٣٥) و «صحيح سنن الترمذي» .

وقال ﷺ : «اللَّهُمَّ عَلِّمْ مُعَاوِيَةَ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ ، وَقِهِ الْعَذَابَ» رواه أحمد في «المسند»[(١)] وفي «فضائل الصحابة» بسندٍ حسنٍ لغيره .

أما وجه الخطأ الذي وقع فيه معاوية : تعجُّلُه في أن يقتل عليٌّ قَتَلة عثمان ؛ وقبل أن يعطيه البيعة .

وبعد هذه الجولة التي أسأل الله ﷻ أن يزيل بها ركام الباطل ؛ أقول : ما الذي حدث بعد قضية التحكيم ؟ وما هي النتائج التي وصل إليها الحكمان ؟ وماذا وقع بعد ذلك بين عليٍّ ومعاوية ؟ .

وأسأل الله ﷻ أن يجعلنا وإياكم ممن يستمعون الحق فيتبعون أحسنه ، وأن يملأ قلوبنا إجلالًا لأصحاب نبينا ﷺ ، ونسأله تبارك وتعالى أن يعفو عنا وعنهم ، وأن يغفر لنا ولهم : ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر : ١٠] .

ومن أهم الروايات التي تدحض وتفند الرواية الكاذبة التي استشرت وانتشرت وسُطِّرَت في بطون الكتب والمجلدات ؛ ما رواه الدارقطنيُّ بسند صحيح عن حضين بن المنذر بن الحارث ـ وهو تابعي ثقة ، وثَّقهُ النسائيُّ وابن حبان .

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٢٧) ، وفي «فضائل الصحابة» (١٧٤٨) ، وابن حبان في «صحيحه» (٧٢١٠) ، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٤٠٢) والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٣٤٥) ، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٩٣٨) ، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٦٢٨) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٣٥٦) : «رواه البزار وأحمد في حديث طويل ، والطبراني ، وفيه الحارث بن زياد ، ولم أجد من وثَّقه ، ولم يرو عنه إلا يونس بن يوسف وبقية رجاله ثقات ، وفي بعضهم اختلاف» وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٢٢٧) .

وكان [(١)] حضين أميرًا من أمراء عليٍّ يوم صفين ، وكان شجاعًا شاعرًا مفوّهًا [(٢)] .

فيروِي الدارقطني عن حضين بن المنذر أنه سأل عمرو بن العاص ﷺ ، وقال : أخبِرْني عن الأمر الذي وليِّت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه ؟ فقال : لقد قال الناس في ذلك ما قالوا ، ووالله ما كان الأمر على ما قالوا ، ولكن قلت لأبي موسى : ما ترى في هذا الأمر ؟ ، فقال : أرى أنه في النفر الذين توفِّي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم ، فقال عمرو بن العاص ﷺ لأبي موسى ﷺ : فأين تجعلني أنا ومعاوية ؟ فقال أبو موسى ﷺ : «إن يُستعن بكما ففيكما المعونة ، وإن يُستغن عنكما فطالما استغن أمر الله عنكما» .

وهذه الرواية في غاية الأهمية ؛ فإنها تفند الكذب الصريحَ ، والباطل الأسود الذي نُسج حول قضية التحكيم ، والتي صوَّرت عمرو بن العاص ﷺ داهية من الدهاة ، وصوَّرت أبا موسى رجلًا مغفلًا ـ رَضِيَ اللهُ عن أبي موسى وعمرو وعن جميع أصحاب رسول الله ﷺ .

وتدبر معي نصَّ وثيقة التحكيم بين الفريقين وبين الحَكَمَيْن ، وقد كُتب نصُّ الوثيقة ليلة الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر صفر سنة سبعٍ وثلاثين للهجرة ، ونصُّ الوثيقة ؛ كما يلي :

«بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما تقاضى عليه عليٌّ بن أبي طالب

---

(١) كما في «العواصم من القواصم» (١٨٠) وأخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٦/ ١٧٥) .

(٢) انظر : «الإكمال» لابن ماكولا (١/ ٢١٥) . و «التقريب» لابن حجر (١٥٢٨) ، وهو حضين بالضاد المعجمة ـ مصغرًا ؛ كما في «الإصابة» (٣/ ٣٤٣) .

ومعاوية بن أبي سفيان ، قاضى عليٌّ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين ، إنا ننزل عند حكم الله ﷻ وكتابه ولا يجمع بيننا غير كتاب الله ـ جَلَّ وَعَلا .

وإن كتاب الله ﷻ بيننا من فاتحته وإلى خاتمته ، نُحيي ما أحيا ، ونُمِيت ما أمات على هذا تقاضينا وبه تراضينا .

وإن عليًّا وشيعته رضوا بعبد الله بن قيس ناظرًا وحاكمًا ، ورضي معاوية بعمرو بن العاص ناظرًا وحاكمًا ؛ فما وجد الحكمان في كتاب الله ﷻ عملًا به ، وما لم يجدا في كتاب الله ﷻ، فالسنةُ العادلةُ الجامعةُ غير المفرقة لا يتعمدان لها خلافًا ، ولا يبغيان فيها بشبهة ..

وأخذ الحكمان من عليٍّ ومعاوية ، ومن الجندين من العهود والميثاق والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما ، والأمة لهما أنصارٌ على الذي يتقاضيان عليه ، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه أنهما على ما في هذه الصحيفة ، وأن قد وجبت قضيتهما على المؤمنين ؛ فإن الأمن والاستقامة ، ووضع السلاح بينهم أينما ساورا على أنفسهم ، وأهليهم ، وأموالهم ، وشاهدهم ، وغائبهم . وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ، ولا يرداها في حرب ولا فُرقة ، وَأَجَّلا القضاء إلى رمضان بدومة الجندل ، وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أَخَّراه على تراضٍ منهما ، وإن توفي أحد الحكمين ، فإن أمير الشيعة يختار مكانه .

(وأمير الشيعة عليٌّ أو معاوية) ولا يألوا من أهل العدل والقسط ، وإن مكان قضيتهما الذي يقضيان فيه مكانُ عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام ، وإن رضيا وأحبَّا فلا يحضرهما فيه إلا من أرادا .

ويأخذُ الحكمان من أرادا من الشهود ، ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة ، وهم أنصارٌ على مَنْ ترك ما في هذه الصحيفة ، وأرادَ فيها إلحادًا وظلمًا ، اللهم إنا نستنصرك على مَنْ ترك ما في هذه الصحيفة والسلام ، وشهد عليها جمعٌ كبيرٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ[1] .

فهذا هو نصُّ الوثيقة التي كُتبت ، والتي من خلالها أُعطيت المهلة والفرصة لأبي موسى الأشعري ولعمرو بن العاص رضي الله عنه ليحكما في القضية التي وكَّلتهما الأمة في القضاء فيها .

وبعد ما كُتبت هذه الوثيقة توقف القتال ، وتفرق الناس كلٌّ إلى دياره وبلده ، فعاد عليٌّ بجيشه إلى الكوفة ، وعاد معاويةُ بجيشه إلى الشام بعدما دَفَنَ كلٌّ فريق قتلاهم في موقعة صفين .

ولكن ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ـ سرعان ما اشتعلت نارُ فتنةٍ حارقةٍ محرقةٍ جديدةٍ في جيش عليٍّ رضي الله عنه وهو في طريق عودته إلى بلاد الكوفة !

ما هي هذه الفتنة المدمرة ؟! إنها :

فتنة ظهور الخوارج

والخوارج كانوا يُسَمَّوْنَ قبل ذلك بالقراء ؛ كما وصفهم النبيُّ ﷺ

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٥/ ١٥٣) من حديث وهب بن جرير عن أبيه قال : فذكره . والطبري في «تاريخه» (٣/ ١٠٣ ، ١٠٤) بسندٍ فيه أبو مخنف وأبو جناب الكلبي ـ وقد سبق الكلام عليهما ، وانظر : «الثقات» لابن حبان (٢/ ٢٩٣) ، و«البداية والنهاية» (٧/ ٢٦٢) ط الحديث .

وأصحابه ـ رضوان الله عليهم .

ظهرت فرقةُ الخوارج على عليٍّ رضي الله عنه في طريق عودته من صفين إلى الكوفة ، وأصبح عليٌّ ـ رضوان الله عليه ـ بين نارين مشتعلتين ، وبين فتنتين حالكتين .

الأولى : في الشام تصيح بالثأر من قتلة عثمان .

والثانية : في جيشه وفي صفِّه ، تصيح: إنِ الحكُم إلا لله .

والسؤال : لماذا رفع الخوارج هذا الشعار : إن الحكم إلا لله؟

ولا نزاع بين مسلِمَيْنِ على وجه الأرض أن عليًّا ـ رضوان الله عليه ـ أعرَفُ بهذه الآية من الخوارج ! فلماذا قالوا : إن الحكم إلا لله؟

والجواب : لأن عليًّا رضي الله عنه قد قَبِلَ حُكْم أبي موسى وعمرو رضي الله عنهما وهما الحكمان اللذان ارتضاهما كلٌّ فريق من الفريقين ، لَكن الخوارج رفضوا هذا ! وقالوا : كيف يَقْبَلُ عليٌّ حُكْمَ الرجال؟

أَوَ لَيْسَ حُكْمُ الرجال من كتابِ الله !! ومن كلام رسول الله ﷺ كما نصَّت بذلك وثيقة الحكم التي ذكرنا نصَّها آنفًا !! لذا قال عليٌّ ـ رضوان الله عليه ـ لما سمع الخوارج تردد هذه العبارة : «كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا باطلٌ» [1].

تدبر ؛ فإن الفتنة الأولى وإن كانت أعم وأشمل ؛ فإن الفتنة الثانية أخطر ؛ لأنها خرجت من صف عليٍّ رضي الله عنه ، لاسيما وأن الذين أشعلوا نارها هم الذين كانوا بالأمس فقط أتباع عليٍّ رضي الله عنه ، فالفتنة حالكةٌ بكلِّ المقاييس !!

روى أحمد في «مسنده» ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» بسندٍ صحيحٍ [2]

---

(١) كما عند مسلم في «صحيحه» ، كتاب الزكاة ، باب التحريض على قتل الخوارج (١٠٦٦) .

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٨٥ ، ٤٨٦) ، والنسائي في «الكبرى» (١١٥٠٤) والطبري في=

عن حبيب بن أبي ثابت قال : أتيتُ أبا وائلٍ في مسجد أهله أسألُهُ عن هؤلاءِ القومِ الذين قَتَلَهُمْ عليٌّ بالنَّهْرَوَانِ (أي : الخوارج ؛ كما سأبين) فيما استجابُوا له ، وفيما فارَقُوه ، وفيما اسْتَحَلَّ قتالَهم ؟ قال : كنَّا بصفِّين ، فلما استحرَّ القَتْلُ بأهلِ الشَّامِ ، اعتَصَمُوا بتلٍّ ؛ فقال عمرُو بنُ العاص لمعاويةَ : أَرْسِلْ إلى عليٍّ بمصحف وادْعُهُ إلى كتابِ الله ؛ فإنَّه لنْ يأبى عليكَ ، فجاءَ به رجلٌ فنادى : بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ الله .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[آل عمران : ٢٣] .

فقال عليٌّ : نَعَمْ ، أنَا أَوْلَى بذلكَ ، بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ الله ـ جَلَّ وعلا ـ قال : فجاءته الخوارجُ ونحنُ ندعوهُم يومئذ القُرَّاء ، وسُيُوفُهُم على عواتِقِهِم ، فقَالُوا : يا أمير المؤمنين ، ما ننتظرُ بهؤلاءِ القومِ الذين على التَّلِّ ؟ ألا نمشِي إليهم بسيُوفِنَا حتَّى يحكمَ اللهُ بيننا وبينهم ؟ فتكلَّم سهلُ ابن حُنَيْفٍ فقالَ : يَا أيُّها النَّاس ، اتَّهِمُوا أنفُسَكُمْ ، فلقدْ رأيْتُنَا يومَ الحديبيةِ ـ يعني الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين ـ ولو نرى قتالًا لقَاتَلْنَا ؛ فجاء عمرُ إلى رسولِ الله ﷺ فقال : يا رسولَ الله ، أَلَسْنَا على الحقِّ وهم على البَاطِلِ ؟ أليس قَتْلانَا في الجنةِ وقتلاهم في النارِ ؟ فقال : «بلى» ، فقال عمر : ففيمَ نعطِي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا ونرجعُ ، ولَمَّا يحكُمِ اللهُ بيْنَنَا وبيْنَهُمْ ؟ فقال : «يا ابنَ الخطَّابِ ، إنِّي رسولُ الله ولن يُضَيِّعَنِي

= «التفسير» (٢٦/ ٧٠) ، والبيهقي في «السنن» (٩/ ٢٢٢) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٤/ ٤٣٨ ، ٤٣٩) ، (١٥/ ٣١٧، ٣١٨) ، وأبو يعلى (٤٣٧) ، وأصله في البخاري مختصرًا (٣١٨٢) ، (٤٨٤٤) ، ومسلم (١٧٨٥) . .

اللهُ أبدًا » . فرجع وهو مُتَغَيِّظٌ ، فلم يصبرْ حتَّى أتى أبا بكر رضي الله عنه فقال : يا أبا بكر ، أَلَسْنَا على حَقٍّ وهم على باطلٍ ؟ أليسَ قتْلانَا في الجنَّةِ وقتلاهُمْ في النَّارِ ؟ قال : «بلى» ، قال : ففيمَ نعطِي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا ونرجعُ ، ولَمَّا يحكُمِ اللهُ بيْنَنَا وبيْنَهُمْ ؟ فقال : يا ابنَ الخطَّابِ ، إنَّه رسولُ الله ولن يُضَيِّعَه اللهُ أبدًا . قال : فنزلت سورةُ الفَتْحِ ، قالَ : فَأَرْسَلَنِي رسولُ الله إلى عمرَ فأَقْرَأَهَا إِيَّاهُ ،قال : يا رسولَ الله ، وفتح هو ؟ قال : «نَعَمْ» ، فطابت نفس عمر ، ورجع .

وزاد ابن أبي شيبة وغيره على رواية «المسند» ، وفيه : «قال عليٌّ يوم صفين : أيها الناس ! إنَّ هذا فتحٌ ، فقَبِلَ عليٌّ القضيَّةَ ، ورجع ، ورجع الناس ، ثم إنهم خرجوا بحروراء» .

وهي قرية على بُعد ميلين من الكوفة ، وسُمِّي الخوارج بالحرورية نسبةً إلى حروراء .

ولقد ساق سهل بنُ حنيف رضي الله عنه حديث الحديبية ؛ لأن القراء ـ الخوارج ـ أصرُّوا على مواصلة القتال ؛ فساق لهم حديث الحديبية ؛ لأنهم أصرُّوا على مواصلة القتال ، ورفضوا رفضًا باتًّا قضية التحكيم ، مع أنهم هم الذين أشاروا بها ابتداءً على عليٍّ ـ رضوان الله عليه ـ فأشار عليهم سهل بن حنيف ـ رضوان الله عليه ـ بمطاوعة عليٍّ رضي الله عنه ، وألا يخالف الخوارج أمره لكونه أعلم بالمصلحة منهم ، وذكر لهم ما وقع بالحديبية من أن الصحابة رأوا يومئذٍ أن يقاتلوا ، وأن يخالفوا أمر النبيِّ ﷺ وما دعوا إليه من الصلح .

ثم ظهر لهم بعد ذلك أن الأصلح كان فيما رآه النبيُّ ﷺ ؛ فقد شرع

لهم الصلح ، فيقول بعضُ أهل العلم : كأن القراء اتهموا سهل بن حنيف بالجبن عن القتال لما قال لهم : اتهموا رأيكم وانزلوا على قول عليٍّ ، ظن بعض الخوارج جبن سهل بن حنيف عن القتال ! .

فقال لهم : بل اتهموا أنتم رأيكم ، فإني لا أُقَصِّرُ في القتال ؛ كما لم أكن مُقَصِّرًا يوم الحديبية من أجل أني لا أخالف حكم النبيِّ ﷺ . كذلك أتوقف اليوم عن القتال لأجل مصلحة المسلمين ؛ أي : كما توقفت عن القتال يوم الحديبية .

وهكذا بهذه الروايات يتبين لنا أنَّ الخوارجَ فرقةٌ خرجت من جيش عليٍّ . قيل : كانوا اثني عشر ألفًا ، وقيل : كانوا ستة عشر ألفًا ، وقيل كانوا : عشرين ألفًا [1] فُتنوا بهذه الفتنة ، وانطلقوا يرددون : «إن الحكم إلا لله» ، ثم بعد ذلك كفَّروا عليًّا ﷺ ؛ لأنه أذعن لحكم الرجال ، زعموا !! بل وانطلق الخوارج يسألون كل مسلمٍ يقابلهم ، إن قبل المسلمُ حكم عليٍّ ، وحُكْم قبول عليٍّ للوثيقة أو لنص الوثيقة أو لنص الحكم الذي سيصدره عمرو وأبو موسى ، يكفرون بدورهم هذا المسلم ويقتلونه ، بزعم أنه خرج من الإسلام لموافقته عليًّا ﷺ .

فانطلقوا ليعيثوا في الأرض الفساد ليذبحوا ويقتلوا ويتهموا كلَّ مسلم لا يقول بقولهم بالكفر البواح .

ونحن نعلم منهج عليٍّ ، وهو الرجل الذي ما أراد أن تقطر قطرة دم امرئ مسلم واحد. فماذا يصنع عليٌّ في هذه الفتنة الشعواء مع هؤلاء الجهلاء؟

---

(١) «تاريخ بغداد» (١/ ١٦٠) و «البداية والنهاية» (٧/ ٢٨٠، ٢١٨) ، و «مصنف عبد الرزاق» (١٠/ ١٥٧ ، ١٦٠) ، و «تاريخ خليفة» (١٩٢) ، و«مجمع الزوائد» (٦/ ٢٣٥) .

اختار عليٌّ ـ رضوان الله عليه ـ أحدَ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ من الكبار الفقهاء، العقلاء، البلغاء، العلماء؛ لينطلق إلى الخوارج ليقيم حجة الله عليهم، وليقارعهم الحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان؛ فيا ترى من سيختاره عليٌّ رضي الله عنه؟

لم يجد عليٌّ أمامه في هذه اللحظات الصعبة الحالكة غير ابن عباس رضي الله عنهما حَبْر الأمة، وترجمان القرآن، والفقيه الكبير؛ بل والغواص الماهر على التقاط الدرر، الذي دعا له رسول الله ﷺ أن يفقهه الله في الدين وأن يعلمه التأويل [١].

فتدبَّر معي هذا الحوار البديع الذي دار بين ابن عباس رضي الله عنهما وبين الخوارج وزعمائهم من خلال روايتين في غاية الجمال:

الأولى: عن عبيد الله بن عياض بن عمرو القاري قال: «جَاءَ عَبْدُ الله بْنُ شَدَّادٍ، فَدَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ رضي الله عنها وَنَحْنُ جُلُوسٌ لَيَالِيَ قُتِلَ عَلِيٌّ رضي الله عنه فَقَالَتْ لَهُ: يَا عَبْدَ الله بْنَ شَدَّادٍ، هَلْ أَنْتَ صَادِقِي عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ؟ تُحَدِّثُنِي عَنْ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ قَتَلَهُمْ عَلِيٌّ رضي الله عنه قَالَ: وَمَا لِي لاَ أَصْدُقُكِ؟. قَالَتْ: فَحَدِّثْنِي عَنْ قِصَّتِهِمْ، قَالَ: فَإِنَّ عليًّا رضي الله عنه لَمَّا كَاتَبَ مُعَاوِيَةَ؛ وَحَكَمَ الْحَكَمَانِ، خَرَجَ عَلَيْهِ ثَمَانِيَةُ آلاَفٍ مِنْ قُرَّاءِ النَّاسِ، فَنَزَلُوا بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا: حَرُورَاءُ مِنْ جَانِبِ الْكُوفَةِ، وَإِنَّهُمْ عَتَبُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا: انْسَلَخْتَ مِنْ قَمِيصٍ أَلْبَسَكَهُ الله تَعَالَى: وَاسْمٍ سَمَّاكَ الله تَعَالَى بِهِ، ثُمَّ انْطَلَقْتَ فَحَكَّمْتَ فِي دِينِ الله، فَلاَ حُكْمَ إِلاَّ لله تَعَالَى، فَلَمَّا أَنْ بَلَغ عليًّا رضي الله عنه مَا

---

(١) انظر: «صحيح البخاري» (٧٥)، ومسلم (٢٤٧٧).

عَتَبُوا عَلَيْهِ ، وَفَارَقُوهُ عَلَيْهِ ، فَأَمَرَ مُؤَذِّنًا فَأَذَّنَ : أَنْ لاَ يَدْخُلَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلاَّ رَجُلٌ قَدْ حَمَلَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا أَنِ امْتَلأَتِ الدَّارُ مِنْ قُرَّاءِ النَّاسِ دَعَا بِمُصْحَفٍ إِمَامٍ عَظِيمٍ ، فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَجَعَلَ يَصُكُّهُ بِيَدِهِ وَيَقُولُ : أَيُّهَا الْمُصْحَفُ ، حَدِّثِ النَّاسَ ، فَنَادَاهُ النَّاسُ فَقَالُوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا تَسْأَلُ عَنْهُ إِنَّمَا هُوَ مِدَادٌ فِي وَرَقٍ ، وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ بِمَا رُوِينَا مِنْهُ ، فَمَاذَا تُرِيدُ ؟ قَالَ أَصْحَابُكُمْ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ خَرَجُوا ، بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ كِتَابُ اللهِ ﷻ . يَقُولُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ فِي امْرَأَةٍ وَرَجُلٍ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ [النساء : ٣٥] . فَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَعْظَمُ دَمًا وَحُرْمَةً مِنِ امْرَأَةٍ وَرَجُلٍ ، وَنَقَمُوا عَلَيَّ أَنْ كَاتَبْتُ مُعَاوِيَةَ : كَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَقَدْ جَاءَنَا سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَةِ حِينَ صَالَحَ قَوْمَهُ قُرَيْشًا ، فَكَتَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » فَقَالَ سُهَيْلٌ : لاَ تَكْتُبْ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، فَقَالَ : «كَيْفَ نَكْتُبُ ؟» فَقَالَ : اكْتُبْ ؛ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «فَاكْتُبْ : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» فَقَالَ : لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ لَمْ أُخَالِفْكَ ، فَكَتَبَ « هَذَا مَا صَالَحَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ قُرَيْشًا» . يَقُولُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب: ٢١] .

فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ عَلِيٌّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ ؓ فَخَرَجْتُ مَعَهُ ، حَتَّى إِذَا تَوَسَّطْنَا عَسْكَرَهُمْ ، قَامَ ابْنُ الْكَوَّاءِ يَخْطُبُ النَّاسَ ؛ فَقَالَ : يَا حَمَلَةَ الْقُرْآنِ ، إِنَّ هَذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ ؓ فَمَنْ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ فَأَنَا أُعَرِّفُهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَا

يَعْرِفُهُ بِهِ ، هَذَا مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ وَفِي قَوْمِهِ: ﴿ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف : ٥٨] .

فَرُدُّوهُ إِلَى صَاحِبِهِ وَلاَ تُوَاضِعُوهُ كِتَابَ اللهِ ، فَقَامَ خُطَبَاؤُهُمْ فَقَالُوا : وَاللهِ لَنُوَاضِعَنَّهُ كِتَابَ اللهِ ، فَإِنْ جَاءَ بِحَقٍّ نَعْرِفُهُ لَنَتَّبِعَنَّهُ ، وَإِنْ جَاءَ بِبَاطِلٍ لَنُبَكِّتَنَّهُ بِبَاطِلِهِ ، فَوَاضَعُوا عَبْدَ اللهِ الْكِتَابَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ فَرَجَعَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ آلاَفٍ كُلُّهُمْ تَائِبٌ ، فِيهِمُ ابْنُ الْكَوَّاءِ حَتَّى أَدْخَلَهُمْ عَلَى عَلِيٍّ الْكُوفَةَ ، فَبَعَثَ عَلِيٌّ رضي الله عنه إِلَى بَقِيَّتِهِمْ ، فَقَالَ : قَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِنَا وَأَمْرِ النَّاسِ مَا قَدْ رَأَيْتُمْ فَقِفُوا حَيْثُ شِئْتُمْ حَتَّى تَجْتَمِعَ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لاَ تَسْفِكُوا دَمًا حَرَامًا ، أَوْ تَقْطَعُوا سَبِيلًا ، أَوْ تَظْلِمُوا ذِمَّةً ، فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ فَقَدْ نَبَذْنَا إِلَيْكُمُ الْحَرْبَ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ .

فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ رضي الله عنها : يَا ابْنَ شَدَّادٍ فَقَدْ قَتَلَهُمْ ، فَقَالَ : وَاللهِ مَا بَعَثَ إِلَيْهِمْ حَتَّى قَطَعُوا السَّبِيلَ ، وَسَفَكُوا الدَّمَ ، وَاسْتَحَلُّوا أَهْلَ الذِّمَّةِ ، فَقَالَتْ : آللهِ ؟ قَالَ : آللهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَقَدْ كَانَ ، قَالَتْ : مَا شَيْءٌ بَلَغَنِي عَنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ يَتَحَدَّثُونَهُ يَقُولُونَ : ذُو الثُّدَيِّ وَذُو الثُّدَيِّ ؟ قَالَ : قَدْ رَأَيْتُهُ وَقُمْتُ مَعَ عَلِيٍّ رضي الله عنه عَلَيْهِ فِي الْقَتْلَى فَدَعَا النَّاسَ . فَقَالَ أَتَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَمَا أَكْثَرَ مَنْ جَاءَ يَقُولُ : قَدْ رَأَيْتُهُ فِي مَسْجِدِ بَنِي فُلاَنٍ يُصَلِّي ، وَرَأَيْتُهُ فِي مَسْجِدِ بَنِي فُلاَنٍ يُصَلِّي ، وَلَمْ يَأْتُوا فِيهِ بِثَبَتٍ يُعْرَفُ إِلاَّ ذَلِكَ ، قَالَتْ : فَمَا قَوْلُ عَلِيٍّ رضي الله عنه حِينَ قَامَ عَلَيْهِ كَمَا يَزْعُمُ أَهْلُ الْعِرَاقِ ؟ قَالَ : سَمِعْتُهُ يَقُولُ : صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، قَالَتْ : هَلْ سَمِعْتَ مِنْهُ أَنَّهُ قَالَ : غَيْرَ ذَلِكَ؟ قَالَ : اللَّهُمَّ لاَ ، قَالَتْ : أَجَلْ ، صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، يَرْحَمُ اللهُ عَلِيًّا رضي الله عنه إِنَّهُ كَانَ مِنْ كَلاَمِهِ لاَ يَرَى شَيْئًا يُعْجِبُهُ إِلاَّ قَالَ : صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ،

فَيَذْهَبُ أَهْلُ الْعِرَاقِ يَكْذِبُونَ عَلَيْهِ وَيَزِيدُونَ عَلَيْهِ فِي الْحَدِيثِ»[(١)] .

الثانية : وروى النسائي رحمه الله في «الخصائص»[(٢)] : عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : «لَمَّا خَرَجَتِ الْحَرُورِيَّةُ اعتزلوا فِي دَارِهِمْ ، وَكَانوا سِتَّةَ آلافٍ ، فقلتُ لعَلِيٍّ رضي الله عنه : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَبْرِدْ بِالظُّهْرِ لَعَلِّي آتِي هَؤُلاَءِ الْقَوْمَ فَأُكَلِّمُهُمْ ـ قَالَ : إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ ، قَالَ قُلْتُ : كَلاَّ ، قَالَ : فَلَبِسْتُ وَتَرَجَّلْتُ وَدَخَلْتُ عَلَيهِمْ فِي نِصْفِ النَّهَارِ وَهُمْ قَائِلُونَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ . فَقَالُوا : مَرْحَبًا بِكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ، فَمَا جَاءَ بِكَ ؟ قُلْتُ لهمْ : أَتَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ الْمُهَاجِرِينَ والأَنْصَارَ وَمِنْ عِنْدِ ابْنِ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ وصِهْرِهِ ، وَعَلَيْهِمْ نَزَلَ الْقُرْآنُ وَهُمْ أَعْلَمُ بتأويله مِنْكُمْ ، وليسَ فيكُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ لأُبَلِّغُكُمْ ما يقولُونَ وَأُبَلِّغَهُمْ مَا تقولُونَ . فَانْتَحَى لِي نَفَرٌ مِنْهُمْ . قُلْتُ : هَاتُوا مَا نَقَمْتُمْ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ وابْنِ عَمِّه ؟ قَالُوا : ثَلاَثٌ . قُلْتُ : مَا هُنَّ ؟ قَالُوا : أَمَّا إِحْدَاهُنَّ : فَإِنَّهُ حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي أَمْرِ الله ، وقَالَ الله تعالى : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[يوسف : ٤٠] . ما شَأْنُ الرِّجَالِ والْحُكْمِ ؟ فَقُلْتُ : هَذِهِ وَاحِدَةٌ . قَالُوا : وَأَمَّا الثانِيَةَ : فَإِنَّهُ قَاتَلَ وَلَمْ يَسْبِ سِبَاهُمْ وَلَمْ يَغْنَمْ ، فَإِنْ كَانُوا كُفَّارًا حَلَّ سَبْيُهُمْ ، وَلَئِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ مَا أَحَلَّ سَبْيُهُمْ ولا قِتَالُهُمْ ، قُلْتُ : هَذِهِ ثِنْتَانِ ؛ فَمَا الثَّالِثَةُ ؟ قَالُوا : إِنَّهُ مَحَا نَفْسَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ أَمِيرُ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٨٦ ، ٨٧) ، وأبو يعلى (٤٧٤) ، وقال الهيثمي في «المجمع»(٦/ ٣٥٣) : «رواه أبو يعلى ورجاله ثقات» ، وإسناده حسن ؛ كما قال الشيخ شعيب في «المسند» .

(٢) أخرجه النسائي في «الخصائص» (١٨٥) ، وهو في «السنن الكبرى» (٥/ ١٦٥ ، ١٦٧) وسنده حسن .

الْكَافِرِينَ. قُلْتُ : هل عِنْدَكُمْ شيءٌ غيرَ هَذَا ؟ قَالُوا : حَسْبُنَا هَذَا.

قُلْتُ لَهُمْ : أَرَأَيْتكمْ إِنْ قَرَأْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا يُرَدُّ بِهِ قَوْلُكُمْ أَتَرْجِعُونَ ؟ قَالُوا : نَعَمْ . قُلْتُ: أَمَّا قَوْلُكُمْ : حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي أَمْرِ الله ، فَأَنَا أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ فِي كتابِ الله أَنْ قد صَيَّرَ اللهُ حُكْمُهُ إِلَى الرِّجَالِ فِي ثَمَنِ رُبُعِ دِرْهَمٍ ، فَأَمَرَ اللهُ الرِّجالَ أَنْ يَحْكُمُوا فِيهِ ؛ أَرَأَيْتَ قَولَ اللهُ تعالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾[المائدة : ٩٥] . وَكَانَ مِنْ حُكْمِ الله أَنَّهُ صَيَّرَهُ إِلَى الرِّجَالِ يَحْكُمُونَ فِيهِ وَلَوْ شَاءِ يَحْكُمُ فِيهِ ، فَجَازَ مِنْ حُكْمِ الرِّجَالِ ، أَنَشَدْتُكُمْ بِالله تعالَى أَحُكْمُ الرِّجَالِ فِي صَلَاحِ ذَاتِ البَيْنِ وَحَقْنِ دَمَائِهِمْ أَفضَلُ أَوْ فِي أَرْنَبٍ؟ قالُوا : بَلَى ، بَلْ هذَا أَفْضَلُ . وَفِي الْمَرْأَةِ وَزَوْجِهَا قَالَ الله تعالَى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ فَأَنَشَدْتُكُمْ بِالله حُكْمُ الرِّجَالِ فِي صَلَاحِ ذَاتِ بينِهِمْ وَحَقْنِ دِمَائِهِمْ أفضلُ منْ حُكْمِهِم فِي بِضْعِ امْرَأةٍ ؟ أَخَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا : نَعَمْ.

قلتُ: وَأَمَّا قَوْلُكُمْ قَاتَلَ فَلَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ ، أفتَسْبُونَ أُمَّكُمْ عَائِشَةَ وتَسْتَحِلُّونَ مِنْهَا مَا تَسْتَحِلُّونَ مِنْ غَيْرِهَا وَهِيَ أُمُّكُمْ ؟ فإنْ قُلْتُمْ: إِنَّا نسْتَحِلُّ مِنْهَا مَا نسْتَحِلُّ مِنْ غَيْرِهَا فَقَدْ كَفَرْتُمْ ؛ وَلَئِنْ قُلْتُمْ : لَيسَتْ بِأُمِّنَا فقدْ كَفَرْتُمْ ؛ لأن الله تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾[الأحزاب:٦] . فَأَنْتُمْ تَدُورُونَ بَيْنَ ضَلالَتَيْنِ فأتوا منهُمَا بمخْرَجٍ ؟ قُلْتُ : أَفخَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ.

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ : مَحَا اسْمَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنَا آتِيكُمْ بِمَنْ تَرْضَوْنَ ، وأرَاكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ صَالَحَ الْمُشْرِكِينَ ؛ فقالَ لِعليٍّ ﷺ : «اكْتُبْ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله ﷺ» ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ : لَا وَالله مَا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ الله ، لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ الله لأَطَعْنَاكَ ، فاكْتُبْ مُحَمَّدُ بنُ عبدِ الله ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «امْحُ يَا عَلِيّ ، واكْتُبْ هذَا مَا صَالَحَ عليهِ محمدُ بنُ عبدِ الله » ؛ فَوَ الله لَرَسُولُ الله ﷺ خَيرٌ من عِليٍّ ، وقدْ محَا نفْسَه ، ولمْ يَكُنْ مَحْوهُ ذلكَ يمْحُوهُ منَ النُّبُوَّةِ . أَخَرَجْتُ من هذِهِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ . فَرَجَعَ منهُمْ أَلْفَانِ ، وَخَرَجَ سَائِرُهُمْ فقُتِلُوا عَلَى ضَلاَلَتِهِم ، فَقَتَلَهُمْ الْمُهَاجِرُونَ والأَنْصار» .

وعاد عددٌ كبيرٌ جدًّا من الخوارج بعد هذه المناظرة من ابن عباس ﷺ تابوا إلى الله ، واستغفروا الله ﷻ ، وندموا على ما كان منهم ، وعادوا مع ابن عباس إلى عليٍّ ﷺ ، وبقيت فرقةٌ تحمل هذا الفكر العفن لحكمة وغاية ، ألا وهي : لتكون هذه الفرقةُ علامةً جديدةً من علامات النبوة ، وصدق المصطفى ﷺ .

فلقد أخبر النَّبيُّ ﷺ بظهور هذه الفرقة ؛ بل ووصفها وصفًا دقيقًا بليغًا ؛ فكيف لا يتحقق وعدُ النَّبيِّ الصادق ﷺ ؟

تدبر معي هذه الأحاديث التي أخبر فيها النَّبيُّ ﷺ عن فرقة الخوارج لنعود بعد ذلك إلى عليٍّ ﷺ ، لنعرف ما الذي صنع بهذه الفرقة الضالة المضلة .

ففي «الصحيحين» [(١)] من حديث أبي سعد الخدري ﷺ قالَ : « بَعَثَ

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ٦(٣٣٤٤) ، وانظر أطرافه هناك ، وانظر (٤٣٥١) ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (١٠٦٤) .

عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ مِنَ الْيَمَنِ بِذَهَبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ . لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا قَالَ : فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ : بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ ، وَالأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ ، وَزَيْدِ الخَيْلِ ، وَالرَّابِعُ إِمَّا عَلْقَمَةُ بْنُ عُلاَثَةَ ، وَإِمَّا عَامِرُ ابْنُ الطُّفَيْلِ ؛ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ : كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلاَءِ ، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : « أَلاَ تَأْمَنُونِي ؟ وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً » قَالَ : فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ ، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ ، نَاشِزُ الجَبْهَةِ ، كَثُّ اللِّحْيَةِ ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ ، مُشَمَّرُ الإِزَارِ ! فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله !! اتَّقِ الله ، فَقَالَ : « وَيْلَكَ !! أَوَ لَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الأَرْضِ أَنْ يَتَّقِي الله » قَالَ : ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ . فَقَالَ : خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ : يَا رَسُولَ الله !! أَلاَ أَضْرِبُ عُنُقَهُ ؟ . فَقَالَ : « لاَ ، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي » قَالَ خَالِدٌ : وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ ، وَلاَ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ ». قَالَ : ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ ، وَهُوَ مُقَفٍّ ، فَقَالَ : « إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِيءِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ الله ، رَطْبًا لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ » أَظُنُّهُ قَالَ : « لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ ».

و فيهما [(١)] من حديث أبي سعيد رضي الله عنه في رواية أخرى : « بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْمًا ، أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله !! اعْدِلْ ؛ فَقَالَ رسولُ الله ﷺ : « وَيْحَكَ !! وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟ قَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ [(٢)] إِنْ لَمْ أَعْدِلْ». فَقَالَ عُمَرُ بْنُ

---

(١) البخاري (٣٦١٠) ، ومسلم (١٠٦٤) (١٤٨).

(٢) قال النوويُّ في «شرح مسلم» (٤/ ١٩): «رُوي بفتح التاء وبضمها فيهما ، ومعنى الضم ظاهر=

الْخَطَّابِ ﷺ : يَا رَسُولَ الله !! ائْذَنْ لِي فِيهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « دَعْهُ ، فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ ، يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ ، لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ (وهُو القِدْحُ) ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ (*) فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ، سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ ، إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ «أي: تظهر وتزول وتنتفض» يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ ».

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ : فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ ، فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ فَالْتُمِسَ . فَوُجِدَ فَأُتِيَ بِهِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ رَسُولِ الله ﷺ الَّذِي نَعَتَ».

وفي رواية في «صحيح مسلم» (١) من حديث زيد بن وهب الجهني أنه كان في الجيش الذين كانوا مع عليٍّ ﷺ الذين ساروا إلى الخوارج ، فقال عليٌّ ﷺ : أيها النَّاسُ !! إني سمعتُ رَسُولَ الله ﷺ يقولُ :

«يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ ، لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ ، وَلاَ صَلاَتُكُمْ إِلَى صَلاَتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلاَ صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ ، يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ ، يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ ، لاَ تُجَاوِزُ صَلاَتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ » ، لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذِينَ

= وتقدير الفتح : خبت أنت أيها التابع إذا كنتُ لا أعدل ؛ لكونك تابعًا ومقتديًا بمن لا يعدل ، والفتح أشهر ، والله أعلم» .

(*) يعني: ريش السهم .

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب التحريض على قتل الخوارج (١٠٦٦) (١٥٦) .

يُصِيبُونَهُمْ مَا قُضِيَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ ﷺ لاتَّكَلُوا عَنِ الْعَمَلِ ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلًا لَهُ عَضُدٌ ، وَلَيْسَ لَهُ ذِرَاعٌ عَلَى رَأْسِ عَضُدِهِ مِثْلُ حَلَمَةِ الثَّدْيِ ، عَلَيْهِ شَعَرَاتٌ بِيضٌ ، فَتَذْهَبُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ وَتَتْرُكُونَ هَؤُلاَءِ يَخْلُفُونَكُمْ فِي ذَرَارِيِّكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ !! وَاللهِ !! إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُونُوا هَؤُلاَءِ الْقَوْمَ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ سَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ ، وَأَغَارُوا فِي سَرْحِ النَّاسِ ، فَسِيرُوا عَلَى اسْمِ اللهِ . قَالَ سَلَمَةُ بْنُ كُهَيْلٍ : فَنَزَّلَنِي زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ مَنْزِلًا ، حَتَّى قَالَ : مَرَرْنَا عَلَى قَنْطَرَةٍ ، فَلَمَّا الْتَقَيْنَا وَعَلَى الْخَوَارِجِ يَوْمَئِذٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ الرَّاسِبِيُّ . فَقَالَ لَهُمْ : أَلْقُوا الرِّمَاحَ ، وَسُلُّوا سُيُوفَكُمْ مِنْ جُفُونِهَا ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُنَاشِدُوكُمْ كَمَا نَاشَدُوكُمْ يَوْمَ حَرُورَاءَ ، فَرَجَعُوا فَوَحَّشُوا بِرِمَاحِهِمْ ، وَسَلُّوا السُّيُوفَ ، وَشَجَرَهُمُ النَّاسُ بِرِمَاحِهِمْ . قَالَ : وَقُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَمَا أُصِيبَ مِنَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ إِلاَّ رَجُلاَنِ ، فَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه : الْتَمِسُوا فِيهِمُ الْمُخْدَجَ ، فَالْتَمَسُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ ، فَقَامَ عَلِيٌّ رضي الله عنه بِنَفْسِهِ.

(وفي رواية [١]: فَقَالَ : ارْجِعُوا ، فَوَ اللهِ ما كَذَبْتُ وَلاَ كُذِبْتُ ـ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا) فَقَامَ عَلِيٌّ رضي الله عنه بِنَفْسِهِ حَتَّى أَتَى نَاسًا قَدْ قُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، قَالَ : أَخِّرُوهُمْ فَوَجَدُوهُ مِمَّا يَلِي الأَرْضَ ، فَكَبَّرَ ، ثُمَّ قَالَ : صَدَقَ اللهُ ، وَبَلَّغَ رَسُولُهُ .

وقد بشَّرَ النبيُّ ﷺ عليًّا رضي الله عنه بأنه سيقاتل المتأولين والمارقين .

روى أحمد في «مسنده» والنسائي في «الكبرى» وابن أبي شيبة وابن حبان

---

(١) لمسلم (١٠٦٦) (١٥٧) .

وغيرهم[1] عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : «كُنَّا مَعَ رسولِ الله ﷺ فَانْقَطَعَتْ نَعْلُهُ ، فَرمَى بِهِ إِلَى عَلِيٍّ ﷺ ، فَتَخَلَّفَ عَلِيٌّ يَخْصِفُهَا ، فَمَشَى قَلِيلًا ، ثمَّ قَالَ : «إِنَّ مِنكُمْ رَجُلًا يُقَاتِلُ عَلَى تَأْوِيلِ القُرآنِ ، كَمَا قَاتَلَ عَلَى تَنْزِيلِهِ» فَاسْتَشْرَفَ لَهَا القَوْمُ ، وَفِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ . قال أبو بكر: أَنَا هُوَ ؟ قَالَ : «لاَ» قَالَ عُمَرُ: أَنَا هُوَ قَالَ: « لَا، وَلَكِنْ خَاصِفُ النَّعْلِ» يعْنِي : عليًّا فَبَشَّرْنَاهُ ، فَلَمْ يَرْفَعْ بِهِ رَأْسَهُ ، كَأَنَّهُ قَدْ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ .

فالخوارج هم شرار الخلق ، كما في «صحيح مسلم»[2] من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ ذَكَرَ قَوْمًا يكُونُونَ فِي أُمَّتِهِ ، يَخْرُجُونَ فِي فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ سِيمَاهُمُ التَحَالُقُ ، قَالَ : «هُمْ شَرُّ الخَلْقِ ، (أَوْ مِنْ أَشَرِّ الخَلْقِ) يَقْتُلُهُمْ أَدْنَى الطَّائِفَتَيْنِ إِلَى الحَقِّ» .

وفي لفظٍ : قال رسولُ الله ﷺ : « تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ ، يَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالحَقِّ ».

وفي لفظٍ أنه ﷺ قال : « تَكُونُ فِي أُمَّتِي فِرْقَتَانِ ، فَتَخْرُجُ مِنْ بَيْنِهِمَا مَارِقَةٌ ، يَلِي قَتْلَهُمْ أَوْلاَهُمْ بِالحَقِّ ».

وفي لفظٍ آخر أنه ﷺ قال : « تَمْرُقُ مَارِقَةٌ فِي فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ ، فَيَلِي

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٣٣ ، ٨٢) ، وابن حبان (٦٩٣٧) ، والنسائي في «الكبرى» (٨٥٤١) ، والحاكم (٣/ ١٣٢) وصحَّحه وأقره الذهبي، والبغوي في «شرح السنة» (٢٥٥٧) ، وأبو يعلى في «المسند» (١٠٨٦) ، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٦٧) ، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٤٣٥ ، ٤٣٦) ، وقد روي عن عليٍّ ﷺ في «سنن الترمذي» (٣٠١٥) ، و«شرح معاني الآثار» للطحاوي (٦٧٩٧) ، وابن أبي شيبة (٣٢٠٨١) ، و«مسند البزار» (٩٠٥) ، و«المعجم الأوسط» (٤/ ١٥٨) ، والحاكم (٤/ ٣٣٢) ، وغيرهم ، وصحَّحه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٤٨٧) على شرط مسلم .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (١٠٦٥) .

قَتَلَهُمْ أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ ».

وهذه شهادةٌ نبويَّةٌ من الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ لعليٍّ ﷺ وفريقه ؛ فإن فريقَ عليٍّ هو أدنى الطائفتين إلى الحقِّ ، وقد بَيَّنَ النبيُّ ﷺ علامةَ هذه الفرقة ؛ حتى لا يكون هناك لَبْسٌ .

وهكذا .. وعندما وجد عليٌّ الرجل الذي وصفه رسول الله ﷺ سجد لله فرحًا ببشارة النبيِّ ﷺ أنه وفريقه أولى الطائفتين بالحقِّ [١]، وهكذا قاتل عليٌّ الخوارج ، وقضى على رؤوسهم .

لكن بقي الحقدُ الأعمى يدمِّر، ويحرِّق قلوب هؤلاء الذين وصفهم النبيُّ ﷺ بأنهم شرُّ الخلق ؛ بل لقد أخبر ﷺ أنه لو لقيهم لقتلهم .

فهؤلاء ظلَّت مراجل الحقد والغل تغلي في صدورهم ، ولم يرتدعوا ، وظن عليٌّ ﷺ أنه بعد القضاء على رؤوسهم في النهروان ، أنه قد أنهى على فتنتهم الخطيرة .

نعم ؛ فلقد انطلقوا ليعيثوا في الأرض الفساد ؛ بل كانوا يقابلون المسلمين فيسألونهم عن اعتقادهم في عليٍّ ؛ فإن كانوا على مثل رأيهم في عليٍّ نجَوْا من شرِّهم ؛ فإن قال المسلم قولًا طيبًا في حق عليٍّ ﷺ قتلوه ؛ كما أخبر عنهم النبيُّ ﷺ يقتلون أهل الإسلام ، ويتركون عبدة الأوثان والصلبان [٢]؛ فلقد لقيهم عبد الله بن خباب بن الأرت ﷺ وعن أبيه ؛ فقالوا له ـ وكانت معه امرأته وهي حامل ، فلما عرفوه ـ قالوا له : حدِّثنا

---

(١) عند أحمد في «المسند» (١/ ١٠٧) : «فخررنا سجودًا ، وخرَّ عليٌّ معنا ساجدًا» .

(٢) كما عند البخاريِّ ، كتاب أحاديث الأنبياء (٣٣٤٤) ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (١٠٦٤) .

حديثًا سمعته من أبيك ، سمعه أبوك من رسول الله ﷺ ، فحدَّثهم عبد الله بن خباب بن الأرت فقال: سمعت أبي يقول: قال رسول الله ﷺ : « سَتَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي ، والْمَاشِي فِيهَا خَيْرًا مِنَ السَّاعِي ، فَإِنْ أَدْرَكَتْكَ فَكُنْ عَبْدَ الله الْمَقْتُول»[1] .

فأخذوه ، واقتادوه مع امرأته ، وكانت امرأته حاملًا ، وهم في طريقهم امتدت يدُ أحدِ الخوارج على تمرة سقطت من نخلة ؛ فلما أراد أن يرفعها إلى فمه ، قال له أحد إخوانه : ويحك !! أتأكل التمرة من غير أن تستحلها من صاحبها ، فألقاها على الفور ! وهو يستغفر الله نادمًا على ما كان قد بدر منه أن يفعله ، وبعد خطوات قليلة ذبحوا عبد الله بن خباب مع امرأته !! وهذا هو سبب معركة النهروان .

انظروا إلى هذا الورع الكاذب الباهت ، وإلى هذا الفهم العقيم السقيم ، وتستغيث امرأة عبد الله ، وتقول إنها حامل ، فلم يتركوها ، فذبحوها ، وبقروا بطنها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فعن أبي مجلز رحمه الله قال: « بينما عبد الله بن خباب في يد الخوارج إذ أتوا على نخل ، فتناول رجلٌ منهم تمرة ، فأقبل عليه أصحابه ، فقالوا له : أخذت تمرة من تمر أهل العهد؟! وأتوا على خنزير فنفحه رجلٌ منهم بالسيف ، فأقبل عليه أصحابه فقالوا له : قتلت خنزيرًا من خنازير أهل العهد؟! قال: فقال عبد الله : ألا أخبركم من هو أعظم عليكم حقًّا من هذا؟! قالوا : مَنْ؟ قال : أنا ، ما تركت صلاة ، ولا تركت كذا ، ولا تركت كذا ، قال : فقتلوه. قال:

---

(١) وهذا ثابت عند أحمد (٥/ ١١٠) ، والطبراني في «الكبير» (٤/ ٣٦٣١) ، وقال الألبانيُّ في «الإرواء» (٢٤٥١) : «إسناده جيد» .

فلمَّا جاءهم عليٌّ قال : أقيدونا بعبد الله بن خبَّاب! قالوا : كيف نقيدك به وكلنا شارك في دمه؟! فاستحل قتالهم »[١] .

فانطلق هؤلاء الخبثاء شرُّ الخلق ، ليعيثوا في الأرض الفساد ، وظن عليٌّ رضي الله عنه أنه بالقضاء على رؤوسهم في النهروان قد قضى على شرٍّ فتنتهم الحالكة ، البكماء العمياء . ولكن هؤلاء لا زالت مراجلُ الغل والحقد تغلي في قلوبهم ؛ فلقد جلسوا يومًا من الأيام ، وتذكَّروا إخوانهم في النهروان ممن قُتلوا ؛ فقالوا: « ماذا نصنع بالبقاء بعد موت وقتل إخواننا ؟ فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلال فقتلناهم أرحنا منهم البلاد والعباد ، فأخذنا بثأر إخواننا !!» .

فَمَنْ أئمةُ الضلالِ عند هؤلاء ؟ ! إنه عليٌّ ومعاوية وعمرو بن العاص - رَضِيَ اللهُ عَنْهُم جميعًا!!.

فانبعثَ أشقى الآخرين ، وهو قاتلُ عليٍّ رضي الله عنه رجل يقال له : عبد الرحمن ابن ملجم التميمي وقال : «أنا أكفيكم عليَّ بن أبي طالب»! ، وقام رجلٌ آخر يقال له : البُرَك بن عبد الله التميمي قال : « أنا أكفيكم معاوية » ، وقام رجلٌ ثالثٌ يقال له : عمرو بن بكر التميمي ، فقال : «وأنا أكفيكم عمرو بن العاص » ، وعاهدوا الله أن ينطلقوا جميعًا في ليلة واحدة ليقتلوا الثلاثة في ليلة واحدة ، فاتفقوا على ليلة السابع عشر من رمضان سنة أربعين من هجرة النبيِّ ﷺ[٢] .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٥٥٤ ، ٥٦٠) ، و الدارقطني في «السنن » (٣/ ١٣١) ، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ١٨٤) ، والطبراني في «المعجم الكبير» (٤/ ٦٠)، (٣٦٣١) ، والخطيب في «تاريخه» (١/ ٢٠٥، ٢٠٦) ، وانظر: «الفتح» (١٢/ ٢٩٧) وهو صحيح .

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» (٣/ ١٥٥ ، ١٥٦) ، والطبراني في «المعجم الكبير» (١/ ٩٧) (١٦٨) من طريق إسماعيل بن راشد قال : كان من حديث ابن ملجم - لعنه الله - وأصحابه=

وانطلق الثلاثة ، كلٌّ ذهب إلى وجهته وطريقه ؛ ليقوم بمهمته الخبيثة الشنيعة ، وقدَّر الله ـ جَلَّ وعلا ـ ولا رادَّ لقضائه ألا يُفلح من الثلاثة في مهمته إلا أشقى الآخرين عبد الرحمن بن ملجم الذي قتل عليًّا ﷺ بطعنةٍ حادة في رأسه ، بعدما سنَّ سيفه أربعين يومًا ، وأغرقه في السمِّ أربعين يومًا كذلك !!!

وعليٌّ كان قتله سهلًا ميسورًا جدًّا ؛لأن عليًّا كان لا يتخذ حرسًا ؛ بل كان ينطلق في ظل هذه الأزمة الحالكة وحده بدون حرس ، فاختبأ له عبد الرحمن بن ملجم ـ عليه من الله ما يستحقه ـ وانتظر حتى خرج عليٌّ كعادته ؛ فلقد كان يخرج عليٌّ قبل الفجر بوقت كافٍ ؛ لماذا ؟ ليوقظ المسلمين للصلاة وهو أمير المؤمنين ، يمرُّ على بيوت الناس في طريقه إلى المسجد ، ويقول : «الصلاة يرحمكم الله» .

فاختفى عبد الرحمن بن ملجم ، وانقضَّ عليه بالسيف في رأسه ، فضربه ضربة حادة فسقط عليٌّ وهرب ابن ملجم ، لكن القوم قد أمسكوا به ، وحملوا عليًّا إلى داره بدلًا من أن يذهب ليؤم المسلمين في صلاة الفجر ؛ حُمل الأسد إلى داره ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه ـ ودماؤه الشريفة تنزف من جسده الطاهر .

ولما نام على فراشه ، وأفاق ، أَمَرَ المسلمين من حَوْله أن ينطلقوا ليؤدُّوا صلاة الفجر ، وحثَّهم على ذلك قبل أن يخرج وقتُها ؛ فلما صلَّى المسلمون الفجر ، عادوا إليه ، وقد أمسكوا بعبد الرحمن بن ملجم ؛ فلما

= أنَّ ...» ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ١٩٢) : «رواه الطبراني ؛ مرسل ، وإسناده حسن» ، وضعَّف الشيخ الألباني سنده في «الإرواء» (٦/ ٧٥، ٧٦) .

نظر إليه عليٌّ رضي الله عنه قال له : «يا عدو الله ، ألم أكن أُحسن إليك ؟! » ، فقال : بلى ؛ فقال عليٌّ رضي الله عنه : « فما الذي حملك على ذلك ؟ » ، قال عبد الرحمن بن ملجم : والله لقد شحذت سيفي أربعين يومًا ، وأغرقت سيفي في السمِّ أربعين يومًا ، وسألت الله عز وجل أن يقتل بهذا السيف شرَّ الخلق ؛ فقال له عليٌّ رضي الله عنه : «والله ما أراك إلا مقتولًا به ، ولا أراك إلا من شر الخلق» [(١)] .

ونظر عليٌّ في هذه اللحظات الصعبة بفقهه وبصيرته الحادة ، فرأى الغيظ والألم يتفجر في أعين أصحابه وأهله وأولاده ممن يحيطون به على فراش الموت ، ويقيِّدون إلى جواره قاتله أو طاعنه : عبد الرحمن بن ملجم ، فظنَّ أن انتقامًا مروعًا سيحيق بهذا الطاعن الظالم ، ولكنَّ عليًّا الرجل الذي علَّم الدنيا العدل والورع بعد عمر ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم جميعًا ـ يلتفت إلى أصحابه وأولاده ـ رضوان الله عليهم جميعًا ـ ويقول لهم كلمات رقراقة عادلة جميلة ، هي ليست كثيرة على عليٍّ رضي الله عنه؛ بل إن شئت فقل ـ لا يقولها في هذه اللحظات الحالكة إلا عليٌّ رضي الله عنه.

التفت إليهم خشية أن يتجاوز أهلُه وأصحابه وأولاده في القصاص العادل الذي حدَّده الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ مع هذا القاتل ، فبيَّن لهم وذكَّرهم ، وقال : «أطعموه واسقوه ، وأحسنوا إليه ، وأكرموا مثواه ، فإنْ أعش ، فأنا أوْلى بدمه قصاصًا أو عفوًا ، وإن متُّ فألحقوه بي أُخاصمه عند ربِّ

---

(١) «مقتل علي» لابن أبي الدنيا (١٦) ، و«تاريخ الطبري» (٦/ ٦٢) ، وانظر الطبراني في «الكبير» (١٦٨) ، وابن سعد (٣/ ٣٥ ، ٣٧) ، والحاكم (٣/ ١٤٣) ، و«البداية والنهاية» (٧/ ٣٢٨) ، و«الاستيعاب» لابن عبد البر (٣/ ١١٢٣ ، ١١٢٥) ، والهيثمي في «المجمع» (٩/ ١٤٥) .
وانظر: الحاشية السابقة .

العالمين ولا تقتلوا بي سواه ، إن الله لا يحبُّ المعتدين»[(١)] .

فهل يحتاجُ هذا المشهد المثير إلى تعليق بكلماتٍ من عندنا ؟ !

لا والله ، فلندع المشهد بكلماتِ عليٍّ يتألق سموًّا وروعة وعظمة وجلالًا ؛ فإن هذه الكلمات لا يقولها في مثل اللحظات إلا عليٌّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه.

ويروي عبد الله بن سَبُعٍ أنه سمع عليًّا ﷺ يقول : لتخضبَنَّ هذه من هذا ، فما ينتظر بي الأشقى ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين ، فأعلمنا مَنْ هو ، حتى نبير عترته (أي : نهلكهم) ، والله لنبيرن عترته ، قال : إذن تالله تقتلون بي غير قاتلي ! أنشدكم بالله أن لا يقتل غير قاتلي ؛ قالوا : إن كنتَ قد علِمت فاستخلف علينا ؟

قال : لا ، ولكن أترككم إلى ما ترككم إليه رسول الله ﷺ .

وفي رواية : أَكِلُكُمْ إِلَى مَا وَكلكم إليه رسول الله ﷺ .

قالوا : فما تقول لربك إذا أتيته ؟

وفي رواية : إذا لقيته ؟ قال : أقول : « اللَّهُمَّ تركتني فيهم ما بدا لك ، ثم قبضتني إليك وأنت فيهم ؛ فإن شئت أصلحتهم ، وإن شئت أفسدتهم»[(٢)] .

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد «فضائل الصحابة» (٢/ ٥٦٠) ، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٣٥) ، وانظر : «تاريخ الطبري» (٦/ ٦٤) .

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٣٠ ، ١٥٦) ، والبزار (٣/ ٩٢) وابن أبي شيبة (٧/ ٤٤٤ ، ٤٨٥) ، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥) ، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٢/ ٥٧) ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٢/ ٥٣٧ ، ٥٣٩ ، ٥٤٥ ، ٥٤٩) ، (٤٨/ ٣٧٦) ، والمزي في «تهذيب الكمال» (١٥/ ٦) وحسنه لغيره الشيخ شعيب الأرناؤوط.

وهذا من دلائل النبوة .

فلقد أخبر النبيُّ ﷺ أن عليًّا رضي الله عنه سيكون من الشهداء .

روى مسلمٌ [(١)] عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ كَانَ عَلَى حِرَاءٍ هُوَ وَأَبو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ فَتَحَرَّكَتِ الصَّخْرَةُ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « اهْدَأْ . فَمَا عَلَيْكَ إِلاَّ نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ » .

وكان رضي الله عنه يعلم أنه مستشهد ؛ كما ذُكِر ذلك في كثيرٍ من المواضع .

فعن عبيدة السلماني قال : كان عليٌّ إذا رأى ابن ملجم قال :

أريــد حياتــه ويريــد قــتلي　　عــذيرك مــن خليلـك مــن مـراد [(٢)]

وقال ـ عن عبد الرحمن بن ملجم : «أما إن هذا قاتلي ، قيل : فما يمنعك منه ؟ قال : إنه لم يقتلني بعد» .

وكان يقول : « إنه عهد النبيِّ ﷺ أني لا أموت حتى تخضب هذه ـ يعني : لحيته ـ من هذه ـ يعني : هامته» [(٣)] .

فقد خطب يومًا فقال : « اللهم إني قد سئمتهم وسئموني ، ومللتُهم وملُّوني ، فأرحني منهم وأرحهم مني ، فما يمنع أشقاكم أن يخضبها بدم ، ووضع يده على لحيته» [(٤)] .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل طلحة والزبير رضي الله عنهما (٢٤١٧) .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠/ ١٥٤) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٢٧٤) وفي «الأدب» له (٣٧١) ، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٣٤) ، ومن طريق عبد الرزاق أخرجه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (١/ ٣٤٧) من طريق ابن سيرين عن عبيدة . وفي رواية أسقط عبيدة من الإسناد .

(٣) انظر : «تاريخ الإسلام» للذهبي ـ عهد الخلفاء الراشدين ـ (٦٤٨) ، و «دلائل النبوة» للبيهقي (٦/ ٤٣٨ ، ٤٤١) ، و «الشريعة» للآجري (٤/ ٢١٠٥) و«الطبقات» لابن سعد (٣/ ٣٣ ، ٣٤) .

(٤) «مصنف» عبد الرزاق (١٠/ ١٥٤) ، و«الطبقات» لابن سعد (٣/ ٣٤) .

وفي رواية عن جندب قال : ازدحموا على عليٍّ ﷺ حتى وطئوا على رجله ، فقال : «اللهم إني قد مللتهم وملُّوني ، وأبغضتهم وأبغضوني ، فأرحني منهم وأرحهم مني»[(١)] .

وعن أبي صالح قال : شهدت عليًا وضع المصحف على رأسه حتى سمعت تقعقع الورق ؛ فقال : «اللهم إني سألتهم ما فيه فمنعوني ، اللهم إني قد مللتهم وملُّوني ، وأبغضتهم وأبغضوني ، وحملوني على غير أخلاقي ، فأبدلهم بي شرًّا مني ، وأبدلني بهم خيرًا منهم ، ومث قلوبهم ميثة الملح في الماء»[(٢)] .

وقال الحسن بن علي : قال لي عليٌّ ﷺ : إن رسول الله ﷺ سنح لي الليلة في منامي ؛ فقلت : يا رسول الله ! ماذا لقيت من أمتك من الأود واللدد[(٣)] ؟ قال : ادع عليهم ، قلت : اللهم أبدلني بهم من هو خير منهم ، وأبدلهم بي مَنْ هو شر مني لهم» . قال الحسن ﷺ : فخرج فضربه الرجل[(٤)] .

وفي هذه اللحظات وعليٌّ في ساعاته الأخيرة لا زال يتكلَّم ، ولا زال يذكِّر ، ولا زال ينصح ، ثم دعا عليٌّ أولادَه ، فدخلوا عليه وعَلَى رأسهم الحسن ﷺ ، وراح يُمْلي عليهم وصيةً رائعةً غالية ؛ فقال ؛ كما في «تاريخ الطبري» ، و «معجم الطبراني الكبير» ـ بسندٍ ضعيف ـ قال : «أوصيكم

---

(١) «الآحاد والمثاني» لابن أبي عاصم (١/ ٣٧) .

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ١٤٤) .

(٣) الأود : العوج . اللدد : الخصومة .

(٤) «تاريخ الإسلام» للذهبي ـ عهد الخلفاء الراشدين ـ (٦٤٩) .

بتقوى الله ﷻ ، ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون» .

وقال : «واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا» ؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إِنَّ صَلَاحُ ذَاتِ البَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ» [(١)] .

الله الله في القرآن ، لا يسبقنكم إلى العمل به سابق ، الله الله في الفقراء والمساكين ، أشركوهم في معاشكم ، لا تخافن في الله لومة لائم ، يكفيكم من أرادكم وبغى عليكم ، لا تدعوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقولوا للناس حسنًا كما أمركم الله تعالى ، وعليكم بالتواصل والتباذل ، وإياكم والتدابر والتقاطع والتفرق ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب» .

ثم أمرهم أن ينصرفوا ، وأن يخرجوا من مجلسه ، وظل عليٌّ ؓ يردد قَوْلَةَ : لا إله إلا الله . ولم يقف لسانه عن ترديد هذه الكلمة ، حتى لقي ربه ـ جَلَّ وَعَلا ـ في فجر يوم السبت في اليوم الثاني من طعنه ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه.

وهكذا آبَ المسافر إلى وطنه الخالد ، وعاد إلى منزله .. رحل ابن أبي طالب ؓ لكنَّ حياته والأيام التي عاشها على الأرض تحوَّلت إلى شمس مشرقة ، أخذت مكانها العالي في حياة البشرية وتاريخها ، وراحت تجذبُ إليها على مدار التاريخ كله قيمُ الحق ، والبطولة ، والإيمان ، والشرف ؛ فهو الفدائي العظيم الذي علَّم الدنيا حقيقة الفداء ، وشرف البطولة والتضحية .

وهكذا رحلَ الإمام ، ووالله ما رحل .. إنْ رَحَلَ بجسده ، فلقد بقيت

---

(١) هذا جزء من الوصية ، وانظرها في «تاريخ الطبري» (٦/ ٦٢ ـ ٦٤) ، واللفظ المذكور عند الطبراني في «الكبير» (١/ ٩٧) (١٦٨) وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٨٧٤) ، و«الضعيفة» (٥١٩٨) .

مناقبه ، وبقيت فضائله ، وبقيت أخلاقه ، ظعنَ وما ظعن ، وهو الراحل المقيم ، الذي خطَّ على جبين الزمان وعلى صفحات الأيام خلودًا بأخلاقه واتباعه لحبيبه المصطفى ﷺ .

ولله درُّ ضرارٍ الكناني الذي وصف عليًّا ﷺ وصفًا بليغًا فقال:

«كان بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصْلًا ، ويحكم عدْلًا ، يتفجر العلمُ من جوانبه ، وتنطلق الحكمة على لسانه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، وكان والله غزير العبْرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفيه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جَشُبْ ، وكان فينا كأحدنا ، يدنينا إذا أتيناه ، يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدؤنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، وكنا والله مع قربه منَّا لا نكاد نكلِّمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته ، وكان إذا تبسَّم فعَنْ مِثْل اللؤلؤ المنظوم ، يعَظِّمُ أهل الدين ، ويقرِّب المساكين ، لا يطمع القويُّ في باطله ، ولا ييأس الضعيفُ من عَدْله ، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليلُ سدوله ، وغارت نجومُه ، وقد مُثِّل في محرابه قابضًا على لحيته يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، فكأني أسمعه يقول :

«يا دنيا غُرِّي غيري ، أَلِيَّ تعرضتي ، أم إليَّ تشوقتي ، هيهات هيهات ، قد أبتتك (أي : طلقتك ثلاثًا لا رجعة فيها) ، فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ، آهٍ من قلة الزاد ، وبُعْدِ السفر ، ووحشة الطريق» [(١)]

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٨٤، ٨٥) ، وابن عبد البر في«الاستيعاب» (١/ ٣٤١) ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٤/ ٤٠١ ، ٤٠٢) .

وهكذا رَحَلَ الفدائي العظيم .. رَحَلَ الرجلُ الذي جعله النبيُّ ﷺ منه بمنزلة هارون من موسى .. رَحَلَ الرجلُ الذي أحبَّ الله ورسوله، وأحبه اللهُ ورسولهُ .. رَحَلَ تلميذ المصطفى وكفى ! رَحَلَ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه.

وفي يوم دفنه لما فرغ الصحابة من دفنه، تقدَّمت جموعُ المسلمين لبيعة الحسن بن علي - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه - وهم لا زالوا ينفضون أيديهم من تراب عليٍّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه.

وأتوقفُ قليلاً مع بعض المناقب للحسن رضي الله عنه [1]:

فأنا أعلم أن كثيرًا من المسلمين لا يعرفون شيئًا عن الحسن بن علي رضي الله عنهما.

فالحسن هو ابن بنت رسول الله ﷺ، وحبيب رسول الله ﷺ؛ بل وريحانة رسول الله [2]، الذي طالما حمله النبيُّ ﷺ يشمه، ويمتص لسانَه؛ بل ويخرج النبيُّ ﷺ لسانَه للحسن ليمتصَّ الحسنُ لُعاب النبي ﷺ [3]، وطالما حمله النبيُّ ﷺ على عاتقه؛ بل على ظهره.

ومن مناقبه ما رواه مسلم [4] من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ غَدَاةً وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرَحَّلٌ مِنْ شَعْرٍ أَسْوَدَ، فَجَاءَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ

---

(١) انظر ترجمته في «التاريخ الكبير» (٢/ ٢٨٦)، و «الجرح والتعديل» (٣/ ١٩)، و «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٤٥)، و «الاستيعاب» (٣٨٣)، و «تاريخ بغداد» (١/ ١٣٨)، و «تهذيب الكمال» (٢٧١)، و «الإصابة» (١/ ٣٢٨) و «أسد الغابة» (٢/ ٩)، و «الكامل» (٣/ ٤٦٠)، و «تهذيب التهذيب» (٢/ ٢٩٥) وغيرها.

(٢) عند البخاريِّ، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله (٥٩٩٤).

(٣) كما في «مسند أحمد» (٤/ ٩٣)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ١٧٧): «رجاله رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن أبي عوف وهو ثقة» وانظر: «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٥٩) وصححه الشيخ شعيب.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بيت النبيِّ ﷺ (٢٤٢٤).

فَأَدْخَلَهُ ، ثُمَّ جَاءَ الْحُسَيْنُ فَدَخَلَ مَعَهُ ، ثُمَّ جَاءَتْ فَاطِمَةُ فَأَدْخَلَهَا ، ثُمَّ جَاءَ عَلِيٌّ فَأَدْخَلَهُ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣] . ونزلت الآية بعدُ لتسطَّر في كتاب الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ لتتلى إلى يوم أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها .

وفي الحديث الذي رواه أحمد [(١)] والترمذيُّ ـ مختصرًا ـ وهو حديث حسن ـ من حديث أم سلمة زوج النبيِّ ﷺ ، حين جاء نعيُ الحسين بن عليٍّ ، لما قتل ﷺ لعنت أهلَ العراق ؛ فقالت : «قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ الله ، غَرُّوهُ وَذَلُّوهُ لَعَنَهُمُ الله ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ ﷺ غَدِيَّةً «أي : في وقت الصباح» بِبُرْمَةٍ «أي : إناء كبير» قَدْ صَنَعَتْ لَهُ فِيهَا عَصِيدَةً «وهو الطعام الذي يصنع من الدقيق والعسل» تَحْمِلُهُ فِي طَبَقٍ لَهَا حَتَّى وَضَعَتْهَا بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ لَهَا : « أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ ؟» قَالَتْ : هُوَ فِي الْبَيْتِ ، قَالَ : « فَاذْهَبِي فَادْعِيهِ وَائْتِنِي بِابْنَيْهِ » ، قَالَتْ : فَجَاءَتْ تَقُودُ ابْنَيْهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِيَدٍ ، وَعَلِيٌّ يَمْشِي فِي إِثْرِهِمَا ، حَتَّى دَخَلُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَجْلَسَهُمَا فِي حِجْرِهِ ، وَجَلَسَ عَلِيٌّ عَنْ يَمِينِهِ ، وَجَلَسَتْ فَاطِمَةُ عَنْ يَسَارِهِ ، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : فَاجْتَبَذَ مِنْ تَحْتِي كِسَاءً خَيْبَرِيًّا كَانَ بِسَاطًا لَنَا عَلَى الْمَنَامَةِ فِي الْمَدِينَةِ ، فَلَفَّهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا ، فَأَخَذَ بِشِمَالِهِ طَرَفَيِ الْكِسَاءِ ، وَأَلْوَى بِيَدِهِ الْيُمْنَى إِلَى رَبِّهِ ﷻ ثُمَّ قَالَ : « اللهمَّ

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤) والطبري في «التفسير» (٢٢/ ٦ ، ٧) لسورة الأحزاب (آية:٣٣) ، والترمذي مختصرًا ، كتاب المناقب ، باب ما جاء في فضل فاطمة بنت محمد ﷺ (٣٨٧١) وقال : «حديث حسن وهو أحسن شيء روي في الباب» ، والحاكم (٢/ ٤١٦) وصححه على شرط البخاري ، ووافقه الذهبي ، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» .

أَهْلِي أَذْهِبْ عَنهُمُ الرِّجْسَ ، وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا ، اللهمَّ أَهْلُ بَيْتِي أَذْهِبْ عَنهُمُ الرِّجْسَ ، وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا ، اللهمَّ أَهْلُ بَيْتِي أَذْهِبْ عَنهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا ». قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله أَلَسْتُ مِنْ أَهْلِكَ؟ قَالَ : «بَلَى ، فَادْخُلِي فِي الْكِسَاءِ». قَالَتْ : فَدَخَلْتُ فِي الْكِسَاءِ بَعْدَمَا قَضَى دُعَاءَهُ لِابْنِ عَمِّهِ عَلِيٍّ وَابْنَيْهِ وَابْنَتِهِ فَاطِمَةَ رضي الله عنهم.

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بسندٍ حسنٍ أن النبيَّ ﷺ قال : «الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ »[(١)].

وفي الحديث الذي رواه البخاري [(٢)] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه جَاءَهُ رَجُلٌ مِنَ أَهْلِ العِرَاقِ وَسَأَلَهُ عَنْ دَمِ الْبَعُوضِ ؛ فَقَالَ : مِمَّنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، قَالَ : انْظُرُوا إِلَى هَذَا يَسْأَلُنِي عَنْ دَمِ الْبَعُوضِ ، وَقَدْ قَتَلُوا ابْنَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « هُمَا رَيْحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيَا ».

وفي الحديث الذي رواه البخاري [(٣)] من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَأْخُذُهُ وَالْحَسَنَ ، وَيَقُولُ : « اللهمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا» .

وفي البخاري ومسلم [(٤)] من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال :

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٦٢ ، ٦٤ ، ٨٢) والترمذي ، كتاب المناقب ، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما (٣٧٦٨) وقال : «حديث حسن صحيح» ، والحاكم (٣/ ١٦٦ ، ١٦٧) وأبو يعلى (٢/ ٣٩٥) ، والنسائي في «فضائل الصحابة» (٦٦) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢٢٢٥) ، وروي عن ابن عمر وعلي وجابر وأبي هريرة وأسامة بن زيد والبراء وابن مسعود رضي الله عنهم ، وحسَّن إسناده الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٣١٨٠) ، و «الصحيحة» (٧٩٦) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأدب ، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٩٩٤) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب ذكر أسامة بن زيد (٣٧٣٥) وانظر طرفاه هناك .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما (٣٧٤٩) ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل الحسن والحسين رضي الله عنهما (٢٤٢٢) .

رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْحَسَنُ عَلَى عَاتِقِهِ يَقُولُ : « اللهمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ ».

وروى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال : خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَائِفَةِ النَّهَارِ لاَ يُكَلِّمُنِي وَلاَ أُكَلِّمُهُ ، حَتَّى أَتَى سُوقَ بَنِي قَيْنُقَاعَ ، فَجَلَسَ بِفِنَاءِ بَيْتِ فَاطِمَةَ ، فَقَالَ : « أَثَمَّ لُكَعُ ، أَثَمَّ لُكَعُ » . فَحَبَسَتْهُ شَيْئًا ، فَظَنَنْتُ أَنَّهَا تُلْبِسُهُ سِخَابًا أَوْ تُغَسِّلُهُ ، فَجَاءَ يَشْتَدُّ حَتَّى عَانَقَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَبَّلَهُ ، وَقَالَ : «اللَّهُمَّ أَحِبَّهُ وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ»[1] .

وفي الحديث الذي رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» والنسائي في «الكبرى» وأبو يعلى في «مسنده» [2] بسندٍ صحيحٍ عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُصَلِّي ، فَإِذَا سَجَدَ وَثَبَ الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ عَلَى ظَهْرِهِ ، فَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يَمْنَعُوهُمَا أَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنْ دَعُوهُمَا ، فَإِذَا قَضَى الصَّلاَةَ وَضَعَهُمَا فِي حِجْرِهِ» . وقال : «مَنْ أَحَبَّنِي فَلْيُحِبَّ هذَيْنِ» .

وفي الحديث الذي رواه أحمد [3] ـ وهو حديثٌ صحيحٌ ـ من حديث عبد الله بن الحارث عن زهير بن الأقمر قال : بَيْنَمَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ يَخْطُبُ بَعْدَ مَا قُتِلَ عَلِيٌّ ﷺ إِذْ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَزْدِ آدَمُ طُوَالٌ ، فَقَالَ : «لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَاضِعَهُ فِي حَبْوَتِهِ ، وَيَقُولُ : « مَنْ أَحَبَّنِي فَلْيُحِبَّهُ ، فَلْيُبَلِّغِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب البيوع ، باب ما ذكر في الأسواق (٢١٢٢) ، وطرفه (٥٨٨٤) ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل الحسن والحسين ﷺ (٢٤٢١) .

(٢) أخرجه أبو يعلى (٥٠١٧) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٢١٧٤)، والبيهقي في «الكبرى» (٢/ ٢٦٣) ، والنسائي في «الفضائل» (٦٧) ، وابن حبان كما في «موارد الظمآن» (٢٢٣٣)، وابن خزيمة (٨٨٧) ، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٣١٢).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٦) ، والقطيعي في «زيادات الفضائل» (١٣٨٧) ، وابن أبي شيبة (١٢٢٣٦) ، والبخاريُّ في «خلق أفعال العباد» (٥٢) ، والحاكم (٣/ ١٧٤) ، وصححه الشيخ شعيب في «تعليقه على «المسند» .

الشَّاهِدُ الْغَائِبَ». وَلَوْلاَ عَزْمَةُ رَسُولِ الله ﷺ مَا حَدَّثْتُكُمْ.

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ [١] من حديث عقبة بن الحارث رضي الله عنه قال: رأيتُ أبا بكرٍ رضي الله عنه يحملُ الحسنَ، وذلك بعد دفن النبيِّ ﷺ فحمله، وقال: بأبي شَبِيهٌ بالنبيِّ، لَيْسَ شَبِيهًا بعليٍّ، وعليٌّ يضحكُ رضي الله عنه.

فلقد كان الحسن أشبه الناس بوجه رسول الله ﷺ، ويقال: إن الحسين يشبه النبيَّ ﷺ في نصفه الأسفل [٢]؛ ولذلك كان الرسول ﷺ يقول: «الحَسَنُ مِنِّي وَحُسَيْنٌ منْ عَلِيٍّ» [٣].

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ [٤] من حديث أنس رضي الله عنه قال: «لمْ يكُنْ أَحَدٌ أَشْبَهَ بالنبيِّ ﷺ منَ الحَسَنِ بنَ عليٍّ».

وفضائله كثيرةٌ غزيرةٌ، فلو ظللت أتحدث عن مناقب الحسن لطال بنا المقام؛ لكن هذه جريًا على المنهج الذي اتبعناه في الحديث عن بعض الصحابة الذين تحدثنا عنهم كما ذكرنا بعض مناقب عثمان، وعليٍّ، ومعاوية، وأبي موسى، وعمرو بن العاص، فكان حتمًا لازمًا أن نقف مع بعض مناقب الحسن رضي الله عنه لنقف الآن على عظمة الحسن، وعلى أعظم وأجل هدية قدمها الحسن للأمة ـ رضوان الله عليه وعلى أبيه ـ وصلى الله وسلم وبارك على جده المصطفى ﷺ؛ فالذي فعله الحسن إنما هو تحقيقٌ لبشارةٍ نبويةٍ قالها الصادق الذي لا ينطق عن الهوى.

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما (٣٧٥٠).

(٢) انظر: «الطبقات» لابن سعد الطبقة الخامسة (١/ ٢٤٧، ٢٤٨).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٢) وأبو داود، كتاب اللباس، باب في جلود النمور والسباع (٤١٣١) من حديث المقدام، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما (٣٧٥٢).

ففي الحديث الذي رواه البخاريُّ [١] عن الحسن أنه سمع أبا بكرة ﷺ يقول : سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ على المنبرِ ـ والحسنُ إلى جَنْبِهِ ـ ينظرُ إلى الناسِ مَرَّةً وإليه مَرَّةً ، ويقول : «ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ منَ المُسْلِمِينَ» .

وفي هذا اليوم الذي دُفن فيه عليٌّ ﷺ ، تولَّى الخلافة من بعده الحسن بن عليٍّ ﷺ بعد بيعة المسلمين له ، وخطب بعد مقتل أبيه ؛ فقال : «لقد فارقكم رجلٌ أمس ما سبقه الأولون بعلم ، ولا أدركه الآخرون ، إن كان رسول الله ﷺ ليبعثه ، ويعطيه الراية ، فلا ينصرف ولا يرجع حتى يُفتح له ، ما ترك من صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه ، كان يرصدها لخادم أهله» [٢] .

ولما أتى خبر قتل عليٍّ إلى معاوية ﷺ جعل يبكي ؛ فقالت له امرأته : أتبكيه وقد قاتلته ؟ فقال : ويْحَك ، إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم [٣] .

وكان معاوية يكتبِ فيما ينزل به ليسأل علي بن أبي طالب ﷺ عن ذلك؛ فلما بلغه قتله ، قال : «ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب» ؛ فقال له أخوه عتبة : لا يسمع هذا منك أهل الشام ، فقال له : «دعني عنك» [٤] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب الحسن والحسين ﷺ (٣٧٤٦) ، وانظر أطرافه (٢٧٠٤) .

(٢) «فضائل الصحابة» للإمام أحمد (٢/ ٧٣٧) ، وفي «المسند» (١/ ١٩٩) ، وابن أبي شيبة (١٢/ ٧٣ ، ٧٤) ، وابن حبان (٦٩٣٦) .

(٣) «البداية والنهاية» (٨/ ١٣٣) .

(٤) «الاستيعاب» (٣/ ١١٠٨) .

ونظر معاوية إلى الأمر نظرة خطيرة ؛ إذ لا زالت الحربُ قائمة ، فقلق معاوية رضي الله عنه قلقًا شديدًا ، وخشي أن يستمرَّ القتال ، وأن تتجدد الثارات ، وأن تزحف الجيوش من جديد بعد استخلاف الحسن بن علي ؛ فانطلق معاويةُ رضي الله عنه ليبث مخاوفه إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه ؛ فقال له معاوية حينما لقي عمْرًا ـ كما قال الحسن البصري[1] : «اسْتَقْبَلَ وَالله الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ مُعَاوِيَةَ بِكَتَائِبَ أَمْثَالِ الْجِبَالِ ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ : إِنِّي لأَرَى كَتَائِبَ لاَ تُوَلِّي حَتَّى تَقْتُلَ أَقْرَانَهَا ! فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ ـ وَكَانَ وَالله خَيْرَ الرَّجُلَيْنِ ـ أي: عمرو ـ وَإِنْ قَتَلَ هَؤُلاَءِ هَؤُلاَءِ ، وَهَؤُلاَءِ هَؤُلاَءِ ، مَنْ لِي بِأُمُورِ النَّاسِ ، مَنْ لِي بِنِسَائِهِمْ ، مَنْ لِي بِضَيْعَتِهِمْ ؟ فَبَعَثَ مُعَاوِيَةُ إِلَى الْحَسَنِ رضي الله عنه بِرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ : عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ ، وَعَبْدَ الله بْنَ عَامِرِ بْنِ كُرَيْزٍ ـ فَقَالَ: اذْهَبَا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فَاعْرِضَا عَلَيْهِ ، وَقُولاَ لَهُ ، وَاطْلُبَا إِلَيْهِ ، فَأَتَيَاهُ ، فَدَخَلاَ عَلَيْهِ ، فَتَكَلَّمَا ، وَقَالاَ لَهُ ، وَطَلَبَا إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُمَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رضي الله عنه : إِنَّا بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَدْ أَصَبْنَا مِنْ هَذَا الْمَالِ ، وَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ قَدْ عَاثَتْ فِي دِمَائِهَا ، قَالاَ : فَإِنَّهُ يَعْرِضُ عَلَيْكَ كَذَا وَكَذَا ، وَيَطْلُبُ إِلَيْكَ ، وَيَسْأَلُكَ ، قَالَ : فَمَنْ لِي بِهَذَا ؟ قَالاَ : نَحْنُ لَكَ بِهِ ، فَمَا سَأَلَهُمَا شَيْئًا إِلاَّ قَالاَ : نَحْنُ لَكَ بِهِ ، فَصَالَحَهُ » .

قال الخطابيُّ : قد خرج مصداق هذا القول فيه (أي : الحسن) بما كان من إصلاحه بين أهل العراق والشام ، وتخَلِّيهِ عن الأمر خوفًا من الفتنة ، وكراهيةً لإراقة الدم ، ويسمَّى ذلك العام بعام الجماعة ؛ أي العام الذي

(١) أخرجه البخاريُّ ـ كتاب الصلح باب قول النبيِّ للحسن بن علي رضي الله عنهما : «ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين» (٢٧٠٤) .

اجتمعت فيه كلمة المسلمين .

ثم قال : وفي الخبر : « إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ ، وَلَعَلَّ الله أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ ».دليلٌ على أن واحدًا من الفريقين لم يخرج بما كان منه في تلك الفتنة من قول أو فعل عن ملة الإسلام ، إذ جعلهم النبيُّ ﷺ في آخر القول من المسلمين ، فلم يخرج واحد من الجيشين ، ومن الفئتين ، ومن الفرقتين لقوله أو لفعله من حظيرة الإسلام بنصِّ شهادة النبيِّ ﷺ.

ألم أقل لكم : إن الفئتين قد اجتهدتا ، والمجتهد المصيب له أجران ، والمجتهد المخطئ له أجر واحد ، ولله الحمد والمنة . قال تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[الحجرات : ٩] .

فلم يخرجهم الله من مسمَّى الإيمان ، ولم يخرجهم النبيُّ ﷺ من مسمَّى الإسلام أيضًا .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله [١] : «قد شهد الصادق المصدوق للفرقتين بالإسلام ؛ فمَنْ كفَّرهم أو كفَّر واحدًا منهم لمجرد ما وقع فيه ، فقد أخطأ ، وخالف النصَّ النبويَّ المحمديَّ الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحيٌ يوحى» .

وعن عبد الرحمن بن جبير بن نُفيل عن أبيه قال : «قلت للحسن بن

---

(١)« البداية والنهاية » (٦/ ٢٢٠) ط المعارف .

عليٌّ رضي الله عنه : إن الناس يقولون : إنك تريد الخلافة ؛ فقال الحسن : لقد كانت جماجم العرب في يدي ، يحاربون من حاربت ، ويسالمون من سالمت ، تركتها ابتغاء وجه الله ، وحقنًا لدماء أمة محمد ﷺ ، ثم أثيرها ثانيًا من أهل الحجاز» . والحديث رواه الحاكم [(١)] وقال : «صحيح على شرط الشيخين» وأقره الذهبيُّ في «تلخيصه» .

ودخل الناسُ بعدما تنازل الحسن بن عليٍّ رضي الله عنه عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه في الخامس من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من هجرة النبيِّ الأمين ﷺ ، سلَّم الحسن الخلافة لمعاوية ، وتنازل عنها حقنًا لدماء المسلمين ، ولتجتمع كلمةُ الأمة تحت راية خليفةٍ أو إمامٍ واحدٍ ، ودخل الناسُ جميعًا في طاعةِ معاوية ، ودخل معاوية الكوفة فبايعه الناس . وبويع لمعاوية بالخلافة بإلياء ، ثم طلب معاوية رضي الله عنه من الحسن بن عليٍّ رضي الله عنه أن يخطب في المسلمين في الكوفة لما تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية ، فقام الحسن فخطب في الناس ، فقال : «الحمد لله الذي هدى بنا أوَّلكم ، وحقن بنا دماء آخركم» . ثم قال : «ألا إن أكيس الكَيس التُّقى ، وأعجز العجز الفجور ، وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية ، إما أن يكون أحقَّ به مني ، وإما أن يكون حقِّي فتركناه لله ، ولصلاح أمة محمد ﷺ ، وحقن دمائهم» ، ثم التفت الحسن إلى معاوية وقال : «وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين» [(٢)].

---

(١) أخرجه الحاكم(٣/ ١٨٦) ،وقال : «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي ، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٧) ، والمزي في «تهذيب الكمال» (٦/ ٢٥٠) ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣/ ٢٨٠ ، ٢٨١) ، وانظر : «البداية والنهاية» (٨/ ٤٢) .

(٢) انظر : «مصنف ابن أبي شيبة» (٦/ ٢٠٥) ، (٧/ ٤٧٨) ، و«تاريخ دمشق» (١٣/ ٢٧٣ ، ٢٧٤)=

ثم نزل الحسن ﷺ ؛ فهذه هي نَفْسِيةُ الحسن ، وهذا هو وَرَع الحسن ، وهذا إيمانه ، وتلك تقواه ؛ فهو منذ نعومة أظافره قد تربى في حجر المصطفى ﷺ وكفى ، و يالها من تربية ! يتنازل عن الخلافة ، وعن البيعة حقنًا لدماء الأمة ، وصلاحًا لأمرها ، لتجتمع كلمة الأمة ؛ ليس عن عجز ، لا والله ، ولا عن ضَعْف ؛ فلقد كانت جماجم العرب ، كما قال : «بين يديه ، يحاربون من حارب ، ويسالمون من سالم» ، ولكنه ﷺ يتنازل عن كل هذا إصلاحًا لأحوال الأمة ، ولتجتمع كلمة الأمة على قلبِ رجلٍ واحدٍ ، وهو الذي لقيه رجلٌ يومًا فقال له : السلام عليك يا مذلَّ المسلمين ! .

فأجابه الحسن بأدب ، وقال : «لا تقل ذلك يا أبا عامر ، والله لم أذل المؤمنين ، ولكني كَرِهْتُ أن أقتلهم في طلب الملك»[1].

وهكذا انتهت هذه الفتنة بتنازل الحسن عن الخلافة ، ويتولَّى الخلافة والأمر من بعد الحسن معاوية بن أبي سفيان ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه ـ لتمتد الفتوح الإسلامية العظيمة امتدادًا كبيرًا في عهد معاوية بن أبي سفيان ﷺ .

وأرجو الله ﷻ أن أكون بذلك قد جَلَّيْتُ الفتنة الصماء البكماء العمياء التي وقعت بين الصحابة ، وأخرجت الحق من وسط هذا الركام الهائل من الباطل الذي شُحنت به كتب الأسفار والتاريخ .

أرجو الله أن أكون وُفِّقت في ذلك . وأن أكون قد أزلتُ هذه الغمامة ، السوداء التي خيَّمت على كثيرٍ من العقول والقلوب طوال السنوات

= و«حلية الأولياء» (٢/ ٣٧) ، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٩٢) ، و«السنن الكبرى» للبيهقي (٨/ ١٧٣) .

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٩٢) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٤٧٦) ، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠/ ٣٠٥) ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣/ ٢٧٩) ، (٥٩/ ١٥١) .

الماضية ، ووالله ما تعمدت أن أتعرض في الحديث عن هذه الفتنة وأنا الذي كنت أهرب منها دومًا ، ليس خوفًا من الحديث عنها ، وإنما خوفًا من أن أزلَّ ، وخوفًا من أن أفسد من حيث أريد الإصلاح ، فأنا أعلم أنها فتنة سوداء عمياء .

وأخشى ما أخشاه أن تترك كلمةٌ مني من غير قصدٍ أثرًا سيئًا في قلب رجلٍ مسلمٍ واحدٍ ، فاجتهدت قدر استطاعتي ، وسألت الله ﷻ أن يستخرج الحقَّ من قلبي على لساني للذود والذب عن أصحاب النبيِّ ﷺ بما يليق بمكانتهم وجلالتهم ، وبما يليق بحبنا لهم ـ رضوان الله عليهم أجمعين .

وأسأل الله أن يثبتنا على الإيمان حتى نلقاه ، وأن يغفر لنا زلاتنا وذنوبنا جميعها ؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه .

*****

فتنة ظهور الشيعة

ظهرت هذه الفرقة بعد فتنة الخوارج أو بعد قضية التحكيم .

وسأقف مع هذه الفرقة منذ نشأة بدايتها ـ والله المستعان:

فالشيعة في اللغة [1] : بمعنى الأتباع والأنصار ؛ كما جاء في «القاموس» ، وكلُّ قوم اجتمعوا على أمرٍ هُمْ شيعة ، وكلُّ من عاون إنسانًا ، وتعاون له ، فهو له شيعة ، أي : فهو له عونٌ ونصير.

قال الأزهريُّ : معنى الشيعة : الذين يتبع بعضهم بعضًا ، وليس

---

(١) «لسان العرب» (٨/ ١٨٨) ط دار صادر ، و«القاموس المحيط» (٩٤٩) ، و«تاج العروس» (١/ ٥٣٥٤) ، و«مختار الصحاح» للرازي (٣٥٤) ، و«المصباح المنير» (١/ ٣٢٩) ، و«الصحاح» للجوهري (مادة شيع) .

كلهم متفقين ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ [الأنعام : ١٥٩] ، فالشيعةُ من حيث المدلول اللغوي تعني : القوم والصحب والأتباع والأعوان .

وفي الاصطلاح يقول شيخ الشيعة وعالمها في زمنه المفيد وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي الملقب بالمفيد ــ قال[1] : «لفظ الشيعة يطلق على أتباع أمير المؤمنين عليٍّ عَلَى سبيل الولاء والاعتقاد لإمامته بعد الرسول ﷺ بلا فصلٍ ، ونفي الإمامة عمن تقدمه في مقام الخلافة » .

ويوضحُ المفيدُ هذا التعريفَ بشيء من التفصيل ؛ فيقول : «وكانت إمامة أمير المؤمنين بعد النبيِّ ﷺ ثلاثون سنة ، منها أربعٌ وعشرون سنة وستة أشهر كان ممنوعًا من التصرف في أحكامها مستعملًا للتقية والمداراة ، ومنها خمس سنين وستة أشهر ممتحنًا بجهاد المنافقين من الناكثين والقاسطين والمارقين» .

والمراد بالناكثين : الذين بايعوا عليًّا ، ونكثوا بيعته في البصرة .

ويقصد بالقاسطين : فريق معاوية ﷺ ؛ لأنه الفريق القاسط . أي : الباغي أو الظالم .

ويقصد بالمارقين : الخوارج الذين خرجوا على عليٍّ بالنهروان .

ثم يقول : «ومضطهَدًا بفتن الضالين ؛ كما كان رسول الله ﷺ ، ثلاث عشرة سنة من نبوته ممنوعًا من أحكامها ، خائفًا ، ومحبوسًا ، وهاربًا ،

---

(١) «الإرشاد» للمفيد (١٢) ، وانظر أيضًا «أوائل المقالات» (ص ٣٩) .

ومطرودًا لا يتمكن من جهاد الكافرين ، ولا يستطيع دفعًا عن المؤمنين ، ثـم هـاجرَ ، وأقـام بعـد الهجـرة عشر سـنين مُجاهـدًا للمشركـين مُمتَحنًـا بالمنافقين إلى أن قبضه الله ﷻ ، وأسكنه جنات النعيم» . وهـذا التعريـف هو كلام شيخٍ من أكبر مشايخ الشيعة !!.

ويُقـدم الإمـام الشهرسـتانيُّ رحمه الله تعـالى في كتابه الماتع «الملـل والنحـل» تعريفًا يعدُّ من أجمل التعريفات للشيعة ؛ فيقول [1]: «الشـيعة هـم الـذين شايعوا عليًّا رضي الله عنه على وجْه الخصـوص ، وقـالوا بإمامتـه ، وخلافتـه نصًّـا ووصية ، إما جليًّا وإما خفيًّا ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده ، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده»!!

وقالوا : «ليست الإمامة قضيةَ مصلحة تناط باختيـار العامـة ، وينتصـب الإمام بنصبهم ؛ بل هي قضـية أصـولية ، وهـي ركـن الـدين الـذي لا يجـوز للرسل ـ عليهم الصلاة والسـلام ـ إغفالـه وإهمالـه ولا تفويضـه إلى العامـة وإرساله» ،ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص ، وثبـوت عصـمة الأنبياء والأئمة وجوبًا عن الكبائر والصغائر، والقول بالتولِّي والتبرِّي قـولًا وفعلًا وعقدًا إلا في حال التقية، ويخالفهم بعض الزيدية في ذلك» .

والزيدية فرقة من فرق الشيعة ، سأبين مجمل معتقدهم ـ إن شاء الله تعالى ـ وسترى أيضًا أن الشـيعة الاثنى عشريـة يقولـون بعقائـد أُخـرى ؛ كالغيبـة ، والرجعة ، والبداء ، وكلُّ هذه الألفاظ ـ سأفصِّلها بإذن الله تعالى .

لكننا نرى إمامًا من أئمة أهـل السـنة ؛ كـأبي الحسـن الأشـعري رحمه الله ،

---

(١) «الملل والنحـل» للشـهر سـتاني (١/ ١٤٥ ، ١٤٦) ط دار المعـارف ، وانظر: «المواقـف» لعضـد الدين الإيجي (٣/ ٦٧٨) ط دار الجيل .

يعرِّف الشيعة تعريفًا مقتضبًا ، فيقول[(١)] : «الشيعة إنما قيل لهم الشيعة ؛ لأنهم شايعوا عليًّا ﷺ ويقدِّمونه على سائر أصحاب رسول الله ﷺ ، وإنما سمُّوا الغالية ؛ لأنهم غلوا في عليٍّ ، وقالوا فيه قولًا عظيمًا» .

وهذه الفرقة التي يتكلَّم عنها الإمام الأشعري لها مسمًّى آخر ، تسمَّى هذه الفرقة من فرق الشيعة باسم المفضلة ؛ أي : الذين فضَّلوا عليًّا على سائر أصحاب النبيِّ ﷺ ، وهذا التعريف يصحُّ وينطبق تمامًا على أول فرق التشيع ممن ناصروا عليًّا ﷺ ، لكن سنرى أن هذا التعريف قد تطور بأطوار ومراحل مختلفة ، سنقف عليها ـ إن شاء الله تعالى .

وبتعريف آخر للمفضلة : هم الذين يفضلون عليًّا ﷺ على أبي بكر وعمر وسائر أصحاب النبيِّ ـ رضوان الله عليهم جميعًا .

والشيعة الاثنى عشرية لا يعتبرون مجرد تقديم عليِّ بن أبي طالب ﷺ على سائر أصحاب النبيِّ ﷺ كافيًا في التشيع ، وإنما لابد من الاعتقاد أن خلافته بعد رسول الله ﷺ ، مباشرة بالنصِّ ، والاعتقاد أن خلافته قد بدأت بعد وفاة النبيِّ ﷺ إلى استشهاد عليٍّ ﷺ .

والتحقيق : من خلال قراءتي في كثيرٍ من مراجع الشيعة ومراجع أهل السنة أن التعريف الدقيق للشيعة مرتبطٌ أساسًا بأطوار نشأتهم ؛ فإن الشيعة قد مرُّوا بكثيرٍ من المراحل العقدية والمذهبية ؛ ولهذا كانوا في الصدر الأول في عهد عليٍّ وعثمان قبله ـ رضوان الله عليهما ـ لا يُسمَّى المرء شيعيًا إلا إن قدَّم عليًّا على عثمان .

---

(١) «مقالات الإسلاميين» للأشعري (٥) ط دار إحياء التراث العربي .

بل كان يقال لمن يقدِّم عثمان ﷺ على عليٍّ ﷺ عثمانيٌّ ، ويقال لمن يقدِّم عليًّا على عثمان شيعيٌّ .

ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ طيب الله ثراه ـ في «منهاجه» [١]:

«إن الشيعة الأولى الذين كانوا على عهد عليٍّ ﷺ كانوا يفضِّلون أبا بكر وعمر عَلَى عليٍّ ، وإنما كان نزاعهم في تفضيل عليٍّ وعثمان ، وهذا مما يعترف به علماء الشيعة الأكابر من الأوائل والأواخر ، ولما سأل سائلٌ شريكَ بن عبد الله فقال له : أيهم أفضل ، أبو بكر أو عليٌّ ؟ فقال له أبو بكر ، فقال : تقول هذا وأنت شيعيٌّ ، فقال : نعم ، ومَنْ لم يفعل هذا فليس شيعيًّا ، والله لقد رقى عليٌّ هذه الأعواد ، وقال : «ألا إنَّ خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ﷺ»، فكيف نردُّ قولَهُ ، وكيف نكذِّبه ؟ ووالله ما كان عليٌّ كذابًا» .

يقول أبو إسحاق السَّبيعيُّ ـ وهو شيخ الكوفة وعالمها ـ رحمه الله تعالى : «خرجتُ من الكوفة ، وليس أحدٌ يشكُّ في فضل أبي بكر وعمر وتقديمهما ، وقدمتُ الآن وهم يقولون ويقولون ! ولا والله لا أدري ما يقولون؟! » [٢].

وقال ليث بن أبي سليم : «أدركت الشيعة الأولى وما يفضِّلون على أبي بكر وعمر أحدًا» [٣].

---

(١) «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية (١/ ١٣) ط مؤسسة قرطبة بتصرف .

(٢) «المنتقي من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال» للذهبي (٣٦٠) ط دار البيان .

(٣) المصدر السابق (٣٦٠ ، ٣٦١) نقلاً عن «علي بن أبي طالب شخصيته وعصره» للصلاَّبي (٢/ ٢٢٢) .

ثم أخذ التشيع أبعادًا أخرى خطيرة ؛ كرفض خلافة الشيخين أبي بكر وعمر ، وشتم وسبِّ أصحاب النبيِّ ﷺ ، والطعن فيهم ، وادِّعاء العصمة لآلِ بيت النبيِّ ﷺ ، والإيمان بالرجعة ، والوصية ، والبداء ، والغيبة ، وغيرها من المعتقدات الباطلة التي لا يقرها الإسلام ! ومن هنا أُطلق على الشيعة أصحاب هذا المنهج «الروافض» أو «الرافضة» وهم ينقسمون إلى فرق كثيرة جدًّا ؛ حتى قال المسعودي رحمه الله تعالى في كتاب «مروج الذهب» : «إن طوائف الشيعة بلغت ثلاثًا وسبعين فرقة»[1] .

بل ومن أهل العلم ـ كالمقريزي ـ مثلًا منْ قال : «إن طوائف الشيعة بلغت ما يقرب من ثلاث مئة فرقة» .

ولن أتعرَّض للحديث عن فرق الشيعة أو عن فروع الفرق ، وإنما سأتكلَّم ـ إن شاء الله تعالى ـ عن أصول الفرق ؛ بل عن أشهرها ، وهي الموجودة اليوم ، فمجمل هذه الفرق ؛ كما قال أهل العلم ـ كالشهرستاني وغيره : الإسماعيلية ، والزيدية ، والجعفرية وهي الاثنى عشرية أو الإمامية ، كلُّ هذه مصطلحات ومسميات للطائفة الاثنى عشرية .

فأقول : أولًا : بإيجاز شديد جدًّا أتكلَّم عن الإسماعيلية ، والزيدية ، ولن أطيل ، لأتحدث بعد ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ عن الفرقة المشهورة الكبيرة التي ملأت الأرض اليوم ألا وهي فرقة الاثنى عشرية .

الفرقة الأولى : الإسماعيلية ؛ كفرقة من فرق الشيعة[2] :

هي الفرقة التي قالت بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ، وبإمامة

(١) «مروج الذهب» للمسعودي (٤٣٩) .
(٢) «الفَرْقُ بين الفِرَقِ» (٣٩) .

محمد بن إسماعيل من بعده .

وسمِّيت بالإسماعيلية لذلك ؛ نسبة لإسماعيل ، ومجمل معتقدها بإيجاز شديد جدًّا ؛ كما قال الغزاليُّ ـ غفر الله لنا وله ـ في كتابه «فضائح الباطنية»[1] .

يقول : «مُجملُ معتقد الإسماعيلية ، أنه مذهبٌ ظاهره الرفض ، وباطنه الكفر المحض ، ومفتتحه حصر مدارك العلوم في قول الإمام المعصوم» ، ثم فصَّل بعد ذلك القول في معتقدهم .

وقال الإمام ابن الجوزي في كتابه الماتع «تلبيس إبليس»[2] : «فمحصول قولهم تعطيل الصانع ، وإبطال النبوة والعبادات ، وإنكار البعث ، ولكنهم لا يُظْهرون هذا في أول أمرهم ؛ بل يزعمون أن الله حق ، وأن محمدًا رسول الله ، لكنهم يقولون : لذلك سرٌّ غير ظاهر ، وقد تلاعب بهم إبليس ! فبالغ وحسَّن لهم مذاهب مختلفة» .

وقال الإمام الرازي ﷺ تعالى[3] : «اعلم أن الفساد اللازم من هؤلاء على الدين الحنيف أكثر من الفساد اللازم عليه من جميع الكفار ، وهم عدة فِرَقٍ ، ومقصودهم على الإطلاق : إبطال الشريعة بأثرها ، ونفي الصانع ، ولا يؤمنون بشيء إلا بالآخرة» .

ومن فرقة الإسماعيلية انبثقت فِرَقٌ كثيرةٌ ـ حتى لا نغتر في المسميات ـ

---

(١) «فضائح الباطنية» (٣٧) ط دار الكتب الثقافية ؛ وكتابه هذا بخاصة قويٌّ متين في بابه ، وأسأل الله أن يغفر لنا زلاتنا جميعًا .

(٢) «تلبيس إبليس» (١٢٤) ط دار الكتاب العربي .

(٣) «اعتقادات المسلمين والمشركين» للرازي (٧٦) ط دار العلمية .

فلا مشاحة في الاصطلاح، فالمعنى واحد.

فانبثقت منهم القرامطة، والحشَّاشون، والفاطميون الذين خرَّبوا معتقد أهل مصر، بحجة أنهم كانوا يرفعون راية حبِّ آل بيت النبيِّ ﷺ، والعجيب أنه خرج علينا من أهل العلم في عصرنا ممن يشار إليهم بالبنان من يدافع عن معتقداتهم الفاسدة الباطلة، فكلُّ ما نجنيه الآن من ثمارِ البدع المرَّة، التي ما أدخلها إلى مصرَ بعد الفتح الإسلامي إلا الفاطميون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يقول الشهرستاني عن فرقة الإسماعيلية[1]: «وأشهر ألقابهم الباطنية، وإنما لزمهم هذا اللقب، لحكمهم بأن لكلِّ ظاهرٍ باطنًا، ولكل تنزيل تأويل».

ومسألة التأويل الباطني جعلوها رسالةً جديدةً حملها الأئمة بعد قيام الرسول ﷺ بتبليغ الظاهر، وسلك هذا الدرب الصوفية، فلا يمكن البتة أن تظهر فرقة شيعية، إلَّا وهي ملتحفةٌ بعباءةِ الصوفيه بادِّعاء حبِّ آل بيت النبيِّ ﷺ. فقد جاء في أحد الرسائل الإسماعيلية[2]: أنه لما كان الدين ظاهرًا وباطنًا قام النبيُّ ﷺ بتبليغ الظاهر، وصرف إلى عليٍّ وصيَّةَ نصف الدين الآخر وهو الباطن، وعِلْمُ التأويل هو معجزةُ الأئمة؛ كما أن علم التنزيل هو معجزة الرسول». وهم يحاولون بهذه الوسيلة هدم كلِّ النصوص التي قام عليها كيان الإسلام.

يذكر الكوثري[3]؛ فيقول: إنهم يسمون في مصر بالعبيدية، وفي

---

(١) «الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ١٩١).

(٢) أربع رسائل إسماعيلية «مسائل مجموعة من الحقائق والأسرار» ص (٣٠).

(٣) «مقدمة في كشف أسرار الباطنية» (١٥٠)، وانظر كذلك: «التفسير والمفسرون» لمحمد حسين الذهبي رحمه الله تعالى (٢/ ٢٥٣).

الشام بالنصيرية ، والدروز ، والتيامنة ، وفي فلسطين بالبهائية ، وفي الهند بالبهرة والإسماعيلية ، وفي اليمن باليَّامية ، وفي بلاد الأكراد يُعرفون ويسمُّون بالعلوية ؛ حيث يقولون : عليٌّ هو الله ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا ـ ويسمُّون في بلاد الترك بالكبداشية و القزلباشيه .

وفي بلاد العجم يعرفون بالبابية ، ولهم فروعٌ إلى يومنا هذا ، تلبس لكل قوم لبُوسه ،وتظهر لكلٍّ قوم بمظهر تقتضي به البيئة ، وقدماؤهم كانوا يسمُّون أنفسهم بالإسماعيلية ، باعتبار تميُّزهم عن فرق الشيعة الأخرى بهذا الاسم ، أي : بانتسابهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق» وهذا بإيجازٍ شديدٍ عن فرقة الإسماعلية ؛ كفرقة كبيرةٍ من فرق الشيعة .

الفرقة الثانية : «فرقة الزيدية» [1] :

والزيدية : هم أتباع زيد بن عليٍّ بن الحسن بن عليٍّ بن أبي طالب ﷺ ، وقد افترقوا عن الإمامية الرافضة حينما سُئل زيد بن عليٍّ بن الحسن بن عليٍّ لَّما سُئِلَ عن أبي بكر وعمر ﷺ فترضَّى عنهما ، وأثنى عليهما خيرًا ؛ فلما سمعوا زيدًا يقول ذلك رفضوه لرفضه أن يسبَّ أبا بكر وعمر ؛ فسميت هذه الفرقة بفرقة الرافضة أو الروافض . وسمِّي مَنْ لم يرفضه من الشيعة زيديًّا لانتسابهم إليه ، وذلك في آخر خلافة هشام بن عبد الملك سنة ٢٢٠ أو سنة ٢٢١ هـ على الراجح من أقوال أهل السير والتاريخ .

والزيدية ؛ كما يقول الشهر ستانيُّ [2]: «ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة ﷺ ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم إلا أنهم جوزوا أن يكون كل

---

(١) «الفرق بين الفرق» (٢٥) ، و «الملل والنحل» (١/ ١٥٥) .

(٢)«الملل والنحل» (١/ ١٣٥ ، ١٥٤) .

فاطميٌّ عالم زاهد شجاع سخيٌّ خرج بالإمامة أن يكون إمامًا واجب الطاعة ، سواء كان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين ﷺ».

«وجوزوا إمامة المفضول مع وجود الفاضل» .

ومذهب الزيدية المعتدلة أو الزيدية الحقيقية في الصحابة هو الترضي عن أصحاب النبيِّ ﷺ . كما ينقل ذلك ابن الوزير [(١)] عن الإمام الكبير المنصور بالله ، وهو من أئمة الزيدية الكبار باليمن ، أنه قال في «الرسالة الإمامية في الجواب عن المسائل التهامية» : «أما ما ذكره المتكلِّم عنا مِنْ تضعيف آراء الصحابة ، فعذْرُنا أنهم أشرف قدرًا ، وأعلى أمرًا ، وأرفع ذكرًا من أن تكون آراؤهم ضعيفة ، أو موازينهم في الشرف والدين خفيفة ؛ فلو كان كذلك لما اتبعوا رسول الله ﷺ ومالوا عن إلفِ دين الآباء والأتراب والقرباء إلى أمر لم يسبق لهم به أُنس ، ولم يُسمع له ذكر ، شاقٌّ على القلوب ، ثقيلٌ على النفوس ، فهم خيرُ الناس على عهد رسول الله ﷺ وبعده ، فرضي الله عنهم وجزاهم عن الإسلام خيرًا ... إلى أن قال : فهذا مذهبنا لم نكتمه تقية ، كيف وموجبها زائل ، ومن هو دوننا مكانًا وقدرًا يسبُّ ويلعن ، ويذم ويطعن ، ونحن إلى الله سبحانه مِنْ فعله براء ، وهذا ما يقضي بعلم آبائنا منا إلى عليٍّ عليه السلام وإلى قوله .

وفي هذه الجهة مَنْ يرى محض الولاء بسب الصحابة ﷺ والبراء منهم ، فهذا قد تبرأ من محمدٍ مِنْ حيثُ لا يعلم» .

ولكن ـ للأمانة ـ أنَّ في الزيدية مَنْ هو رافضيٌّ قُح ، يقدِّم عليًّا على أبي بكر وعمر ؛ بل ويسبُّ أبا بكر وعمر ﷺ ، ومذهبه في الصحابة

---

(١) «الروض الباسم» (٤٩ ـ ٥٠) .

كمذهب الرافضة تمامًا ؛ كالطائفة المشهورة المعروفة بالجارودية ؛ هذه الطائفة من بين طوائف الزيدية يعتقدون مذهب ومعتقد الإمامية أو الجعفرية أو الاثنى عشرية في سبِّ أصحاب رسول الله ﷺ .

فيذكر الإمام الشهرستانيُّ في كتابه الماتع «الملل والنحل» فيقول [1]: «إن أكثر الزيدية طعنت في الصحابة طعن الإمامية» .

ويقول إمامٌ كبيرٌ من أئمتهم هو «صالح بن مهدي بن علي المقبلي الصنعاني ثم المكي : «إن الزيدية ليس لهم قاعدة محددة ، فإنهم أحيانًا يطعنون في بعض خيار الصحابة ؛ كأبي هريرة ، وجرير بن عبد الله البجلي ، وأم المؤمنين حبيبة ﵃ ؛ لأن هؤلاء رووا ما يخالف هواهم ، وإذا جاءهم الحديث على ما يوافق هواهم قبلوه من طريق ذلك الصحابي ، وإن كان أقلَّ فضلًا ورتبة ممن طعنوا فيه من أصحاب النبيِّ ﷺ» [2] .

ويتحدث أيضًا المقبليُّ ويقول : «إنه قد سرى داء الإمامية في الزيدية في هذه الأعصار ، وهو تكفيرُ الصحابة ومَنْ تولاهم ـ صانهم الله تعالى ـ ولعلَّ هذه الظاهرة ـ اعتناق الزيدية لمذهب الرفض ـ هي التي جعلت بعضَهُم يقول : جئني بزيديٍّ صغير ، أخرجْ لك منه رافضيًّا كبيرًا» [3] .

ومن عقائد الزيدية : قولهم بعصمة فاطمة ، وعليٍّ ، والحسين !! ونحن نعلم أن العصمة للنبيِّ ﷺ وحده .

---

(١) «الملل والنحل» (١/ ١٥٦) .

(٢) «الأرواح النوافح ذيل العلم الشامخ» (ص/ ٦٩٣ ـ ٦٩٤) .

(٣) «العلم الشامخ» (ص/ ٨٨) .

ويقول يحيى بن حمزة بن عليٍّ الهاشمي اليمني ـ وهو من أكابر أئمة الزيدية أيضًا : «إن معظم فرق الزيدية يقولون بالنص على إمامة الثلاثة ، ويعتقدون ثبوت إمامة مَنْ عداهم من أولادهم ؛ أي : من أولاد عليٍّ ، من أولاد الحسن والحسين بدعوة الناس إلى بيعتهم ودعوتهم .

ومسألة العصمة والنص هي كالطعن في أصحاب النبيِّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم جميعًا ـ كما أن القائلين بالنصِّ والعصمة يخالفون من يتسبون إليه ، وهو الإمام زيد الذي لم يقل بالنص ، ولم يقل بالعصمة» .

هذا بإيجازٍ شديدٍ جدًّا عن فرقة الزيدية .

فرقة الرافضة:

وهم الذين يُسمُّون بالجعفرية ، أو يُسمُّون بالإمامية الاثنى عشرية ، أو يُسمُّون بالروافض ، ويرى بعض الباحثين أن مصطلح الشيعة إذا أطلق فلا ينصرف إلا إليهم ، ويُسمُّون بالإمامية ؛ لأنهم قالوا بوجوب الإمامة ووجودها في كل زمان .

فالإمامة عندهم علم على مَنْ دان بوجوب الإمامة ووجودها في كل زمان ؛ وأوجب النصَّ الجلي والعصمة والكمال لكل إمام ، ثم حصر الإمامة في ولد الحسن بن عليٍّ ، وساقها إلى الرضا عليٍّ بن موسى[1] .

ويُسمُّون بالاثنى عشرية ؛ لأنهم يقولون بأن الأئمة بعد الرسول ﷺ اثنى عشر إمامًا ، وهم : عليُّ بن أبي طالب (المرتضى) ، والحسن بن عليٍّ (الزكي) ، والحسين (سيد الشهداء) ، وعليُّ بن الحسين (زين العابدين) ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعليُّ

---

(١) «أوائل المقالات» للمفيد (ص ٤٤) .

الرضا ، ومحمد الجواد ، وعليٌّ الهادي ، والحسن العسكريٌّ ، ومحمد بن الحسن (المهدي المنتظر) .

ويُسمُّون أيضًا الجعفرية ؛ نسبة إلى جعفر الصادق ، وهو الإمام السادس من الأئمة .

أما سبب تسميتهم بالروافض ؛ فقد مضى ذكر ذلك ، حينما رفض زيدٌ أن يسبَّ أبا بكر وعمر ، فرفضوا مذهبه ومذهب من تابعه ، وانشقوا عليه ، وسُمُّوا حينئذٍ بالروافض .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ وهو يعلق على تعريف أبي الحسن الأشعري ـ حينما قال [1]: «إنما سُمِّيَ الروافض بالرافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر».

وقال شيخ الإسلام في كتابه «منهاج السنة» : «قلتُ : الصحيح بأنهم سُمُّوا رافضة ؛ لما رفضوا زيد بن عليٍّ بن الحسن بن عليٍّ بن أبي طالب لما خرج بالكوفة أيام هشام بن عبد الملك» [2].

وهذه الطائفة هي الطائفة الكبرى في عالمنا اليوم ، ولها أتباعها وبكثرة ـ بالملايين في إيران ، والعراق ، ولبنان ، والكويت ، وباكستان ، والهند ، وليس في مصر ، ولا في بلاد شمال أفريقيا من هذه الطائفة شيء باستثناء بعض الأفراد .

وأقول ـ بيقين: إن أرض مصر أرض تلفظُ بذرة التشيع إلا إذا استطاع أهلُ هذا المذهب أن يدَّثِروا بعباءة التصوف ، ثم يدخلون على الناس من

---

(١) «مقالات الإسلاميين» (١/ ٣٧) .

(٢) «منهاج السنة» (١/ ٨) ، و«مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٦) .

باب حب آل بيت النبيِّ ﷺ .

يقول محمد حسين آل كاشف الغطا [(١)] «من كبار شيوخ الشيعة» : «الشيعة ما هم إلا طائفة من طوائف المسلمين ، ومذهب من مذاهب الإسلام ، يقفون مع سائر المسلمين في الأصول ، وإن اختلفوا معهم في بعض الفروع» !!

وردَّدَ هذا الكلام الخطير بعضُ أهلِ السنة نقلًا جزافًا عن أكابر وأئمة الشيعة ؛ فهل هذه الدعوى حقيقة؟!! ولتوضيح الحقيقة بعدلٍ وإنصافٍ لن ننقل من كُتب أهل السنة ؛ بل سنرجعُ في تفنيده إلى كُتب الشيعة ، وإلى كلامِ أكابرِ مراجعهم وعلمائهم ؛ فإن مصادر القوم في هذه هي المعتمدة عند من يعتنقون مذهب الشيعة ؛ لأنك لو ردَّدت على مَنْ يعتنق هذا المذهب بأقوال أهلِ السُّنَّةِ لألقى بقولك عُرضَ الحائط ، لكنك ستقيم علية الحجة إذا انطلقت لترد عليه بأقوال أئمتهم ، وأكابر مراجعهم في الماضي ؛ بل وفي العصر الحاضر .

فتدبر معي لنقف مع أول وأخطر أمر ؛ ألا هو : اعتقادهم في مصادر التلقي أو في أصول الأحكام المتفق عليها بين المسلمين .

ما هي مصادر التلقي عند الشيعة ؟ ومن أين استقى الشيعة أصول مذهبهم ؟ وما هي نظرة الشيعة لهذه الأصول ؟ وما هو معتقدهم فيها؟

أولاً : اعتقادهم في القرآن الكريم :

فالقرآن الكريم هو : أول مصدر من مصادر التلقي للمسلمين . لكن انظر إلى معتقد الشيعة في هذا المصدر ! فالشيعة يعتقدون أن القرآن

---

(١) هو من مراجع الشيعة المعاصرين ، ولد بالنجف سنة ١٩٢٤ هـ ، وتلقى علومه فيها ، وتوفي سنة ١٣٧٣ هـ ، ومن كتبه المعروفة «أصل الشيعة وأصولها» ، و«الدين والإسلام» وغيرهما .

الكريم محرَّفٌ !! وسأنقل الأدلة على ذلك من أقوالهم ومن كُتبهم ، ويعتقدون كذلك بأن هناك كُتبًا نزلت من السماء بعد القرآن الكريم !! .

فمعلومٌ أن الأمة قد اجتمعت على حفظ كتاب الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ مصداقًا لقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر : ٩] .

والقرآن الكريم تحدى الله ﷻ به البشرية جمعاء ؛إذ لم يتغير فيه حرف ، ولم تنقص منه كلمة ، ولم تحذف منه آية ، وقد فصَّلت ذلك ، وأنا أتحدَّثُ عن الإيمان بالكتب ؛ كركنٍ من أركان الإيمان بالله ـ جَلَّ وَعَلا.

ولكن تقومُ فريةُ الشيعة على القول بأن هذا القرآن الكريم الذي بين أيدي المسلمين ناقصٌ ومحرفٌ ، وزعموا أن القرآن الكامل عند عليٍّ بن أبي طالب ﷺ، ثم أورثه الأئمة من بعده ، وهو اليوم عند المهدي المنتظر ! وهذه المقالة الملحدة ممن يزعمون التشيع لعليٍّ فوق أنها طعنٌ في كتاب الله ـ تعالى ـ وفي دينه ، فهي طعنٌ في عليٍّ ﷺ.

إذ كيف يعلم عليٌّ أن القرآن الذي بين أيدي المسلمين محرَّفٌ ومزورٌ وناقص ، وأن القرآن الكامل عنده وحده ، ثم لا يردُّ على الفرية ولا يبين للمسلمين هذا الباطل ! لا سيما بعد ما أصبح خليفة ؟!

ولما سُئل الروافض عن ذلك لم يجدوا ما يجيبون به سوى أنهم قالوا على لسان عالمهم الكبير الذي يُلَقَّب بنعمة الله الجزائري ـ نعمة الله بن عبد الله بن محمد بن حُسين الحسيني الجزائري الشيعي الإمامي ، قال عنه الخوانساري : «كان من أعظم علمائنا المتأخرين ، وأفاخم فضلائنا المتبحرين» !!

وقال فيه محدِّثهم القمي : «كان عالمًا محققًا مدققًا جليل القدر» .

يقول نعمة الله ـ لما سُئل وردَّ عليه بهذا الردِّ السابق ـ فقال[1]: «ولما جلس أمير المؤمنين عليه السلام لم يتمكن من إظهار ذلك القرآن وإخفاء هذا لما فيه من إظهار الشناعة على مَنْ سبقه من الصحابة».

فهم هكذا يعتذرون. وأي قدح أشنع من هذا! إنهم يتهمون عليًّا رضي الله عنه بأنه جَامَلَ مَنْ سبقه من الصحابة على حساب كتاب الله، وعلى حساب دين رسول الله ﷺ! هذا ـ وربي ـ بهتان عظيم.

ومما يندى له جبين التحقيق خجلًا أن هذه الخرافة انتشرت في دواوين الشيعة ومجامعهم الحديثية وكتبهم المعتمدة في عشرات من النصوص والروايات!!!.

يقول حسين النوريُّ الطبرسيُّ ـ وهو عندهم إمام أئمة الحديث والرجال ـ في كتابه: «فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب»! وقد نقل في كتابه أقوالًا كثيرة من أقوال الشيعة التي تطعن في القرآن، جمعها ـ كما يقول ـ من الكتب المعتبرة، والتي عليها المعول، وإليها المرجع عند الأصحاب.

ثم قال في موضع آخر: «واعلم أن تلك الأخبار منقولة عن الكتب المعتبرة التي عليها معول أصحابنا في إثبات الأحكام الشرعية والآثار النبوية»[2].

ومن هذه الكتب؛ صحيحهم «الكافي»، وهم يشبهون هذا الكتاب عندهم كصحيح البخاري عند أهل السنة!! ويعتبرون «الكافي» أصحّ

---

(١) «الأنوار النعمانية» (٢/ ٣٦٢).

(٢) «فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب» للطبرسي (٢٤٩) وما بعدها.

كتبهم ، ويلقبون مؤلفه محمد بن يعقوب الكليني بألقاب ؛ يقولون عنه : «إنه ثقة الإسلام» !!

وقد روى الكلينيُّ من هذه الأساطير والأقوال الملحدة الشيء الكثير ، مع أنه التزم الصحة فيما يرويه ، ولهذا قرر الكاتبون عنه من الشيعة أنه كان يعتقد التحريف والنقصان في القرآن ؛ لأنه روى روايات في هذا المعنى في كتابه «الكافي» ولم يتعرض لقدحٍ فيها مع أنه ذكر في أول الكتاب أنه يثق بما رواه .

ويقول عالمهم المجلسي صاحب كتاب «بحار الأنوار» بأنه قد جعل هذه النقول والأخبار التي تثبت التحريف في كتاب الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ قد جعلها في الكثرة والتواتر تساوي أخبار الإمامة التي هي لُبُّ التشيع وجوهره !!

ويقول : «وعندي أن الأخبار في هذا الباب متواترة معنى ، وطَرْحُ جميعها يوجب رفع الاعتماد على الأخبار رأسًا ؛ بل ظني أن الأخبار في هذا الباب لا تقصر عن أخبار الإمامة»[(١)].

ويقول شيخهم المفيد : «إن الأخبار قد جاءت مستفيضة عن أئمة الهدى من آل محمدٍ ﷺ باختلاف القرآن ، وما أحدثه بعض الظالمين فيه من حذف ونقصان»[(٢)].

وقال ثقة الشيعة محمد صالح المازندراني : «وإسقاط بعض القرآن وتحريفه ثبت من طرقنا بالتواتر معنًى كما يظهر لمن تأمل في كتب الأحاديث من أولها إلى آخرها»[(٣)].

---

(١) «مرآة العقول» للمجلسي (٢/ ٥٣٦) .
(٢) «أوائل المقالات» للمفيد (٩٨) .
(٣) «شرح جامع الكافي» (١١/ ٧٦) للمازندراني .

ويقول شيخهم محسن الكاشاني في كتابه «تفسير الصافي» في المقدمة السادسة من تفسيره [١] : «المستفاد من الروايات من طريق أهل البيت ، أن القرآن الذي بين أظهرنا ليس بتمامه كما أنزل على محمد ﷺ ؛ بل منه ما هو خلاف ما أنزل الله ، ومنه ما هو مغيَّرٌ محرَّفٌ ، وأنه قد حُذف منه أشياء كثيرة ، منها اسم عليٍّ في كثير من مواضع القرآن ، ومنها لفظة آل محمد في أكثر من موضع ، ومنها أسماء المنافقين في مواضعها ،ومنها غير ذلك ... ثم قال : «إن القرآن ليس أيضًا على الترتيب المرضي عند الله وعند رسوله» .

وروى الكليني [٢] في كتابه «الكافي» بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال : «نزل جبريل بهذه الآية على محمد ﷺ ألا وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا [في عليٍّ] فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣] .

وعن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال : هكذا نزل قول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ [في عليٍّ] لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [٣] [النساء : ٦٦] .

انظر إلى هذا التحريف الرهيب ! ، فهذا تحريفٌ في النص القرآني بصورة مقززة . وسأقف مع تحريفاتٍ لهم في التأويل فيما بعد ـ إن شاء الله .

وعن أبي بصير عن أبي عبد الله في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

---

(١) «تفسير الصافي» للكاشاني : المقدمة السادسة .

(٢) «الكافي» باب فيه نكت ونتف من التنزيل في الولاية (١/ ٤١٧) .

(٣) «أصول الكافي» (١/ ٤٢٤) .

[في ولاية عليٍّ وولاية الأئمة من بعده] ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[(١)] .

ويروي الكليني[(٢)] بإسناده عن أبي الحسن قال : «ولايةُ عليٍّ مكتوبة في جميع صحف الأنبياء ، ولن يبعث الله رسولًا إلا بنبوة محمدٍ ووصية عليٍّ عليه السلام» .

ومن ذلك أيضًا : ما رواه الكلينيُّ بإسناده إلى أحمد بن محمد بن أبي نصر قال : دفع إليَّ أبو الحسن عليه السلام مصحفًا ، وقال : لا تنظر فيه ، ففتحته ، ونظرت فيه ، فقرأت فيه : ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ووجدت بعدها اسم سبعين رجلًا من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم ، قال : فبعث إليَّ عليٌّ ، قال : ابعث إليَّ بالمصحف»[(٣)] .

ولم يكتف الروافض بذلك ، بل زعموا أن سورًا بأكملها حذفت من القرآن الكريم ؛ كما قال شيخهم الطبرسيُّ : «نقصان السورة وهو جائز ؛ كسورة الحفد ، وسورة الخَلْع ، وسورة الولاية»[(٤)] .

ثم في موضعٍ آخر نقل سورة الولاية ؛ وهذا نصها :

« ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يا أيها الذين آمنوا بالنورين أنزلناهما يتلوان عليكم آياتي ، ويحذرانكم عذاب يومٍ عظيم ، نوران بعضهما من بعض ، وأنا السميع العليم ، إن الذين يُوْفون الله ورسوله في آيات كذا لهم جنات نعيم ، والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم ، وما

---

(١) «أصول الكافي» (١/ ٤١٤) .

(٢) «أصول الكافي» (١/ ٤٢١) .

(٣) «أصول الكافي» (٢/ ٦٣١) كتاب فضل القرآن ، باب النوادر .

(٤) «فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب» (٢٤) .

عاهدهم الرسول عليه يقذفون في الجحيم ، ظلموا أنفسهم ، وعصوا الوصيَّ الرسول ، أولئك يسقون من ماء حميم» [١] .

انظر إلى هذا الضلال المبين ! من الأفاكين الكذابين المجرمين !!

وجاءت روايات كثيرة في كتب الشيعة تأمرهم بالعمل بالمصحف الموجود بين أيدي المسلمين الآن ، لماذا ؟ قالوا : ريثما يخرج قرآنهم الذي ورَّثه عليٌّ ﷺ لإمامهم المهدي المنتظر !!! .

يقول نعمة الله الجزائري [٢] : «قد رُوي في الأخبار أن عليًّا والأئمة عليهم السلام أمروا شيعتهم بقراءة القرآن الموجود في الصلاة وغيرها ، وأن يعملوا بأحكامه ، حتى يظهر مولانا صاحب الزمان ، فيرتفع هذا القرآن من أيدي الناس إلى السماء ، ويخرج القرآن الذي ألَّفه أمير المؤمنين ، فيُقرأ بعد ذلك ، ويعمل بأحكامه» !!

*****

معتقد الشيعة أو الروافض في تأويل وتفسير القرآن

فكما انحرف الشيعة في القرآن ذاته ، فلقد انحرف الشيعةُ أو الروافض في تأويل وتفسير القرآن الكريم ، فساروا على غير قواعد اللغة ، وعلى غير قواعد الشريعة ، وعلى غير قواعد الفهم ؛ بل وعلى غير ما يقبله العقل ، وحرَّفوا تأويل القرآن بليٍّ أعناق النصوص بصورةٍ بشعة ، والأمر يحتاج منَّا إلى طُولِ نَفَسٍ ، ونحن نعدد النصوص من مصادر الشيعة الأصلية ، ومراجعهم الكبيرة ؛ ليتبين لنا هل هذا التحريف

(١) «فصل الخطاب» للنوري الطبرسي (ص/ ١٨٠) .

(٢) «الأنوار النعمانية» (٢/ ٣٦٣ ، ٣٦٤) .

والتأويل في كتب التفسير، وفي كتب الأصول عندهم قد يُتجاوز عنه أم أن هذا التحريف في التأويل أمرٌ مؤصل ومُقعَّد؛ بل هو أمر اعتقاد؟

فالأمر يحتاج إلى طُولِ نَفَسٍ، لنقف على هذه الحقيقة، وسأذكر لكم كثيرًا من الأمثلة والشواهد التي تبين تأويل الشيعة المنحرف لآيات القرآن الكريم في تفاسيرهم المعتبرة عندهم؛ كتفسير القمي، وتفسير العياشي، وتفسير البرهان، وتفسير الصافي؛ كما أن كتبهم المعتمدة في الحديث قد أخذت كثيرًا من هذه التأويلات الفاسدة وعلى رأسها «أصول الكافي» للكليني، و«البحار» للمجلسي وغيرها من الكتب.

أولًا: نجد في مصادرهم الأصلية، ككتب التفسير والحديث المعتمدة أنهم يفسِّرون كلَّ لفظةٍ وردت في القرآن الكريم تتحدث عن القرآن «بالأئمة»!

والأدلة على ذلك كثيرة: فمثلًا في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾[التغابن: ٨].

فالآية صريحة في التأويل أي: آمنوا بالله ورسوله، والنور ـ هو القرآن ـ الذي أنزلنا، لكن انظر إلى تأويل الشيعة؛ يقولون: النور هو نور الأئمة! انظر كتابهم «الكافي» للكليني[1]؛ فهذا تفسير الشيعة للفظة النُّورِ في كتاب الله ﷻ.

وفي رواية أخرى في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف:١٥٧]، قالوا: النُّورَ في هذه الآية هو: عليٌّ والأئمة مِنْ بعده

---

(١) «الكافي» للكليني، كتاب الحجة، باب أن الأئمة عليهم السلام نور الله (١/ ١٩٤).

عليه السلام[١] .. تعسفٌ واضحٌ ! ، والأدلة على هذا كثيرةٌ جدًّا عندهم .. تمضي تأويلاتهم للآيات التي تتحدث عن القرآن الكريم ، ولو كانت الآية في غاية الوضوح والدلالة على أن المقصود هو القرآن ؛ فهم يفسرون لفظة القرآن بجميع مترادفاتها بالأئمة !! .

ففي قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩] يقولون : يهدي إلى الإمام ! وفي رواية ؛ أي : يهدي إلى الولاية[٢] .

ويفسرون ما ورد في القرآن من لفظةِ النور بالأئمة أيضًا بلا أدنى دلالة ؛ وبكل أسف ، هم ينسبون كلَّ هذه التفسيرات إلى أئمة آل البيت برَّأهم الله مما قالوا ؛ فآلُ بيت النبيِّ ﷺ أعلمُ وأجلُّ وأفضلُ وأفقهُ وأبلغُ من أن ينسب إليهم مثل هذا الإلحاد في كتاب الله ﷻ .

فلا يثبت البتة لإمامٍ من أئمة آل بيت النبيِّ ﷺ ابتداءً بعليٍّ ـ رضوان الله عليه ـ والحسن ، والحسين ، وجعفر الصادق ، ومحمد الباقر ، وغيرهم من أئمة آل بيت النبيِّ كلُّ ما ينسبه الشيعة أو الروافض إليهم من تمحُّلات لا تتفق مع شرع ولا مع عقيدة ؛ بل ولا مع عقل في تأويلهم الفاسد الباطل لكتاب الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ فهم يقولون في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ [الصف : ٨] .

قالوا : يريدون ليطفئوا ولاية عليٍّ ﷺ . ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ ﴾ [الصف : ٨] أي : والله متمُّ الإمامة . والإمامة ـ عندهم ـ هي النور[٣] في قوله تعالى : ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن : ٨] .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) نفس المصدر (١/ ٢١٦) .
(٣) المصدر السابق (١/ ١٩٦) .

وانظر إلى تحريفهم وتأويلهم في قول الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾[النور : ٣٥] .

يقولون : المشكاة هي فاطمة عليها السلام ، و﴿ ٱلْمِصْبَاحُ ﴾ هو الحسن ، ﴿ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ ﴾ قالوا : الحسين ، ﴿ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ قالوا : فاطمة كوكب دري بين نساء العالمين ، ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ والشجرة المباركة: إبراهيم عليه السلام ﴿ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أي : لا يهودية ولا نصرانية ، ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ ﴾ أي : يكاد العلم يتفجر بها ، ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ قالوا : إمام من فاطمة بعد إمام . ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ أي : يهدي الله للأئمة من يشاء . ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ﴾ الآيات .

وقالوا في قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] أي : ومن لم يجعل الله له إمامًا من ولد فاطمة فما له من نور ؛ أي : فما له من إمام يوم القيامة [١] !

فهذا تحريفُ الشيعة والروافض الواضح الفاضح لكتاب الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ وكما أوَّلوا ما جاء في القرآن الكريم عن القرآن والنور بالإمامة ؛ فهم يأوِّلونه بالشرك والكفر في ولاية عليٍّ ، ويؤوِّلون ما جاء في عبادة

(١) «الكافي» كتاب الحجة ، باب أن الأئمة عليهم نور الله ﷺ (١/ ١٩٥) ، وانظر كذلك تفسير «نور الثقلين» (٣/ ٦٠٤) .

الله وحده واجتناب الطاغوت بولاية الأئمة ، والبراءة من أعدائهم .

ومن ذلك يقولون في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل : ٣٦] . قالوا : أي : ما بعث الله نبيًّا قط إلا بولايتنا والبراءة من عدونا ، فهذا تأويل الآية عندهم !

ويقولون في قوله تعالى : ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل : ٥١] . قالوا : يعني بذلك : لا تتخذوا إمامين ، إنما هو إمام واحد[١] .

ويقولون في قوله تعالى : ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر : ٥٦] . فهذا خطابٌ من الله لنبيه ﷺ كما هو معلوم ، لكنهم قالوا : لئن أمرت بولاية أحدٍ مع ولاية عليٍّ ليحبطن عملك ، و لتكونن من الخاسرين ![٢] .

ويقولون في قوله تعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف : ١١٠] . فسَّروا العمل الصالح بالأئمة . ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ أي : يُسْلم لعليٍّ ، ولا يشرك معه في الخلافة مَنْ ليس له ذلك ، ولا هو من أهله[٣] .

ويقولون في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة:٤١] . يعني : عليًّا ، أي : لا تكونوا أول كافر بعليٍّ ﷺ وبرَّأه الله مما قالوا .

---

(١) انظر : «تفسير العياشي» (٢/ ٢١٦) ، و«البرهان في تفسير القرآن» للبحراني (٢/ ٣٧٣) ، و«تفسير نور الثقلين» (٣/ ٦٠) .

(٢) «تفسير الصافي» (٢/ ٤٧٢) ، و«نور الثقلين» (٤/ ٤٩٨) .

(٣) «تفسير العياشي» (٢/ ٣٥٣) ، و«البرهان» للبحراني (٢/ ٤٩٧) .

وقالوا في بشاعةٍ رهيبةٍ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. هم أولياء فلانٍ وفلان و فلان، يعنون: أبا بكر وعمر وعثمان، اتخذوهم أئمة من دون الإمام، أي: عليٍّ رضي الله عنه[١].

وقالوا في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠]. يعني: أئمة دون أئمة الحق[٢].

ويقولون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]. أي: أنه لا يغفر لمن يكفر بولاية عليٍّ، وقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: لمن والى عليًّا عليه السلام.

والروايات في هذا الباب كثيرة جدًّا.

وكذلك يأوِّلون بعض آيات القرآن؛ كلفظة الصلاة مثلًا بالأئمة والإمامة أيضًا، فهم يقولون في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. قالوا: الصلوات هي رسول الله، وأمير المؤمنين عليٌّ، والحسن، والحسين. والصلاة الوسطي هي عليٌّ وحده، ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ أي: طائعين للأئمة[٣].

فهذه بعضُ تأويلاتهم لآيات الصلاة، وقد مضى تأويلهم لعموم الأعمال الصالحة بالإمامة، ولا أريد أن أقف مع كلِّ الروايات

---

(١) «تفسير العياشي» (١/ ٧٢)، و«البرهان» (١/ ١٧٢)، و«تفسير الصافي» (١/ ٥٦)، و«تفسير نور الثقلين» (١/ ١٥١).

(٢) «تفسير الصافي» (١/ ٥٧١).

(٣) «تفسير العياشي» (١/ ١٢٨)، و«تفسير البرهان» (١/ ٣٢١)، و«البحار» (٧/ ١٥٤).

والنصوص الثابتة ؛ فكتبهم مشحونةٌ بمثل هذا الأسلوب في التأويل المتعسف لكتاب الله ﷻ .

فلقد قالوا في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [البقرة : ١٢١] . قالوا [(١)] : هم الأئمة عليهم السلام .

والأئمة عندهم هم : أهل الذكر ، وهم الراسخون في العلم ، وهم الذين أُوتوا العلم ؛ فقالوا في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران : ٧] .

قالوا : هم الأئمة ، أمير المؤمنين عليٌّ ، والأئمة من بعده ، فنحن نُقرُّ بأن عليًّا رضي الله عنه من الراسخين في العلم ؛ بل من أئمة العلم ،لا ننكر هذا ؛ فالحقُّ نثبته ونقرُّه ولو كان على لسان الروافض ، أو على لسان غيرهم ؛ فلقد أثبت الله ﷻ الحقَّ لبعض أهل الكتاب مع كُفرهم بالله ـ جَلَّ وَعَلا .

فقال سبحانه : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ [آل عمران : ٧٥] .

فالله ﷻ يُثبتُ الحق لأهله ؛ فنحن نثبت أن عليًّا ـ رضوان الله عليه ـ من الراسخين في العلم ؛ فهذه ما زاغوا فيها عن الحق .

بل وستعجب إذا علمت أن الأئمة أيضًا عندهم هي آيات الله ، وهم النبأ العظيم ، وهم الآيات المحكمات !! يقولون في قول الله تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ ﴾ [الأعراف : ٧٤] : ما آلاء الله ؟ يسأل هذا السؤال يوسف البزار

---

(١) «تفسير الكافي» ، كتاب الحجة ، باب في أن من اصطفاهم الله من عباده وأورثهم كتابه هم الأئمة عليهم السلام (١/ ٢١٥) .

لأبي عبد الله جعفر الصادق ـ وهذا كذب وبهتان ـ قال : أتدري ما آلاء الله ؟ قلت : لا ، قال : هي أعظم نعم الله على خلقه ، وهي ولايتنا[1] .

والأئمة هم آيات الله أيضًا ؛ قال الكليني : باب إن الآيات التي ذكرها الله ﷻ في كتابه هم الأئمة ، وساق عدة روايات في ذلك ؛ فقال في قوله تعالى : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا ﴾ [القمر : ٤٢] . أي : كذبوا بالأئمة الأوصياء ، وهم النبأ العظيم في قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ [النبأ : ١ ـ ٢] .

فهم يفسِّرون النبأ العظيم بالأئمة ، قال أبو حمزة عن أبي جعفر ، قال قلت له : جُعلت فداك ، إن الشيعة يسألونك عن تفسير هذه الآية: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ فقال : ذلك إلي إن شئت أخبرتهم ، وإن شئت لم أخبرهم ، ثم قال : لكن أخبرك بتفسيرها : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ قال : فهي في أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، كان أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ يقول : «ما لله ﷻ آية هي أكبر مني ، ولا لله من نبأ هو أعظم مني»[2] .

تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا ، وبرأ الله عليًّا وأبا عبد الله جعفر الصادق ـ رضوان الله عليهم جميعًا ـ مما يقول هؤلاء الظالمون ؛ حتى لفظة الآيات المحكمات في كتاب الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ فُسِّرت بالأئمة عند هؤلاء!!

روى العياشي عن أبي عبد الله جعفر الصادق في قول الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ

---

(١) «تفسير الكافي» (١/ ٢١٧) .

(٢) «الكافي» كتاب الحجة ، باب أن الآيات التي ذكرها الله في كتابه هم الأئمة الأعلام (١/ ٢١٧) .

﴿مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ﴾[آل عمران : ٧] . قال : ﴿ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ﴾ أي: أمير المؤمنين ، والأئمة ، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ﴾ أي : أبو بكر وعمر وعثمان ، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي : أصحابهم وأهل ولايتهم ، ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ (١) .

وتأويلهم لكثيرٍ من آيات القرآن بالإمامة والأئمة يزيد على الحصر ، وكأن القرآن لم ينزل إلا في الولاية و إلا في الأئمة ؛ بل إن تعسفهم في تأويل آيات الأئمة والولاية تفسيرٌ وتأويلٌ لا أقول يخالف قواعد اللغة ولا قواعد الشرع ؛ بل حتى يخالف قواعد العقل السليم ؛ فالأئمة عندهم : هم النَّحل في قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾[النحل : ٦٨] .

أي : إلى الأئمة ؛ فقد عقد المجلسيُّ بابًا في «تفسيره» بعنوان باب نادر في تأويل النحل بالأئمة (٢)، وهم الحفدة في قول الله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾[النحل : ٧٢] .

وقالوا في قوله تعالى : ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[الأنفال : ٤٧] . أي : عن الأئمة .

وقالوا عن قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[الحاقة : ٥٠] أي : عليٌّ ﷺ.

وقالوا في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[الحاقة : ٥١] أي : عليٌّ ﷺ .

---

(١) «تفسير العياشي» (١/ ١٦٢) ، و«البرهان» (١/ ٢٧١) ، و«البحار» (٧/ ٤٧) .

(٢) «تفسير العياشي» (٢/ ٢٦٤) ، و«الصافي» (١/ ٩٣١) ، و«البرهان» (٢/ ٣٧٥) .

وقالوا في قوله تعالى : ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة : ٦] هو صراط عليٍّ رضي الله عنه .

والأئمة عندهم هي الأيام والشهور الواردة في القرآن ؛ فلقد عقد المجلسيُّ بابًا في «تفسيره» بعنوان: «باب تأويل الأيام والشهور بالأئمة عليهم السلام» ؛ بل ستعجب إذا علمت أن لفظةَ الأسماء الحسنى لله الواردة في كتاب الله تعني عندهم الأئمة ؛ ويروون عن الرضا أنه قال : إذا نزلت بكم شدةٌ فاستعينوا بنا على الله ، وهو قول الله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] .

قال أبو عبد الله جعفر : نحن ـ والله ـ الأسماء الحسنى ، الذي لا يقبلُ من أحدٍ إلا بمعرفتنا ، قال :﴿ فَٱدۡعُوهُ بِهَا ﴾ أي : فادعوه بنا ، أي الأئمة [(١)] .

حتى الآيات التي وردت في الكفار والمنافقين يأوِّلونها بخيار أصحاب سيد المرسلين ؛ فيقولون في قوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ [فصلت : ٢٩] .

قالوا :﴿ ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا ﴾ هما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، يقولون : وكان فلان شيطانًا ؛ يعنون : عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلفظةُ شيطانٍ ، يقولون : ما وردت في القرآن كلِّه من أوله إلى آخره إلا ويراد بها عمر ـ رضوان الله عليه [(٢)]!!

فهم يسبُّون أحبَّ الخلق إلى المصطفى ﷺ .

---

(١) «تفسير العياشي» (٢/ ٤٢) و«الصافي» (١/ ٦٢٦) و«البرهان» (٢/ ٥١) .

(٢) «فروع الكافي» بهامش «مرآة العقول» (٤/ ٤١٦) .

قال المجلسيُّ في شرحه لكتاب «الكافي» وهو تفسير من تفاسير الشيعة المعتمدة الكبيرة ، وهو يبين مراد صاحب الكافي بهذه العبارات ، قال : ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا ﴾ قال : هما أبو بكر وعمر ، والمراد بفلان ـ عمر ـ أي : (الجنّ) المذكور في الآية : عمر ، وإنما سُمِّي به ؛ لأن عمرَ كان شيطانًا ! ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ويروي العياشي عن حَنَان بن سدير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول : دخل عَلَيَّ أناس من البصرة ، فسألوني عن قوله تعالى : ﴿ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ [التوبة : ١٢] ، فقال : طلحة والزبير كانا إمامين من أئمة الكفر [1] .

ويقولون في قوله ﷺ : «اللهمَّ أعِزَّ الدِّينَ بِعُمَرِ بنِ الخَطَّابِ أَوْ بِأَبِي الحَكَمِ عَمْرو بنِ هِشَام» [2] . قالوا : لما دعا النبيُّ ﷺ ربَّه بهذا الدعاء نزل عليه قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف : ٥١] .

ويقولون في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ [البقرة : ١٦٨] . قالوا : ﴿ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ والله : ولايةُ فلانٍ وفلانٍ ـ أي : ولاية أبي بكر وعمر ! .

وفي قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [النساء : ١٠٨] .

يفترون على أبي عبد الله جعفر الصادق ـ برَّأه الله مما قالوا ـ ويقولون : قال فيها : فلان وفلان ـ أي أبو بكر ، وعمر ، وأبو عبيدة .

---

(١) «تفسير العياشي» (٢/ ٧٧ ، ٧٨) ، و«تفسير البرهان» (٢/ ١٠٧) ، و«تفسير الصافي» (١/ ٦٨٥) .

(٢) سبق تخريجه ، وهو صحيح .

وفي رواية أخرى ـ افتروها على أبي الحسن ـ تقول : أبو بكر ، وعمر ، وأبو عبيدة هم الذين يبيتون في حقِّ عليٍّ ما لا يرضى من القول .

ويفترون على أبي عبد الله جعفر الصادق في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا ﴾ [النساء : ١٣٧] .

قالوا : نزلت في أبي بكر وعمر ، آمنوا برسول الله وآله في أول الأمر ، ثم كَفَروا حين عُرضت عليهم الولاية لعليٍّ ، حيث قال ﷺ : «مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاَهُ»[١] ثم آمنوا بالبيعة لأمير المؤمنين حيث قالوا له بأمر الله وأمر رسوله ، فبايعوه ، ثم كفروا حيث مضى رسول الله ﷺ ، فلم يقروا بالبيعة ، ثم ازدادوا كفرًا بأخذهم من بايعوا عليًّا بالبيعة لهم ؛ فهؤلاء لم يبق منهم من الإيمان شيء[٢] .

وعلى ضوء عقيدتهم يتعسفون في تأويل نصوص القرآن ليثبتوا ما رسخ عندهم من اعتقاد ؛ فهم لا يتورَّعون أبدًا من أن يلوي أحدُهم عُنُقَ النصِّ من أجل أن يُثبت عقيدته الفاسدة الباطلة ؛ فتصور : مثلًا ـ من أجل إثبات عقيدتهم في مهديهم المنتظر ـ وهو يخالف تمامًا المهدي المنتظر عند أهل السنة والجماعة .

يقولون في قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة ١ ـ ٣] ، يقولون : من أقرَّ بقيام القائم عليه السلام أنه حق .

---

(١) سبق تخريجه ، وهو صحيح .

(٢) «تفسير العياشي» (١/ ٢٨١) ، و«تفسير الصافي» (١/ ٤٢٢) ، و«تفسير البرهان» (١/ ٤٠٤) ، و«البحار» (٨/ ٢١٨) .

وفي رواية : ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ يعني بالقائم عليه السلام وغيبته [(١)] .

وعن جابر عن أبي جعفر في قوله تعالى : ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [التوبة : ٣] .

قال : «خروج القائم وأذان دعوته إلى نفسه» [(٢)].

والأمثلة على تعسفهم في تأويل آيات الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ في المهدي المنتظر كثيرة ؛ حتى ألَّفوا في هذا كُتبًا مستقلة ؛ ككتاب : «ما نزل من القرآن في حق صاحب الزمان» لعبد العزيز الجلودي ، وكذلك كتاب : «المحجة فيما نزل في القائم الحجة » للسيد هاشم البحراني ، وهذا الكتاب عبارةٌ عن آيات من القرآن تُؤوَّل تأويلًا باطلًا ، لا لبس فيه ولا غموض ، يثبتون بهذه الآيات القرآنية الصريحة خروج مهديهم المنتظر ، أو بأن هذه الآيات وردت في مهديهم المنتظر ! .

ويمضي القوم في تأويلهم لآيات الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ يتعسَّفون أيما تعسف ، ويحاولون البحث عن آياتٍ يفسرون على ضوئها معتقدهم في التقية ، وفي البداءة ، وفي الرجعة ، وفي غير ذلك من معتقداتهم البالية !

وهذه أمثلة قليلةٌ لتحريفهم البيِّن الجليِّ لكتاب الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ ولتعسفهم في فهم آيات الله تبارك وتعالى ؛ فهم يفسرون القرآن تفسيرًا باطنيًّا لا تربطه بالآية على الإطلاق أدنى صلة ، وكأن القرآن لم ينزل بلسان عربيٍّ مبينٍ ، ولم يجعله الله ـ تبارك وتعالى ـ هداية ودستورًا للخلق

---

(١) «ابن بابويه القمي» (إكمال الدين) : (ص/ ١٧) .

(٢) «تفسير العياشي» (٢/ ٧٦) ، و«تفسير البرهان» (٢/ ١٠٢) .

أجمعين ؛ فالله ـ جَلَّ وَعَلا ـ قال : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧] .

فهذا القرآن يخاطب العَالِمَ ، وساكنَ الصحراء ، وروَّاد الفضاء ، وساكن القرية ، وساكن المدينة ، ويخاطب الأُمِّيَّ الذي لا يقرأ ولا يكتب ؛ لأن الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ قد أنزل القرآن بلسانٍ عربيٍّ مبين ؛ فهم يتعسفون بهذه الصورة في لَيِّ النصوص ، فيصرفون اللفظة عن معناها القريب والبعيد ، حيث تجد تفسيرًا لا يَمُتُّ على الإطلاق إلى معنى الكلمة أو إلى الآية بأدنى صلة .

قال ابن عباس رضي الله عنهما [١] في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ [فصلت : ٤٠] ، قال : «الإلحاد هو : أن يوضع الكلامُ في غير موضوعه ، وذلك بالانحراف في تأويله» .

وقال صاحب الإكليل الإمام السيوطيُّ رحمه الله تعالى : «ففيها الردُّ على مَنْ تعاطى تفسير القرآن بما لا يدلُّ عليه جوهر اللفظ ،كما يفعله الباطنية والاتحادية والملاحدة» .

وقال محمد أنور شاه الكشميري [٢] :«وهؤلاء الذين يلحدون في آيات الله ، ويحرِّفونها عن معانيها ، وإن كتموا كفرهم ، وتستَّروا بالتأويل الباطل ، وأرادوا الإخفاء ، لكنهم لا يخفون على الله تعالى ؛ كما قال ـ جَلَّ وَعَلا » .

ومع ذلك أقول : إننا لا نأنف البتة أن نثبت الحقَّ إن رأينا شيئًا من

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١٢/ ٢٤٥) ، و«محاسن التأويل» للقاسمي (١٤/ ٥٢١١) .

(٢) «إكفار الملحدين» لمحمد أنوار شاه الكشميري (ص ٢) .

الحقِّ ؛ فكتاب «التبيان» للطوسي ، وكتاب «مجمع البيان» للطبرسي قد نأى هذان الكتابان من كتب التفسير عند الشيعة عن هذا الغلو البيِّن في تفسير آيات رب العالمين ، وإن كان الكتابان قد التزما بالدفاع عن أصول العقيدة الشيعية في بعض الآيات ، ولكنها بأمانة لا تقارب بحالٍ ما ورد في تفسير العياشي أو الكافي أو البحار أو الصافي أو غيرها ، وكان من المفترض أن ننوه إلى هذا أيضًا من باب العدل والإنصاف ؛ لولا أن وقفنا على كلامٍ نفيسٍ لعالِمِ الشيعة ، ومحدثها ، وخبير رجالها ، وصاحب آخر مجموع من مجامعها الحديثية ، وهذا الرجل هو أستاذ كبير من علماء الشيعة ـ كمحمد حسين الكاشف الغطا ، وأغابزرك الطهراني وغيرهم ـ هذا العالم هو حسين النوري الطبرسي كشف لنا سرًّا خطيرًا بقي دفينًا ، ولولاه ما أمطنا اللسان عن حقيقةٍ كانت مجهولة لدينا ؛ يقول في كتاب «التبيان» :

«ثم لا يخفى على المتأمل في كتاب «التبيان» أن طريقته فيه على نهاية المداراة والمماشاة مع المخالفين ؛ فإنك تراه اقتصر في تفسير الآيات على نقل كلام الحسن ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي ، وابن جريج ، والجبائي ، والزجاج ، وابن زيد ، وأمثالهم . ولم ينقل عن أحد من مفسري الإمامية ، ولم يذكر خبرًا عن أحدٍ من الأئمة عليهم السلام إلا قليلًا في بعض المواضع ؛ لعلَّه وافقه في نقله المخالفون ؛ بل عدَّ الأولين في الطبقة الأولى من المفسِّرين الذين حُمدت طرائقهم ، ومُدِحَت مذاهبهم ، وهو بمكانٍ من الغرابة لو لم يكن على وجه المماشاة ، فمن المحتمل أن يكون هذا القول منه فيه على نحو ذلك ، ومما يؤيد كونه وضع الكتاب على التقية : ما ذكره السيد الجليل علي بن طاووس في «سعد السعود» وهذا

لفظه : «ونحن نذكر ما حكاه جدي أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي في «كتاب التبيان» ، وحملته التقية على الاقتصار عليه من تفصيل المكي من المدني ، والخلاف في أوقات ..... إلى آخره» .

هكذا لم يكمل الطبرسي العبارة ! وقال الطبرسي معقبًا : وهو أعرف بما قال ، أي الطوسي لا يخفى على من اطلع على مقامه فتأمل»[(١)] .

ومن هذا الكلام يتبين أن «التبيان» للطوسي قد وُضع على أسلوب التقية ؛ كما هو رأيُ عالم الشيعة الكبير المعاصر ـ كما ذكرت ـ أو أن يكون «تفسير البيان» قد صدَرَ من الطوسي نتيجة اقتناع فكريٍّ بإسفاف ما عليه القوم من تفسير ، ومعنى هذا أن شيعة اليوم هم أشد غلوًّا وتطرفًا ؛ ولذا تراهم يعتبرون تفسير الطوسي وأمثاله من التفاسير إنما ألفت للخصوم ، والتزمت برُوحِ التقية ، لتبشر بالعقيدة الشيعية بين من لا يدينون بعقيدة الروافض ، وقد صار على نهج الطوسي عالمهم أبو العلى الفضل بن الحسن الطبرسي ـ وهو من أكابر علمائهم في القرن السادس الهجري ـ وقد أشار الطبرسيُّ في مقدمة تفسيره إلى اتباعه منهج الطوسيِّ ؛ حيث قال : إلا ما جمعه الشيخ الأجل السعيد أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي ـ قدَّس الله روحه ـ من «كتاب التبيان» ، فإنه الكتاب الذي يقتبس منه ضياء الحق ، ويلوح عليه رواء الصدق ، وهو القدوة ، أستضيء بأنواره ، وأطأُ مواقع آثاره» .

ومن أبشع ما وقفتُ عليه ؛ أن الشيعة لم يكتفوا بالقول بتحريف كتاب الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ على الحدِّ الذي بينتُ ؛ بل زعموا أن كُتُبًا أخرى

---

(١) «فصل الخطاب» (ص/ ١٧) .

ـ كالقرآن ـ أنزلها الله على عليٍّ وفاطمة ؛ فلقد تضمنت كتب الشيعة ومراجعها المعتبرة دعاوى عريضة ، ومزاعم خطيرة تزعم أن هناك كتبًا مقدسة قد نزلت من السماء بوحيٍ من الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ إلى الأئمة !! وأحيانًا تورد كتب الشيعة الأصلية نصوصًا وروايات ، يزعمون أن هذه النصوص وتلك الروايات مأخوذةٌ من الكتب التي نزلت على الأئمة ، وعلى رأسهم عليٌّ ـ رضوان الله عليه وبرَّأه الله مما قالوا .

وأنقل إليكم بعض النصوص ـ باختصار وبكلِّ أمانة ـ في هذا المبحث الخطير.

يروي الكلينيُّ بسندِهِ عن حماد بن عثمان ، قال : سمعت أبا عبد الله جعفر الصادق يقول : يظهر الزنادقة في سنة ثمان وعشرين و مائة ، وذلك أني نظرت في مصحف فاطمة عليها السلام قال : قلتُ : وما مصحف فاطمة ؟ قال : إن الله تعالى لما قبض نبيه ﷺ دخل على فاطمة عليها السلام من وفاته من الحزن ما لا يعلمه إلا الله ﷻ ، فأرسل الله إليها مَلَكًا يُسلي غمها ويحدثها ، فشكَتْ ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال لها عليٌّ : إذا أحسست بذلك ، وسمعت الصوت ، فقولي لي ، فأعلمته بذلك ، فجعل أمير المؤمنين يكتب كلَّما سمع من الملك ، حتى أثبت من ذلك مصحفًا ، قال : ثم قال : أما إنه ليس فيه شيء من الحلال والحرام ، ولكن فيه علم ما سيكون»[(١)] .

وفي كتاب «دلائل الإمامة»[(٢)] تَردُ روايةٌ تصفُ مصحفَ فاطمة

---

(١) «أصول الكافي» ، كتاب الحجة ، باب فيه ذكر الصحيفة (١/ ٢٤٠) .

(٢) «دلائل الإمامة» لمحمد بن جرير بن رستم الطبري (ص ٢٧ ، ٢٨) .

المزعوم بأن فيه خبر ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، وفيه خبر كلِّ سماء ، وفيه خبر عدد ما في السماوات من الملائكة ، وفيه عدد كلِّ من خلق الله من المرسلين بأسمائهم ، وأسماء من أرسل إليهم ، وأسماء من كذَّب ، وأسماء من أجاب ، وأسماء جميع من خلق الله من المؤمنين والكافرين ، وفيه أيضًا صفة كلِّ من كذَّب ، وفيه صفة القرون الأولى ، وفيه صفة من ولي من الطواغيت بمدة ملكهم وعددهم ، وأسماء الأئمة وصفتهم ، وما يملك كلُّ واحد ، وفي هذا المصحف أسماء جميع ما خلق الله ، وفيه صفة أهل الجنة بأعدادهم ، ومن يدخلها ، وبعدد مَنْ يدخل النار بأسمائهم ، وفيه عِلْم القرآن كما أنزل ، وفيه عِلْم التوراة كما أنزلت ، وفيه عِلْم الإنجيل كما أنزل ، وفيه عِلْم الزبور ، وفيه عِلْم كلِّ شجرة ومُدرة في جميع البلاد .

وتصف هذه الرواية صفة نزول هذا المصحف ـ على خلاف ما جاء في الرواية السابقة عند الكافي ـ تقول إن هذا المصحف نزل جملة واحدة من السماء بواسطة ثلاثة من الملائكة هم : جبريل ، وإسرافيل ، وميكائيل ، فهبطوا به ، وفاطمة ـ رضوان الله عليها ـ قائمة تصلِّي ، فما زالوا قيامًا حتى قعدت ، فلما فرغت من صلاتها سلموا عليها ، وقالوا : السلام يقرئك السلام ، ووضعوا المصحف في حِجْرها ، فقالت فاطمة : لله السلام ، ومنه السلام ، وإليه السلام ، وعليكم يا رسُل الله السلام ، ثم عرجوا إلى السماء ، فما زالت من بعد صلاة الفجر إلى زوال الشمس تقرؤه حتى أتت على آخره ، ولقد كانت عليها السلام مفروضة الطاعة على

جميع من خلق الله من الجن ، والإنس ، والطير ، والوحش ، والأنبياء ، والملائكة ، قلت : جعلت فداك ، فلمن صار هذا المصحف بعد مضيها ؟ فقال : دفعت به إلى أمير المؤمنين عليٍّ ، فلما مضى عليٌّ «أي : قُتل» صار إلى الحسن ، ثم إلى الحسين ، ثم عند أهله ، حتى يدفعوه إلى صاحب هذا الأمر .

أي : المهدي المنتظر ، وهم يزعمون بنزول اثني عشر صحيفة من السماء تتضمن صفات الأئمة في حديث طويل من أحاديثهم يرويه صَدوُقُهُم ! ابن بابويه القمي .

يروى عن رسول الله ﷺ قال : «إن الله ـ تبارك وتعالى ـ أنزل عليَّ اثني عشر خاتمًا واثني عشر صحيفة اسم كلِّ إمام على خاتمه وصفته في صحيفته» (١) . في مسلسل من الافتراء والافتيات !

وأكتفي بهذا القدر من هذا التأويل الباطل المتعسف في كتاب الله ﷻ ليقف كلُّ مسلم على حقيقة معتقد القوم .

فإن القول بأن الخلافَ بين أهل السنة وبين الشيعة خلافٌ في الفروعِ كلام غير صحيح يحتاج صاحبه إلى توبة إلى الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ إن كان يفهم ما يقول ، ويحتاج إلى أن يتعلَّم إن كان يجهل ما يقول ؛ فالأمر جِدٌّ خطير ؛ فهو أمرُ اعتقاد !!!

*****

---

(١) «إكمال الدين» لابن بابوية القمي (٢٦٣) .

معتقد الروافض في سنة النبي ﷺ

فهم يخالفون أهل السنة تمامًا في مصادر التلقي ، وفي معتقدهم في سنة النبيِّ ﷺ ، وسأركزُ الحديث في هذا الموضوع في نقاط محددة :

أولاً : يعتقدون أن أقوال أئمتهم الاثنى عشر كأقوال الله ورسوله ! فإذا قال الإمام قولاً فهو قولٌ لله ، وهذه قاعدةٌ مقرَّرةٌ عند القوم ؛ ويقول عالمهم المازندراني : «إن حديث كلِّ واحدٍ من الأئمة الطاهرين قول الله ﷻ ، ولا اختلاف في أقوالهم كما لا اختلاف في قول الله تعالى »[1] !!

ويقول أحدُ علمائهم المعاصرين ـ يقال له عبد الله الفياض[2] : «إن الاعتقاد بعصمة الأئمة جعل الأحاديث التي تصدر عنهم (أي : عن الأئمة) صحيحة ! دون أن يشترطوا إيصال سندها إلى النبيِّ ﷺ كما هو الحال عند أهل السنة» ؛ فهذه عبارةٌ في غاية الأهمية لتبين عظمة أهل السنة وعظمة هذا العلم الذي منَّ الله به على أهل السنة، ألا وهو : علم الإسناد ؛ فإن من أشرف وأعظم العلوم التي منَّ الله بها على أهل السنة ، وعلى هذه الأمة بصفة عامة هو : علم الإسناد ؛ فهذا القول عندهم قولٌ من معصوم إلى معصوم ، وذلك أن الإمامة عندهم استمرار النبوة ، فالنصُّ النبويُّ عندهم من هذه القاعدة نصٌّ مستمرٌّ لا ينقطع مادامت الإمامة موجودةً في الأرض ، وهذا هو معتقدهم في هذه المسألة بالإجماع ؛ فهذا هو المعتقد الأول عند الروافض في سنة النبيِّ ﷺ .

---

(١) «شرح جامع على الكافي» للمازندراني (٢/ ٢٧١) .

(٢) «تاريخ الإمامية» (١٤٠) .

ثانيًا : يعتقدون أن الشريعة المحكمة المطهرة قد انتقلت بعد وفاة النبيِّ ﷺ إلى الأئمة المعصومين ! وهذا أيضًا يؤكدُ معتقدهم في استمرار النبوة واستمرار الرسالة والوحي ؛ فالشريعة عندهم قد نُقلت من النبيِّ إلى عليٍّ ، ثم إلى الحسن ، ثم إلى الحسين ، ثم إلى الأئمة المعصومين من أئمة الشيعة أو الروافض .

وهذا الاعتقاد من أركان مذهب الروافض ، وخلاصةُ هذا المعتقد : أن رسول الله ﷺ بلَّغ جزءًا من الشريعة ، ولم يبلغ الشريعة كلَّها ، ولما حضرته الوفاة أودع النبيُّ ﷺ هذا الجزء المتبقي من الشريعة عند عليٍّ بن أبي طالب ﷺ ، فأظهر عليٌّ جزءًا من هذه الشريعة في حياته ، وكتم جزءًا هو الآخر أودعه عند موته إلى الحسن ، وهكذا يُظهر كلُّ إمام من الأئمة جزءًا من الشريعة حسب الحاجة ، ثم يعهد بالجزء المتبقي من الشريعة لمن يأتي بعده إلى أن يتبقى آخر جزء من أجزاء هذه الشريعة عند مهديهم المنتظر ؛ لأن المهدي عندهم بخلاف المهدي عند أهل السنة والجماعة ؛ كما سأبين ـ إن شاء تعالى .

يقول محمد حسين الكاشف الغطا[1] : «إن حكمة التدريج اقتضت بيان جملة من الأحكام وكتمان جملة أخرى ؛ ولكنه سلام الله عليه «أي : عليٌّ ﷺ » أودعها عند أوصيائه ، كلُّ وصي يعهد بها إلى الآخر ، لينشرها في الوقت المناسب لها حسب الحكمة من عام أو مخصص ، أو مطلق ، أو مقيد ، أو مجمل أو مبيَّن ، إلى أمثال ذلك ؛ فقد يذكر النبيُّ عامًا ، ويذكر مخصصه بعد برهة من حياته ، وقد لا يذكر النبيُّ أصلاً هذا العام

---

(١) «أصل الشيعة وأصولها» (٧٧) .

وهذا الخاص ؛ بل يودع النبيُّ هذا عند وصيِّه إلى وقته ، أي إلى الوقت الذي يرى فيه الوصيُّ أنه لابد من إخراج هذا العلم» .

ويقول شيخهم المعاصر بحر العلوم[1] : «لما كان الكتاب العزيز متكفلاً بالقواعد العامة دون الدخول في تفصيلاتها احتاجوا إلى سنة النبيِّ ﷺ ، والسنة لم يَكمُل بها التشريع ؛ لأن كثيرًا من الحوادث المستجدة لم تكن على عهده ﷺ ؛ فاحتاج أن يدَّخر علمها عند أوصيائه ليؤدوها عنه في أوقاتها » .

وأقول: لا ينبغي أبدًا أن يُقال إن التشريع لم يكمل بالسنة ! كلا ، ثم كلا ؛ بل إن الله قد أكمل الدين ، وأتم النعمة بالقرآن والسنة .

والأدلة كثيرةٌ منتشرةٌ في كتبهم ، ويكفي أن نقف فقط عند تفسير «الكافي» مثلاً للكليني ؛ لترى أنه في «تفسير الكافي» عقد أبوابًا بهذه العناوين ؛ فقال مثلاً : «باب أن الأئمة عندهم جميع الكتب التي نزلت من عند الله ﷻ وأنهم يعرفونها على اختلاف ألسنتها» وترجم بابًا بعنوان «باب أن الأئمة يعلمون جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة والأنبياء والرسل» إلى آخر هذه الأبواب[2] .

ثالثًا : أنهم يردُّون كلَّ الأحاديث والروايات التي تأتي من طريق أصحاب النبيِّ ﷺ ، ولا يأخذون البتة إلا بالروايات التي تأتي من طريق آل بيت النبيِّ ﷺ ـ ورضوان الله عليهم وبرأ الله أهل البيت مما يعتقده الروافض ؛ فهم يقولون بأن كل الروايات التي أتت عن الصحابة باطلة !

---

(١) «مصابيح الأصول» (ص٤) .

(٢) «أصول الشيعة» (١/ ٣٨٥) ، و«أصول الكافي» (١/ ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦) .

لماذا ؟ قالوا : لأن الصحابة قد ارتدُّوا بعد موت النبيِّ ﷺ !! باستثناء ثلاثة من الصحابة.

فيقول محمد حسين الكاشف الغطا [(١)] : «إن الشيعة لا يعتبرون من السنة إلا ما صحَّ لهم من طرق آل البيت ، أمَّا ما يرويه مثل أبي هريرة ، وسمرة بن جندب ، وعمرو بن العاص ، ونظائرهم فليس لهم عند الإمامية مقدار بعوضة» .

وهذا القول يردُّ روايات أصحاب النبيِّ ﷺ ، وعدم قبول الروايات إلا من طريق آل البيت ، فهو مبنيٌّ على معتقد الروافض الباطل في أصحاب النبيِّ ﷺ ؛ إذ إن الروافض يعتقدون أن الصحابة ﷺ قد ارتدُّوا بعد موت النبيِّ ﷺ ـ كما تقدم ـ لأنهم صرفوا الخلافة بعد النبيِّ ﷺ لأبي بكر ، ولم يمنحوها عليًّا ﷺ جميعًا ـ فهذا هو سببُ ارتداد الصحابة عند الشيعة البالية الهالكة !!

وأنقل بعض النقول التي تبين معتقد الروافض في أصحاب النبيِّ ﷺ ، ولم يقتصر طعن الروافض في الصحابة العادين أي من غير آل البيت ؛ بل وإنما وصل طعن الروافض إلى بعض أصحاب النبيِّ ﷺ من آل بيت النبيِّ كالعباس ، وابن عباس ﷺ .

فعن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر قال : إن رسول الله ﷺ لما قُبض صار الناس كلهم أهل جاهلية «أي : الصحابة» إلا أربعة ؛ وهم علي ﷺ ثم المقداد بن عمرو ، وسلمان الفارسي ، وأبو ذر الغفاري ـ لماذا هؤلاء فقط؟

---

(١) «أصل الشيعة وأصولها» (٩٧) .

لأنه ثبت بطرق الروافض أن هؤلاء هم الذين نصروا عليًّا رضي الله عنه، وهم كانوا من أوائل من رفضوا أن تكون البيعة والخلافة بعد النبيِّ ﷺ إلا لعليٍّ هذا زعم الروافض !.

فقلت ـ أي السائل وهو الفضيل بن يسار: فعمار بن ياسر ؟ فقال له: «إن كنتَ تريدُ الذين لم يدخلهم شيء؛ فهؤلاء الثلاثة».

ونصوصُهم التي تتناول أصحاب النبيِّ ﷺ بالطعن والسب والتكفير والتفسيق والتبديع تخلع القلب؛ فهؤلاء يقولون [(١)]: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: من ادَّعي إمامةً من الله ليست له، ومن جحد إمامًا من الله، ومن زعم أن لأبي بكر وعمر في الإسلام نصيبًا».

وقال في «روضة الكافي» ضمن شرح المازندراني على «الكافي»: «إن الشيخين فارقا الدنيا ولم يتوبا، ولم يتذاكرا ما صنعا بأمير المؤمنين، فعليهما لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[(٢)].

ويقول شيخهم نعمة الله الجزائري [(٣)]: «قد وردت في الروايات الخاصة؛ أن الشيطان يُغل بسبعين غُلاً من حديد جهنم، ويساق إلى المحشر، فينظر، فيرى رجلاً أمامه تقوده ملائكة العذاب، وفي عنقه مائة وعشرون غُلاً من أغلال جهنم، فيدنو الشيطان إليه، فيقول: ما فعل الشقي حتى زاد عليَّ في العذاب، وأنا أغويت الخلق وأوردتهم

---

(١) «الكافي» للكليني (١/ ٣٧٣)، و«تفسير العياشي» (١/ ١٧٨)، و«البرهان» (١/ ٢٩٣).

(٢) «الكافي»، كتاب الروضة (١٢/ ٣٢٣).

(٣) «الأنوار النعمانية» (١/ ٨١، ٨٢).

موارد الهلاك ، فيقولوا : هذا الرجل عمر بن الخطاب ، فيقول عمر : ما فعلتُ شيئًا سوى أني غصبتُ خلافة علي بن أبي طالب !» فاروقُ الأمة الذي بشَّره النبيُّ ﷺ بالجنة ـ وهو في الدنيا ، وهو المبشر بالشهادة وهو في الدنيا ؛ بل ورأى النبيُّ ﷺ قَصْره في الجنة ، وتمنى أن لو كان القصر له ؛ فيا لها من كرامة لعمر ! .

فانظر إلى هؤلاء المجرمين يقولون مثل هذا الكلام الخبيث ، الذي والله أشعر بقشعريرةٍ في قلبي ـ لا في جسدي ـ من مجرد نقله ، وإن كنتُ أعلم أن ناقل الكفر للتوضيح والبيان لا حرج عليه ؛ فلقد ذكر الله ﷻ أقوال أهل الكفر ، وسُطِّرت في كتاب الله تبارك وتعالى ، ونقل لنا رسولُ الله ﷺ أقوال أهل الكفر ، ونقل لنا أئمةُ السلف أقوال أهل الكفر ؛ فناقلُ الكفر للتوضيح والبيان لا لائمة عليه ، و إلا فوالله لشعر الإنسانُ بشيءٍ من الحرج لولا هذا التفصيل . حتى في مجرد نقله لمثل هذا الكلام الخبيث الخطير !!!

وقال نعمة الله الجزائري أيضًا ـ معقبًا على هذه الرواية : «والظاهر أن عمر قد استقل سبب شقاوته ، ومزيد عذابه ، ولم يعلم أن كلَّ ما وقع في الدنيا إلى يوم القيامة من الكفر والنفاق واستيلاء أهل الجور والظلم إنما هو من فعلته هذه» .

هذه نظرة مَنْ يزعم التشيع لعليٍّ ﷺ في الخَيِّرَيْنِ الكريمين الجليلين العظيمين الحبيبين للنبيِّ ﷺ : أبي بكر وعمر ﷺ ؛ فكيف تكون نظرة هؤلاء في بقية أصحاب النبيِّ ﷺ .

وعليٌّ رضي الله عنه كما في «صحيح البخاري»[1] يقول: «وَاللهِ مَا خَلَّفْتُ أحدًا أُحِبُّ أنْ أَلْقَى اللهَ بمثْلِ عَمَلِهِ منْ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ».

وجاء الخلاف بعد ذلك في عثمان وعليٍّ؛ فانقسمت الشيعةُ إلى قسمين: شيعة عثمان، وشيعة عليٍّ؛ كما قلنا قبل ذلك؛ فهذا معتقد الشيعة في أبي بكر وعمر، ولك أن تتصور معتقد القوم بعد ذلك في بقية أصحاب النبيِّ ﷺ؟!

قال المجرمون الروافض في حقِّ أبي بكر رضي الله عنه؛ كما قال نعمة الله الجزائري[2]: «إن الخليفة الأول قد كان مع النبيِّ ﷺ، وصنمُهُ الذي كان يعبده في الجاهلية معلَّق بخيطٍ في عنقه، ويستره بثيابه، وكان يسجد ويقصد أن سجوده لذلك الصنم، لا إلى ربِّ محمد، إلى أن مات النبيُّ، فأظهروا ما كان في قلوبهم»!!

انظر إلى الحقد الدفين على أصحاب النبيِّ الأمين ﷺ الذين رفعوا راية الإسلام خفَّاقة، الذين فتحوا فارس وحرَّروها من عبادة النار؛ قال أحد السلف: «لا يَغِلُّ قلبُ أحدٍ على الصحابة إلا كان قلبه على المسلمين أغل».

وظاهرةُ التكفيرِ والسبِّ عند الشيعة لا تخصُّ جيل الصحابة فقط! لكنهم يركِّزون على التكفير والتفسيق والتبديع على جيل الصحابه باعتبارهم هم الذين نقلوا إلينا الوحي، وحملوا إلينا الرسالة بعد رسول الله ﷺ.

تقول كتب الشيعة: «إن الناس قد ارتدوا بعد الحسين إلا ثلاثة».

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب (٣٦٨٥)، (٣٦٧٧).

(٢) «الأنوار النعمانية» (٢/ ١١١).

وفي الوقت الذي طعن فيه الروافض في أصحاب النبيِّ ﷺ وكفَّروهم ؛ فإن كتبهم قد أثنت على الفسَّاق والفجَّار والكفَّار ؛ فهم يثنون على أصحاب مسيلمة الكذاب ، وعلى الزنادقة!! .

ففي ترجمة أبي لؤلؤة المجوسي ـ وهو قاتل عمر ـ وهم يلقبونه ، ويقولون : أبانا شجاع الدين ! ذلكم الخبيث أشقى القوم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى[1] ـ وأختم بمقالته في معتقد هؤلاء في السنة على صاحبها الصلاة والسلام : «مَنْ زعم أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قد ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلا نفرًا قليلاً لا يبلغون بضعة عشر نفسًا ، أو أنهم فسَّقوا عامتهم ؛ فهذا لا ريب في كفره ؛ لأنه مكذِّب لما نصَّ عليه القرآن في غير موضع من الرضا عنهم ، والثناء عليهم ؛ بل مَنْ يشكُّ في كفر هذا ، فإن كفره متعين ، فإن مضمون هذه المقالة أن نقلة الكتاب والسنة كفارٌ أو فساقٌ ، وأن هذه الآية وهي قوله تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وخيرها : هو القرن الأول بنصِّ حديث ابن مسعود رضي الله عنه : «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»[2] .

كان عامتهم كفَّارًا أو فسَّاقًا ، ومضمونها ـ أي الآية ـ أن هذه الأمة شرُّ الأمم ، وأن سابقي هذه الأمة شرارها ، وكفرُ هذا مما يعلم بالضرورة من دين الإسلام ، ولهذا تجد عامة مَنْ ظهر عليه شيء من هذه الأقوال ؛ فإنه يتبين أنه زنديق» .

---

(١) «الصارم المسلول» (٥٨٦ ، ٥٨٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ (٣٦٥١) ، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود .

رابعًا : يأخذون الروايات والسنة عن طريق الرقاع والتوقيعات دون إسناد . فما هي حكاية التوقيعات ؟ وما هي قصة الرقاع ؟

تدبر معي لتضحك بملء فمك ، ولتسجد لربك أن جعلك من الموحدين ، وأرْسَلَ إليك سيدَ المرسلين ، ونسأل الله أن يختم لنا بخاتمة التوحيد والإيمان، وأن يحشرنا في زمرة الموحدين؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

هؤلاء القوم الذين يردُّون ما جاء عن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ الذين أثنى الله تعالى عليهم ، وعدَّلهم رسوله ﷺ يَعُدُّون من أوثق طرق الحديث عندهم ما يُسمَّى بالرقاع والتوقيعات !

وحكاية الرقاع أنه لما تُوفي إمام الشيعة الحادي عشر وهو الحسن العسكري ، مات ولم يكن له عَقِب ؛ فلم يرزق بالأولاد ، فوُضِعَ الشيعة في حيص بيص ، وفي حيرة وحرج بالغ ، مَنْ يكون الإمام بعد الحسن العسكري ؟ ! واختلفوا وتحيروا وافترقوا بعد موت ذلكم الإمام إلى خمس عشرة فرقة ؛ فمنهم من قال : انقطعت الإمامة ، وفريق قال : إن الحسن بن علي تُوفي ولا عقب له ، والإمام بعده جعفر بن عليٍّ ؛ فالإمامة تنتقل من الحسن إلى أخ من إخوانه .. إلى غير ذلك من الاختلافات والحيرة ، وفي خِضَمِّ هذه الاضطربات والحيرة خرج عليهم عثمان بن سعيد العنبري ، وادَّعى دعوة في غاية الغرابة والدهشة ؛ ادَّعى أن للحسن العسكري ولدًا في الخامسة من عمره ، ولا يظهر هذا الإمام الطفل على أحدٍ من الناس إلا عليَّ !! وقد جعلني وكيلاً عنه في قبض الأموال ، ونائبًا عنه في الإجابة على جميع المسائل الدينية ؛ فهو يأخذ المال

والمسائل ، ويأتيهم بالإجابة على المسائل ، وعليها التوقيع ، ولذلك سُمِّيَت التوقيعات والرقاع التي سيكتب فيها الفتاوى ، وإيصالات تبين أن الإمام قد استلم الأموال ، ولما مات عثمان بن سعيد العنبري وهو الوحيد الذي يظهر عليه الإمام على زعمه ، وهذه مصيبةٌ أخرى ! فخرج ولده محمد بن عثمان بن سعيد العنبري ؛ فقال بأنه جاء بدلًا من أبيه ، ثم خلفه حسين بن روح النوبختي في نفس الدعوى ، ثم خَلَفه أبو الحسن علي ابن محمد السمري ، وكان هؤلاء النواب ينقلون ويتلقون أسئلة الناس ، وينقلونها إلى الإمام الغائب ، فيوقِّع الإمام ، ثم تنقل هذه الإجابات بهذه التوقيعات عن الإمام إلى الناس ؛ لذا سميت بالرقاع أو التوقيعات .

فتصوَّر أنهم كانوا ينقلون دينهم والحديث المنسوب للنبيِّ ﷺ نقلاً عن الأئمة المعصومين عن رسول الله ﷺ، حتى ولو انقطع السند ـ كما ذكرت ـ فالسند عندهم من المعصوم إلى المعصوم ؛ حتى قال الحرُّ العامليُّ عن معتقده في هذه التوقيعات والرقع ؛ فقال : «إن خط المعصوم أقوى من النقل بوسائط» .

وأختم هذا بكلامٍ للعلامة الشيخ محمود الألوسي رحمه الله تعالى إذ يقول في تعبد الروافض بحكايات الرقاع والتوقيعات :

«إنهم أخذوا دينهم من الرقاع المزورة التي لا يشكُّ عاقلٌ أنها افتراء على الله تعالى ، ولا يُصدِّق بها إلا من أعمى الله بصره وبصيرته ، وهذه الرقاع عند الرافضة من أقوى دلائلهم وأوثق حججهم ؛ فتبًّا لقوم أثبتوا أحكام دينهم بمثل هذه الترهات ، واستنبطوا الحلال والحرام من نظائر هذه الخزعبلات ، ومع ذلك يقولون : نحن أتباع آل البيت ؛ كلا ! بل

هم أتباع الشياطين ، وأهل البيت منهم براء»[١] .

فهذا هو مجمل معتقد الروافض في سنة النبيِّ ﷺ .

*****

معتقد الروافض في أصولهم الأخرى التي شذُوا بها عن أهل السنة والجماعة

أولًا : في الإمامة .

ثانيًا : في عصمة الإمام .

ثالثًا : في التَّقِيَّة .

رابعًا : في الرجعة .

خامسًا : في البداء .

سادسًا : في الغيبة .

أولاً : معتقد الشيعة أو الروافض في الإمامة :

والإمامة عندهم لها مفهومٌ خاصٌ ينفردون به عن سائر المسلمين على ظهر الأرض ؛ فهم يعتقدون أن الإمامة منصبٌ إلهيٌّ كالنبوة تمامًا ، فكما أن الله سبحانه يختار الأنبياء ، فيختار من يشاء مِنْ عباده للنبوة والرسالة ، ويؤيده بالمعجزات التي تبين أن هذا النبيَّ أو الرسول مرسلٌ من عند الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ فهم يعتقدون كذلك أن الله ـ تبارك وتعالى ـ كما يختار الأنبياء والرسل يختار الأئمة ، ويأمر الله ﷻ نبيه بالنص على الإمام ، وأن ينصبه إمامًا للناس من بعده .

(١) «كشف غياهب الجهالات» للعلامة محمود شكري الألوسي (الورقة / ١٢) «مخطوط» .

فهم لا يفرقون بين النبيِّ والرسول تفريقًا ظاهرًا .

يقول الكليني في «الكافي» [(١)] : إنه سأل إمامهم الرضا ؛ ما الفرق بين الرسول والنبيِّ والإمام ، فقال : الفرق بينهم أن الرسول هو الذي ينزل عليه جبريل فيسمع كلامه ويراه ، أما النبيُّ فهو الذي ينزل عليه جبريل ، فيراه ولا يسمع منه ، أما الإمام فهو الذي يسمع الكلام ، ولا يرى جبريل عليه السلام » .

وهذا النصُّ بلا شك يؤكد أنهم لا يفرِّقون إطلاقًا بين النبيِّ والرسول والإمام في قضية نزول الوحي على الإمام ، كنزوله على النبيِّ والرسول ، فهم يقرُّون بأن الإمام من أئمتهم هو الذي يسمع الوحي من جبريل عليه السلام ولا يراه رأي العين ، مع أن هناك روايات تؤكد تحقق رؤية الإمام للملائكة ؛ حتى قال عالمهم الشهير المجلسي في كتابه «البحار» في باب بعنوان «باب أن الملائكة تأتيهم وتطأ فرشهم ، وأنهم يرونهم» ؛ بل وستعجبون إذا علمتم بأن منزلة الإمامة عند الشيعة قد تجاوزت منزلة النبوة [(٢)] !! ويكفي أن نقف فقط ـ بإيجاز شديدٍ جدًّا ـ مع بعض عناوين الأبواب في كتاب «الكافي» أو «البحار» ، أو في «الشيعة وأصولها» أو «البرهان» لتقف على أن الإمامة عندهم إنما هي في منزلة أعلى من منزلة النبوة ، تدبَّر معي هذه العناوين من كتاب «البحار» للمجلسي ، يقول في فضائل الأئمة ؛ «باب أنهم أعلم من الأنبياء عليهم السلام» ،

---

(١) «الكافي» ، كتاب الحجة ، باب الفرق بين الرسول والنبي والمحدث (١/ ١٧٦) .

(٢) «مصباح الهداية» (٦١ ، ٦٢) ، وابن بابويه القمي في رسالته «الاعتقادات» (١٠٣) ، و«بحار الأنوار» للمجلسي (٢٣/ ٣٩٠) .

وروى في هذا الباب ثلاثة عشر حديثًا .

ثانيًا : باب بعنوان تفضيل الأئمة على الأنبياء وعلى جميع الخلق .

ثالثًا : باب أن دعاء الأنبياء استجيب بالتوسل والاستشفاع بالأئمة .

رابعًا : باب أنهم يقدرون على إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه ، والأبرص ، وجميع معجزات الأنبياء .

خامسًا : باب أنهم لا يحجب عنهم علم السماء والأرض ، والجنة والنار ، وأنه عُرِض عليهم ملكوت السماوات والأرض ، ويعلمون علم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة . وروى في هذا الباب اثني عشر حديثًا .

سادسًا : باب أنهم يعرفون الناس بحقيقة الإيمان وحقيقة النفاق ، وعندهم كتاب فيه أسماء أهل الجنة ، وأسماء شيعتهم ، وأعدائهم . وروى في هذا الباب أربعين حديثًا .

سابعًا : باب أن الأئمة إذا شاءوا أن يعلموا علموا .

ثامنًا : باب أن الأئمة يعلمون متى يموتون ، وأنهم لا يموتون إلا باختيار منهم .

تاسعًا : باب أنهم لا يحجب عنهم شيء من أحوال شيعتهم ، وما تحتاج إليه الأمة من جميع العلوم ، وأنهم يعلمون جميع ما يصيبهم من البلايا ، ويصبرون عليها ، ولو دعوا الله على دفعها لأجيبوا ، وأنهم يعلمون ما في الضمائر ، وعلم المنايا والبلايا ، وفصل الخطاب والمواليد . وذكر في هذا الباب ثلاثة وأربعين حديثًا [1] .

---

(١) «البحار» للمجلسي (٢٦/ ١٣٧ ، ١٥٣) .

فهذه عناوين أبواب ، ولو سردتُ بعضَ الأحاديث المروية تحت هذه الأبواب لرأينا العجب العُجاب .

وأختم بهذا الباب الذي يقول فيه : إن عند الأئمة اسم الله الأعظم ، وبه يظهر منهم الغرائب ..

هذه أمثلة لما يصفون به أئمتهم ، وهذه دعاوى في غاية الغرابة ، وتحتاج إلى رجلٍ صاحب عقلٍ ؛ ليقف على بطلانها ، وعلى ضلالها ؛ فهم يُخرجون الأئمة بهذه النصوص من منزلة البشرية إلى منزلة النبوة ؛ بل إلى مرتبة الألوهية !! .

فهذه الدعاوى الخطيرة بابٌ للزندقة والإلحاد ، لم يقلها نبيٌّ مرسلٌ ، ولا ملكٌ مقرَّبٌ ، وهي محاربة لله ـ جَلَّ وَعَلا ـ ولرسوله ، ولكتابه ، ولدينه ، وللمسلمين ، ومكمنُ الخطر أن هذه المزاعم قد انتقلت لتتحول إلى ترجمةٍ عمليةٍ واقعيةٍ في دنيا الناس ، فهم يلوذون الآن بقبور أئمتهم ، ويفعلون بها ما لا يصدقه عقل ؛ بل لقد اعتبر الروافض أن أماكن قبور أئمتهم أماكن مقدسة كالحرم في مكة ، ومسجد رسول الله ﷺ في المدينة.

فهم يقولون ؛ كما في «الوافي»[1] : «إن الكوفة حرم الله ، وحرم رسوله ﷺ ، وحرم أمير المؤمنين ، وأن الصلاة فيها بألفِ صلاة ، والدرهم فيها بألف درهم» .

ويَرْوُون عن الصادق أن لله حرمًا هو مكة ، ولرسوله حرمًا هو المدينة ،

---

(١) «الكافي» ، باب فضل الكوفة ومساجدها (٢/ ٢١٥) .

ولأمير المؤمنين عليٍّ حرمًا هو الكوفة ، ولنا حرمًا وهو قُمْ ، وقُمْ مدينة مقدسة في إيران ، وقالوا : إنها ما استمدت قداستها إلا من قبر فاطمة بنت موسي بن جعفر الصادق ، وهو إمامهم السابع ، وكربلاء وهو الموطن الذي قتل فيه الحسن رضي الله عنه هذا المكان عندهم أفضل من الكعبة .

ففي حديثٍ في «كتاب البحار» للمجلسي[1] عن أبي عبد الله أنه قال : «إن الله أوحى إلى الكعبة ؛ لولا تربة كربلاء ما فضلتك ، ولولا ما تضمنته أرض كربلاء ما خلقتك ، ولا خلقت البيت الذي به افتخرتي فقِري ، وكوني ذنبًا متواضعًا ذليلاً مهينًا غير مستنكف ، ولا مستكبر لأرض كربلاء ، و إلا سحقت بك ، وهويت بك في نار جهنم» !! .

وزيارة قبور الأئمة عندهم أفضل من حج بيت الله الحرام !

ففي «الكافي» : أتي رجلٌ أبا عبد الله ؛ فقال له : إنني قد حججتُ تسعة عشر حجة فادع الله لي أن يرزقني تمام العشرين ، قال له : هل زرت قبر الحسين ؟ قال : لا فقال له : لزيارته خيرٌ من عشرين حجة»[2] .

وقد يقول قائل : أنت تزعم أنهم يتوسلون بقبور أئمتهم ، وهذا أيضًا موجود عن أهل السنة ؛ فأقول : نعم ، لا أنكر ، ولكنَّ الفارق الكبير بين ما عليه أهل الشيعة وما عليه أهل السنة ؛ أن الشيعة يفعلون ذلك بقبور أئمتهم كمعتقد ، لكن مَنْ يفعل ذلك بقبور الصالحين عند أهل السنة إنما يفعلُ ذلك بسبب الجهل ، وليس من خلال المعتقد ، ولو تبين

---

(١) «البحار» للمجلسي (١/ ١٠٧) .

(٢) «الكافي» (٢/ ٢١٩) .

للناس الحق لأذعنوا له ؛ فانتبه لهذا حتى تكون مِنَ المهتدين .

فشتَّان شتَّان بين رجل يتوسل بصاحب القبر وهو يعتقد ذلك اعتقادًا جازمًا ، وبين رجل يقول : أنا ما أذهب إلى هذا القبر إلا لأتقرَّبَ إلى الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ وأنا أشهد ألاَّ إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، ولا أفعل هذا إلا من باب القربة ؛ فلمَّا يَتَبين له أن هذا الفعل من أفعال الشرك ، ومن أفعال الكفر ، وأنه لا ينبغي أن نسأل إلا الله ، وألا نستغيث إلا بالله ، وأن لا نلجأ إلا إلى الله ، وألا ننذر إلا لله ، وأن لا نذبح إلا لله ، فإذا ما بينت الدليل بحكمةٍ وتواضعٍ إن شاء الله تعالى سيشرح الله صدره إلى الحق .

فهم يعتقدون أن زيارة قبر إمام أئمتهم أفضل من حجٍّ بيت الله الحرام ، وأنا أسألُ : هل يوجد من جهال المسلمين من يعتقد ذلك ؟ لا ، والله! .

ثانيًا : العصمة عندهم للأئمة :

فهم يعتقدون أن الإمام معصوم ؛ فالعصمة ليست للنبيِّ ﷺ فحسب، بل وهي كذلك للإمام ـ عندهم ـ ، وهذه قاعدة أساسية من قواعد ومعتقد الروافض أو الشيعة .

يقول شيخهم المجلسيُّ ويقرِّر عصمة الأئمة عليهم السلام من الذنوب صغيرها و كبيرها ؛ فلا يقع منهم ذنب أصلاً ، لا عمدًا ولا نسيانًا ، ولا لخطأ في التأويل ، ولا لسهو من الله [(١)] .

وكذلك في «أوائل المقالات» ، وفي غيرها من المراجع المعتبرة عند الشيعة ، وإذا كان أهل السنة يرون أن الأمة معصومة بكتاب ربها ، وسنة

---

(١) «البحار» للمجلسي (٩/ ٢٠٥ ، ٢٥/ ٢١١) ، وانظر «دراسات عن الفرق» (د/ أحمد جلي ص ٢٠٣) ، و«مسألة التقريب» (١/ ٣٢٢) .

نبيها ﷺ ؛ فإن الروافض أو الشيعة يرون أن الأمة معصومة من الضلال بالإمام ؛ لأن الإمام كالنبيِّ ، ولأن الإمامة هي استمرار للنبوة [١] .

ومن أخطر الآثار العلمية لدعوى العصمة : أنهم يعتبرون أن ما يصدر عن أئمتهم الإثنى عشر إنما هو كلامٌ كقول الله ورسوله كما بينت آنفًا ؛ بل ويستدلون على العصمة بآياتٍ من القرآن والسنة والإجماع .

ثالثًا : معتقدهم في التقية :

فما هي التقية عندهم ؟ [٢] .

هي كتمان الحقِّ ، وستر الاعتقاد فيه ، ومكاتمة المخالفين ، وترك مظاهرتهم بما يترتب عليه الضرر في الدين أو الدنيا [٣] .

قال أحد علمائهم المعاصرين محمد جواد مغنيه [٤] : «التقية هي أن تقول أو تفعل غير ما تعتقد ؛ لتدفع الضرر عن نفسك أو مالك أو لتحتفظ بكرامتك» .

والتقية في الإسلام معلومٌ أنها رخصة ، وليست عقيدة ؛ قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ [النحل : ١٠٦] .

فهذه رخصةٌ أن يتقي العبد ، وأن يظهر بلسانه ما ليس في قلبه إن تعرض للإيذاء ، أو للضرر البالغ أو للهلاك ؛ فلا حرج عليه حينئذٍ ما دام قلبه مطمئنًا بالإيمان أن يظهر خلاف ما يعتقد ، كما فعل عمار بن

---

(١) «أوائل المقالات» للمفيد (٣٥) .

(٢) اتَّقَيْتُ الشَّيْءَ وَتَقَيْتُهُ أَتَّقِيْهُ تُقًى وَتَقِيَّةً وَتُقَاءَ حَذِرْتُهُ (انظر : « القاموس المحيط ») (مادة وَقَى) .

(٣) «بحار الأنوار» للمجلسي (٢٥/ ٣٥١) و«تصحيح الاعتقاد» للمفيد (١١٥) .

(٤) «الشيعة في الميزان» (٤٨) .

يسار ـ رضوان الله عليه وعلى أبيه.

فالتقية أصلٌ وعقيدة من عقائدِ الروافض ؛ بل من ركائز معتقدهم ، بل ربما غالى الروافض في أمر التقية حتى قالوا : إن تسعة أعشار الدين في التقية ؛ بل وقالوا : لا دين لمن لا تقية له [(١)]!! .

ومن العجب : أنهم يجعلون تارك التقية ومَنْ لم يأخذ بها خارجًا من الدين بالكلية ؛ فيروى الكلينيُّ عن أبي جعفر قال : «التقية من ديني ، ودين آبائي ، ولا إيمان لمن لا تقية له» [(٢)] .

رابعًا : الرجعة عند الشيعة :

وهذا معتقد من معتقداتهم ؛ فماذا تعني الرجعة عندهم ؟ .

الرجعة : هي رجعةُ كثيرٍ من الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة ؛ سواء كان هؤلاء الذين يرجعون إلى الدنيا من الصالحين ، أو حتى من الفاسدين ، والراجعون إلى الدنيا ـ كما يعتقدون ـ فريقان : أحدهما من علت درجته في الإيمان ، والآخر من بلغ الغاية في الفساد [(٣)] .

وزمن الرجوع عند الشيعة هو عند قيام مهدي آل محمد عليه السلام ؛ فهم يقولون : «ليس منا مَنْ لم يؤمن بكرتنا» أي : برجعتنا [(٤)] .

يقول المفيد عالمهم المشهور : «اتفقت الإمامية على وجوب رجعة كثير الأموات» [(٥)] .

---

(١) «الكافي» (٢/ ٢١٧ ، ٢١٩) ، و«بذل المجهود» (٢/ ٢٣٦) ، و«المحاسن» (٢٥٥) .

(٢) المصدر السابق : «الكافي» .

(٣) أوائل المقالات للمفيد (٩٥) .

(٤) «من لا يحضره الفقيه» لابن بابويه القمي (٢/ ١٢٨) ، و«الوسائل» للحر العاملي (٧/ ٨٣٤) ، و«تفسير الصافي» (١/ ٣٤٧) ، و«أصول الشيعة الإمامية» (٢/ ١١٠٣) .

(٥) «أوائل المقالات» للمفيد (٥١) .

ويقول الحرُّ العاملي : «إنها موضع إجماع جميع الشيعة الإمامية» .

ويقول : «إنها من ضروريات مذهب الإمامية» ، ويقول : «إننا مأمورون بالإقرار بالرجعة ، واعتقادها ، وتشديد الاعتراف بها في الأدعية والزيارات ، وفي يوم الجمعة ، وفي كل وقت ؛ كما أننا مأمورون بالإقرار في كثيرٍ من الأوقات أن نؤكد قضية التوحيد ، والنبوة والإمامية والقيامة» [(١)] .

خامسًا : البداء عند الشيعة :

وهذا معتقدٌ خبيثٌ من معتقداتهم .

وهو كما ورد في قواميس اللغة : بدا بَدْوًا وبُدُوًّا وبداءَة ، يعني : ظهر . بدا لي ، أي : ظهر لي ، وبدا له في الأمر بُدُوًّا وبَدَاًء وبدَاءَة ، أي : نشأ له فيه رأي ، فأقول بدا لي القمر ، أي : ظهر لي ، أو أقول : بدا لي أن أغير فكرتي في قضية كذا وكذا .

والمعنيان وردا في القرآن الكريم ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٤] .

والبداء هنا : بمعني الإظهار .

وفي قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [يوسف : ٣٥] .

فالبداء هنا بمعني : نشأ لهم رأيٌ جديد [(٢)] .

---

(١) «الوسائل» للحر العاملي (٦٤) .

(٢) «القاموس المحيط» (٤/ ٣٠٢) ، و«الصحاح» (٦/ ٢٢٧٨) ، و«لسان العرب» (١٤/ ٦٦) .

والبداء بهذين المعنيين لا يجوز البتة أن ينسب إلى الله ، ومع ذلك أقول : إن البداء في الأصل عقيدةٌ يهودية ؛ وانتقلت هذه العقيدة من اليهود إلى الروافض ؛ فهذا نصٌّ من نصوص التوراة المحرَّفة المزوَّرة ، المبدَّلة : «ورأى الربُّ أن شرَّ الناس قد كثُرَ على الأرض ، وأن كلَّ تصور أفكار قلوبهم ، إنما هو شرٌّ في جميع الأيام ، فندم الرب أنه عَمِل الإنسان على الأرض ، وتأسف في قلبه ، فقال الرب : أمحو الإنسان الذي خلقت عن وجه الأرض مع البهائم والدبابات وطير السماء لأني ندمت على خلقي لهم» [1] .

تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا .

فقالت الشيعة : إن أئمة الرافضة وضعوا لشيعتهم مقالين لا يظهرون معهما من أئمتهم على كذبٍ أبدًا ، وهما القول بالبداء ، وفي إجازة التقية .

يقول سليمان بن جرير : فأما البداء ، فإن أئمتهم لما أحلوا أنفسهم من شيعتهم محلَّ الأنبياء من رعيتها في العلم ما كان و يكون ، والإخبار بما يكون في غدٍ ، وقالوا لشيعتهم : إنه سيكون في غدٍ ، فإن جاء ذلك الشيء على ما قالوا ، قالوا لهم : ألم نُعلِمْك أن هذا يكون ، فنحن نعلم من قِبل الله ﷻ ما علمه الأنبياء ، وبيننا وبين الله ﷻ مثل تلك الأسباب التي علمت بها الأنبياء عن الله ما علمت ، وإن لم يكن ذلك الشيء الذي قالوا إنه يكون على ما قالوا ، قالوا لشيعتهم : بداء لله في ذلك يكونه [2] .

وقال كثيرٌ من علماء الشيعة : إنهم لم يريدوا بالبداء ما لا يجوز نسبته إلى الله سبحانه ؛ كما قال محمد حسين الكاشف الغطا : «البداء وإن كان

---

(١) «الكتاب المقدس» ، الفصل السادس (ص١٢) من تكوين التوراة .

(٢) «الكافي» ، كتاب التوحيد ، باب البداء (١/ ١٤٦ ، ١٤٩) .

في جوهره ، معناه هو ظهور الشيء بعد خفاء ، ولكن ليس المراد به هنا ظهور الشيء منه - جلَّ شأنه - وأي ذي عقل يقول بهذه المضلة ؟ بل المراد: ظهور الشيء من الله لمن يشأ من خلقه بعد إخفائه عنهم ، وقولنا : بدا لله أي : بدا حكم الله أو شأن الله» [(١)]

وهذا التفسير مقبولٌ جدًّا وجميل جدًّا ، ولكن من حقنا أن نسأل ، لماذا صار البداء إن كان كذلك من أصول معتقد الشيعة ؟ ! .

فهذا من حُسْنِ الظن ، ولا ينبغي أن يدرك مثل هذا الكلام إلا تحت معتقد آخر من معتقداتهم الرئيسة ألا وهو معتقد التقية .

والدافع الحقيقيُّ لهذا المبدأ هو : أنهم غالوا في أئمتهم ، وأحلُّوهم منزلة فوق البشر ؛ كما رأينا من ذي قبل ،ونسبوا لهم العصمة ، وعلم الغيب ، فكان لابد من مخرجٍ إذا حدثوا بمغيب فكذبهم الواقع ، وكان هذا المخرج هو القول بالبداء .

وأول من نادى به هو المختار الثقفيُّ الكذَّاب مدَّعي النبوة ، لأنه كان يدَّعي علم الغيب ، فإذا حدثت حادثة على خلاف ما أخبر قال : «قد بدا لربكم» [(٢)] !! .

سادسًا : الغَيْبَةُ عند الشيعة :

وهي بمعنى أن الأرض لا تخلوا أبدًا من إمام ، فلما مات الحسن

(١) «الدين والإسلام» (١٧٣) و«الشيعة والتشيع» (٥٣ ، ٥٤) .

(٢) «مع الاثني عشرية في الأصول والفروع» (١/ ٣١٥) ، و«النسخ في القرآن» (١/ ٥٢ ، ٢٦) ، و«ضحى الإسلام»(١/ ٣٠٤) ، و«الإمام الصادق» (٢٣٤) و«الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ١٣٢ ، ١٣٣) .

العسكري دون أن يكون له ولد ، وقع الروافض في حَيصْ بيصْ ، وقالوا : من الذي يخلف الإمام ، وافترقوا إلى أربعين فرقة !! ومنهم مَنْ قال : إلى ستة عشر فرقة اختلفت أقوالهم في قضية الإمام ، فاخترعوا قضية الغيبة ، فخرج عليهم مَنْ قال : إن الحسن العسكري له ولدٌ سِنُّه خمس سنوات ـ كما قلنا قبل ذلك ـ وهو الإمام الغائب ، ولكنه لا يظهر لأحدٍ من الناس إلا لي ، فخرج هذا المعتقد الجديد، ألا وهو : الغيبة !!

ونسأل الله ﷻ أن يردَّ الضَّالَّ إلى الحقِّ والهدى ، وأن يأخذ بقلوب وأيدي الروافض إلى القرآن وإلى سُنَّة النبيِّ ﷺ ، وإلى الحق الذي عليه أهل السُّنَّة ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

*****

موقفُ عليٍّ ﷺ من الشيعَة

لقد أنكر عليٌّ ﷺ على الشيعة مقالتهم أشدَّ إنكار ، وتبرأ منهم ومن مقالتهم ، واستتابهم ، فلمَّا لم يرجعوا ولم يرتدعوا أوقد نارًا وأحرقهم .

فلقد روى ابن عساكر وابن عبد البر [(١)] وغيرهما :قيل لعليٍّ ﷺ : إن هنا قومًا على باب المسجد يدَّعون أنك ربُّهم ، فدعاهم ؛ فقال : ويلكم ، ما تقولون ؟ قالوا : أنت ربنا وخالقنا ورازقنا ؛ فقال : ويلكم ، إنما أنا عبد مثلكم آكل الطعام كما تأكلون ، وأشرب مما تشربون ، إن أطعت الله أثابني إن شاء ، وإن عصيته خشيت أن يعذبني ، فاتقوا الله وارجعوا ،

---

(١) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٤٢/ ٤٧٥ ، ٤٧٦) ، وابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ٣١٨) ، وذكره ابن حزم في «الفصل في الملل والنحل» (٤/ ١٤٢) ، وابن قتيبة في «تأويل مختلف الحديث» (٢١) ، وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٢/ ٢٧٠) .

فأبوا فلما كان من الغد غدوا عليه ، فجاء قنبر ، فقال : قد والله رجعوا ، يقولون ذلك الكلام ؛ فقال : أدخلهم ، فقالوا كذلك ، فلما كان الثالث ، قال : لئن قلتم ذلك ، لأقتلنكم بأخبث قتلة ، فأبوا إلا ذلك ؛ فقال : يا قنبر ، ائتني بِفَعَلَةٍ معهم مرورهم ، فَخدَّ لهم أُخدودًا بين باب المسجد والقصر ، وقال : احفروا فأبعدوا في الأرض ، وجاء بالحطب فطرحه بالنار في الأخدود ، وقال : إني طارحكم فيها أو ترجعوا ، فأبوا أن يرجعوا ، فقذف بهم فيها حتى إذا احترقوا قال :

«لما رأيت الأمر أمرًا منكرًا   أججت ناري ودعوت قنبرًا»

وعاب عليه ذلك الفعل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

فلقد روى البخاري[1] عن عكرمة قال :

«أُتِي عليٌّ رضي الله عنه بزنادقة فأحرقهم ، فبلغ ذلك ابن عباس ، فقال : لو كنتُ أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله ﷺ : «لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ الله» ولقتلتهم ؛ لقول رسول الله ﷺ : «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فاقْتُلُوه» .

*****

(١) أخرجه البخاري ، كتاب استتابة المرتدين ، باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم (برقم:٦٩٢٢) .

فتنة خلق القرآن

وأختمُ الحديثَ عن الفتن ـ إن شاء الله تعالى ـ بالحديث عن فتنةٍ عاصفة هي الأخرى عَرَّضت كثيرًا من أهل العلم والفضل للإيذاء والابتلاء ، ألا وهي : فتنة القول بخلق القرآن ؛ فأقول :

لقد نزل القرآن الكريم على قَلْب محمدٍ ﷺ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ ، فصدع النبيُّ ﷺ به ، وبشَّر وأنذر ، وحفظ القرآن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ عن ظهر قلب ؛ حفظوه بالقلوب والعقول ،ووعَى أصحاب النبيِّ القرآن وَعْيًا . من سِحْرِ بيانه ، وقوةِ برهانه ، وروعة سلطانه ، ودقة أحكامه ، وعظيم أخلاقه ، وبديع قصصه وأيامه ، فَشُغِلَ الصحابةُ بحفظ القرآن ، وفهْمِه، والعمل به ، لا أقول : شُغِلوا بالعمل بمحْكَمِهِ فحسب ؛ بل شُغلوا بالعملِ بمحْكَمِهِ ومتشابهه على حدٍّ سواء ، وفوَّضَوا المعاني التي لا يفهموها ، فوَّضوا المراد منها إلى الله ـ جلَّ وعلا ـ وإلى رسوله ﷺ، ولم يجادلوا ؛ بلْ لقد كانت الآية تنزل على قلب النبيِّ ﷺ فيقرأ النبي الآية على الصحابة ، وربما لا يفهم الصحابيُّ معناها واضحًا ، ومع ذلك يصدق بها الصحابي تصديقًا لا تهبُّ عليه لحظةٌ من اللحظات ريحُ الشكِّ والارتياب .

ورَدَّدُوا بصدقٍ واستسلامٍ قول الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ

تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران:٧]

وهكذا كان شأنُ السلف جميعًا ابتداءً من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ إلى أن دخل على المسلمين بعضُ العقائد، والمذاهب ، والأفكار ، والفلسفات التي كانت سببًا خطيرًا من أسباب فرقة المسلمين ، وتمزيق أواصرهم ؛ فاستكبرت العقولُ وتطاولت على كلِّ شيء ، حتى بالغت في التفكير في ذات الله تبارك وتعالى ، وتقليب الرأي في صفات الله ـ جلَّ وعلا ـ وهو الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

ولله درُّ الشنقيطي ـ رحمه الله تعالى [١] ـ حين قال :

« اعلموا أن كثرة الخوض والتعمق في البحث في آيات الصفات ، وكثرة الأسئلة في ذلك الموضوع من البدع التي يكرهها السلف ، واعلموا أن مبحث آيات الأسماء والصفات والذات ينبني على أسس مَنْ فهمها ، كان على المعتقد الصحيح الذي كان عليه النبيُّ وأصحابه ، ومَنْ جاء من بعد الصحابة من التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين ، أول هذه الأسس : تنزيه الله ـ جلَّ وعلا ـ عن أن نشبهه بشيء من المخلوقين في أسمائه ، وصفاته ، وذاته ، وأفعاله ؛ قال تعالى : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] .

وقال سبحانه : ﴿ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾ [النحل:٧٤] .

---

(١) في كتابه « الأسماء والصفات نقلًا وعقلًا » ، بتصرف في المعنى .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص:٤] .

ومن أعظم هذه الأسس : قطعُ الطمع في إدراك كيفية ذات الحق ـ جلَّ وعلا ـ فللَّه ذات ، ونفي الصفات نفيٌ للذات ، وهذا هو معتقد المعتزلة ـ كما سأبين ـ وإلحاد النفاة ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول هو : إلحاد المشركين الذين انتزعوا من أسماء الله ـ جلَّ وعلا ـ أسماءً لآلهتهم ؛ فاشتقوا من اسم المنان اسم المناة ، واشتقوا من اسم الله اسم اللات ، واشتقوا من اسم العزيز العُزَّى ، ونسبوا هذه الأسماء لآلهتهم المكذوبة ، وهذا الذي قال الله فيه :

﴿ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ﴾ [الأعراف:١٨٠] .

ثم هناك من أقر لله ـ جلَّ وعلا ـ بالاسم ، ونفى الصفة التي يتضمنها هذا الاسم ، فالأسماء لا يمكن على الإطلاق أن تنفك عنها الصفات ، فلو قلت: من أسمائه العليم ، فصفة العلم لا تنفك عن اسم الله العليم ، ولو قلت : إن الله حكيمٌ ، فصفة الحكمة لا تنفك عن اسم الحكيم ، وهذا يخالفُ تمامًا ما عليه الخَلْقُ من البشر . فقد يُسمَّى الرجل محمودًا وهو مذموم ، وقد يسمَّى الرجلُ حنظلة وهو جميلٌ في خلقه وأدبه ؛ فصفات وأسماء الخلق مستعارة ، أما أسماء الله ـ جلَّ وعلا ـ وصفاته ليست مستعارةً ، وليست كأسماء المخلوقين ، فهو رازقٌ قبل أن يخلق من يرزقهم ، وهو عليمٌ قبل أن يعلم أحوال الخلق ـ جلَّ وعلا ؛ فمن الأسس العظيمة التي يزول بها كلُّ إشكال ؛ أن تقطع الطمع في إدراك كيفية ذات الله .

فالله متكلم ، ولكن ليس ككلام المخلوقين ؛ لأنك لو أصَّلْتَ كل هذه الصفات على هذا الأصل العظيم ؛ ألا وهو : تنزيه الله عن أن يُشبَّه بخلقِه ، أو بصفة من مخلوقاته سَلَّمْتَ أن كلَّ الأسماء ، وكلَّ الصفات نؤمن بها من غير تحريف لألفاظها ، ومن غير تحريف لمعانيها ، وإنما ستأتي على صفة الكلام ، وصفة السمع ، وصفة البصر ، وصفة المجيء ، وصفة النزول ، وصفة الضحك ، وصفة الغضب .. إلى آخر الصفات ، وتقول ما قاله السلف : نؤمن بها كلها من غير تحريف لألفاظها ، ومن غير تحريف لمعانيها ، ومن غير تعطيل ، ولا تكييف ، ولا تمثيل ، ولا تشبيه ؛ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] .

قال الله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه:٥] .

فلَستَ أَعْلَمَ بالله من الله ، ولست أَعْلَمَ بالله من رسول الله .

فالله ـ جلَّ وعلا ـ وصف نفسه بأنه مستوٍ على عرشه فنحن نقرُّ له بالاستواء ، لكن كيف استوى ؟

فليس من شأني ولا من شأنك ، ولن يتمكَّن عقلُ البشر من أن يتصور كيفية استواء الحق ـ جلَّ وعلا ـ على عرشه ، وإنما نقول ما قاله سلف الأمة : استوى كما أخبر ، على الوجْهِ الذي أراد ، وبالمعنى الذي قال ؛ استواءً منزَّهًا عن الحلُول والانتقال ؛ فالاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

ظلَّ المسلمون على هذا المعتقد الصافي إلى أن بدأت تُطِلُّ على المسلمين

بعضُ العقائد، والمذاهب، والأفكار، والفلسفات !! واستكبرت العقول، وتطاولت على النصوص النقلية الصحيحة، وبالغت في التفكير في ذات الله تبارك وتعالى، وبدأت تُقلب العقول الآراء في صفات الحق ـ جلَّ وعلا ـ وهو الذي ليس كمثله شيء، جلَّ عن الشبيه، وعن النظير، وعن المثيل؛ فظهرت فِرْقَةُ المعتزلة، وللأمانة أقول: إن المعتزلة قد وقفوا بشدة وصلابة عجيبة ضدَّ أعداء الإسلام، ولهم جولات وجولات تُذْهِبُ اللبَّ، وترضي الربَّ ـ سبحانه وتعالى ـ فهذا من باب العدل والإنصاف؛ إلا أنهم قد قدَّموا العقل، وغلَّبوه، وجعلوه أساسًا في فهم النصوص؛ فإن وقفوا مع نصٍّ نقليٍّ صحيح حكَّموا فيه العقل، وقدَّموه، وجعلوه أساسًا لكلِّ بحثٍ أو مناظرة؛ فإذا جاء نصٌّ من القرآن أو مِنْ صحيحِ السنة أرهقوه تأويلًا، حتى ينسجم هذا التأويل لهذا النصِّ القرآني والنبوي مع العقل، وأصَّلوا بَعْد ذلك ما وصل إليه العقل، ومن خلال هذا الفهم والمنهج أحدثوا بدعة خطيرة جدًّا في العهد العباسي، ألا وهي: فتنة القول بخلق القرآن التي كانت بلا نزاع سُبَّة الدهر، وتلطخ بها ثلاثة من خلفاء بني العباس على التوالي: هم المأمون، والمعتصم، والواثق، وذلك حينما أراد المأمون الذي اطلع على كثيرٍ من الكتب المترجمة عن اليونان، وأُعْجِبَ بفكر المعتزلة، واصطفى جلساءه من المعتزلة، وكان على رأس هؤلاء: أحمد ابن أبي دؤاد الذي عيَّنه المأمون قاضي القضاة في الدولة الإسلامية، وابنُ أبي دؤاد معتزليٌّ، وتبنَّى فِكْر المعتزلة بَصَلابة وشدة، واطمأن المأمون

تمامًا لآرائه، ومعتقداته، وأفكاره، واعتنقها؛ بل ودافع عنها، وكانت الطامة أنه أراد أن يحمل الناس بما فيهم أهل العلم على آراء، وأفكار، ومعتقدات ابن أبي دؤاد، وتعَرَّض العلماء الأجلاء بسبب ذلك للسجن والتعذيب، ليصبح كلُّ عالم من أهل العلم والفضل على عقيدة ابن أبي دؤاد ليس إلاَّ!!

وكان أول مَنْ قال بهذه الفتنة هو الجعد بن درهم الجهميُّ الجَلْد، الذي قال عنه الإمام الذهبيُّ رحمه الله في «ميزان الاعتدال»[1]: «الجعد مبتدع ضالٌّ، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلِّم موسى تكليمًا».

لماذا؟ لأنه يريد أن يعطِّل صفة الكلام عن الله؛ فيقول: الله ليس متكلمًا، والله تعالى يقول: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤].

وقوله: ﴿تَكۡلِيمًا﴾ مفعول مطلق مؤكِّد للفعل، لكنهم قالوا: لا؛ أنتم جهلاء باللغة وأصول اللغة!، فلقد قرأتم الآية قراءة خاطئة!!إذًا فما هي القراءة الصحيحة عند هؤلاء؟! قالوا: «وكلم الله موسى تكليمًا» فكلَّمَ فعل ماض، و«الله» لفظ الجلالة في محلِّ مفعول به مقدَّم، و«موسى» فاعل مؤخَّر، و«تكليمًا» مفعول مطلق مؤكِّد للفعل، ليثبتوا أن الكلام ليس من الله، وإنما هو من موسى عليه السلام.

قلنا: فماذا تصنعون بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ

---

(١) «ميزان الاعتدال» (٢/ ١٢٥)، ط العلمية.

رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣] .

فهنا لا يستطيع القومُ أن يتفوهوا بكلمة واحدة ، لأن الآية حَجَرُ عثرةٍ في أفواههم .

ثم انظر إلى موقف الجعد من قول الله تعالى : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] قال : لو كان الأمرُ بيدي لحككتها من المصاحف وجعلتها : « الرحمن على العرش استولى » ؛ لينفي عن الله صفة الاستواء !! قبحه الله .

أما المؤمن الصادق الذي يؤمن بما كان عليه الصحابة يقول :

الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

قال تعالى : ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [النحل:٧٤] ، وقال تعالى : ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص:٤] ، وقال تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٠] ، وقال تعالى : ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣] .

فكان الجعد بن درهم هو أول مَنْ قال بهذا القول السخيف ، وأظهر مقالته هذه في أيام هشام بن عبد الملك بن مروان ، فحبسه خالد القسري ، وهو أمير العراق ؛ فلما صلَّى العيد يوم الأضحى خطب في الناس ، وقال خالد : « أيها الناس ، انصرفوا ، فضحُّوا ، تقبل الله منا ومنكم ، فإني

مضحٍّ اليوم بالجعد بن درهم »[١].

وقد استحسن أهل العلم صنيع خالد ـ رحمه الله تعالى ـ ثم تبنَّي هذه المقولة الخبيثة المعتزلة ؛ وعلى رأسهم أحمد بن أبي دؤاد ـ كما بيَّنت.

وقالوا : إنه يستحيل أن يكون القرآن قديمًا !! انظر إلى هذا التأصيل العقلي والعلمي للمعتزلة في هذه القضية ! لكن لماذا يستحيل أن يكون القرآن قديمًا عند هؤلاء ؟ .

والقرآن كلام الله ، وكلام الله صفةٌ من صفاته ، والصفة لا تنفكُّ عن الذات ؛ فالقاعدة تقول : « دلالة أسماء الله تعالى حقٌّ على حقيقة الذات مطابقةً وتضمنًا والتزامًا » .

فاسم الله الرحمن حقٌّ على حقيقة ذات الله مطابقة، وتضمنًا لصفة الرحمة، والتزامًا لصفة الرحمة ، أو لصفات الكمال والجلال الأخرى ، وهذا هو الراجح عندي ؛ لكن هؤلاء يعتقدون استحالة كون القرآن قديمًا ، لماذا ؟

قالوا : لأن الله ﷻ يقول : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة:١٠٦]

قالوا : والنسخ لا يكون للقديم ، وإنما يكون للمحدث ، فيستحيل

---

(١) انظر: «أقاويل الثقات» لمرعي بن يوسف الكرمي المقدسي (٧٧) ، و«مجموع الفتاوى» (١٢/ ٥٠٣، ٣٥٠) (١٣/ ١٧٧) ، (٢٠/ ٣٠٢) ، والدارمي في « الرد على الجهمية » (١٢) ، و« والرد على بشر المريسي » (٣٣٤، ٣٣٥) ، والبخاري في « خلق أفعال العباد » (٣) ، و« التاريخ الكبير » (١/ ٦٤) ، (٣/ ١٥٨) ، والآجري في « الشريعة » (٢١٢٦) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (٥٦٣) ، و« السنن » (١٠/ ٢٠٥، ٢٠٦) ، والذهبي في « العلو » (٣٦٠) ، والخطيب البغدادي في « التاريخ » (١٢/ ٤٢٥) .

أن يكون القرآن قديمًا !

وقالوا في قول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة:٦] . فسيسمع الكلام وقت ما يستجير ، فيكون الكلام جديدًا ، وليس بقديم .

فهكذا أصَّلَ المعتزلةُ هذه العقيدة !! وأرادوا أن يُلْزِموا المأمون بأخذ هذه العقيدة صراحة من كلِّ أهل العلم ، ومن أنكر وخالف يُجلد ، ويسجن ، ويعذب ، ويقتل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ألم أقل إنها فتنة ؟! وثبَّت الله ﷻ في هذه الفتنة إمام أهل السنة ، وقامع البدعة ، وناصر السنة الإمام أحمد بن حنبل ـ طيَّب الله ثراه ـ وقال بلا مواراةٍ : « القرآن كلام الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ ليس بمخلوق » ؛ فأمر الخليفةُ المأمون أن يؤتى له بالإمام أحمد[1] ، فقُيِّدَ الإمام بالأغلال والقيود والحديد !! لماذا ؟ .

لأنه على الحق ، ولأنه قال قولةَ حقٍّ ترضِي الربَّ سبحانه وتعالى ، ولم ينافق ، ولم يداهن أحدًا ـ رحمه الله تعالى.

فلما ذهب الإمام أحمد إلى الخليفة المأمون وهو مقيَّدٌ بالسلاسل

---

(١) انظر هذا في ترجمة الإمام أحمد في «سير أعلام النبلاء» (١١/ ١٧٧) وما بعدها ، و«الطبقات» لابن سعد (٧/ ٣٥٤، ٣٥٥) ، و«التاريخ الكبير» (٢/ ٥) ، «وتاريخ الفسوي» (١/ ٢١٢) ، و«الجرح والتعديل» (١/ ٢٩٢، ٣١٣) ، (٢/ ٦٨، ٧٠) ، «وحلية الأولياء» (٩/ ١٦١، ٢٣٣) ، «وتاريخ بغداد» ، (٤/ ٤١٢، ٤٣٣) «وطبقات الحنابلة» (١/ ٤، ٢٠) «وتذكرة الحفاظ» (٢/ ٤٣١) ، و«العبر» (١/ ٤٣٥) ، و«تهذيب الكمال» (٩٣) ، ط الفكر .

والأغلال قابله رجلٌ من الأعراب من ربيعة ، يقال له : جابر بن عامر فسَلَّم على الإمام وقال له كلامًا في غاية النفاسة ، قال له : يا أحمد إنك وافد الناس ، فلا تكن شؤمًا عليهم ، وإنك رأس الناس اليوم ، فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك حتى لا يجيب الناس بمثل ما تجيب به ، فتحمل أوزارهم يوم القيامة ، وإن كنت تحبُّ الله ورسوله فاصبر على ما أنت فيه ، فإن ما بينك وبين الجنة إلا أن تُقتل وإن لم تقتل تمُتْ ، وإن عشت عشت حميدًا .

فقال الإمام أحمد : فقوَّى كلامُه عزمي على ما أنا فيه ؛ فلما اقتربنا من منزل الخليفة المأمون ، جاء خادمٌ من القصر ، وهو يمسح دموعه ، ويقول : يعزُّ علي يا أبا عبد الله أن المأمون قد سلَّ سيفًا ما سلَّه قبل ، وإنه يقسم بقرابته من رسول الله إن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بذلك السيف ؛ فجثى الإمام على ركبتيه ، ورفع رأسه إلى السماء ، وتضرع إلى الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ وقال : سيدي غرَّ حلمك هذا الجاهل ، وغرَّ حلمك هذا الفاجر ، حتى تجرَّأ على أولئك بالضرب والقتل ، اللهُمَّ إن كنت تعلم أن القرآن هو كلامك ليس بمخلوق فاكفني مؤنته ، واستجاب الله دعاء الإمام ، ولم يقابل الإمام أحمد المأمون ، وبعد ساعات قلائل ، سمع صراخًا في القصر ، وسمع حركة غير عادية ؛ فلما سأل ، كان الجواب .. لقد مات المأمون !!!

واستجاب الله دعاء إمام أهل السنة الطاهر النفس الورع رضي الله عنه وطَيَّبَ ثَراهُ ، ولكنَّ المأمون على فراش الموت قد أوصى لأخيه المعتصم ، ثم

أوصى المعتصم أن يُقدم أحمد بن أبي دؤاد ، وأن يستمر على عقيدته التي كان عليها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فورث المعتصم هذه العقيدة وهذا القول الجريء ، فقبل أن يدخل عليه الإمام أحمد أمر المعتصم بسجنه ، حتى لا يراه ، فسُجِنَ الإمامُ على وَجْه التحديد ثمانية وعشرين شهرًا يناظروه تقريبًا في كل يوم ، ولا يرد إلا بما يعلمه من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، يقول لهم : ائتوني بآية من كتاب الله أقول بها ، ائتوني بحديثٍ عن رسول الله ﷺ أقول به ؛ حتى أمر المعتصم بنفسه أن يجلس في مناظرة من هذه المناظرات ؛ فلما دخل عليه الإمام أحمد هابه المعتصم ، وأمر بفَكِّ قيوده ، وأجلسه إلى جواره ، وأدناه منه ، ثم قال له : اجلس يا أحمد ، وصمت المجلس ، فالتفت الإمام ﷺ إلى الخليفة المعتصم ، وقال له : أتأذن لي في الكلام ؟ فقال المعتصم : تكلَّم يا أحمد ؛ فقال الإمام : إلى ما دعا رسول الله ﷺ ؟ فسكت المعتصم قليلًا ؛ ثم قال : دعا إلى شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ؛ فقال الإمام : وأنا أشهد أن لا إله إلاَّ الله ، وأن محمدًا رسول الله .

ثم قال الإمام للمعتصم : إن جدَّك ابن عباس ﷺ يقول : لما قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ ، فسألوه عن الإيمان ، فقال : الإيمان شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن تعطوا الخُمس من المغنم . ثم التفت المعتصم إلى الإمام ، وقال : والله يا أحمد لولا أني وجدتك في يد من كان قبلي ما تعرَّضتُ

لك ! ، ثم قال المعتصم : يا عبد الرحمن بن إسحاق ألم آمرك أن ترفع المحنة ـ أي : فتنة خلق القرآن ـ فكبَّر الإمام أحمد ، وقال : الله أكبر ، الله أكبر ، إن في هذا لفرجًا للمسلمين إن شاء الله ، ثم قام ابن أبي دؤاد ـ عليه من الله ما يستحق ـ وقال : إنه مبتدعٌ ضالٌّ مضلٌّ يا أمير المؤمنين ، ناظروه ناظروه ، وأغرى المبتدعين بمناظرة الإمام ، والإمام يقول : **ائتوني بآية من كتاب الله لأقول بها ، ائتوني بحديث صحيح عن رسول الله ﷺ** لأقول به ، وأغرى هؤلاء المعتصم بالإمام ؛ فأمر المعتصم الجلاَّد مرة أخرى أن يضرب الإمام أحمد بالسوط في مجلسه ليرجع الإمام عن قوله ، وضُرب الإمام بالسوط حتى أغمي عليه ـ رحمه الله تعالى ـ ويقترب المعتصم منه ، ويقول : لِمَ تقتل نفسك يا أحمد ، والله إني أريد أن أفكَّ القيد عنك بيدي ، وأحمد يردُّ بقوة ويقين ، ويقول : **أعطوني شيئًا من كتاب الله أو حديثًا من أحاديث رسول الله لأقول به** ؛ فظلوا يضربون هذا الجسد المبارك بالسياط حتى أغمي عليه ، يقول الإمام أحمد : فأفقتُ بعد ذلك في اليوم الخامس والعشرين من رمضان في السنة الحادية والعشرين بعد المئتين من هجرة النبيِّ ﷺ .

فأتوه بشراب ، وقالوا : إشرب فإنك ستموت ؟ ، قال : إني صائم ، فقالوا : أفطر فإنك ستموت ؟ ؛ فقال : والله لا أفطر ، فإني أريد أن ألقى الله وأنا صائم ! يا الله .

فخرج الفضلاء والعقلاء من أهل العلم يضجُّون ، ويصرخون حول سِجْن الإمام ، حتى خرج أبو عبيد القاسم بن سلاَّم ، وقال : يُضْرب

سيدُنا ؛ فصاح الناس خَلْف القاسم : يضرب سيدنا ، ويسجن سيدنا !! فخشي المعتصم ثَوْرة الناس ، فأفرج عن الإمام ـ رحم الله أحمد بن حنبل إمام أهل السنة.

ومات المعتصم بعدما أخرج الإمام من السجن ، وتولى الخلافة من بعده ولده الواثق بن المعتصم ، وتبنى الواثق هو الآخر هذه العقيدة الخبيثة ، وأراد أن يَحمِل الناس ـ وعلى رأسهم الإمام ـ على ما كان عليه أبوه ؛ تولَّى الواثقُ سنة سبعٍ وعشرين ومائتين بعد الهجرة ، فرفع هو الآخر لواء هذه المقولة الخطيرة ، إلا أنه خشي أن يتعرَّض للإمام أحمد بعد ما ثار الناسُ على أبيه حينما كان في السجن .

فأمر الواثق بنفي الإمام أحمد ، وأمره أن يخرج من بغداد ، فاختفى الإمام بقية حياة الواثق ، وكانت المحنةُ قد بلغت ذروتها زمن الواثق ؛ فقد كان يُؤتى بالعلماء دون أحمد ليناظرهم في هذه القضية ، فمن قال بخلق القرآن عفا عنه ، ومن قال بغير ذلك ضربه أو سجنه أو قتله !!

وتَدَبَّرْ معي هذه المناظرة التي هي من أروع وأجل المناظرات التي ناظر بها عالمٌ جليل ـ في زمن الإمام أحمد ـ أحمد بن أبي دؤاد .

وهذه المناظرة كانت لرجل من أهل العلم الفحول الكبار إنه أبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد الأذرمي [1] شيخ أبي داود ، والنسائي ؛ كما

---

(١) انظر المناظرة في « تاريخ بغداد » (١٠/ ٧٥) ، وابن الجوزي في « مناقب الإمام أحمد » (٤٣١: ٤٣٦) ، وابن قدامة في « التوابين » (١٩٤) ، والذهبي في « السير » (١١/ ٣١٣) ، والآجري في « الشريعة » (٩١: ٩٥) ، وانظر : «تهذيب التهذيب» (٦/ ٤، ٥) ، وقال الذهبي : « هذه قصة مليحة ، وإن كان في طريقها من يجهل ولها شاهد » .

قال الإمام السيوطيُّ في « تاريخ الخلفاء » وهو أروع من ناظر ابن أبي دؤاد ، ولم لا ؟، وقد جعله الله سببًا في القضاء على الفتنة نهائيًا .

فتدبر معي هذه المناظرة العظيمة الجليلة .

أتوا للواثق بن المعتصم بهذا الشيخ ، وأدخلوه عليه في مجلسه الذي يجلس فيه أحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة ؛ فقال الشيخ لأمير المؤمنين الواثق : يا أمير المؤمنين إن ابن أبي دؤاد يضعف عن مناظرتي ، فثار الواثق وغضب ، وقال : أنت تقول هذا ، أحمد يضعف عن مناظرة مثلك ؟، قال : لا تغضب ، هوِّن عليك ، واحفظ علي وعليه ، فالتفت الشيخ إلى أحمد بن أبي دؤاد ، وقال : يا ابن أبي دؤاد ، أخبرني عن مقالتك هذه ؟ أهي مقالةٌ واجبة داخلة في عقد الدين ، فلا يكون الدين كاملًا حتى يُقال بما قلت بخلق القرآن ؟ فقال أحمد بن أبي دؤاد : نعم هذا أصْلٌ من أصول الدين ! فقال الشيخ : فأخبرني يا ابن أبي دؤاد ، هل كتم رسول الله ﷺ شيئًا من الوحي ؟ قال : لا . فقال الشيخ : فهل دعا رسول الله ﷺ إلى مقالتك ؟ فسكت ابن أبي دؤاد .فالتفت الشيخ إلى أمير المؤمنين ، وقال : واحدةٌ يا أمير المؤمنين . قال : واحدة . ثم التفت الشيخ إلى ابن أبي دؤاد ، وقال : يا ابن أبي دؤاد أخبرني عن قول الله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] أكان الله هو الصادق في إكمال دينه ، أم أنت الصادق في نقصان دينه ؟ فسكت ابن أبي دؤاد ؛ فالتفت الشيخ إلى الواثق ، وقال : اثنتان يا أمير المؤمنين ، قال : اثنتان ، فالتفت الشيخ إليه ، وقال : يا ابن أبي دؤاد

أخبرني هل علم رسول الله ﷺ مقالتك بخلق القرآن أم جهلها ؟ قال : علمها ، فقال الشيخ : دعا الناس إليها ؟ !! . فسكت ابن أبي دؤاد ، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ثلاث ؛ فقال الواثق : ثلاث ، فالتفت الشيخ ، وقال : اتَّسَعَ لرسول الله ﷺ إن علمها أن يمسك عنها ، ولم يطالب أمته بها ؟ فقال ابن أبي دؤاد : نعم .

فقال الشيخ : واتسع لأبي بكر وعمر وعثمان وعليٍّ ذلك ؟ فقال : نعم ، فأعرض الشيخ في المرة الرابعة عن ابن أبي دؤاد ، والتفت إلى أمير المؤمنين الواثق ، وقال له : يا أمير المؤمنين يزعم هذا أنه اتسع لرسول الله أن عَلِمَ هذه المقالة ، واتسع لأبي بكر وعمر وعثمان وعليٍّ أن علموها ، ومع ذلك سكتوا عنها ، ولم يكلفوا الأمة بها ، فإن كان قد اتسع لرسول الله ولأبي بكر وعمر وعثمان وعليٍّ ﷺ أن يمسكوا عن هذه المقالة ـ كما زعم هذا ـ ثم لا يتسع لك أنت أن تمسك عنها ، فلا وسع الله عليك ؛ فقال الواثق : صدقت ، وقام ليقطع القيد ، عن الشيخ المبارك بيده ، فمدَّ الشيخ الكريم يده ، وجمع كلَّ القيد ، ووضعه بين يديه في حجره ؛ فالتفت إليه الواثق ، وقال : لِمَ أخذت القيود ؟ فقال الشيخ : لقد عزمت على أن أضع هذا القيد بيني وبين كفني ، حتى أخاصم بهذا القيد هذا الظالم أمام الله يوم القيامة؛ فأقول : يا رب لم قيَّدوني في هذا ، ولِمَ روَّعوا أهلي ؟ ثم بكى الشيخ ؛ فبكى الواثق ، وسأله أن يجعله في حِلٍّ وأمَرَ له بصلة وعطاء ، فأبى الشيخ أن يأخذ شيئًا من المال ، ثم خرج ، قال المهتدي بن الواثق ـ وكان حاضرًا هذه المناظرة: فرجعتُ عن هذه المقولة ، ورجع

أبي الواثق منذ هذا اليوم بفضل الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ ثم بفضل هذا الشيخ المبارك أبي عبد الرحمن بن محمد الأذرمي رحمه الله وكشف الله الغمة كاملة بموت الواثق ، وخلافة المتوكل سنة اثنتين وثلاثين بعد المائتين من الهجرة ، وكانت خلافة المتوكل نصرة للسنة ، وقمعًا للبدعة ، وكشف الله الغمة ، وكتب المتوكل إلى الأقطار والآفاق ، وأمر ألاَّ يتكلم أحدٌ على الإطلاق في هذه المسألة ، وارتفع قدره عند العلماء ، والمُصلحين حتى قيل أبو بكر في الردة ، وعمر بن عبد العزيز في رد المظالم ، وأحمد بن حنبل في المحنة ، والمتوكل في إحياء السنة وقمع البدعة .

ثم شاء الله ـ جَلَّ وعَلا ـ أن يكرم إمام أهل السنة ، فبعث المتوكلُ إلى الإمام أحمد بن حنبل ؛ ليكرمه ، وكتب إليه رسالة ، وقال فيها : إني أحب أن آنس بقربك ، وبالنظر إليك ، وأن تحصل لي بركة دعائك ، وقد تمنت أمُّ الخليفة المتوكل أن ترى الإمام أحمد بعينيها ؛ فلما أرسلوا إلى الإمام الرباني أحمد بن حنبل ـ رحمه الله تعالى ـ ورأته أم المتوكل من وراء سِتْر رقيق ، قالت لابنها الخليفة المتوكل : الله الله يا بني في هذا الرجل ؛ فإنه ممن لا يريدون ما أنتم فيه ؛ فليس همُّه الدنيا ، وإنما همُّه الآخرة ؛ اتركه يا بني وشأنه ، هذا لا يريد ما أنتم فيه ، فهو الإمام الرباني الزاهد الورع ـ نسأل الله أن يرضى عنه ، وأن يدخلنا وإياه فسيح جناته ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

وهكذا انتهت هذه المحنة العاصفة التي أَقَضَّتْ مضاجع المسلمين ، واحترق بنارها كبار العلماء والمتفقهين والمخلصين ، ثم احترق بنارها

بعد ذلك الحاقدون والمبتدعون والمروجون ؛ فها هو رأس الفتنة أحمد بن أبي دؤاد يُقَالُ من منصبه في عهد المتوكل ، وتؤخذ كلُّ أمواله ، ويصاب بمرض الفالج ، حتى صار ميتًا بين الأحياء ! حُبس في جلده ، حتى ذهب إليه عبد العزيز بن يحيي الكناني صاحب المناظرات الرنانة البارعة ليعوده في مرضه ، وقال له : والله أنا لم آتك عائدًا ، ولكن جئت لأحمد الله ﷻ ، الذي سجنك في جلدك وأنت حيٌّ كما سجنت إمام أهل السنة .

والعجيب أن الإمام أحمد صاحب القلب الكبير ، صاحب النفس الطيبة ، يعفو عن كلِّ من سجنه ، وجَلَدَه ، وآذاه ، ويردِّدُ قول الله ﷻ : ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور:٢٢] .

فيقول : بلى ،والله أحبُّ أن يغفر الله لي ، ثم يقول : ماذا ينفعك أن يُعَذَّبَ أخوك المسلم بسببك ، وقد قال تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشوري:٤٠] .

ولما قيل له : ادع الله على كلِّ من ظلمك ؛ فقال : ليس بصابر من دعا على مَنْ ظلمه ، ولما بلغه أن المعتصم قد فتح عموريه ، قال : بفضل فتحه لها فهو في حلٍّ لكل ما ضربه لي - رَضِيَ الله عن الإمام.

وهكذا يعفو الإمام أحمد عن كلِّ من آذاه ،وعن كلِّ من كان سببًا في فتنتة ؛ لأنه صاحب القلب الكبير .

فأنا أقول دومًا : إن أصحاب القلوب الكبيرة قلَّما تستجيشها دوافع الغلظة والانتقام ؛ بل ترى صاحب القلب الكبير إلى العفو والصفح أقرب منه إلى القسوة والغلظة والفظاظة .

وفي السنة النبوية الكثير من الأدلة على حلْم النبيِّ ﷺ ،ورحمته ، وعفوه، ولِمَ لا ؟ وقد قال الله ـ جلَّ وعلا ـ له : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

[آل عمران:١٥٩]

وأختم بأقوال الأئمة في حقِّ مَنْ ينتقص الإمام أحمد :

قال ابن أبي حاتم ـ رحمه الله تعالى: سمعت أبا جعفر محمد بن هارون المخرمي يقول : « إذا رأيتَ الرجلَ يقع في أحمد بن حنبل ـ فاعلم بأنه مبتدع » .

وقال نعيم بن حماد الخزاعي : « إذا رأيت العراقي يتكلَّم في أحمد فاتهمه في دينه ، وإذا رأيت الخرساني يتكلَّم في إسحاق بن راهويه فاتهمه في دينه » .

وقال سفيان بن وكيع رحمه الله : « أحمد بن حنبل عندنا محنة ، مَنْ عاب أحمد فاتهموه على الإسلام » .

وقال أحمد بن إبراهيم الدورقي : « من سمعتموه يذكر أحمد بن حنبل بسوء فاتهموه على الإسلام » .

وعن أبي الحسين الهمداني ـ رحمه الله تعالى ـ أنه كان يقول : « أحمد بن حنبل محنة به يُعرف المسلم من الزنديق » .

وروي عن مرداويه الصائغ أنه كان يقول : « إذا جاءني من لا أعرف

من أصحاب الحديث أجريت ذكر أحمد ؛ فإن رأيت الرجل يسارع فيه أمنته ، وإن رأيت الرجل يسكت عنه اتهمته » .

فهذه مكانةُ الإمام ؛ ومع ذلك أختم ، وأقول: أحمد بن حنبل بشر يخطئ ويصيب ؛ فلسنا نثبتُ العصمة لمخلوق بعد المصطفى ﷺ ؛ فيا من تتعصبون للإمام ، رويدًا رويدًا ؛ فإن تعصبكم البغيض الأعمى للإمام يخالفُ مذهبه ، ويخالف منهجه ؛ فلقد كان الإمام يدورُ مع الحق حيث كان ؛ فأرجوا ألا يُفهم من ذلك أننا نقول بالعصمة للإمام أو لغيره من الأئمة ! لا ؛ بل إننا نعتقد اعتقادًا جازمًا أن الأئمة ابتداءً من الصحابة إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها بشرٌ يصيبون ويخطئون ، وكلٌّ واحد منهم يؤخذ من قوله ويردُّ عليه إلا المصطفى ﷺ ؛ فهو الذي يؤخذُ منه ، لا يرد عليه ، قال تعالى : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣، ٤] .

يقول ابن تيمية رحمه الله[1] : « فمن تعصَّب لواحدٍ من الأئمة بعينه ، فهو بمنزلةِ مَنْ تعصَّب لواحدٍ من الصحابة بعينه دون الباقين ، كالرافضيِّ الذي يتعصب لعليٍّ دون الخلفاء الثلاثة ، وجمهور الصحابة ، وكالخارجيِّ الذي يقدح في عثمان وعليٍّ ، وهذه طرق أهل البدع والأهواء » .

ولله درُّ الشاطبيِّ رحمه الله[2] : إذ يقول في كتابه الماتع « الاعتصام » : « ولقد زلَّ أقوامٌ بسبب الإعراض عن الدليل والاعتماد على الرجال ؛

(١) « مجموع الفتاوى » (٢٢/ ٢٥٢).

(٢) « الاعتصام » (١/ ٥٣٦).

فخرجوا بسبب ذلك عن جادة الصحابة والتابعين، واتبعوا أهواءهم بغير علم، فضلُّوا عن سواء السبيل».

فيا أخي المسلم لا تتعصب لإمام من الأئمة تعصبًا بغيضًا أعمى؛ بل تعصَّبْ للحق على أي لسان، وقِفْ مع الحقِّ حيثُ كان، ودُرْ مع الحق حيث دار، وهذا مذهبُ أهل العلم في كل زمان ومكان.

فلقد قال كلُّ الأئمة: إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي؛ قالها الشافعيُّ، وأحمد، وأبو حنيفة، ومالك، وما أجمَلَ قولَ الشافعيِّ: «إذا خالف قولي قول رسول الله ﷺ، فاضربوا بقولي عرض الحائط».

ولله درُّ ابن تيمية؛ إذ يقول[1]: «ليس لأحدٍ أن ينصب للأمة شخصًا يدعو إليه، وإلى طريقته، ويوالي ويعادي عليها غير النبيِّ ﷺ، وليس لأحدٍ أن ينصب للأمة كلامًا يدعو إليه، ويوالي ويعادي عليه غير كلام الله ورسوله، وما اجتمعت عليه الأمة».

*****

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ١٦٤).

فهرس المجلد الثالث

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

*****


www.ibtesama.com
مجلة
الابتسامة
www.ibtesama.com
www.ibtesama.com


Exclusive
For
www.ibtesama.com
حصريات مارس 2013